

محمد لطيف جعفر

تأليف

فلاسفة الإسلام

في المشرق والمغرب

الكندي - الفارابي - ابن سينا -
الفنبري - ابن قباچه - ابن طفيل

ابن رشد - ابن خلدون - اخوان الصفا -
ابن الهيثم - ابن القرني - ابن مسكويه

المكتبة العاصية

تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب

الكِنْدِي - الفارابي - ابن سينا - الغزالي - ابن باجة
ابن طفيل - ابن رشد - ابن خلدون - اخوان الصفا
ابن الهيثم - محيي الدين بن العربي - ابن مسكويه

تأليف
محمد لطفى جمعه

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

« ليس خطابي في هذا الكتاب
لجميع الناس ، بل خطابي لرجل
منهم يوازي ألف الرجال ، بل
عشرات ألف رجال ، اذ كان
الحق ليس هو بأن يدركه الكثير
من الناس ، لكن هو بأن يدركه
الفهم الفاضل منهم . »
مذكرات شخصية
لابن الهيثم
المتوفى سنة ٤٣٠ هـ .

مقدمة وتمهيد

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله

ترجع فكرة تأليف هذا الكتاب الى نحو عشرين عاماً مضت ، منذ كنت ألتقى العلم في مدرسة ليون الجامعة ، وفي تلك المدينة الجميلة المظمنة ، دونت أوائل تلك الفصول ، وقد صحبته الأمانى و « الكراسات » في سائر أسفارى بين ليون وجنيف ولندن وفيرنزة (فلورنسا) ، ومرت علينا معاً فترة الحرب العصيبة وأنا في صحبة هؤلاء الفلاسفة الاثنى عشر ، نهض نارة ونرجو رؤية النور والضياء ، وطوراً نرقد في مثار النقع نسمع صدى صوت المدافع في الفضاء . الى أن شبأت الأقدار أن يلبس هؤلاء الحكماء المتقدمون ثياب الظهور في عالم الوجود المادى ، فلم أشأ أن أطيل حبسهم فاسلمت يدي تلك الأوراق ، التي ادسبحت في نظرى « معتقة صفراء » دقيقة الجسم ضخمة البخار ، وهكذا برز الى عالم البعث والنشور اثنى عشر فيلسوفاً من المشاركة والمغاربة ، وقد تذر كل بالقباء أو المرقعة أو المسوح أو الدراعة أو الجبة التي تليق به لدى مثوله بين أيدي قراء هذا الزمان

قالى الأمام أيها السادة الحكماء ! ولا تعتبوا على هذا الضعيف ، الذى الجأكم الى الخروج من كهف الماضى السحيق ، ودعاكم الى الظهور بعد الخفاء ، فى عالم الهدوء والسكون الى عالم الجلبة والضوضاء . فان معظم أهل هذا الزمان لم يشرفوا بمعرفتكم ، وسوف تقع أسماؤكم وألقابكم وكنائكم من أسماعهم وقع الشيء الجديد الغريب ، وسوف يجادلون فى حقيقة وجودكم وفى قيمة أفكاركم ، وينكرون عليكم آراءكم التي ييضتم سواد لىالى أعماركم فى تصورهما ونحويرها ، وتهذيبها وتحريرها ، وسوف يمر البعض بكم متعجباً من هؤلاء الفلاسفة المتقدمين الذين عاشوا وتأملوا وفسروا الكون ، وعللوا الحوادث قبل كانت ، ونيثشه ، وشو بنهور ، وسبنسر ، وستوارت ميل ، وأوجست كومت ، ورينان

ولن يخطر ببال هؤلاء القارئین المتعجبين أنه لولاكم ، أيها الفلاسفة الأعزة ! من الكندي ، الى ابن رشد ، لم يكن لفيلسوف أوروبى حديث أن يظهر فى عالم الوجود ، وأنكم أنتم الذين حفظتم تلك الشعلة المقدسة التى خلفها سقراط وأفلاطون وأرسطو ، فى مغاور الماضى السحيق ، وزدتموها نارا حتى أسلمتموها مضئئة وهاجة الى فلاسفة أوروبا المحدثين ، وكنتم لتلك الشعلة الالهية كراما حافذين .

على أن أقداركم لم تخف على علماء أوروبا وكتابها ومؤرخيها فقد عني مئات من مؤلفي تلك القارة السعيدة بالبحث عن آثاركم وتدوين أخباركم ونشر أفكاركم التى هى من أغلى وأثمن الحلقات فى سلسلة التفكير الانسانى ، فحرصوا على مخطوطاتكم وبالغوا فى رفع قيمتها وفى السعى لاقتنائها ولم يرضوا بالمال والعمر والعلم فى سبيل أحياء ذكركم ، فاستفادوا من وراء بحثهم وتنقيحهم وربحت تجارتهم ! ولكن الذى أنكركم أو على القليل شك فى وجودكم العقلى وخطأ من أقداركم هم أحفادكم وأخلافكم وورثة حكمتكم واخلق الناس بالمحافظة على ذكركم وتجييد أعمالكم وهم الذين يقرأون ويكتبون ويفكرون بتلك اللغة العربية التى دوتم بها كتبكم الخالدة فى بغداد ودمشق ومصر والمغرب ، والأندلس ، ويسأل هؤلاء الورثة الذين لا يستحقون تلك التركة الثمينة :

هل لنا حقاً أجداد فى الفكر والعقل ؟

وهل لهؤلاء الأجداد قيمة ، فى ميدان العلم الحديث ، وأن كتبهم ؟ وما مكاتبتهم بين ظهرائى الفلاسفة الذين تقرأ تراجمهم ونرى صورهم ونعثر بشذور من أقوالهم فى الكتب والمجلات والصحف ؟

ولأجل الإجابة على هذه الأسئلة الثلاثة الفت هذا الكتاب ، للتدليل على فضل هؤلاء المتقدمين ، ولتعيين مكاتبتهم على حقيقتها بين فلاسفة العالم ، ليعلم المرتاب والمتردد والمقلد أن تلك المدنية العظيمة التى ظهرت فى الوجود منذ أربعة عشر قرناً ، لم تكن مدنية حرب وطعن ومادة ، بل كانت مدنية عقل وعلم وفكر عميق ، وان تلك المدنية التى نشأت فى قلب الصحراء ونشرت أجنحتها الى أفاصى الصين شرقاً وأقاصى أوروبا وأفريقيا غرباً ، لم تكن مدنية السيف والمدفع بل كانت مدنية القلم والقرطاس والكتاب ،

وان عقيدة هؤلاء الفلاسفة لم تمنعهم من الدرس والبحث والتنقيب عن الحقيقة بل أن تلك العقيدة نفسها هي التي استحثتهم على السير في جميع دروب الفكر البشري فكانت الحقيقة ضالة كل منهم ينفق العمر والمال والفكر في إقتفاء أثرها ويلتقطها أنى وجدها ، وان هؤلاء الأقوياء من أصحاب التيجان والعروش بذلوا أنفوس وأعز ما كان لديهم من المال والجاه والنفوذ في إيجاد الفلسفة في بلاد الشرق العربي والغرب الاسلامي وان من حث على العلم هو تلك العقيدة التي ظهرت في الصحراء على لسان (محمد) وأول من شجع على نشر الحكمة هم هؤلاء الخلفاء والملوك من الغزاة والمجاهدين من ذوى قرباه وخلفائه وصحابته والتابعين

وأجدر الناس بتفهم هذا القول هم الفريق الذين ظهوروا في الزمن الأخير بمظهر تمحيير الفكر الشرقى الاسلامي والخط من أقدار رجاله المتميزين والطعن على علومهم وآدابهم وحكمتهم والانتقاص من آثارهم التي كانوا بها يهتدون ، فهذا الفريق من الخلق يعمل على هدم آثار السلف الصالح في العقل والفكر بمعول التعصب الذميم والمنفعة المادية ، وإلا فكيف يستبيح أديب أو أريب أو عالم أن يقلل من قيمة أسلافه في الثقافة الانسانية ؟ وهل استباح كاتب أوروبي من الذين يدعى هؤلاء الناس تقليدهم ، لنفسه الخط من قدر أسلافه في العلم والفلسفة لمجرد قدمهم ومضى الأجيال الطويلة على اختفائهم من عالم الوجود المادى ؟

بل الأمر على النقيض ، إذ نرى النوابع من الكتاب والمؤلفين يعملون أبداً على إحياء سير الأقدمين والاشادة بذكركم ونشر كتبهم وتزيينها وشرحها وتفسيرها ومحاولة رد معظم الفضل في الحياة العقلية الحديثة اليهم . ولا يوجد فيلسوف أوروبي لم يكن له « مثل أعلى » من هؤلاء الحكماء الأقدمين يحذو حذوه وينسج على منواله ويستضيء بنوره ، وهم دائماً دائبون على إحياء أعياد موالدهم وتخليد ذكر أيامهم الكبرى بظهور مؤلفاتهم وعرفان جميلهم وفضلهم على الانسانية .

ومن هؤلاء القوم فريق يدعون أنهم مجددون ويذمون كل قديم لمجرد قدمه ويتهمسون بعبادة كل جديد لمجرد جدته ، على أنهم لو عقلوا لعلموا أن من لا قديم له

لاجديده ، وان الشرف والنبل يرجعان الى عراقة الأصل ، وان أفخم البنيان يشاد حتما على أمتن أساس ، فكيف يكون لهم عماد دوزن أن يتصلوا بأثار الأجداد والأمة التي لا ماضى لها ليس لها حاضر ولا مستقبل ؟

على أننا لا نعتبر « الاسلام » في تسمية هذا الكتاب الضئيل ديناً أو عقيدة حسب ، بل نعتبره مدنية كاملة شاملة ، حافلة بكل معاني الحياة العقلية والثقافة الأدبية ، وعلى هذا القياس الصحيح يكون الفلاسفة الاسرائيليون والمسيحيون ، بل أحرار الفكر ممن نشأوا وترعرعوا في كنف المدنية الاسلامية حكماء اسلاميين بحكم الفكر والوسط والثروة العقلية المشتركة ، وعلى هذه الخطة الحكيمة سار الخلفاء العباسيون والأمويون والفاطيون في المشرق والمغرب ، فكتبوا الكتاب والمفكرين والأدباء من غير المسلمين ودونوا لهم الدواوين ، وقلدوهم أسمى مناصب الدولة ، وهؤلاء الخلفاء العظماء شرحوا صدورهم وفتحوا قصورهم للفلاسفة من أهل سائر الأديان ، بينما كان امبراطرة وملوك وأمراء غيرهم في ممالك أخرى يصلبون ويعذبون ويشنقون ويحرقون رجالاً ثبتت لهم العبقرية في الفكر والزعامة في العلم فيما تلا من الأيام

وسوف يجد القارىء بين دفتي هذا الكتاب فصلاً مسهباً في الصوفية بمناسبة ترجمة الشيخ « محي الدين بن العربي » الذي قد يتردد بعض المؤلفين في وضعه في صف الفلاسفة على أنهم لا يترددون في عد الغزالي فيلسوفاً لمجرد كتابته في الفلسفة ، بغض الطرف عن الغاية التي كان يقصد إليها ، على أن ابن العربي أحق بوصف الفيلسوف من الغزالي ، لأن التصوف نوع من الفلسفة إذ هو يرسم خطة للحياة الانسانية وصاحبه يبحث عن الحقيقة ويسعى في حل لغز الحياة وتفهم أسرار الكون ، ولا تخرج الفلسفة في أكل معانيها عن حدود هذه الغايات ، فضلاً عن أن ابن العربي تفرغ لمباحثه وأخلص فيها ودق وحقق ، وأمعن وتعمق ، ووقف حياته ووجوده على غرض واحد لم يتعمده ، وقد بلغ فيه درجة من أسمى الدرجات ، بل أن الكتاب الوحيد الذي اشتهر به سيدنا حجة الاسلام الامام أبو حامد الغزالي وهو « احياء العلوم » يعد في نظر الكثيرين من الاخصائيين في الدرجة الثانية بالنسبة لكتاب « الفتوحات المكية »

تأليف ابن العربي . وقد كانت لمحيي الدين شخصية مدركة متميزة ، سادت تاريخ التصوف الاسلامي الحديث ، لأنه المحيي غير مدافع ، والشيخ الاكبر دون منازع عند أهل السنة من العرب والترك ، وعند أهل الامامة من الفرس .



ولما كان العرب واليهود فرعين لدوحة واحدة هي الدوحة السامية ، والشعبان متفقين أصلاً ومدينة وتاريخاً ، ويكاد اللسانان العربي والعبراني يتحدان ، ولولا ما امتازت به اللغة العربية من ظهور لهجة قريش وقدرتها على الحياة كانت مناحي الفكر لديهما متحدة

بيد أن الفرق بين الشريعتين الموسوية والمحمدية، قد ظهر ظهوراً جلياً في قابلية كل منهما في البحث الفلسفي ، وقد ظهر في كل عهد من العهود نوابغ اسرئيليون يعدون في مقدمة الشعوب التي ينتمون إليها وطناً لا عقيدة ، وفي عصرنا هذا عبقريون منهم أحياء ومنهم من قضى أمثال « كارل ماركس » و « اينشتين » و « برجسون » وعشرات لهم في عالم الفكر البشري ذكر باق

وقد حصر حكماء بني اسرائيل همهم في العصور الأولى لظهور ملتهم في التهديد والوعيد وتعليم الحكمة الربانية وقالوا بوحداية الله ووحدة خلقه ووحدة سائر الكائنات . فكان بحمهم قاصراً على الذات ولم يتعد إلى الصفات التي يعتبرها فلاسفة الاسلام مظاهر للذات ولم يتجه نظر أحد من هؤلاء الحكماء إلى البحث في علم النفس البشرية وحقيقتها فكان فاسقهم كانت عبارة عن الاعتقاد المطلق بالله بدون بحث علمي أو طريقة فلسفية . مع أن مصادر العلوم الربانية والنفسانية كانت متوافرة لديهم في كتب الهنود والأغريق .

لم يعرف فلاسفة اليهود علم المنطق ولم يسلكوا سبيل البراهين والأدلة والحجج أو أنهم عرفوه ولم يلجأوا إليه واكتفوا في تأييد آرائهم بالاسناد إلى الوحي أما عن نظرية الخير والشر في الحكمة الاسرائيلية فقد قال فلاسفة اليهود « إن الله سبحانه هو خير محض ولا يصدر عنه إلا الخير » وأثبتوا ذلك أو حاولوا إثباته بما ورد في

الكتاب المقدس . أما الشر فقالوا أنه من صنع البشر وأنه ثمرة لتغلب المادة على العقل أو انتصار مبدأ المادة على مبدأ العقل . وقد نسبوا الشر للإنسان خشية أن يؤدي بهم الكلام فيه إلى الخروج . وقد أدّت بهم نسبة صدور الشر إلى الإنسان إلى القول بأنه حرٌّ في ارادته وتصرفاته ويجب عليه أن يجعل أعماله منطبقة على مبدأ الخير الاسمي لئلا يقهره المبدأ المادى فيصير أسيراً للشر وهذا هو مبدأ حرية الارادة المعروف لعهدنا هذا باسم (Libre Arbitre) أو مبدأ الخيار في الحياة باعتبار الانسان مخيراً لا مسيراً . على أن مبدأ الخيار في الحياة لم يظهر في الفلسفة الحديثة إلا بعد تطاحن أجيال في العقائد والأفكار ولكن اليهود لم يكفوا أنفسهم مشقة البحث بل استندوا إلى نصوص من الكتاب المقدس (التوراة) حيث جاء بقول صريح على لسان الله في مخاطبة الانسان : « أنظر ! قد جعلت اليوم قدامك الحياة والخير ، والموت والشر » .

ومعظم هذه الحال راجع إلى مزاج النفس « السامية » التي صدق (رينان) كثيراً في وصفها في عرض كلامه في كتابه الممتع في « تاريخ اللغات السّامية »

والمشاهد عند حكماء اليهود ، الذين لا يمكن أن نطلق عليهم اسم الفلاسفة ، أنهم كانوا اذا اقتربوا من النظريات الفلسفية المحضة يرجعونها إلى دائرة الدين ، ويعملون الحكم فيها وعليها فوق مدارك العقل البشرى

ونجد هذه الحال ممثلة أجلى تمثيل في سفر أيوب ، من أسفار « العهد القديم » اذ اجتمع الحكماء وأخذوا يبحثون في مسألة العناية الالهية والقضاء والقدر ، فظهر الله في عاصفة لأيوب وأظهر له قصر المدارك البشرية عن الوقوف على أسرار الطبيعة ورفع الستار عن وجه الحقيقة واكتناه حكمة القضاء ووجوب خضوع الانسان بعد إقراره بعجزه لله والتسليم بارادته مما يؤدي بتوجيه القضايا الفلسفية نحو جهات الاعتقاد

يبد أن امتزاج اليهود بأهل بابل والفرس والكلدان ساعد على تأثر الحكمة الاسرائيلية بأفكار وعقائد هؤلاء الغزاة الذين هم من جنس (آرى)

فان الفرس يقولون بوحداية الله ، ويغضون الوثنية كما ورد في كتابهم (الزندافستا) على أن الفرس وإن كانوا من جنس آرى فان اسبويتهم (نسبتهم إلى أسيا)

تغلبت على آريتهم فلم يبلغوا من الفلسفة شأواً يستفيض منه نور على عقول حكماء
بنى اسرائيل ، فبقيت كتب هؤلاء بعد تقربهم وامتزاجهم بالفرس خالية من المباحث
النظرية وما وراء الطبيعة خلوها من ذلك من قبل

وما زال اليهود على ذلك الجمود الفلسفي والاكتفاء بالبقاء في دائرة الدين إلى أن
تغلب اليونان على سوريا ، وانتشرت فيها فلسفتهم وآدابهم ، فأدركت اليهود الغيرة
من علو كعب فاتحي بلادهم في المباحث التي لم يطرقوها ، على أنهم لم يجزأوا على البحث
الحر الصريح القوي ، بل عادوا إلى الكتب المقدسة يشرحونها معتمدين في ذلك على
بعض مبادئ الافلاطونية المستحدثة التي كانت مزهرة في الاسكندرية ، فلم يتعدوا
أفكار فيثاغورس وافلاطون

وقد أدخل بعض حكمائهم في روعهم أن لعقائد بنى اسرائيل أثراً في تكوين آراء
أكابر الفلاسفة اليونان أمثال فيثاغورس وافلاطون وارسطوطاليس ، لأنهم في زعمهم
مروا في أسفارهم على بلاد بنى اسرائيل وأخذوا العلم والحكمة عن حكمائهم

وكان بين طوائف اليهود طائفة تشبه الصوفية عند المسلمين ، وهم الذين نبغوا من
الفريسيين ، وكان مذهبهم القول بالمبادئ والآداب والفعل بها ، كالزهد والعفة
والتقشف والتقوى ونبغت طائفة أخرى وهي الصدوقية لكنها شطت وجمعت ، فانكر
ذووها خلود النفس وتدخل العناية الالهية في أعمال البشر معتمدين في هذا الإنكار على
أنه ينافي نظرية الاختيار الانساني

ونشأت من فرقة الصدوقية فئة اسمها الأسينية (من المواساة والطب) وقد جعلوا
فلسفتهم نوعاً من الاشتراكية ، وعاشوا بمقتضى مبادئهم ، كتبادل الحب بين الافراد ،
وبغض الملاذ ، والتغلب على هوى النفس ، واحتقار الغنى ، ولا يزال في أرض فلسطين
إلى الآن وقبل ظهور « الصهيونية » بمظهرها الأخير في ظلال نظرية « الوطن القومي »
مستعمرات اسرائيلية تسير على مبدأ تلك الفرقة ، بعد أن عفت آثارها ، واطتعت
أخبارها إلا من الكتب

وقد قاسى اليهود من الظلم والاضطهاد فى عهد الرومان والقرون الأول من العصر الدينى الأوروبى ما أضعفهم واطفأ شعله ذكائهم ، فانصرفوا إلى المجادلات الدينية والمجاهدة فى سبيل البقاء فى أقطار العالم بعد أن ذهبت دولتهم وتشتت شملهم وفقدوا عاصمة ملكهم لذا تجد (المشنة) و (التلمود) خاليتين من الابحاث الفلسفية أو الكلام فيما وراء الطبيعة

وما زال اليهود كذلك من الجهة العقلية حتى نزحوا الى بلاد العرب قبل الاسلام فطابت لهم الاقامة فى الجزيرة العربية فى عهد الجاهلية ، وتوافرت بينهم وبين تلك القبائل أسباب الألفة لما بين اليهود والعرب من روابط الجنس السامى ، واللغتين العربية والعبرانية اللتين هما من فصيلة واحدة



ولما ظهر الاسلام لم تكن وطأته ثقيلة على اليهود فانتعشوا ، وانصرف فريق منهم الى الاشتغال بالعلم والأدب ، ثم علا نجمهم فى صدر الاسلام اذ أصبح كثير من نابغهم موضع ثقة الخلفاء وعنايتهم أمثال سعيد بن يعقوب الفيومى وصموئيل بن حنفى

وكان سعيد بن يعقوب الفيومى المذكور ، ويعرفه اليهود باسم سعدية بن يوسف المصرى ، رئيس مدرسة (سورا) القرية من بغداد ، وهو أول من ألف من اليهود كتاباً باللغة العربية ونشره فى موضوع العقائد والعقليات ، ومحور هذا الكتاب الذى يعد فتحاً جديداً لليهود ، كما يعد دستوراً لفرقة الربانة وأصحاب التلمود ، وجوب اتباع أحكام العقل فى العقائد وجواز فحص القضايا الدينية ، لأن العقل الصحيح خليق بأن يرشد صاحبه الى الحقائق التى ينقلها الوحي الى أصحاب النبوة ، وان تعليل الوحي هو الرغبة فى وصول الانسان بسرعة الى ادراك الحقائق العليا التى لو ترك البحث فيها للعقل وحده لاحتاج فى الوصول اليها وادراكها لعناء عظيم وزمن طويل

ونحن نعد سعيداً بن يعقوب هذا من فلاسفة الدنيا بحق ، ولكنه لم يعيش حتى يدرك ازدهار الفلسفة العربية فى بلاد الأندلس ، التى كان من أثرها فى يهود اسبانيا أنفسهم ، أنهم ثاروا على مدرسة (سورا) وأرادوا أن يستبدلوا بها مدرسة جديدة

يجعلونها في قرطبة ، وطن ابن رشد ، ويلقنون فيها ، على أيدي رجال من خيار علمائهم ،
العلوم والفلسفة وفنون الأدب ، التي أهملها يهود الشرق

فقامت تلك المدرسة في قرطبة فعلاً ، وأما الطلاب من كل فج عميق ، ونبغ منها
بعض الأساتذة الذين ألفوا في فلسفة المشائين اليونانية ، ولا تزال بعض كتبهم في
مكاتب أوروبا ، وللخليفة عبد الرحمن الثالث معظم الفضل في نفع هذه المدرسة
وتعظيم شأنها

ومن فطاحل من نبغ في هذه المدرسة ، وقد ورد اسمه مراراً في هذا الكتاب ، وفي
كتاب الاستاذ الاسرائيلي « منك » الحكيم موسى بن ميمون المعروف عند كتاب
الافرنج بميمونيد وهو من أهل القرن الحادي عشر للمسيح ، ويرجع الفضل في تثقيفه
وتهذيبه الى حكماء العرب ، بل انه نسج على منوالهم في رغبته في الجمع بين فلسفة
ارسطوطاليس والشرعية الموسوية مع اخضاع النظر لأحكام العقل والمنطق ، وقد
اضطهد المسيحيون الاسبان هذا الحكيم الاسرائيلي فيمن اضطهدوا من اليهود بعد
زوال دولة العرب ، فلجأ الى مصر في عهد السلطان المجاهد فخر الاسلام صلاح الدين
الأيوبي ، فعرف قدره وقربه وجعله طبيبه الخاص ولا غرابة فان هذا الحكيم كان
يسمى موسى الثاني أو أفلاطون اليهود

لقد اعتبر كثير من علماء المشرقيات دين الاسلام مدنية ذات يقظة ونهضة ووثوب
بدأت بظهور الاسلام ونمت في ظل فتوحه واستكملت قوتها بعد أن شملت كثيراً من
شعوب الشرق والغرب ، هذا لأن الكتاب المنزل علي أفصح العرب لم يكن كتاب
دين حسب بل انه كان مصدراً ومرجعاً لنحو ثلثمائة علم في الشرع ، واللغة ، والتاريخ
والأدب ، والطبيعة ، والفلك ، والفلسفة ، وغيرها ومعظم تلك العلوم نشأ من القرآن
نفسه واستنبطه العلماء من نصوصه وكثير منها تولد خدمة للقرآن ويسمى هذا النوع
من العلوم « وسائل » أو « وسائل »

وقد كان لذلك الكتاب أثر شديد في أصحابه ، وقد شمل شريعة ، وقانوناً ، وأنظمة

سياسية واجتماعية ومدنية ، وشئ من هذا لم يوجد في كتاب سواه بل ان غيره من الكتب ينطوى على تعاليم لمصلحة الحياة الآخرة

وكثير جداً من نصوص الكتاب المنزل على أفصح العرب يبحث أصحابه على طلب العلم والنظر والتأمل والتفكير في خلق السموات والأرض ، وأنظمة الكواكب والأجرام العلوية واختلاف الليل والنهار ، وتغير الرياح ، وعجائب البحار ومعجزة خلق الانسان وتطوره وتميزه بالعقل والادراك وتفضيله على سائر الكائنات وتسخير الجماد والنبات والحيوان لخدمته فيما ينفعه ويرقى شئونه في سائر ناحيات الحياة المادية والأدبية عدا عما ورد في هذا الكتاب من حوادث التاريخ وأخبار الأمم البائدة والباقية ، فكان من المحتم أن تتفتح أذهان تلك الأمم التي انتحلت هذه العقيدة ، واهتدت بهدى كتابها وفي معترك تلك الحياة الغنية بالفكر والعلم والتأمل وتنازع البقاء بين القديم والجديد ولدت الفلسفة الاسلامية فكان الفرق بين اليونان والعرب ، أن اليونان تفلسفوا في وثنياتهم فلما دانوا بدين منزل هو المسيحية السمحاء زالت فلسفتهم وانقرض حكمائهم لشدة المعارضة بين عقيدتهم الجديدة والفلسفة ، أما العرب فقد كانوا في جاهليتهم ووثنياتهم أبعد الناس من الفلسفة مع معاصرتهم لليونان من أقدم الأزمنة ، فلما جاءهم الكتاب المنزل على أفصح العرب أخرجهم من ظلمات الجاهلية والوثنية ومن دياجير الجحود الفكرى أيضاً وحثهم على الدرس والبحث والنظر ومهد لهم سبيل الفلسفة

وانقضى القرن الأول وثلث القرن الثاني من صدر الاسلام في الاستعداد والتجهيز الى أن جاء العصر العباسي الأول الذي يعد العصر الذهبي للإسلام وقد دام مائة عام من ١٣٢ هـ الى ٢٣٢ هـ وفي هذا العصر الذهبي بلغت دولة الاسلام قمة مجدها في المدنية والغنى والسيادة ، وفي تلك المائة نشأ معظم العلوم الاسلامية ونقلت العلوم الأجنبية الى اللغة العربية ، وكانت بغداد في ذلك العهد أشبه بباريس في عهد لويس الرابع عشر ، فكانت قصور الخلفاء آهلة بالعلماء والأطباء والأدباء والشعراء ، وكانت سيادة العباسيين على العالم الاسلامي شاملة سائر الأقطار وكانت أوربا في ذلك الوقت

وهو النصف الأخير من القرن السابع والنصف الأول من القرن الثامن في غياة الجهل والوحشية حتى ان مؤرخي أور بأنفسهم يسمون هذا العصر وما سبقه وما لحقه بالقرون المظلمة (The Dark Ages)

على أن نهضة الاسلام لم تكن قاصرة على الأمم التي اعتنقت هذا الدين بل كانت النهضة شاملة للشرق كله ، كأن المبعث هز أركان ذلك الجزء من الكرة الأرضية فهب من سباته الذي مضت عليه الأجيال المتراكمة وأخذ ينفذ عن نفسه غبار خمول الأجيال السابقة ، فنهض الفرس والترك والتتار والهنود حتى أهل الصين واليابان فانهم هبوا للإصلاح الأدبي في أثناء ذلك العصر العباسي أو بعده بقليل ، فكانت حركة الاسلام كهزات الزلازل تسير في مناطق معينة وتنقل في دوائر محدودة ولا يزال مؤرخو الآداب الصينية يذكرون نهضة فحول شعرائهم في القرنين التاسع والعاشر للمسيح في عهد امبراطورهم ابن السماء « تنغ » واشتغل اليابانيون في ذلك العصر أيضاً بتهديب اللغة اليابانية وتنظيم الآداب الاجتماعية وظهرت فيهم عبقرية الفنون ، فكان منهم الشعراء والأدباء والمصورون والمثالون

وهكذا ما فتىء المشرقان الأقصى والأدنى يتأثران بحركة النهضة التي تظهر في أحدهما فيكون لها صدى في الآخر ، وما صدق على القرن التاسع المسيحي ، صدق أيضاً على نهضة القرن التاسع عشر في الشرقين الأقصى والأدنى

ومن مميزات هذا العصر العباسي اشتغال الخلفاء والأمراء بالعلم والأدب ، وأخبار المنصور والرشيد والمأمون وأقاربهم ووزرائهم وشعرائهم تملأ كتب الأدب والتاريخ العربي فكان من حياتهم أعظم دافع لاشتغال الرعية بطلب العلم والنبوغ فيه

ومن مفاخر هذا العهد اطلاق الفكر من قيود التقليد حتى تعددت البدع وتفرقت الفرق ، وكثرت النحل ، وكان أكثر الخلفاء تسامحاً في الدين ، المأمون الذي بلغ به تسامحه أنه انتصر للمعتزلة في القول بخلق القرآن ، وكانت الأفكار من حيث الدين مطلقة الحرية لا يكره الرجل على معتقد أو مذهب ، وقد اجتمع ستة اخوة « لأبي جعد » اثنان منهما يتشيعان ، واثنان مرجئان ، واثنان خارجيان وكلهم تحت سقف واحد

أما الخلفاء الذين اهتموا بنقل العلوم الأجنبية أو الدخيلة من اليونانية والفارسية والسريانية والهندية فهم : المنصور وكان اهتمامه بالفلك والطب ، والرشد وقل في أيامه كتاب « المجسطى » في الرياضيات ، ثم المأمون وهو الذى اهتم بنقل الفلسفة والمنطق بصفة خاصة وسائر العلوم بصفة عامة ، وقد بلغت الكتب التى نقلت فى ذلك العصر مئات أكثرها من اليونانية منها :

٨ - فى الفلسفة والأدب لأفلاطون ١٩ - فى الفلسفة والمنطق لأرسطو

١٠ - فى الطب لابقراط ٤٨ - فى الطب لجالينوس

٢٠ - (وأكثرها فى الرياضيات والفلك) لاقليدس وأرخميدس وبطليموس وغيرهم
٢٠ - من الفارسية فى التاريخ والأدب

٣٠ - من اللغة السنسكريتية فى الرياضيات والطب والفلك والأدب

٢٠ - عن السريانية والنبطية ، فى الفلاحة والزراعة والسحر والطلاسم

٢٠ - عن اللاتينية والعبرانية فى مختلف العلوم والآداب والفنون

أما الذين نقلوا تلك العلوم من اللغات الأجنبية الى العربية فهم :

١ - آل بنخيشوع من أولاد جرجيوس بن بنخيشوع السريانى النيسطورى ،
طبيب الخليفة المنصور

٢ - آل حنيز سلالة حنين بن اسحاق العبادى شيخ المترجمين ، وهومن نصارى الحيرة

٣ - حيش الأعمى الدمشقى ابن أخت حنين

٤ - قسطا بن لوقا البعلبكي من نصارى الشام

٥ - آل ماسرجويه اليهودى السريانى ٦ - آل ثابت الحرانى من الصائبة

٧ - أبو بشر متى بن يونس ٨ - يحيى بن عدى

٩ - اسطفان بن باسيلي ١٠ - موسى بن خالد

وهؤلاء نقلوا العلوم من اليونانية والسريانية الى العربية

أما نقلة العلم من الفارسية الى العربية فهم :

١ - ابن المقفع ٢ - آل نوبخت ، وكبيرهم نوبخت وابنه الفضل

٣ - موسى ويوسف ولدا خالد ٤ - على بن زياد التميمي

٥ - الحسن بن سهل ٦ - البلاذرى احمد بن يحيى

٧ - اسحاق بن يزيد

ومن الذين نقلوا عن اللغة السنسكريتية :

١ - منكه الهندي ٢ - ابن دهن الهندي

ومن الذين نقلوا من اللغة النبطية :

١ - ابن وحشية ، نقل كتباً كثيرة أهمها كتاب « الفلاحة النبطية »

وظاهر مما تقدم أن المسلمين في عصرهم الذهبي نقلوا الى لسانهم معظم ما كان شائعاً من العلم والفلسفة والطب والفلك والرياضيات والآداب ، واتخذوا عن كل أمة أحسن ما لديها ولكنهم اختاروا من اليونان فلسفتهم وتركوا آدابهم ، وفنونهم لأسباب يطول شرحها ووفيناها حقها من البحث في كتابنا « الشهاب الراسد » ص ١٦٠ وما بعدها عند الكلام على المقارنة بين العرب واليونان والرومان .

وقد كانت تلك المؤلفات التي نقلت إلى اللغة العربية هي النواة التي نبتت ونمت ثم أزهرت وأثمرت وأتت بأطيب الفوائد للمسلمين وغيرهم ممن اندمجوا في مدنيهم خلال الأربعة عشر قرناً منذ ظهر الاسلام إلى الآن

كان العصر العباسي الأول عصر الفرس وبذر البزور ، فجاء العصر الثاني للحصاد وجنى الثمار ويجدر بنا أن نرد الفضل إلى ذويه ونعترف بسرور وعن طيب خاطر بأن الذين اشتغلوا بنقل العلم والفلسفة في العصر العباسي الأول كان معظمهم من أدباء أهل الكتاب من غير المسلمين فلما تم النقل تقدم المسلمون الى العمل فكان أسبقهم يعقوب ابن اسحق الكندي الذي بدأنا بترجمته في مفتح هذا السفر الضئيل وهو من أبناء القرن الثالث الهجري

ومن عجيب الاتفاق أن هذا العصر العباسي الثاني كان زمنه مائة سنة كسابقه تبدأ بآخر الثلث الأول من القرن الثالث الهجري وتنتهي بانتهاء الثلث الأول من القرن الرابع الهجري . ثم بدأ العصر العباسي الثالث (٣٣٤ - ٤٧٤ هـ) وهو عصر ابن سينا واخوان الصفا والغزالي .

وفي العصر العباسي الرابع انتقلت تلك العلوم الدخيلة إلى بلاد الأندلس وذلك بعد ظهور رسائل اخوان الصفا بمائة عام ، وكان الفضل في ذلك لأبي الحكم عمرو بن

عبد الرحمن الأكرمانى القرطبي الذى رحل من الأندلس إلى المشرق فى طلب العلم وعاد إلى بلاده حاملاً نسخة من تلك الرسائل ، فتعلق الأندلسيون بالفلسفة وأحبوها واستغرقوا فى درسها وقاسى بعضهم الشدائد فى سبيلها كما هو مفصل فى كلامنا على ابن رشد ، وفى تلك البلاد ظهر ابن باجه ، وابن طفيل ، وابن رشد ، وابن خلدون وغيرهم من الفلاسفة والحكماء والأطباء والرياضيين والفلكيين والكيميائيين ممن ملأت شهرتهم الخافقين و باقتضاء دولة الإسلام فى الأندلس قضى على الفلسفة أيضاً ولم تبق لها بعد فى ممالك الإسلام قائمة إلى أن ظهر محمد جمال الدين الحسينى الأفغانى المتوفى فى آخر القرن الماضى ومما هو جدير بالذكر أن ظهور الفلسفة ونموها كان تابعاً لقوة الدين الاسلامى وشدة بأسه وسعة انتشاره ، فلما ضعفت العقائد الدينية ضعفت المباحث العقلية التى كانت تستدعيها تلك العقائد ، فكان دين الاسلام بضد غيره من الأديان ، كان يغذى الفلسفة ويقويها ويشد أزرها وقد لاحظ الأستاذ « رينان » فى بعض مؤلفاته هذه الظاهرة العجيبة وهى هبوط الفلسفة فى أوروبا كلما قويت شوكة الدين ، وانتعاش الفلسفة بعد ذلك عقيب تدهور العقائد الدينية فى أوروبا .

فان الفلسفة الأوروبية الحديثة لم تر نور الشمس إلا فى القرن السابع عشر ومن بعد أن تحللت قيود المسيحية السمحاء واندثرت معالم المظالم التى كانت تتحفظ للقضاء على كل مفكر حر وما حدث فى اسبانيا عن يد محاكم التفتيش وفى ايطاليا ضد «جاليليه» وأمثاله ، بل فى سويسرا البروتستانتية حيث أمر « كالثن » الشهير باحراق واعداد العالم « ميشيل سرفيه » بعد طول التعذيب والسجن ، وكانت جريمته فى نظر « كالثن » انه سبق « هارفى » الانجائزى الى اكتشاف الدورة الدموية فى جسم الانسان

فظن « كالثن » أن فى ذلك ما يخالف الدين فنكل به ما شاء تسامحه (٢١) ولم يجد أبناء الأجيال الحاضرة وسيلة للتكفير عن ذنب أمامهم الورع « كالثن » سوى نصب تمثال من المرمر فى قرية (انماس) على أبواب جنيف يمثل ذلك العالم الطبيعى « ميشيل سرفيه » مقيداً بسلاسل السجن ومتدثراً بثياب بالية وقد دب فى كيانه البدنى ديب النحول والهزال بعد أن أصبح فريسة لليأس ، والألم ولذعات القمل !

لقد كانت الفلسفة من قديم الزمان مقيدة بالنظم التى وضعها المعلم الأول « أرسطو »
وهى : المنطق ، والأخلاق ، والالهيات وما زالت كذلك الى أن ظهر « ديكارت »
فشاد بناء الفلسفة الحديثة على قاعدة البحث بطريق افتراض الشك للوصول الى اليقين
ثم توسع فى تطبيق تلك القاعدة « هيوم » الانجليزى و « كانت » الألمانى
و « سبينوزا » الهولاندى

ومنذ القرن التاسع عشر ظهرت تيارات جديدة للفلسفة فى المانيا بدأها « شوپنهاور »
متأثراً بأفكار استاذة وصديق أسرته « جوته » وانتهت « بفردريك نيتشه » الذى
خرج بالفلسفة عن الدروب المطروقة وتغلغل بها فى سبل حديثة الاكتشاف للفكر
البشرى ، وتلاه فى فرنسا « برجسون » صاحب المذهب الافتشارى (Intuition)
ولا تزال الفلسفة الاوربية الحديثة واقفة عند هذا الحد الى أن يأتى لها من يأخذ بيدها
ويفصح لها مجالاً جديداً بعد أن ينتشلها من وهدة السقوط الذى أدركها فى العشرين
سنة الأخيرة ، إذ عدت عليها عوادي المذاهب المادية واستغرقت شهوات البشر ،
من طموح الى السيادة وطمع فى السعادة ، جميع قوى الانسان وسدت عليه مسالك
الفكر الصحيح وانشبت أظفارها بمواهب العقل السليم

فلا عجب اذا ألحت بنا الحاجة ونحن فى القرن الرابع عشر الهجرى ، وهو شبيه بقرن
نهضة احياء العلوم والآداب بأوروبا بعد انتشاع ظلمات القرون الوسطى ، الى نشر
« تاريخ فلاسفة الاسلام » وشرح مبادئهم لعل فى هذا التحريك ايقاظاً وانهاشاً بعد
الرقاد الطويل الذى استولى على المفكرين فى الاسلام من عهد ابن رشد الى وقتنا هذا

محمد لطفى محمد

عن « بيت يحى وزكريا » بواحة عين شمس

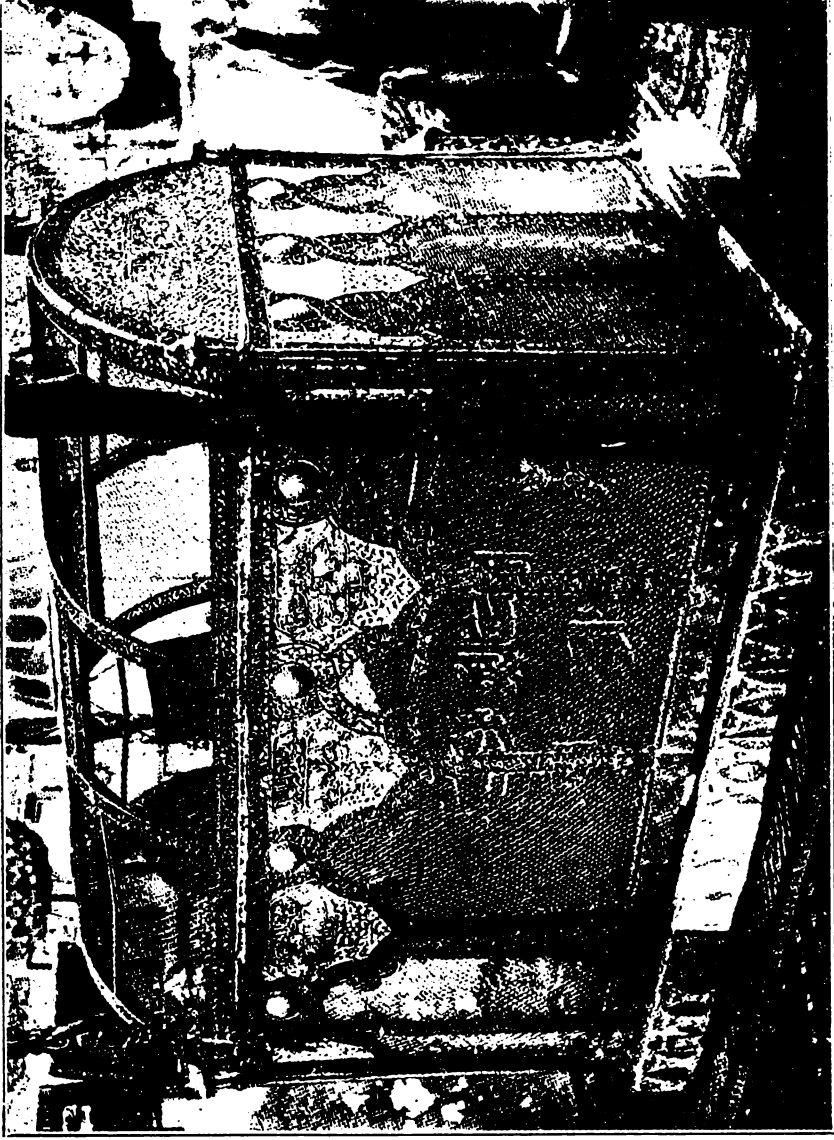
صورة شمسية « لمقلمة ودواة » الامام الغزالي

هذه المقلمة المدنية النفيسة من ضمن تحف « دار الآثار العربية » محفوظة في السجل تحت عدد ٣٣٣١ وهي مقلمة ودواة من نحاس مستطيلة الشكل مستديرة الطرفين محاطة بكتابة منزلة بالفضة وغطاؤها مزخرف بالنقش المنزّل بالفضة أيضاً وذائب منها جزآن كبيران في تقطبتين وكثير من الفضة مفقود وهالك نص الكتابة التي عليها :



« لخزانة مولانا الامام الرباني الأعظم والصدر المعظم مفتى الفرق لسان الحق علامة العالم سلطان العلماء ... الأنام كثر الحقائق أفضل المتأخرين محيي الدين حجة الاسلام محمد الغزالي » وموضع النقط كلمات مفقودة . وهذا الأثر هدية من المأسوف عليه الخواجه كيتكاس تاجر الآثار الى « دار الآثار العربية » على عهد المرحوم على بك بهجت في سنة ١٩٠٦ م والفضل في اخراج صورتها لصديقنا العلامة الاستاذ جاستون فييت مدير دار الآثار العربية حالا ، الذي عرفنا به استاذنا العلامة ادوارد لامبير بليون سنة ١٩٠٩ ، ولخضرة المذهب حسين راشد افندى أمين « دار الآثار العربية » حالا .

صورة افتتاحية



(صورة شمسية) لضرّيح الشيخ محي الدين بن العربي « بالصالحية » بظاهر مدينة دمشق عاصمة الشام ، منقولة عن كتاب
« استشفاد الحلاج » تأليف العلامة « ماسنيون » وقد تكرم بأهدائها صديقتنا العالم العامل السيد محمد كرد علي ، رئيس الجمع العلمي العربي بدمشق

١ - الكندي

أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي ، فيلسوف العرب ، وأحد أبناء ملوكها ، فرع الدوحة الكندية ، وسليل أمراء الجزيرة العربية : كان أبوه اسحق بن الصباح أميراً على الكوفة لعهد ثلاثة من خلفاء العباسيين ، المهدي والهادي والرشيد ، وتنتهي سلسلة أجداده لدى يعرب بن قحطان ، وبينهم الأشعث بن قيس من أصحاب النبي (ص) وكان قبل ذلك ملكاً على كندة كما كان أبوه . ومن أجداد الكندي معدى كرب وكان ملكاً في حضرموت كأبيه . ومعظم أجداد الكندي ملوك بالمشر واليمامة والبحرين

لم يذكر مؤرخو العرب تاريخ ميلاد الكندي ووفاته بالدقة ؛ ولم يذهبوا الى اكثر من أنه من أهل القرن الثالث للهجرة ، ولكن عالين غربيين حققا ذلك فذكر فلوجل أن الكندي عاش في النصف الأول من القرن العاشر للميلاد ، ومات بعد عام ٨٦١ م . وذكر العلامة ناجي الايطالي أحد اساتذة الفلسفة بروما ، المتوفى في أواخر القرن التاسع عشر وكان ممن عنوا بتاريخ الفلسفة العربية ، ونشر كتباً للكندي باللاتينية أن وفاته كانت عام ٢٥٨ هجرية أي ٨٧٣ مسيحية ، وثبت أنه كان حياً يرزق عام ١٩٨ هجرية فكان أنه عمر نحو سبعين عاماً

قال سليمان بن حسان (وهو ابن جليل الأندلسي) إن الكندي كان بصرياً ، وكانت له بالبصرة ضيعة نزل بها ثم انتقل الى بغداد ، وتخرج في مدارسها بعد مدارس البصرة ، وكان عالماً بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق وتأليف اللحن والهندسة وطبائع الأعداد وعلم النجوم ؛ وقيل إنه كان يملك جانباً من علوم الاغريق والفرس ويعرف حكمة الهنود ، وكان كذلك ملماً باحدى اللغتين الأجنبية الذائعتين لذاك العهد وهما اليونانية والسريانية ، لأجل هذا ندبهُ المأمون فيمن ندب من الحكماء الى ترجمة مؤلفات ارسطو وغيره من فلاسفة اليونان

وقال سليمان بن حسان إنه لم يكن في الاسلام فيلسوف غيره ! ولعله يقصد بذلك الى أنه أول فلاسفة الاسلام . ثم ان الكندي احتذى في تأليفه حذو ارسطو ، وفسر من كتب الفلاسفة الكثير ، وأوضح منها المشكل ، ولخص المستصعب وبسط العويص ، وهذا لعلو كعبه في الترجمة فقد ذكر شاذان في المذكرات عن أبي معشر ، المشهور عند المصريين بكتاب في التنجيم « ان حذاق الترجمة في الاسلام أربعة بينهم يعقوب بن اسحق الكندي »

يبد أن بعض معاصريه تقوموا عليه إما حسداً وإما غير ذلك ، ومنهم القاضي ابو القاسم صاعد بن أحمد القرطبي ، قال في « كتاب طبقات الأمم » عند الكلام على كتب الكندي في المنطق أنها « نفقت عند الناس نفاقاً عاماً وقلما ينتفع بها في العلوم ، لأنها خالية من صناعة التحليل التي لا سبيل الى معرفة الحق من الباطل في كل مطلوب إلا بها وأما صناعة التركيب وهي التي قصد يعقوب في كتبه هذه اليها فلا ينتفع بها إلا من كانت عنده مقدمات عديدة فحينئذ يمكن التركيب . ومقدمات كل مطلوب لا توجد إلا بصناعة التحليل ولا أدري ما حمل يعقوب على الاضراب عن هذه الصناعة الجليلة هل جهل مقدارها أو ضن على الناس بكشفها وأى هذين كان فهو نقص فيه وله بعد هذا رسائل كثيرة في علوم جمة فيها آثار فاسدة ومذاهب بعيدة عن الحقيقة » ا هـ .

وتحامل القاضي القرطبي ظاهر على ان هذا لم يكن رأى علماء الافرنج في الكندي فقد عده غليوم كردانو الاباطالى المتوفى سنة ١٥٧٦ ، بين الاثنى عشر عبقرية الذين ذكر أنهم أهل الطراز الأول في الذكاء والعلم لم يخرج للناس سيواهم منذ بداية العالم الى نهاية القرن السادس عشر للمسيح . وقال روجر باكون وهو قس انجليزى من أهل القرن الثالث عشر للمسيح ، ومن مشاهير القرون الوسطى « إن الكندي والحسن ابن الهيثم في الصف الأول مع بطليموس لاشتهاره بما دونه في علم المراتب ، وقد نقل بعض رسائله في هذا الباب چيرار دى كريمونا »

على أن مؤلفات الكندي الفلسفية ، وشروحه لحكمة ارسطو وهي أول ما دونه

العرب في هذا ، نادرة الذكر في كتبهم التي وقعت لنا ، ونذكر بين مؤلفاته كتاباً في قصد
 ارسطوطاليس في المقولات وآخر في ترتيب مصنفات ارسطو . وذكر له ابن أبي اصيبعة
 في طبقات الأطباء رسالة « في كمية كتب ارسطو وما يحتاج اليه في تحصيل علم الفلسفة
 مما لا غنى في ذلك عنه وفي ترتيبها واغراضه فيها » وكتاب في قصد ارسطوطاليس في
 المقولات والموضوعة لها رسالته الكبرى في مقياسه العلمى . ومن كتب ارسطو كتاب
 اتلوجيا ، وهو « قول على الربوبية » تفسير فارفور يوس الصورى ونقله الى العربية عبد المسيح
 ابن عبد الله ناعمة الحمصى ، وأصلحه لأحمد بن المعتصم بالله ابو يوسف يعقوب بن اسحق
 الكندى وطبع ببرلين عام ١٨٨٢

أسلفنا ان الكندى في طليعة من شرحوا ارسطو ولكن ابن سينا خلفه وتفوق عليه .
 وذكر ابن جلدل انه لم يكن بين فلاسفة الاسلام (كتب هذا بعد وفاة الفارابى) من
 اقتفى آثار ارسطو بأدق مما اقتفاه الكندى

أما تأليف الكندى فتكاد تشمل سائر العلوم ، فقد دوّن كتباً في الفلسفة وعلم
 السياسة والأخلاق ، والارتماطيقى وعلم الكريات والموسيقى والفلك والجغرافيا والهندسة
 ونظام الكون والتنجم ، والطب والنفسيات والابعاديات والمساكن ألف فيه رسالته
 الكبرى ورسالة في الربع المسكون وعلم المعادن وفيه رسالة في أنواع الجواهر والأشياء
 ورسالة في نعت الحجارة والجواهر ومعادنها وجيدها ورديتها وأثمانها ورسالة في تلويح
 الزجاج وأخرى في أنواع الحديد والسيوف وجيدها ومواضع انتسابها . وألف في الكيمياء
 رسالة في العطر وأنواعه ورسالة في كيمياء العطر . وأخرى في التنبيه على خدع الكيمائيين
 ورسالة في الطبيعة ورسالة في الأجرام الغائصة في الماء ورسالة في الأجرام الهابطة ورسالة
 في عمل المرايا المحرقة . وله كتب خطية في مكاتب أوربا ذكرها بروكلمان في فهرسته .
 بيد أن الناظر في مؤلفات الكندى يرى انها لم تخرج عن حد العقلية ، وأخبرنا العلامة
 سنتلانا أستاذ تاريخ الفلسفة بالجامعة المصرية في عام ١٩١١ « ان البيروناجى الذى سلف
 ذكره نشر في عام ١٨٩٧ خمس رسائل فلسفية للكندى أولاهها في ماهية العقل ونشرت
 ترجمتها باللاتينية »

وليس بين مؤلفات الكندي شيء في الدين ، بل انه اشتهر برأى خاص في « واجب الوجود » خالفه فيه المتشددون من أهل عصره ، وأخذوا عليه رأيه المذكور الذي أودعه رسالة التوحيد . وقد روى عبد اللطيف البغدادى أحد أطباء العرب ، ومؤلف « كتاب أخبار مصر » وهو من أهل القرن الثانى عشر ومن الفقهاء المتعصبين ، انه كتب رسالة ضمنها بحثاً في حقيقة واجب الوجود وما ينبغى نحوه ذاته العلية وان غايته من تدوينها تقض مادونه الكندى من قبل في « رسالة التوحيد » . وروى كاتب « مقالة الكندي » في دائرة المعارف البريطانية « أنه كان أول التأثيرين على الاسلام » يقصد المبتدعين . ولكن في هذا مغالاة فقد سبقه كثير من المعتزلة ، كواصل بن عطاء في أوائل القرن الثانى وعمر بن عبيد والنظام تلميذ ابن الهيثم والجاحظ تلميذه وكلهم سبقوه . على أن خصوم الكندي لم يأخذوا عليه إلا قوله « بوحدة واجب الوجود وبساطة ذاته العلية » وان هذا القول ارسطى محض ومعناه أن القائلين به لا يعترفون لواجب الوجود بصفة مطلقة ، والصفات المطلقة هي الميزة عن الذات ، وكان ارسطو حقيقة ينكر الصفات ويقول بأنها والذات شيء واحد ، وهذا القصد من قولهم ببساطة واجب الوجود

على أن المعتزلة والسنيين متفقون في جوهر هذه المسألة . فان المعتزلة تقول « ان الله عليم بذاته خبير بذاته قادر بذاته » أى يعلم و يقدر دون الاحتياج الى صفة . أما الصفاتية وهم جمهور المسلمين فيقولون « بأن الله عليم بالعلم أى بصفة اسمها العالم وقادر بالقدرة أى بصفة اسمها القادر » وان هذه الصفات ليست منفصلة عن الذات ، لأنها لو انفصلت لعادوا الى رأى المعتزلة وقد يشركون . وحجة المعتزلة فيما سبق بيانه أن القول بالصفات يثبت ثلاثة عشر قديماً (الصفات المشهورة ثلاث عشرة خمس سلبية وواحدة نفسية وسبع معانٍ) . على ان المعتزلة اذا سئلوا قالوا إن الله قادر فهم متفقون وجمهور المسلمين في الجوهر كما أسلفنا

أول أعداء الكندي من معاصريه أبو معشر . روى ابن النديم البغدادى الكاتب المعروف بابن أبي يعقوب في كتاب الفهرست « أن أبا معشر وهو جعفر بن محمد البلخى

من أصحاب الحديث أولاً وكان منزله في الجانب الغربى بباب خراسان ببغداد ، وكان يضاغن الكندى ويفرى به العامة ، ويشنع عليه لأخذه بعلوم الفلاسفة فلما رأى الكندى منه ذلك أراد أن يقطع عن نفسه شره بما ينفع أبامعشر ولا يضره ، فدرس عليه من حسن له النظر في علم الحساب والهندسة فاشتغل بهما ، ولكنه لم يوفق فيهما فعدل عنهما الى علم أحكام النجوم فاقطع شره عن الكندى بنظره في هذا العلم وقد تعلم علم أحكام النجوم بعد سبع وأربعين سنة من عمره « وأسى من تلاميذ الفيلسوف بعد أن كان ألد أعدائه !

روى ابو جعفر بن يوسف في كتابه « حسن العقبى » عن أبى كامل شجاع بن الحاسب « أنه كان لعمد المتوكل اخوان شريران محمد واحمد ابنا موسى بن شاكر ، وكان هذان الشقيان يكيدان لكل من ذكر بالتقدم في علم أو معرفة ، فلما ذاع فضل الكندى غاظهما ذلك وأرادا الوقعة به لدى المتوكل وكان للكندى نصير في بلاط الخليفة ، وهو سند ابن على فباعده عن المتوكل وأشخصاه إلى مدينة السلام ، فلما خلاهما الجو دبرا على الكندى ، مكيدة فضربه المتوكل ووجها الى داره فأخذها كتبه بأسرها وأفردها في خزانة سميت « الكندية »

وقد ردت له هذه الكتب بخبر غريب وهو أن الشقيقين الشقيين كانا يعملان للإفراد بالمتوكل وإبعاد أهل الفضل عنه ، والحصول على ما يستطيعان من المال فكشف أمرهما في حفر النهر المعروف بالجمعرى فأنهما اسندا حفرة إلى مهندس معرفته أوفى من توفيقه ، فغلط في فوهة النهر ، وأتلفا جملة من مال المتوكل فأقسم أن يصلبهما على شاطئيه ان كان ما بلغه عن الغلط حقاً ، فتوسلا إلى سند بن على الذى ما تركا شيئاً من سوء القول إلا ذكره عند المتوكل به فقال لهما سند بشم أهل الفضل « إنكما لتعلمان ما بينى وبين الكندى من العداوة والمباعدة ولكن الحق أولى ما اتبعه ، والله لا ذكركما عند المتوكل بصالحة حتى تردا عليه كتبه ! » فنقدم محمد بن موسى فى حمل الكتب اليه وأخذ خطه باستيفائها ، فوردت رقعة الكندى بتسلها عن آخرها ، وقال سند للمتوكل أنهما ما غلطا

التي تذهما من العقاب ومات المتوكل بعد ذلك بشهرين قبل أن يظهر غلط الحفر في النهر
إعتاد مترجمو الحكماء رواية بعض أقوالهم في الحكمة العامة للإستدلال على آرائهم
ويغلب أن يكون المنقول من الحكم الذائعة على ألسنة الأدباء ذكرت للأسهاب ، أو
دُسَّت على الرواة فقد قرأت حكماً نسبت لسقراط ، وقرأتها بعينها منسوبة لكونفوشيوس
ولقمان وغيرهما ، ومثل هذا كثير ولا أظن أنه يؤخذ به في تقدير المنسوب إليه أو في
الحكم عليه

والأقوال المروية عن الكندي تنقسم من حيث شكلها قسمين نثراً وشعراً ، والنثر في
ثلاثة أمور الأول نصيحة للطبيب ، والثاني في الحث على التواضع ، والثالث في التحذير
من الأقارب . ورويت عنه سبعة أبيات من الشعر رواها العسكري في كتاب الحكم
والأمثال وهي :

اناف الذنابي على الارؤس فغمض جفونك أو نكس
وضائل سوادك واقبض يديك وفي عقر بيتك فاستجلس
وعند مليكك قابغ العا—و وبالوحدة اليوم فاستأنس
فان الغنى في قلوب الرجال وان التعزز بالأنفس
وكأن ترى من أخى عسرة غنى وذى ثروة مفلس
ومن قائم شخصه ميت على أنه بعد لم يرمس
فان تطعم النفس ما تشتهى تقيك جميع الذى تحتسى

وعندى أن هذه الأبيات تدل على حالة نفسية حزينة تدنى هذا الفيلسوف العربي
القديم من شوبنهاور . ولا غرابة اذا كان الحزن ميزة الحكماء فهو كما قال زيلر في كتابه
عن تاريخ فلاسفة اليونان « علامة الأمم المفكرة »

قال في وصيته « ليتق الله تعالى المتطعب ولا يخاطر فليس عن الأنفس عوض ! » .
وقال « كما يجب أن يقال أنه كان سبب عافية العليل وبرئه ، كذلك فليحذر أن يقال أنه
كان سبب تلفه وموته » وكان رحمه الله طيباً ونصحه صالح لكل زمان !

« العاقل يظن أن فوق علمه علماً فهو أبداً يتواضع لتلك الزيادة والجاهل يظن أنه قد تنهى فتمتته النفوس لذلك » نقلاً عن كتاب المقدمات لابن بختويه .

قال الكندي يوصى ولده « يا بني الأب رب والأخ فح والعم غم والحال وبال والولد كمد والأقارب عقارب »

وهذا من وصيته لابنه أيضاً « قول » لا « يصرف البلاء وقول » نعم « يزيل النعم وسماع الغناء برسام حاد لأن الانسان يسمع فيطرب وينفق فيسرف فيفتقر فيغم فيعتل فيموت »

« الدينار محموم فان صرفته مات ! والدرهم محبوس فان أخرجته فرّ ! والناس سخرة فخذ شئهم واحفظ شئك ! ولا تقبل من قال اليمين الفاجرة فانها تدع الديار بلاقع !



﴿ ايضاح عن الكندي ﴾

(١)

لا يوجد أدب لغة أغزر مادة من الأدب العربي ، ولا أبعد عنه مدى ولا أعمق غوراً ولا أشهى ثمراً وأكثر نفعاً ، ولكنه لسوء حظ عشاقه وهواته والمشتغلين به محدود الفائدة لطلابه ، وقد يتعجب القارئ لهذا التناقض ولكن تلك الدهشة تزول اذا علم أن المؤلف أو الباحث قد يصرف أياماً في التنقيب عن مبحث يريد به وقد يقرأ مائة صفحة قبل أن يعثر بسطرين لهما مساس بمبحثه ، فقد منح الله كتّاب العرب وادباءهم من سعة الاطلاع وحب الاستطراد والتعلق بأسباب الاسباب والتطويل ، ما يجعل بعضهم ينتهي من مؤلفه قبل أن يصل الى بداية الموضوع الذي ندب نفسه لدرسه ، أو الكتابة فيه ، ولم يسلم من فضلاء الأدباء الا العدد القليل ممن صحت عقولهم وعزائمهم وتمكنوا من كبح جماح نفوسهم لدى استهواء الاستطراد مثل الجاحظ على أن أمثال الجاحظ قليلون . أما سوام فيجعلون كتب التاريخ موسوعات لفنون الأدب وعلوم النبات والحيوان والطب والتنجيم ، ويندر أن لا يفرّدوا في كل فصل من فصولها باباً للنحو والصرف والبيان !

ومما يعجب له أن الكتّاب الذين قطعوا أنفسهم لتدوين تراجم العظماء والفلاسفة والشعراء لم يعنوا قط بوصف معاشهم وأخلاقهم وأطوارهم وأحوالهم النفسية كما فعل اليونان وكما يفعل الأوروبيون في هذا الزمان . وقد يكتفي بعضهم بذكر مؤلفاتهم ، وسنّى ميلادهم ووفاتهم وقد لا يذكر ذلك على التحقيق الا في بعض الأحوال دون غيرها . ومن غرائب هذا الباب أن لا يذكر مؤرخو حياة المتنبي الا أنه مدح سيف الدولة وهجاً كافوراً وقتل بمكان قفر ، ولا يوجد في سيرته خاصة إلا رسالة ضئيلة طبعت على هامش شرح العكبري لديوان هذا الفحل ، وهو شرح مطول في جزئين ضخمين يبدأ في تفسير كل بيت من أبياته بالاعراب والتحليل والصرف والنحو والغريب من الألفاظ

ومما ذكره المؤرخون عن ابن تيمية وهو أعظم أئمة المجتهدين المصلحين أمثال مارتين لوثيروس وكالفين في الغرب « انه مات من قطعة هريسة ازرددها »

وغنى عن البيان بعد ما تقدم أن من يريد أن يكتب صفحة صحيحة عن عظيم عربي يمرض نفسه لأنواع المشاق والمتاعب . ويحسن بي ذكر ما قاله لى العلامة سانتيلانا استاذ تاريخ المذاهب الفلسفية في الجامعة المصرية عام ١٩١١ عند الكلام على تراجم فلاسفة الاسلام من انه قد يقرأ الكتاب ذا الصفحات العديدة دون أن يتمكن من تدوين سطر

واحد . وروى لي الاستاذ ادوار لامبير استاذ الحقوق بمدرسة ليون الجامعة أن جولد زيهر أحد علماء المشرقيات النمساويين قضى أكثر من عشر سنين في تأليف كتابه « في السنة المحمدية » وذلك لتشتت المواد وصعوبة الوصول الى ما كان يريد جمعه من الأخبار . والروايات والأسانيد .

(٢)

لا يمكن تصوير الكندي تصويراً معنوياً أو خلقياً ينطبق على الحقيقة انطباقاً تاماً ، لأنه لم يترك كتاباً ولا رسالة في ترجمة حاله ولأن المؤرخين لم يذكروا عنه الا أموراً مبتذلة ، ولكن بعض مؤلفاته وبعض أقواله وحال العصر الذي عاش فيه قد تساعد في مجموعها الباحث المدقق ، في الوصول الى الوقوف على ما يقرب من الحقيقة من شؤونه .

فما يذكر عنه وله شأن في هذا المعنى أن الكندي عمر طويلا ويصح القول بأنه سائر القرن التاسع المسيحي ، وهو من أهل المئة الثالثة الهجرية . والفضل في تحقيق ذلك راجع الى عالين غربيين هما فلوجل وناجي . أما مؤرخو العرب وفي مقدمتهم المسعودي فلم يذكروا عن ميلاده ووفاته شيئاً بالتحقيق أو ما يشابهه لأن الكندي توفي بعيداً عن بلاط المتوكل ، وقد ردت هذه العزلة الى الحمول الذي يشمل سائر الأحياء في الاريستوقراطيات الشرقية التي لا يظهر فيها الا كل من له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بولي الامر في زمنه ويستنتج من أقوال هذين العالين الغربيين فيما سبق أن الكندي عاش نحو سبعين عاماً وهذا يدل على اعتداله في عيشته واستقامته في أمور حياته الدنيوية ، وعلى قوة بنيتة الأصلية .

ويؤخذ من أخباره أنه نشأ وترعرع في كنف الخلفاء العباسيين فقد كان أبوه أميراً على الكوفة لعهد ثلاثة من خلفاء العباسيين فلما نبت يعقوب لجأ الى قصور الخلفاء وقدم عاش الكندي كأبيه في ظل ثلاثة من الخلفاء العباسيين وهم المأمون والمعتصم والمتوكل وأولهم أعظمهم وقد مرح الكندي في كنفه ونال من حظوته ما ناله أمثاله العلماء ، وكان المأمون أوسع الخلفاء العباسيين صدرًا للحكام وأرحبهم جانباً وأقلهم تشددًا وتمصباً

وقد ندب فيمن ندبوا لنقل العلوم من اليونانية والسريانية الى العربية ، وكان كذلك ينتاب الخلفاء في التطبيب ويخدمهم في التوقعات الفلكية دون التنجيم فانه كان يفضيه وينفر الناس منه وله مع ابن معشر الشهير حديث طويل أتينا عليه في ص ٧ وقد عاش أبو يوسف معظم أيامه عيشة هنية في ظلال دواوين الحكومة العباسية لعهد المأمون

والمعتصم فتنفرغ لدرس فلسفة أرسطو ، وأخذ في شرحها والتعليق عليها . فصححت تلك الفلسفة الاغريقية نظره في الأشياء وشحذت من ذهنه ووسعت دائرة معارفه وفكره وكانت المئة الثالثة الهجرية حافلة بفضللاء المعتزلة وأكابر علماء الكلام والمجتهدين وأحرار الفكر ، وقد رمام بعض المغالين بالاحاد أمثال النظام والجاحظ وواصل بن عطاء وغيرهم ممن حفل بذكرهم كتابا « الملل والنحل » و « الفرق بين الفرق » للشهرستاني والبغدادى وغيرهما ، ولم يكن للكندى بد من الاحتكاك بهم والأخذ عنهم والاستنارة بأفكارهم ، فأدخل في كتبه ما شاء العقل الراجح والبصيرة المنورة ، مما أخذه عليه الجهال والنوكى فوشوا به عند المتوكل ، وكان المتوكل متسرعا فنقم على الكندى ولم يرع خدمته له ولأسلافه من قبل ونكبه في حقوقه وكتبه .

(٣)

بيد ان الكندى على عظم علمه واتساع نطاق معارفه وغزارة مادته وتعدد توافيه وتصانيفه وسبقه سواء من العرب الى درس ارسطو وترجمة كتبه لم يكن عبقرى بالمعنى الصحيح على الرغم مما ذكره غليوم كردانولانه لم يكن له مبدأ فلسفى خاص به بل كان مصنفاً يعمم العلم وينشره بشرح أمهات الكتب والتعليق عليها وإدخال مذهب أتباع فيثاغورس وارسطو في كتبه . فكان اذن عالماً ذا مواهب جمّة لم تبلغ به سمات الذكاء الانسانى ولم تنزل به الى مستوى العلماء المتوسطين وكانت له فى الطب والرياضيات عصمة عن الخرافات والتدجيل

فمن فضائله انه نهى عن الاشتغال بالكيمياء للحصول على الذهب ، وذم ذلك وبين انه عبث وتضييع للعمر والعقل والمال ، وقد سبق ابن سينا فى هذا السبيل وكان اشرف مبدأ واسمى غرضاً لأن ابن سينا ختم كتبه بالكيمياء فاعتز بها غيره . ومنهم عبد اللطيف البغدادى الذى لم يبق لابن سينا كرامة لانه غرر به واستهواه بكتبه للاشتغال « بالصنعة » . وعبد اللطيف أحد أطباء العرب ومؤرخهم ساح فى أواخر المائة السادسة للهجرة والن رسالة فى الرد على الكندى فى بعض مسائل التوحيد مع ان الكندى كان أصدق ايماناً واكبر فضيلة واكثر قناعة وتمففاً من ذاك « التيس الملتجى » الذى وصم الاسلام والمسلمين باحراق مكتبة الاسكندرية (راجع كتابه مختصر تاريخ مصر طبع اكسفورد عام ١٨٠٠ صفحة ١١٤) وقد ثبت كذبه ونفى علماء الافرنج هذه الوصمة عن العرب والاسلام

وكان أبو البشر من الذين اشتغلوا بترجمة كتب ارسطو وشرحها ومعاصراً للفارابي
وكان أسنّ منه

وروى السجستاني (تلميذ يحيى بن عدى) فى تعاليقه ، أن يحيى بن عدى وهو تلميذ
الفارابي أخبره « ان متى أبا البشر قرأ إيساغوجى على أستاذ مسيحي وقرأ قاطيفورياس
(المقولات) وبارمينياس (العبارة) على أستاذ يسمى روبيل ، وقرأ كتاب القياس
على ابن يحيى المروزى » . وهذه الكتب كلها لارسطو ويفهم من هذه العبارة ان هؤلاء
الأساتذة كانوا يقرأون هذه الكتب ويدرسونها ، ولما كان أبو البشر متى معاصراً للفارابي
فلاربيب فى أنه تلقى العلم عليهم . لأن الفارابي لم يكن من الطلاب الذين يقنعون
بأستاذ واحد فقد روى « انه كان يجتمع بأبى بكر بن السراج فيقرأ عليه صناعة النحو
وابن السراج يقرأ عليه صناعة المنطق » . وقالوا انه أتقن العلوم الحكيمية وبرع فى
العلوم الرياضيه ، وكانت له قوة فى صناعة الطب وعلم بالأمر الكليه منها ، ولكنه لم يباشر
أعمالها ولا حاول جزئياتها « عن القاضى صاعد » ونسبوا اليه علم جميع لغات الدنيا وهى
سبعون لغة ، ولكن المؤكد أنه عرف العريميه والفارسية والتركية والمرجح أنه عرف
اليونانية والسريانية وهذه خمس لغات كانت فيها الكفاية لعهده .

مكانته فى الفلسفة

انشق حكماء العرب فى أواخر القرن الثالث للهجرة فرقتين :

الأولى فرقة المتكلمين وكان للكندى الفضل الأكبر فى تمهيد سبيلها تخصصت
بالالهيات وما وراء الطبيعة وكان ظهورها فى مرو ، وكانت قبل ذلك الانفصال تتبع
فيثاغورس ، ثم تنحت عنه وعن أتباعه وتعلقت بارسطو بعد أن ألبست تعاليمه ثوب
مبادئ أفلاطون المستحدثة (نيوبلاتونيزم) ، وكانت هذه الفرقة تبحث الأشياء فى
مبادئها وتحرى المعنى والفكرة والروح : ولا تصف الله بالحكمة فى الخلق أو بالعلة الأولى
ولكن بانه واجب الوجود ، وكانت تقدر الأشياء بوجودها ، فتسمى فى اثبات ذلك أولاً .

بيان مؤلفات الكندى

الموجودة الى الآن فى عالم الآداب

مخطوطة أو مطبوعة

ذكر صاحب الفهرست كتب الكندى فاذا هى كما يأتى :

فلسفة	٢٢ كتابا	حساب	١١ كتابا
نجوم	١٩ »	هندسة	٢٣ »
فلك	١٦ »	طب	٢٢ »
جدل	١٧ »	سياسة	١٢ »
احداث	١٤ »	طبيعيات	٣٣ »
الكريات	٨ كتب	منطق	٩ كتب
موسيقى	٧ »	احكام	١٠ »
نفس	٥ »	ابعاد	٨ »
تقدمة المعرفة	٥ »	المجموع	٢٣١ كتابا

أما الباقي من كتب الكندى الى الآن فثمانية وهى :

١ - كتاب فى الاهيات ارسطو أو كلام فى الربوبية ، مترجم عن فيلسوف اليونان
ومنه نسخة خطية ببرلين

٢ - رسالة فى الموسيقى

٣ - رسالة فى معرفة قوى الادوية المركبة بمكتبة منشن ، وترجمتها اللاتينية مطبوعة

٤ - رسالة فى المد والجزر

٥ - علة اللون اللازوردى الذى يرى فى الجو } وكلتاها بمكتبة اكسفورد

٦ - ذات الشعبتين وهى آلة فلكية فى ليدن

٧ - اختيارات الايام

٨ - مقالة تحاويل السنين ، فى الاسكوريال وغيرها

٢ - الفارابي

هو أبو النصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان ويكتبه القاضي صاعد « اوزلق » .
وأبوه محمد بن أوزلغ بن طرخان كان قائد جيش ، وهو فارسي الأصل ، وبلده وسيج
بمقاطعة فاراب وهو بلد تركي في خراسان . هذا أجمع عليه المؤرخون وذكر منك أن
بلده اطاران فيما وراء النهر

والفارابي ككثير غيره من العصاميين لا يعرف تاريخ ولادته . توفي في الثمانين من
عمره في رجب سنة ٣٣٩ (ديسمبر ٩٥٠) فهو من مواليد ٢٦٠ هجرية ، قررنا هذا
التاريخ فرضاً . ولا نظنه بعيداً عن الحقيقة

تاريخ حياته

ذكر ليون افريقي ونقل عنه بروكر في تاريخ الفلاسفة في الجزء الثالث ص ٧١-٧٣
أموراً كثيرة عن الفارابي ، ولكن معظمها مشكوك فيه ، وبعضها من الأساطير الملققة .
ودروى ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء في ج ٢ ص ١٣٤ « ان الفارابي كان ناطوراً
في بستان في دمشق وكان دائم الاشتغال بالفلسفة وكان فقيراً ويستضيء في الليل
بالقنديل الذي للحارس ثم انه عظم شأنه » وهذه الرواية لا تقلل من قدر الحكيم
فقد كان كليانت الفيلسوف الرواقى سقاء يوزع الماء لرى البساتين في ضواحي أثينا
وكان سبينوزا يعيش من صناعة الساعات في هولاندا وهكذا الحكماء في كل جيل !

الخبر اليقين

والذي يعلم ييقين عن حياة الفارابي ، انه رخل في صباه من مسقط رأسه الى بغداد
وهي مركز الحضارة والعلم في عهد العباسيين فتعلم بها ، ثم التحق بمحاشية الأمير
سيف الدولة أمير حلب وهو بعينه الذي اكرم المتنبى فمدحه في معظم شعره والمتنبى

على ضبط لسان العرب ، وان المنطق «نحو» يضبط سائر الألسن ويصونها عن الزلل .
وهذا الذى حداه الى البحث في المنطق بالتدرج : اللفظة ، فالجملة المركبة
فالخطاب المسهب . وهذه طريقة ابتدئها واليك بيانها بإيجاز :

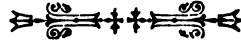
قسم الفارابى المنطق الى قسمين : وهما التصور والتصديق ، وأدخل فى التصور طائفة
الأفكار والتعريفات ، وفى التصديق الاستدلال والرأى ، والتصور لا يتحتم فيه الصدق
أو الكذب . وفى دائرة الأفكار أبسط الأشكال النفسانية وكذلك الصور التى طبعت
فى ذهن الطفل مثل الضرورى والواقع والممكن . وهذه أمور يمكن لفت عقل الانسان
اليها ، ولكن لا يمكن شرحها له لما هى عليه من الظهور بالبدهة . وبالتوفيق بين الصور
والأفكار تنتج الآراء ، والآراء تحتل الصدق والكذب ولأجل الوقوف على أصل
الرأى لا بد من الاستدلال والتصديق والفروض المدركة وهى واضحة بذاتها مباشرة
وغير محتاجة الى تأكيد أو اثبات كالبديهيات فى الرياضة . وبعض الأوليات فيما وراء
الطبيعة والآداب . ونظرية التصديق تتلخص فى الانتقال من المعلوم الثابت الى معرفة
المجهولات المشكوك فيها

كتبه الموجودة باللغة العربية

- (١) التوفيق بين رأى الحكيمين أفلاطون وأرسطو (مطبوع فى مصر مع غيره)
- (٢) فيما ينبغى الاطلاع عليه قبل قراءة ارسطو ، مطبوع أيضاً
- (٣) فصوص المسائل . مطبوع
- (٤) رسالة فى المنطق ، القول فى شرائط اليقين ، خطية بأوروبا
- (٥) رسالة فى القياس ، فصول يحتاج اليها فى صناعة المنطق وهى خمسة فصول ، خطية
- (٦) رسالة فى ماهية الروح ، خطية

وهذه الرسالة ورد ذكرها فى ابن أبى أصيبعة ، وأثبت فيها الفارابى وجود الروح وانها

نوما يذكر عن الكندى انه كان بخيلا الى درجة الشح وله في ذلك أقوال مأثورة رواها عنه ابن أبي أصيبعة وهو مؤرخ مشهور برواية حكم ونبد مسجوعة عن كل حكيم ترجمه ، أما البخل أو التشدد في نفقة المال فسجية معظم الادباء والعلماء في الشرق والغرب ولهم في ذلك اخبار ونوادر . وقد ذكر ذلك تزييت الانجليزى مؤلف كتاب « العبقريه والجنون » وقال ان بخل العلماء من الامراض النفسية اللاصقة بالنبوغ . أما عن انقطاع الكندى عن الناس وانزوائه وزهده فقد تكون من عواقب نكبته التى أصابه بها المتوكل ومما قاساه من الاضطهاد فى محنته .



وكان الفارابي رئيس هذه الفرقة وزعيمها والمقدم فيها واليه المرجع وعليه الاعتماد (راجع نيكولسن « تاريخ أدب العرب »)

أما الفرقة الثانية فهي فلاسفة الطبيعة، وكان ظهورها بجزان والبصرة، وقصرت بحثها على ظواهر الطبيعة المادية المحسوسة، مثل تخطيط البلدان وأحوال الشعوب، ثم تركزت في البحث ولكنها لم تتعد النظر في الأثر الذي تحدثه الأشياء في عالم الحس ثم تجاوزت البحث في ذلك إلى النفس والروح فالقوة الإلهية فمرقتها « بالعلة الأولى » أو « الخالق الحكيم الظاهرة حكمته في مخلوقاته »

وكان أبو بكر محمد بن زكريا الرازي زعيمها، وقد وردت ترجمته في ابن أبي أصيبعة ص ٣٠٩ ج ١ وكان طبيياً حاذقاً وفيلسوفاً طبيعياً . فالفرق ظاهر بين الفرقتين، فالفرقة الثانية التي زعيمها الرازي كانت تبحث فيما هو ظاهر للعيان وملسوس بالحس وتقتنع بصفاته وقوة أثره في غيره من الموجودات

أما الفرقة الأولى فرقة المتكلمين، التي كان رئيسها الفارابي فكانت تقدر الأشياء بوجودها فتسمى في إثبات ذلك الوجود أولاً، فالفارابي كان إذاً زعيم أكبر فرقة فلسفية في عصره .

فضله على فلسفة أرسطو

سئل أبو النصر « من أعلم أنت أو أرسطو ؟ » فقال « لو أدركته لكنت أكبر تلاميذه » وقال « قرأت السماع لأرسطو أربعين مرة وأرى أني محتاج إلى معاودته » (القفطي) ويرجع للفارابي الفضل في ضبط وتعيين كتب أرسطو، وتخليصها من غيرها قبل ترجمتها وشرحها . وله الفضل في أن تلاميذه ورفاقه في الدرس وأحبابه هم الذين تصدوا إلى نقل أرسطو إلى اللغة العربية . وقد سار من جاءوا بعده على سننه واتبعوا خطه، وقد بلغتنا كتب أرسطو منقولة إلى اللغات الأوروبية القديمة والحديثة على النسق الذي اختاره الفارابي، وهالك الترتيب الذي وضعه :

(١) كتب المنطق الثمانية وهى : كاتغورياس (المقولات) ، هرمنوطيق (فن التفسير) التحليل الأول (القياس) التحليل الثانى (البرهان) طوبيقا (الجدل) السفسطة البلاغة ، الشعر .

هذه هى الكتب التى وضع لها فارفور يوس (وهو أحد حكماء الاسكندرية وتلميذ يوننين) مقدمة ايساغو .

(٢) ثم كتب الطبيعيات الثمانية وهى : الطبيعيات ، كتاب السماء والعالم ، التوليد والفساد ، علم الجو ، علم النفس ، الحس والمحسوس ، كتاب النبات ، الحيوان ، ثم الكتب الثلاثة وهى ما وراء الطبيعة ، فالأخلاق ، فالسياسة وكتاب الأخلاق هو الذى نقله الى العربية عن الفرنسية الأستاذ أحمد لطفى السيد مدير الجامعة المصرية

هذا هو الوضع الذى عينه الفارابى ، بعد طول الامعان والدرس ، وهو الذى سارت عليه الحكماء من عهده الى وقتنا هذا ففضل الفارابى من هذه الوجهة لا ينكر ولا عجب اذا سمي « المعلم الثانى » ونحن نسميه ارسططاليس العرب

علوكعبه فى المنطق

قال القاضى صاعد فى التعريف بطبقات الأمم ، ان الفارابى « بذَّ جميع الفلاسفة فى صنعة المنطق وأربى عليهم فى التحقيق بها فشرح غامضها وكشف سرها وقرب تناولها وجمع ما يحتاج اليه منها فى كتب صحيحة العبارة لطيفة الاشارة منبهة على ما أغفله الكندى وغيره من صناعة التحليل وانحاء التعاليم وأوضح القول فيها عن مواد المنطق الخمس وأفاد وجوه الانتفاع بها وعرف طرق استعمالها وكيف تعرف صورة القياس فى كل مادة فجاءت كتبه فى ذلك الغاية الكافية والنهاية الفاضلة » اه كلام صاعد .

والفضل فى نبوغ الفارابى فى المنطق يرجع الى طريقة بحثه فانه لم يقتصر على تحليل طريقة الفكر بل بين علاقة ذلك بالنحو وبحث فى نظرية المعرفة . وقال إن النحو قاصر

أحد معاصري الفارابي وهو كثير الحكمة في قصائده . وصحبه الى دمشق وأقام ببلاطه مدة ثم اعتزل وعاش عيشة الحكماء الى أن توفي . وليس لدينا علم بشأن آخر من الشؤون الشخصية التي عني المؤرخون بتدوينها عن فلاسفة اليونان وفلاسفة أوروبا وليست العبرة في تاريخ الحكماء بأمورهم الخاصة

وقد انتقل من بغداد الى حلب لفننة حدثت ، ووافته المنية في سياحة من حلب الى دمشق . ولما توفي تزييا سيف الدولة بزي صوفي (وهو الذي اتخذه الفارابي في آخر أيامه) ورثاه على قبره ويؤيد هذه الرواية ما نقله ابن أبي أصيبعة من « ان سيف الدولة صلى عليه صلاة الجنازة في خمسة عشر رجلا من خاصته » ، وروى بعض مؤرخي العرب أنه سافر الى مصر قبل وفاته بسنة ولكن هذا لم يثبت .

أخلاقه

كان ذكي النفس متجنباً عن الدنيا مقتنعاً منها بما يقوم بأوده ، يسير سيرة الحكماء المتقدمين ، وكان هادئ الطبع عاكفاً على الفلسفة كثير التأمل ، ومن قناعاته انه لم يكن يتناول من سيف الدولة من جملة ما ينعم به عليه سوى أربعة دراهم فضة في اليوم يخرجها فيما يحتاجه من ضروري عيشه ولم يكن معتنياً بهيأته « ولا منزل ولا مكسب له وكان يتغذى بماء قلوب الحملان مع الخمر الربحاني . وكان يخرج الى الحراس بالليل يستضيء بمصابيحهم فيما يقرؤه » (جمال الدين القفطي ص ١٨٨) وقد عاش الفارابي في دولة العقل ملكاً وفي العالم المادي مفلوكاً

تعليمه — ٤

اجمع المؤرخون على ان الفارابي تعلم على أستاذ مسيحي اسمه يوحنا بن حيلان ، وهذا الاستاذ تلقى العلم مع ابراهيم المروزي عن رجل من أهل مرو ، لم يحفظ لنا التاريخ اسمه وكما تخرج الفارابي على يوحنا ، تخرج أبو البشر متى على ابراهيم المروزي .

الدرجة القصوى في الكمال

ويشترط أن يكون العقل الفعال قد منح الانسان الدراية الأولية التى يتفاوت الناس (بتفاوت خواصهم الطبيعية والبدنية) فى الاستعداد للوقوف عليها والهداية بها . وان هؤلاء الذين خطوا الخطوة الأولى وملكوا القدر الضرورى من العلم يستطيعون بمجدهم وتأثير العقل الفعال ، أن يصلوا الى أرقى درجات الكمال . وينبغى لهم أن يفقهوا معنى درجة الكمال القصوى ، وأن يجعلوها غايتهم ومقصدهم ، وأن يقفوا عليها كدعائمهم وذكائهم وسائر أعمالهم فاذا تيسر لهم ما تقدم وصلوا الى حالة « العقل بالملكة » وهى الدرجة السابقة لدرجة العقل المستفاد ، فاذا بلغوا تلك الدرجة اتصلوا بالعقل الفعال وأصبحوا على أتم ما يكون من الاستعداد للتلقى والالهام . واذا وصل الانسان الى تلك الدرجة يحق أن يقال عنه انه بلغ درجة الوحي الالهى وانه عادل الانبياء . ولا يبلغ الانسان هذه الدرجة العليا الا اذا ارتفع كل حجاب بين العقل الفعال وبينه وهذه هى الحالة الوحيدة التى يعترف فيها الفارابى بالوحى وقد خالف بها آراء المتكلمين كما هو ظاهر .

خلود النفس بالجملة أو وحدة النفوس

يقول الفارابى بعد ذلك من الجلى أن السعادة التى يتمتع بها أهل المدينة تختلف قدراً ونوعاً تبعاً لدرجة الكمال التى بلغوها فى الحياة الاجتماعية التى تتعلق بها درجة السعادة التى ينبغى الوصول اليها . فاذا فازوا بالانفصال عن المادة وروابط الأجسام فقد نجوا من الطوارئ المعرضة لها الأجسام بطبيعتها ، بحيث لا يصح أن يطلق عليهم لا وصف الحركة ولا صفة السكون بل يقال عنهم ما يقال عما لم يخرج من عالم الغيب . وما توصف به الأجسام لا يجب فى حق تلك النفوس المفارقة التى لا يمكن تعيينها بقول فاصل . وذلك لصعوبة احاطة الفكر بالموجودات التى لا هى أجسام ولا علاقة للأجسام بها . واذا حولت أجسامهم الى العدم وخلصت نفوسهم وسعدت بخلافهم رجال غيرهم

ومن الكتب المنسوبة اليه « احصاء العلوم » وهو كتاب يعده كتاب العرب عظيم الفائدة لا غنى لطلاب العلم عنه ، قال عنه ابن صاعد إنه كتاب شريف في احصاء العلوم والتعريف بأغراضها لم يسبق اليه ولا ذهب أحد مذهبه فيه ، ولا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به وتقديم النظر فيه

وتوجد منه نسخة في مكتبة الاسكوريال بمدريد بأسبانيا وصفه « كما يرى » بموسوعات العلوم ولكن هذا الوصف مبالغ فيه لأن ما جاء في الكتاب لا ينطبق على ما يقصد في وقتنا هذا من دائرة المعارف ، أو « المعلمة » كوضع احمد تيمور باشا

ويظن العلامة « منك » أن الرسالة التي نقلت الى اللاتينية منسوبة الى الفارابي باسم « تلخيص سائر العلوم » هي ترجمة موجزة ل احصاء العلوم ومنها نسخة في مكتبة «ديروس» في يارم بايطاليا ، ونسخة كاملة بين المخطوطات اللاتينية في المكتبة الوطنية بباريس تحت عدد ٤٩ مجموعة ١٤٣ ب ملحق لاتيني

وهذه الرسالة مقسمة الى خمسة أبواب الأول في علوم اللغة والثاني في علم المنطق والثالث في الرياضيات والرابع في الطبيعيات والخامس في الفنون المدنية .

وقد ذكر الفارابي أنواع العلوم المحتوية عليها تلك الأبواب مع تعريفات جلية ببيان موجز في كل فن .

ومن كتبه أغراض فلسفة أفلاطون ، وفلسفة أرسطو ، وتحليل بعض ما كتبه هذان الحكماء . ولم يصل إلينا شيء من هذا الكتاب أو شيء عنه سوى ما ذكره المؤرخان ابن أبي أصيبعة والقفطى ويظهر مما دوناه أنه كان مقسما الى ثلاثة أقسام الأول مقدمة وهي عبارة عن بيان فروع العلوم الفلسفية وعلاقتها الطبيعية ببعضها البعض وترتيبها الضروري لتفهمها حق الفهم .

والتسم الثاني عبارة عن بيان لفلسفة أفلاطون وایضاح لكتبه والقسم الثالث يشمل تحليلاً مسهباً لفلسفة أرسطو مع تلخيص موجز لكل كتاب من كتبه وتبيين القصد من

وضعه . وقال علماء العرب إنه لا يمكن الطالب أن يفقه معنى كتب أرسطو في القياس إلاّ منه . قال ابن أبي أصيبعة عن هذا الكتاب ما نصه :

« وله كتاب في أغراض فلسفة أفلاطون وأرسطو يشهد له بالبراعة في صناعة الفلسفة ، والتحقيق بفنون الحكمة وهو أكبر عون على تعلم طريق النظر وتعرف وجه الطلب أطلع فيه على أسرار العلوم وثمارها علماً علماً وبين كيف التدرج من بعضها الى بعض شيئاً فشيئاً ثم بدأ بفلسفة أفلاطون فعرف بفرضه منها وسعى تأليفه فيها ثم اتبع ذلك بفلسفة أرسطو طاليس فقدم له مقدمة جلية عرف فيها بتدرجه الى فلسفته ثم بدأ بوصف أغراضه في تأليفه المنطقية والطبيعية كتاباً كتاباً حتى انتهى به القول في النسخة الواصلة الينا الى أول العلم الالهى والاستدلال بالعلم الطبيعي عليه ولا أعلم كتاباً أجدى على طالب الفلسفة منه فانه يعرف بالمعاني المشتركة لجميع العلوم والمعاني المختصة بعلم علم منها ، ولا سبيل الى فهم معاني قاطيغوريوس وكيف الأوائل الموضوعة لجميع العلوم إلاّ منه » اهـ كلام ابن أبي أصيبعة

ومن كتبه كتاب في الآداب اسمه « السيرة الفاضلة » . وكتاب في السياسة اسمه « السياسة المدنية » . قال مؤرخو العرب عنهما إن الفارابي ألمّ فيهما بمعظم الآراء النافعة في ما وراء الطبيعة حسبما علمها أرسطو وذكر « الستة أركان المجردة » واصفاً ما تستنبطه المادة الكشيفة من تلك الأركان من الترتيب وطريقة الوصول الى العلم . وهاتيك نصيحتي كلام القفطى :

« ثم له بعد هذا في العلم الالهى وفي العلم المدني كتابان لا نظير لهما أحدهما المعروف « بالسياسة المدنية » والآخر المعروف « بالسيرة الفاضلة » عرف فيهما بالجلل عظمة من العلم الالهى على مذهب أرسطو طاليس في مبادئ الستة الزخائية وكيف يعمل على عنها الجواهر الجسمانية على ما هي عليه من النظام واتصال الحكمة لوجوهها فيقول القفطى : الانسان ، وقواه النفسانية وفرق بين الوحي والفلسفة ، ووصف طائفة الملائكة الفاضلة وغير الفاضلة واحتياج المدنية الى السيرة الملكية والنواميس النبوية ثم ختمها الله مثلاً

الفارابى والخلود

ولا ريب عندنا فى أن الفارابى ينكر بتأناً خلود النفس المفردة كما تقول به الأديان ويقول أن النفس البشرية لا تتلقى ولا تنى من العقل الفعال الا صور الموجودات وهى الصور التى تخلق وتعدم لأن النفس لا تستطيع أن تتلقى المعقولات المجردة النقية لئلا ينسب اليها التناقض لجمعها بين النقيضين وهذا رأى ابن رشد فى بيان ما تسرب الى أبى نصر من الشكوك وحق لنا أن نذكر أن هذه الشكوك بعينها هى التى تسربت الى ابن رشد ونسبت اليه وعرف بها وكفروه وسبوه وعذبوه فى قرطبة بسببها بين يدينا غير كتاب « المدينة الفاضلة » كتاب الجمع بين رأى الحكيمين أفلاطون والآلهى وارسطوطاليس قال الفارابى فى مقدمته :

« لما رأيت أكثر أهل زماننا قد تحاضوا وتنازعوا فى حدوث العالم وقدمه وإدعوا أن بين الحكيمين المتقدمين المبرزين اختلافاً فى إثبات المبدع الأول وفى وجود الأسباب منه وفى أمر النفس والتعقل وفى المجازات على الأفعال خيرها وشرها وفى كثير من الأمور المدنية والخلقية والمنطقية أردت فى مقالتى هذه أن أشرع فى الجمع بين رأييهما » (يقصد أفلاطون وأرسطو) ثم أخذ الفارابى على طريقة أفلاطون المستحدثة (نبوبلانوزيم) يوفق بين الحكيمين . وليس فى استطاعته نقض إلهيات ارسطو ولا التحول عن عقيدته الاسلامية . على أن الممعن فى هذه الرسالة يرى أن مقصد الفارابى كان دينياً محضاً ولم يكن يقصد الى خصص رأى الحكيمين وتقدهما على الطريقة المنطقية ولكنه يقصد الى تفسير العالم تفسيراً فلسفياً لا يناقض الدين الاسلامى . فاغفل الفروق الفلسفية بين الحكيمين وهى لم تكن لتخفى عليه وادعى ان الخلاف بينهما ظاهر من حيث الألفاظ وطريقة النظر . أما تعليمهما الفلسفى فواحد والتوفيق بينهما والانتفاع بآرائهما أفضل من التفاوت . ولكن هذه الرسالة لم تصل به للغاية التى كان يرمى اليها . ونصيبها فى نظرنا نصيب رسالة « تهافت الفلاسفة » التى كتبها الغزالى لمثل هذا الغرض ثم نقضها فى كتابه النادر المسمى « المضمون به على غير أهله »

جوهر بسيط ، وانها صورة قادرة على الفهم بدون حاجة الى الاستعانة بالمادة وانها ذات مظاهر ووظائف شتى

ومن مؤلفاته الباقية الى الآن غير هذه الستة ، نحو اثني عشر كتاباً في المنطق متفرقة في مكاتب أوروبا ، بعضها منقول الى اللاتينية أو العبرانية ، وأكثرها في الاسكوريال وبعض الترجمات اللاتينية مطبوع في البندقية وغيرها . وثمانية مؤلفات في السياسة والأدب منها :

- (١) مبادئ آراء أهل المدينة الفاضلة (طبع ليدن سنة ١٨٩٥)
- (٢) احصاء العلوم ، خطية في الاسكوريال ولها ترجمة لاتينية وأخرى عبرية
- (٣) السياسة المدنية (بيروت ١٩٠٢)
- (٤) تسعة كتب في الرياضيات والكيمياء والموسيقى متفرقة في مكاتب أوروبا والاستانة مع ترجماتها العبرانية أو اللاتينية
- (٥) تسعة أخرى ، في مواضيع مختلفة

ترتيب مؤلفاته بنوعها

لا يمكن ترتيب مؤلفات الفارابي بحسب تاريخ وضعها ولكن يمكن ترتيبها من حيث نوعها فمؤلفاته في علم الكلام أو مبادئ الفلسفة الطبيعية قد تكون من وضعه في صباه . أو يكون ألفها جابگنه في انتشار الحكمة بين الجمهور ، ولكن مؤلفاته القيمة هي ما كانت خاصة بفلسفة أرسطو شرحاً وتفسيراً وتحدياً وقد سمي المعلم الثاني إشارة الى أنه أفضل الحكماء بعد أرسطو الذي كان يسمى المعلم الأول ويقول الذين عرفوها وخبروها أن الفارابي لم يحور شيئاً من نظريات أرسطو وان الذي وصل منها الينا نادر وقد ورد ذكر جميع مؤلفاته في القفطى ص ١٨٢ وفي طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ١٣٨ وأحصيناها سبعة عشر شرحاً وستين كتاباً وخمسة عشر رسالة وذكر الحاج خليفة في كشف الظنون أن ندرة كتبه راجعة الى كثرة ورود ذكرها في كتب ابن سينا

في المدينة فيسلكون سبيلهم ويقعدون بسيرتهم الى أن تخلص نفوسهم وتحول أجسامهم الى العدم كما كان من أمر أسلافهم ثم ترتقى تلك النفوس المتشابهة وتتمزج ببعضها البعض . وكلما زاد عدد النفوس الخالصة من أجسادها واندججت كلها تمت سعادتها بحيث يزداد تمتع النفوس السابقة ، كلما لحقتها سواها من نوعها لأن كل نفس اذا فكرت في ذاتها وجوهرها أملت بذوات وجواهر مماثلة لها وهذه الذوات والجواهر تزداد بمرور الايام كلما التصقت نفوس حديثة العهد بتلك الوحدة النفسية بالنفوس القديمة . وبذا تزداد سعادة تلك النفوس المتحدة الى اللانهاية . وهذه السعادة هي بعينها التي تكتسبها الأجيال الواحد بعد الآخر وهذا هو النعيم الأبدى والذي يقصد اليه العقل الفعال هذا ملخص آراء « المدينة الفاضلة » ويرى اليب في تلك النبذة التي قد يغمض فهمها على البعض ان الفارابي لا يقول بخلود النفوس الاً شريطة أن تكون قد وصلت في الحياة الدنيوية الى درجة العقل المستفاد وقد يفسر قوله بما يوافق رأى القائلين بوحدة النفوس وهو مبدأ ابن باجة وابن رشد .

وكتاب « المدينة الفاضلة » طبعه في مصر (في مطبعة النيل التي بادت) الشيخ مصطفى القباني الدمشقي الخطاط المتوفى في القضايف بالسودان عام ١٩١٤

رأى ابن طفيل في وحدة النفوس

أما ابن طفيل أحد فلاسفة العرب الأشراقيين فلا يأبه لمؤلفات الفارابي فيما وراء الطبيعة . قال : ان معظم ما دونه أبو نصر كان في المنطق وأما ما اتصل بنا من كتبه في الحكمة الصحيحة مملوء بالريب والتناقض . ثم أشار ابن طفيل الى شكوك أبي نصر الفارابي في خلود النفس فقال ان الفارابي ذكر في كتابه « كتاب الملة الفاضلة » ان النفوس الخبيثة تبقى بعد الموت في عذاب أبدي ثم ذكر في سياسته ان تلك النفوس الخبيثة تتحول الى العدم ولا تخلد الاً النفوس الكاملة .

ويظهر ان كتاب « الملة الفاضلة » هو بعينه كتاب السيرة الفاضلة وقد قال الفارابي فيه ان نفوس الدهريين والمناقين والاشرار التي تفقه معنى الخير الأعلى ولا تحاول

بلوغ شأوه تبقى بعد الموت محيطة بما ينقصها لترتقى لدرجة الكمال ثم لا تستطيع أن تكمل ولا أن تهلك بل تبقى معلقة بين بين وهي تقاسى في ذلك الأمرين أما النفوس الجاهلة التي لم يصل علمها في الحياة الدنيا الى معرفة الخير الأسى فانها تعود الى العدم المطلق (نقله اسحق بن لطيف وابن فلكير)

يقول ابن طفيل : ثم ان أبا نصر الفارابي ذكر في شرحه لكتاب الأخلاق لأرسطو أن أرقى ما يصل اليه الانسان هو في هذه الدنيا وان الخير الأسى هو أيضاً في هذه الدنيا وان كل ما يقال بوجوده بعد هذه الحياة ليس الا ترهات أشبه بخرافات المعجائز

وقد أشار ابن رشد الى تلك الفقرة الأخيرة في آخر كتابه في علاقة العقل المادى بالعقل الفعال اذ ذكر أيضاً ان الانسان لا يتأني له كمال أرقى من الكمال الذى يستطيع بلوغه بالنظر في العلوم العقلية . وهذا بيان قول ابن رشد فيما يتعلق بهذه القضية فانه بعد أن ذكر ما تعترض به طائفة من الفلاسفة على امكان اتحاد عقولنا بالعقول المفارقة قال : وهذه الاعتراضات التى دعت ابا نصر في شرحه لأخلاق أرسطو الى القول بأن الانسان لا يستطيع الوصول الى درجة أرقى من التى يصل اليها بالنظر في العلوم العقلية ثم أضاف الى ذكر تلك الاستحالة قوله بأن وصول الانسان الى حالة الجوهر الفرد المجرد عن المادة ليس إلا من ترهات المعجائز. لأن ما يولد ثم يموت ليس من صفاته الخلود . هذا آخر قول ابن رشد (ابن رشد لرينان) وقد الحقت هذه النبذة بالفارابي أعظم ضرر وأدت الى تكفيره في نظر بعض المتشددى من أهل عصره ومن جاء بعده واتهموه بالقول بالتناسخ وهى تهمة مفتعلة مبتدعة سببها سوء فهم قوله فى المدينة الفاضلة ص ٩٥ طبع مصر « واذا مضت طائفة فبطلت ابدانها وخلصت أنفسها وسعدت فخلقهم ناس آخرون فى مرتبتهم بعدهم قاموا مقامهم وفعلوا أفعالهم » هذا لأن الفارابي فى مجموع الحكم انكر التناسخ انكاراً باتاً وما كان ليقول به لأنه لا ينطبق على سلسلة أفكاره ولا يتفق مع آراء استاذه أرسطو انما هو بدعة أفلاطونية استفادها الحكم اليوناني من المصريين القدماء وكررها فى كتبه

« ثم أنه أتى على العناصر المختلفة المكونة للطبيعة البشرية وخواص النفس وبين الفرق بين الوحي والحكمة ووصف الهيئات المنظمة والجماعات الغير المنظمة وأظهر حاجة المدنية الى حكومة سياسية والى شريعة دينية » هذا ملخص ما ورد في عيون الأنباء وأخبار الحكماء لابن ابي اصيبعة والقفطى ولا شك عندنا الآن في أنهما يقصدان بكتاب السياسة المدنية كتاب « المدينة الفاضلة » وقد يكون الفارابى وضع له اسمين كعادته في بعض مؤلفاته . فان كتاب السياسة يسمى أيضاً كتاب الموجودات .

أما مبادئ الموجودات الستة أو « الستة أركان المجردة » أو « مبادئ الستة الروحانية » فهي :

١ - المبدأ الالهى أو السبب الأول وهو فرد أى واحد لا يتعدد

٢ - الأسباب الثانوية أو عقول الأجرام السموية

٣ - العقل الفعال

٤ - النفس

٥ - الصورة

٦ - المادة المعنوية .

والمبدأ الأول هو بمفرده الأحدية المطلقة وما عداه متعدد والثلاثة المبادئ الأولى ليست أجراماً وليس لأحدها علاقة مباشرة بالأجرام ، والثلاثة الأخيرة ليست بذاتها أجراماً ولكنها متعلقة بها . والأجرام على ستة أنواع : أجرام الدوائر الفلكية والحيوان العاقل ، والحيوان الغير عاقل والنبات والمعادن وتلحق بها العناصر الأربعة ومجموع هذه الأنواع يكون الوجود . وبعد أن أبان الفارابى ما ذكرنا تكلم على ما يستنبط من تلك المبادئ الستة ، الى أن وصل الى الانسان فقحص نظام الجماعات البشرية ونسبتها الى غاية الوجود الانسانى من حيث القرب والبعد من الكمال الذى هو نهاية كل موجود . وقال انه لا يصل الى درجة الكمال القصوى إلا ذوو الذكاء التام والقادرون على التأثير من العقل الفعال .

وقد نشر هذا الكتاب باللاتينية في باريس عام ١٦٣٨ وفيه تقسيم العقول حسب ما ذكره ارسطو ووحدة العقل والعقل والمعقول ووحدة العقول الفعالة ومنها العقل الالهي الفعال دائماً . وقد ذكر أبو نصر في هذا الكتاب أن للفظ العقل ست معان :

الأول : المعنى المتبدل في قول الجمهور في انسان أنه عاقل

الثاني : المعنى الذي يقصده المتكلمون في قولهم هذا مما يوجبه العقل أو ينفيه

الثالث : المعنى الذي يصفه ارسطو بالتميز بين الصحيح وضده ويذكره في كتاب البرهان

الرابع : وهو الذي ذكره ارسطو في الكتاب السادس من الأخلاق وهو العقل الذي يفرق بين الخير والشر وهو يتزايد مع الانسان طول عمره

الخامس : وهو الذي ذكره ارسطو في كتاب النفس وقسمه الى عقل بالقوة وعقل بالفعل وعقل مستفاد وعقل فعال

السادس : هو العقل الذي ذكره ارسطو في المقالة السادسة من كتاب النفس وهو العقل الفعال

الفارابي والالهيات

كل موجود في نظر الفارابي اما ضروري واما ممكن وليس هناك ثالث لهذين الإثنين وحيث أن كل ممكن يستدعي فرض سبب لوجوده وان سلسلة الأسباب لا يمكن أن تكون بغير نهاية فلا بد من الاعتقاد بوجود كائن موجود بطبيعته بغير سبب ومالك لأعلى درجات الكمال وممتلئ بالحقيقة الأزلية ومكتشف بذاته بلا تغيير ولا تبديل . وهو بصفته عقلاً مطلقاً وخيراً خالصاً وفكراً تاماً يحب الخير والجمال (القول في واجب الوجود ص ٦ وما بعدها « المدينة الفاضلة ») . ولا يمكن إقامة الدليل على وجود هذا الكائن لأنه هو التصديق والبرهان ولأنه العلة الأولى لكل الأشياء وفيه تجتمع الحقيقة والصدق ويلتقيان . ولأنه أكمل الكائنات واحد فرد لا يتعدد وهذا الوجود الأول

المنفرد ، الحقيقي الوجود هو « الله » ومن هذا الكائن الأول ينبعث مثاله أو صورته « الكل الثانى » أو الروح المخلوق الأول الذى يحرك الجرم السماوى الخارجى . وبعد هذا الروح تنبعث عن بعضها البعض الأرواح الثمانية الجرمية التى كلها وحيدة فى تعدد أنواعها وكاملة وهذه هى خالقة الأجرام السماوية . وهذه التسعة أجرام السماوية تسمى الأفلاك العلوية وتكوّن الدرجة الثانية للوجود . وفى الدرجة الثالثة يوجد العقل الفعال فى الانسانية المسمى بالروح القدس وهو الذى يصل السماء بالأرض . وفى الدرجة الرابعة توجد النفس الانسانية . وهذان الاثنان العقل والنفس لا يبقيان بنفسيهما فى وحدتهما الأصلية الدقيقة ولكنهما يتعددان تعدد بنى آدم ثم يكون من ذلك الشكل والمادة وهما المدرجتان الخامسة والسادسة وبهما يقفل باب الدرجات الروحية

ومن هذه الدرجات ، الست الثلاث الأولى منها ، أرواح بذاتها ولكن الثلاث التالية النفس والشكل والمادة وإن كانت غير جرمية إلا أن لها صلة بالجسم الانسانى وللجسم الذى أصله فى صورة الروح ست درجات ، الأجسام السماوية ، وبدن الانسان ، وأبدان الحيوانات النارية ، وأبدان النباتات ، والمعادن ، والابدان الأولية والاهيات الفارابى مستمدة من ارسطو ومكتوبة على طريقته المنطقية كقوله « الموجود الأول هو السبب الأول لوجود سائر الموجودات كلها وهو برىء من جميع أنحاء النقص فوجوده أفضل الوجود وأقدم الوجود ولذلك لا يمكن أن يشوب وجوده وجوهره عدم أصلاً والعدم والضد لا يكونان إلا فيما دون فلك القمر » والاهيات ارسطو نقلها الكندى الى العربية

تقسيم قوى النفس

قوى النفس فى نظر الفارابى متدرجة فالقوة السفلى هى مادة للقوة العليا . والعليا صورة للسفلى وأرقى هذه القوى جميعاً الفكر وهو غير مادى وهو صورة لجميع الصور السالفة والنفس ترتفع عن الموجودات المحسوسة الى الفكر بقوة التصور والمثيل وفى كل قوة من قوى النفس يمكن المجهود أو الإرادة

ولكل نظرية وجه يناقضها فى العمل
ولا يمكن فصل الميل والنفور عن الإدراكات التى تعطىها الحواس والنفس تقبل أو
ترفض بحسب ما يمثل لها بواسطة الحواس

ثم أن الفكر يحكم على الخير والشر ويعطى للإرادة الأسباب التى تعمل عليها ويهتدى
الفنون والعلوم وكل إدراك أو تمثيل أو فكر لا بد له من مجهود ليصل الى النتيجة
الضرورية كما تنبعث الحرارة من النار . والنفس تكمل وجود الجسم والذى يكمل النفس
هو العقل والعقل هو الانسان

العقل موجود فى روح الطفل ويصير عقلاً فعالاً أثناء إدراكه الأشكال الجسمية
بالخبرة بطريق الحواس وقوة التمثيل والتصوير

فتحقيق التجارب والخبرة ليس من فعل الانسان ولكنه نتيجة عمل الروح الذى
فوق الانسان فعلم الانسان صادر من العلى وليس علماً متحصلاً عليه بمجهود عقلى أى
أنه معطى من الله وليس كسبياً بفعله (مذهب الافتطار)

فلسفته الأخلاقية

الأخلاق فى نظره أساس السلوك . وهو يوافق أفلاطون حيناً وحيناً أرسطو وقد
يسبقهما بفضل تقاء النفس الذى اكتسبه من التصوف ويخالف أهل الدين فى قولهم
إن الأخلاق تصدر عن العلوم الشرعية ويثبت فى مواطن شتى أن العقل وحده قادر
على التمييز بين الخير والشر وان العقل الموهوب للانسان جدير بان يبين لنا خطة السلوك
المثللى لا سيما وان العلم هو أعظم الفضائل وفى هذا القول الأخير تطبيق لمذهب أفلاطون
الذى يعتبر المعرفة رأس المفضيلة

ومن أمثاله أن الواقف على مبادئ أرسطو وتأليفه ثم لا يسلك سلوكاً منطبقاً على
ما جاء بها أفضل ممن كان جاهلاً بها وسلك سلوكاً منطبقاً عليها ذلك لأن المعرفة أفضل
من الفعل الفاضل وإلا ما استطاعت المعرفة أن تميز بين الفعل الفاضل وضده ففوة التمييز

القائمة بها دليل على فضلها . ويقول بأن النفس بطبيعتها ذات شهوات شتى وأن إرادتها على قدر إدراكها وتصورها ومثل الانسان في ذلك مثل الحيوانات الدنيا . ولكن تمييز الانسان بالعقل جعل له حرية الخيار فهو يفعل ما يميله عليه عقله ويسأل عن أفعاله بفضل هذا التمييز

الفارابي والموسيقى

أضاف الفارابي الى حب الحكمة شغفاً زائداً بالموسيقى ويروى من أخباره أن سيف الدولة كان من المعجبين بتخنته في الأنغام وقد أفاد العرب صنع آلات الطرب ووضع قواعد التوقيع . وروى ابن أبي أصيبعة أنه صنع آلة اذا وقع عليها أحدثت انفعالاً في النفس فيضحك السامع ويبكيه ويستغفه ويستغفره وقال بعضهم أنها شبيهة بالقانون المعروف لهدنا هذا أو هي القانون بذاته ومن مؤلفاته كتابان في الموسيقى الأول يشمل بياناً كافياً لنظريات علم الأنغام وقد خصه العلامة كورسجارتن المستشرق وحله

قال أبو نصر في مقدمة كتابه « أنه استنبط طريقة خصيصة به ولم يقلد أحداً » ثم أخذ يبين طبيعة الأصوات وتوافقها وطبقات الوقف وأنواع الأنغام والأوزان والهرج وذكر أنه وضع كتاباً آخر خصه بوصف طرائق الأقدمين وجاء بالنسخة المحفوظة بالاسكوريال أن الفارابي شرح آراء الأقدمين وبين ما أحدثه كل عالم من علماء الموسيقى وصحح أغلاطهم وملأ الفراغ الذي تركوه في تلك الصناعة

ولما كان قد إهتدى بالعلوم الطبيعية الى ما لم يهتد اليه فيثاغورس وتلاميذه فقد أخذ يبين خطأهم فيما تخيلوه من أصوات الكواكب وألفة الأنغام السموية ثم شرح تأثير تموج الهواء في رنات الأوتار معتمداً على التجارب وأرشد الى وسائل صنعها بحيث يمكن إخراج الأصوات المرغوبة . وبالجملة « كان في علم صناعة الموسيقى وعملها قد وصل الى غايتها وأتقنها اتقاناً لا مزيد عليه » (القاضي صاعد)

أسلوبه الكتابي

كان أسلوبه بالعربية دقيقاً رقيقاً مع أنه كان فارسى الأصل ويؤخذ عليه حبه للمترادفات مما يؤدي في بعض الأحيان الى التوسع في المعاني الفلسفية التي تحتاج الى التحديد والتعيين وتفيد كل معنى بلفظه وكل لفظ بمعناه
وهما نحن ننقل نبذاً وجيزة من انشائه تدل على أسلوبه
قال في اسم الفلسفة :

« اسم الفلسفة يوناني وهو دخيل في العربية وهو على مذهب لسانهم فيلسوفياً ومعناه ايثار الحكمة والفيلسوف مشتق من الفلسفة وهو على مذهب لسانهم فيلسوفوس فان هذا التعبير هو تغيير كثير من الاشتقاقات عندهم ومعناه المؤثر للحكمة والمؤثر للحكمة عندهم هو الذي يجعل الوجد من حياته وغرضه من عمره الحكمة »

وقال في تاريخ ظهور الفلسفة ما هذا نصه : « ان أمر الفلسفة اشتهر في أيام ملوك اليونانيين وبعد وفاة ارسطوطاليس بالاسكندرية الى آخر أيام المرأة وأنه لما توفي بقي التعليم بحاله فيها الى أن ملك ثلاثة عشر ملكاً توالى في مدة ملكهم من معلمى الفلسفة اثنا عشر معلماً أحدهم المعروف باندرونيقوس وكان آخر هؤلاء الملوك المرأة فغلبها أوغسطوس الملك من أهل رومية وقتلها واستحوذ على الملك فلما استقر له نظر في خزائن الكتب وصنعها فوجد فيها نسخاً لكتب ارسطوطاليس قد نسخت في أيامه وأيام تاوفرستس . ووجد المعلمين والفلاسفة قد عملوا كتباً في المعاني التي عمل فيها ارسطو فأمر أن تنسخ تلك الكتب التي كانت نسخت في أيام ارسطو وتلاميذه وأن يكون التعليم منها وأن ينصرف عن الباقي وحكم اندرونيقوس في تدبير ذلك وأمره أن ينسخ نسخاً يحملها معه الى رومية ونسخاً يبقيا في موضع التعليم بالاسكندرية . وأمره أن يستخلف معلماً يقوم مقامه بالاسكندرية ويسير معه الى رومية فصار التعليم في موضعين وجرى الأمر على ذلك الى أن جاءت النصرانية فبطل التعليم من رومية وبقي

بالاسكندرية الى أن نظر ملك النصرانية في ذلك واجتمعت الأساقفة وتشاوروا فيما يترك من هذا التعليم وما يبطل فأرأوا أن يعلم من كتب المنطق الى آخر الأشكال الوجودية ولا يعلم ما بعده لأنهم رأوا أن في ذلك ضرراً وأن فيما أطلقوا تعليمه ما يستعان به فبقى الظاهر من التعليم هذا المقدار ما ينظر فيه وصار الباقي مستوراً الى أن كان الاسلام بعده بمدة طويلة فانتقل التعليم من الاسكندرية الى انطاكية وبقى بها زمناً طويلاً الى أن بقي معلم واحد فتعلم منه رجلان وخرجا ومعهما الكتب فكان أحدهما من أهل حران والآخر من أهل مرو . فأما الذي من أهل مرو فتعلم منه رجلان أحدهما ابراهيم المروزى والآخر يوحنا بن حيلان . وتعلم من الحراني اسرائيل الأسقف وقويرى وسار الى بغداد فتشاغل ابراهيم بالدين وأخذ قويرى في التعليم وأما يوحنا ابن حيلان فانه تشاغل أيضاً بدينه وانحدر ابراهيم المروزى الى بغداد فأقام بها وتعلم من المروزى متى بن يوان وكان الذي يتعلم في ذلك الوقت الى آخر الأشكال الوجودية « ١ هـ



✽ إيضاح لفلسفة الفارابي ✽

ملخص لها ونصوص منها

١ - حياته وأخلاقه

كان الفارابي رجلاً هادئاً عاكفاً على حياة الفلسفة والتأمل ، محمياً بالأقوياء من الأمراء الذين لجأ اليهم ، وقد انتهى بأن صار في أخريات أيامه متصوفاً .

كان أبوه قائداً فارسياً ، وقد ولد بوسيج إحدى قلاع فاراب ، في بلاد التركستان . وقد تلقى العلم في بغداد على عالم مسيحي اسمه يوحنا بن جيلان ، واشتمل تعليمه على الأدب والرياضيات ، واللغات التي عرفها العربية والتركية والفارسية . وهذا ظاهر من مؤلفاته وقد نسب إليه أهل عصره ، انه كان خبيراً بلغات الأرض جميعاً وهي نحو سبعين لغة ولكن لم يقم على هذا دليل .

وقد عاش طويلاً واشتغل بالعلم في بغداد ثم ذهب الى حلب بسبب اضطرابات سياسية حيث أقام في ظلال بلاط الأمير سيف الدولة ، ولكنه في الأيام الأخيرة من حياته اعتزل خدمة الأمراء وعاش معتكفاً . وتوفي في دمشق في أثناء رحلة له ، وكان ذلك في شهر ديسمبر من عام ٩٥٠ م . ويقال أن أميره تيزا بزى صوفي وابنه على قبره تشريفاً لقدره ويقال انه كان عند وفاته في الثمانين من عمره . وقد توفي رفيقه في الدرس أبو بشر متى قبله بمشر سنين . أما تلميذه أبو زكريا يحيى بن عدى فقد توفي عام ٩٧١ م . في الأولى والثمانين من عمره .

وأم مؤلفاته ما كان خاصا بفلسفة أرسطو وشرحها والتأليف على نسقها . ومن مؤلفاته كتاب التوفيق بين الحكيمين أفلاطون وأرسطو ، وقد حاول في هذه الرسالة التوفيق بين آراء الحكيمين وبين عقائد الاسلام ومبادئه ، وهو يقول ان الخلاف الظاهر بين الحكيمين راجع حتما الى طريقة النظر والتأليف ، والى مسائل الحياة العملية . أما تعاليمهما الخاصة بالحكمة فهي متفقة وهما إماما الفلسفة . وكان الفارابي يفضل صفاء النفس على كل صفة ويقول انه ثمرة الفلسفة وكان يقول بحب الحق ولو كان الرأي المقول به مخالفاً لآراء أرسطو والأمور التي اشتغل بالتأليف فيها هي المنطق ، وما وراء الطبيعة والطبيعات ثم الأخلاق والسياسيات .

٢ - الكلام على منطق الفارابي

يقسم الفارابي المنطق الى قسمين : وهما التصور والتصديق ؛ وقد أدخل في التصور طائفة الافكار والتعريفات ، وفي التصديق الاستدلال والرأى . والتصور لا يتجتم فيه الصدق أو الكذب . ويعتبر الفارابي من الأمور الداخلة في دائرة الأفكار أبسط الاشكال النفسانية ، وكذلك الأفكار التي طبعت في ذهن الانسان منذ البداية : مثل الضروري والواقع والممكن وهذه أمور يمكن توجيه عقل الانسان اليها ، ولكن لا يمكن شرحها له ، لما هي عليه من الظهور والجلاء ، وبالتوفيق بين التصور والافكار تنتج الاراء . والآراء كذلك قد تكون صادقة أو كاذبة ولأجل الحصول على أساس للاراء لابد من الرجوع الى عملية الاستدلال والتصديق ، ولبعض الفروض المعقولة للدراك وهي وانحى بذاتها مباشرة وغير محتاجة الى تأكيد أو اثبات كالبديهيات في الرياضة وبعض الاوليات فيما وراء الطبيعة والآداب ونظرية التصديق الذي بواسطته تنتقل من المعلوم والثابت الى معرفة ما كان مجهولاً ، هي المنطق بعينه في رأى الفارابي

٣ - الاهليات (ما وراء الطبيعة)

كل موجود في نظر الفارابي اما ضرورى أو ممكن ؛ وليس هناك ثالث لهذين الاثنين وحيث أن كل ممكن يستدعى فرض سبب لوجوده ، وحيث أن سلسلة الاسباب لا يمكن أن تكون بغير نهاية ، فلا بد لنا من الاعتقاد بوجود كائن موجود بطبيعته بغير سبب ، ومالك لأعلى درجات الكمال ، ومتملىء بالحقيقة الازلية ، ومكتف بذاته بلا تغيير ، ولا تبديل وهو بصفته عقلاً مطلقاً وخيراً خالصاً وفكراً تاماً يحب الخير والجمال . ولا يمكن اقامة الدليل على وجود هذا الكائن ؛ لانه هو التصديق والبرهان ولانه العلة الاولى لكل الاشياء وفيه تجتمع الحقيقة والصدق ويلتقيان

ولانه اكمل الكائنات ، فهو احد فرد لا يتعدد وهذا الوجود الاول المنفرد الحقيقى الوجود ندعوه الله .

ومن هذا الكائن الاول ينبعث مثاله أو صورته « الكل الثانى » أو الروح المخلوق الاول الذى يحرك الجرم السماوى الخارجى . وبعد هذا الروح تنبعث عن بعضها البعض الارواح الثمانية الجرمية التى كلها وحيدة في تعدد أنواعها وكاملة . وهذه هي خالقة الأجرام السماوية وتسمى الافلاك العلوية وتكون الدرجة الثانية للوجود ، وفي الدرجة الثالثة يوجد العقل

الفعال في الانسانية المسمى بالروح القدس ، وهو الذى يصل السماء بالارض ، وفي الدرجة الرابعة توجد النفس الانسانية ، وهذان الاثنان العقل والنفس لا يبقيان بنفسهما في رحدهما الاصلية الدقيقة ، ولكنهما يتعددان بتعدد بنى آدم ، ثم يكون بعد ذلك الشكل والمادة وهما الدرجتان الخامسة والسادسة ، وبهما يقفل باب الدرجات الروحية

ومن هذه الدرجات الست الثلاث الاولى منها ، هي ارواح بذاتها ولكن الثلاث التالية النفس والشكل والمادة وإن كانت غير جرمية الا أن لها صلة بالجسم الانسانى . وللجسم الذى أصله في خيال الروح ست درجات : الاجسام السماوية وابدان الحيوانات النازلة وابدان النباتات والمعادن والابدان الاولى .

٤ - تقسيم قوى النفس أو بسيكولوجيا

قوى النفس في نظر الفارابي متدرجة ؛ فالقوة السفلى هي مادة للقوة العليا ، والعليا شكل للسفلى ، وارقى هذه القوى جميعاً الفكر ، وهو غير مادي وهو شكل لكل الاشكال السابقة وحياة النفس ترتفع من الاحساس بالاشياء الى الفكر بقوة التصور والتمثيل ، وفي كل القوى يوجد المجهود او الارادة ، ولكل نظرية وجه يناقضها في العمل ولا يمكن فصل الميل والنفور عن الادراكات التي تعطيها الحواس والنفس تقبل او ترفض بحسب ما يمثل لها بواسطة الحواس .

ثم ان الفكر يحكم على الخير والشر ويعطى للارادة الاسباب التي تعول عليها ويكون الفنون والعلوم

وكل ادراك او تمثيل او فكر لا بد له من مجهود ليصل الى النتيجة الضرورية كما تنبعث الحرارة من النار . والنفس تكمل وجود الجسم والذى يكمل النفس هو العقل والعقل هو الانسان

العقل موجود في روح الطفل ويصير عقلاً فعالاً اثناء ادراكه الاشكال الجرمية بالخبرة بطريق الحواس وقوة التمثيل والتصوير

فتحقيق التجارب والخبرة ليس من فعل الانسان ولكنه نتيجة عمل الروح الذى فوق الانسان . فلم الانسان ناشئ من فوق وليس علماً متحصلاً عليه بمجهود عقلى اى انه معطى من الله وليس كسبياً بفعل بنى آدم

٥ - رأيه في الأخلاق

الاخلاق تبحث في اساس السلوك ويتفق الفارابي بعض الاحيان مع افلاطون وبعض الاحيان مع ارسطو وقد يسبقهما في بعض الاحيان

وهو يخالف علماء الدين القائلين بأن الاخلاق الدينية تنبعث عن العلوم الدينية ويقول بقوة في عدة مواضع من مؤلفاته ان العقل وحده يفصل بين الخير والشر ، ويميز بينهما فلماذا لا يحدد لنا هذا العقل الذي أعطى لنا من العلى السلوك الذى يجب علينا اتباعه لاسيما وان العلم (المعرفة) هو أعظم الفضائل !

ويقول بصراحة انه لو وجد رجلان : أحدهما واقف على مبادئ وتآليف ارسطو ولكنه لا يسلك سلوكا منطبقا على ما جاء في هذه المؤلفات والآخر يسلك سلوكا منطبقا على مبادئ هذا الفيلسوف ولكنه جاهل بمؤلفاته ، فان الفارابي يفضل الاول على الثانى لان المعرفة أفضل من الفعل الفاضل والا ما استطاعت المعرفة أن تميز بين الفعل الفاضل وغيره ان النفس بطبيعتها تشتهي ولها ارادة على قدر ادراكها وتصورها وهى في ذلك كالحوانات النازلة ولكن الانسان وحده له حرية الخيار

٦ - سياسيات الفارابي

المثل الاعلى للحكومة في نظر الفارابي هو الذى يكون الحاكم فيه فيلسوفا . وان الناس اجتمعوا بضرورة الاجتماع ويضعون أنفسهم تحت ارادة فرد يمثل الحكومة وأفضل الحكومات ما كانت متصلة بهيأة دينية أى ان تكون الحكومة مسيطرة على أمور الامة الدينية والدنيوية (راجع آراء المدينة الفاضلة) وكانت فلسفة الفارابي روحانية محضة فماش ملكا في عالم العقل متسولا في عالم الحياة المادية وكانت فلسفته لا تعطى شيئا مما تتطلبه الحواس

٧ - تلاميذه

تلاميذه م زكريا يحيى بن عدى مسيحي يعقوبى اشتهر بترجمة مؤلفات ارسطو ، وقد تلقى عليه العلم أبو سليمان محمد بن طاهر السجستاني الذى التف حوله علماء عصره وهو النصف الاخير من القرن العاشر ، ببغداد وقد وصلت فلسفة الفارابي مع تلاميذه الى علم الكلام وانتهت الحال بهم كما انتهت باخوان الصفاء الى فلسفة صوفية

٨ - القول في أجزاء النفس الإنسانية وقواها

إذا حدث الإنسان فأول ما يحدث فيه القوة التي بها يتغذى ، وهي القوة الغذائية ، ثم من بعد ذلك القوة التي بها يحس الملموس ، مثل الحرارة والبرودة وسائرها ، التي بها يحس الطعومة والتي بها يحس الروائح ، والتي بها يحس الأصوات ، والتي بها يحس الألوان ، والمبصرات ، وكلها مثل الشعاعات ؛ ويحدث مع الحواس بها نزاع إلى ما يحسه ، فيشتاقه أو يكرهه ؛ ثم يحدث فيه بعد ذلك قوة أخرى يحفظ بها ما رسم في نفسه من المحسوسات بعد غيبتها عن مشاهدة الحواس لها . وهذه هي القوة المتخيلة ، فهذه تتركب المحسوسات بعضها إلى بعض ، وتفصل بعضها عن بعض ، تركيبات وتفصيلات مختلفة بعضها كاذبة ، وبعضها صادقة ، ويقترن بها نزوع نحو ما يتخيله ؛ ثم من بعد ذلك يحدث فيه القوة الناطقة التي بها يمكن أن يعقل المقولات ، وبها يميز بين الجميل والقبيح ، وبها يحوز الصناعات والعلوم وبها أيضاً نزوع نحو ما يعقله ، فالقوة الغذائية منها قوة واحدة رئيسة ، ومنها قوى هي رواضخ لها وخدم :

فالقوة الغذائية الرئيسة هي من أعضاء البدن في الفم والرواضخ والخدم متفرقة في سائر الأعضاء ، وكل قوة من الرواضخ والخدم فهي في عضو ما من سائر أعضاء البدن ؛ والرئيسة منها هي بالطبع مدبرة لسائر القوى ، وسائر القوى يتشبه بها ويحتذى بأفعالها حذواً هو بالطبع غرض رئيسها الذي في القلب . وذلك مثل المعدة والكبد والطحال والأعضاء الخادمة هذه والأعضاء التي تخدم هذه الخادمة والتي تخدم هذه أيضاً ؛ فإن الكبد عضو يرأس ويراس بالقلب ويرأس المرارة والكلية ، وأشباههما من الأعضاء ، والمثانة تخدم الكلية ، والكلية تخدم الدم والكبد ، والكبد يخدم الكلية ، وعلى هذا توجد سائر القوى

والقوة الحاسة فيها رئيس ، وفيها رواضخ ، ورواضخها هي هذه الحواس الخمس المشهورة عند الجميع ، المتفرقة في العينين والأذنين وسائرها وكل واحدة من هذه الخمس تدرك حساً ما يخصها ، والرئيسة منها هي التي اجتمع فيها جميع ما تدركه الخمس بأسرها ، وكأن هذه الخمس هي منذرات تلك ، وكأن هؤلاء أصحاب أخبار كل واحد منهم وكل بجنس من الأخبار وbacher ناحية ما من نواحي المملكة .

والرئيسة كأنها هي الملك الذي يجتمع عنده أخبار نواحي مملكته من أصحاب أخباره . والرئيسة من هذه أيضاً هي في القلب .

والقوة المتخيلة ليس لها روضح متفرقة في أعضاء آخر ، بل هي واحدة وهي أيضاً في القلب وهي تحفظ المحسوسات ومتحركة عليها ، وذلك انها تفرد بعضها عن بعض ، وتركب بعضها الى بعض تركيبات مختلفة يتفق في بعضها أن تكون موافقة لما حس ، وفي بعضها أن تكون مخالفة للمحسوس .

وأما القوة الناطقة فلا روضح ولا خدم لها من نوعها في سائر الأعضاء ؛ بل انما رئاستها على سائر القوى المتخيلة . والرئيسة من كل جنس فيه رئيس ومروؤوس ، فهي رئيسة القوى المتخيلة ورئيسة القوى الحاسة والرئيسة منها . ورئيسة القوى الغاذية الرئيسة منها ، والقوى النزوعية وهي التي تشتاق الى الشيء وتكرهه فهي رئيسة ولها خدم . وهذه القوة هي التي بها تكون الارادة . فالارادة هي نزوع إلى ما ادرك وعن ما أدرك : اما بالحس ، واما بالتخيل ، واما بالقوة الناطقة ، وحكم فيه أنه ينبغي أن يؤخذ أو يترك .

والنزوع قد يكون الى علم شيء ما ، وقد يكون الى عمل شيء ما ، أما بالبدن بأسره وأما بعضو ما منه . والنزوع انما يكون بالقوة النزوعية الرئيسة ، والاعمال بالبدن تكون بالقوة تخدم بالقوة النزوعية ؛ وتلك القوة متفرقة في أعضاء أعدت لأن يكون بها تلك الافعال : منها أعصاب ومنها عضل سارية في الأعضاء التي تكون لها الافعال التي يكون نزوع الحيوان والانسان اليها ؛ وتلك الأعضاء مثل اليدين والرجلين وسائر الأعضاء التي يمكن أن تتحرك بالارادة .

فهذه القوى التي في أمثال هذه الأعضاء هي كلها آلات جسمانية وخادمة للقوى النزوعية الرئيسة التي في القلب وعلم الشيء قد يكون بالقوة الناطقة ، وقد يكون بالتخيلة ، وقد يكون بالاحساس ، فاذا كان النزوع الى علم شيء شأنه أن يدرك بالقوة الناطقة ، فإن الفعل الذي ينال به ما تشوق من ذلك يكون قوة ما أخرى في الناطقة ، وهي القوة الفكرية وهي التي بها الفكرة والروية والتأمل والاستنباط .

واذا كان النزوع الى علم شيء ما يدرك باحساس ، كان الذي ينال به فعل مركب من فعل بدني ومن فعل نفساني في مثل الشيء الذي تشوق رؤيته ، فانه يكون برفع الاجفان ، وبان نحاذي أبصارنا نحو الشيء الذي تشوق رؤيته . فان كان الشيء بعيداً مشينا اليه ، وان كان دونه حاجز أزلنا بأيدينا ذلك الحاجز ، فهذه كلها أفعال بدنية . والاحساس بنفسه فعل نفساني وذلك في سائر الحواس ، واذا تشوق تخيل شيء ما نيل ذلك من وجوه :

احدهما يفعل بالقوة المتخيلة مثل تخيل الشيء الذي يرجى ويتوقع ، أو تخيل شيء مضى أو تمنى شيء ما تركته القوة المتخيلة

والثاني ما يروج على القوة المتخيلة من احساس شيء ما ، فيتخيل اليه من ذلك أمر ما انه مخوف أو مأمول أو ما يرد عليه من فعل القوة الناطقة فهذه هي القوى النفسانية .

٩ - القول في القوة الناطقة كيف تعقل وما سبب ذلك

ويبقى بعد ذلك أن نرسم في الناطقة رسوم أصناف المعقولات ، والمعقولات التي شأنها أن ترسم في القوة الناطقة ، منها المعقولات التي هي في جواهرها عقول بالفعل ، ومعقولات بالفعل وهي الأشياء البريئة من المادة . ومنها المعقولات التي ليست بجواهرها معقولة بالفعل مثل الحجارة والنبات .

وبالجملة كل ما هو جسم أو في جسم ذي مادة ، والمادة نفسها وكل شيء قوامه بها ؛ فإن هذه ليست عقولا بالفعل ولا معقولات بالفعل ، وأما العقل الانساني الذي يحصل له الطبع في أول أمره ؛ فإن ما في هيئته مادة معدة لأن تقبل رسوم المعقولات فهي بالقوة عقل وعقل هيولاني . وهي أيضاً بالقوة معقولة ، وسائر الأشياء التي في مادة . أو هي مادة أو ذوات مادة ، فليست هي عقولا لا بالفعل ولا بالقوة ، وإكبتها معقولات بالقوة ، ويمكن أن تصير معقولات بالفعل وليس في جواهرها كفاية في أن تصير من تلقاء أنفسها معقولات بالفعل ولا أيضاً في القوة الناطقة ولا فيما أعطى الطبع كفاية في أن تصير من تلقاء نفسها عقلا بالفعل ، بل تحتاج أن تصير عقلا بالفعل الى شيء آخر ينقلها من القوة الى الفعل ، وانما تصير عقلاً بالفعل اذا حصلت فيها المعقولات وتصير المعقولات التي بالقوة معقولات بالفعل اذا حصلت معقولة للعقل بالفعل ، وهي تحتاج الى شيء آخر ينقلها من قوة الى أن يصيرها بالفعل ، والفاعل الذي ينقلها من القوة الى الفعل هو ذات ما جوهره عقل ما بالفعل ، ومفارق المادة ، فإن ذلك العقل يعطى العقل الهيولاني الذي هو بالقوة عقل ، شيئاً ما بمنزلة الضوء الذي تعطيه الشمس البصر ، لأن منزلته من العقل الهيولاني منزلة الشمس من البصر ، فإن البصر هو قوة وهيئة ما في مادة وهو من قبل أن يبصر فيه بصر بالقوة والالوان من قبل أن تبصر مبصرة مرئية بالقوة .

وليس في جوهر القوة الباصرة التي في العين كفاية في أن تصير بصراً بالفعل ، ولا في جواهر الألوان كفاية في أن تصير مرئية مبصرة بالفعل .

فان الشمس تعطى البصر ضوءاً أيضاً به وتعطى الألوان ضوءاً تضاء بها ، فيصير البصر بالضوء الذى استفاده من الشمس مبصراً بالفعل وبصيراً بالفعل ، وتصير الألوان بذلك الضوء مبصرة مرئية بالفعل بعد أن كانت مبصرة مرئية بالقوة ؛ كذلك هذا العقل الذى بالفعل يفيد العقل الهولانى شيئاً ما يرسمه فيه ، فنزلة ذلك الشيء من العقل الهولانى منزلة الضوء من البصر ، وكما أن البصر بالضوء نفسه يبصر الضوء الذى هو سبب ابصاره ، ويبصر الشمس التى هى سبب الضوء فيه بعينه ويبصر الاشياء التى هى بالقوة مبصرة فتصير مبصرة بالفعل ، كذلك العقل الهولانى . كذلك ، فانه بذلك الشيء الذى منزلة منه منزلة الضوء من البصر ، يعقل ذلك الشيء نفسه وبه يعقل العقل الهولانى العقل بالفعل الذى هو سبب ارتسام ذلك الشيء فى العقل الهولانى وبه تصير الأشياء التى كانت معقولة بالقوة معقولة بالفعل ، ويصير هو أيضاً عقلاً بالفعل بعد أن كان عقلاً بالقوة .

وفعل هذا العقل المفارق فى العقل الهولانى يشبه فعل الشمس فى البصر ؛ فلذلك سمي العقل الفعال ، ومرتبته فى الاشياء المفارقة التى ذكرت من دون السبب الاول المرتبة العاشرة ، ويسمى العقل الهولانى العقل المنفعل

واذا حصل فى القوة الناطقة عن العقل الفعال ذلك الشيء الذى منزلة منها بمنزلة الضوء من البصر حصلت المحسوسات حينئذ عن التى هى محفوظة فى القوة المتخيلة معقولة فى القوة الناطقة وتلك هى المعقولات الاولى التى هى مشتركة لجميع الناس : مثل أن الكل أعظم من الجزء ، وأن المقادير المساوية للشيء الواحد متساوية والمعقولات الاولى المشتركة ثلاثة أصناف صنف أوائل للهندسة العلمية ، وصنف أوائل يوقف بها على الجميل والقيح مما شأنه أن يعمله الانسان ، وصنف أوائل يستعمل فى ان يعلم بها أحوال الموجودات التى ليس شأنها أن يعقلها الانسان ومبادئها ومراتبها مثل السموات والسبب الاول وسائر المبادئ الاخر وما شأنه أن يحدث عن تلك المبادئ .

١٠ - القول فى الفرق بين الارادة والاختيار وفى السعادة

فعند ما تحصل هذه المعقولات للانسان ، يحدث له بالطبع تأمل وروية وذكر وتشوق الى الاستنباط ، ونزوع الى بعض ما عقله وتشوق اليه ؛ وإلى بعض ما يستنبطه أو كراهته ؛ والنزوع الى ما أدركه بالجملة هو الارادة . فان كان ذلك عن احساس أو تخيل سمي بالاسم العام وهو الارادة ؛ وان كان ذلك عن روية أو عن نطق فى الجملة سمي بالاختيار ، وهذا

يوجد في الانسان خاصة . وأما النزوع عن احساس أو تخيل ، فهو أيضاً في سائر الحيوان ، وحصول المعقولات الأولى للانسان هو استكماله الأول وهذه المعقولات انما جعلت له ليستعملها في أن يصير الى استكماله الاخير

وذلك هو السعادة ، وهي أن تصير نفس الانسان من الكمال في الوجود الى حيث لا تحتاج في قوامها إلى مادة ، وذلك أن تصير في جملة الأشياء البريئة عن الاجسام ، وفي جملة الجواهر المفارقة للمواد ، وأن تبقى على تلك الحال دائماً أبداً ؛ إلا أن رتبها تكون دون رتبة العقل الفعال .

وانما تبلغ ذلك بأفعال ما ارادية : بعضها أفعال فكرية ، وبعضها افعال بدنية ، وليست بأى أفعال اتفقت ، بل بأفعال ما محدودة مقدرة تحصل عن هيئات ما ، وملكات ما مقدرة محدودة .

وذلك أن من الأفعال الارادية ما يعوق عن السعادة ، والسعادة هي الخير المطلوب لذاته ، وليست تطلب أصلاً ولا في وقت من الاوقات لينال بها شيء آخر ، وليس وراءها شيء آخر يمكن أن يناله الانسان أعظم منها .

والأفعال الارادية التي تنفع في بلوغ السعادة هي الافعال الجميلة ؛ والهيئات والملكات التي تصدر عنها هذه الافعال هي الفضائل . وهذه هي خيرات لا لأجل ذواتها بل انما هي خيرات لأجل السعادة .

والافعال التي تعوق عن السعادة هي الشرور ، وهي الافعال القبيحة ، والهيئات والملكات التي عنها تكون هذه الافعال هي النقائص والذائل والحسائس

فالقوة الغاذية التي في الانسان انما جعلت لتخدم البدن ، وجعلت الحاسة والمتخيلة لتخدما البدن ولتخدما القوة الناطقة وخدمة هذه الثلاثة للبدن راجعة الى خدمة القوة الناطقة ، اذ كان قوام الناطقة أولاً بالبدن ، والناطقة منها عملية ومنها نظرية : والعملية جعلت لتخدم النظرية والنظرية لا تخدم شيئاً آخر بل ليتوصل بها الى السعادة ؛ وهذه كلها مقرونة بالقوة النزوعية ، والنزوعية تخدم الحاسة وتخدم المتخيلة وتخدم الناطقة ، والقوى الخادمة المدركة ليس يمكنها أن توفى الخدمة والعمل إلا بالقوة النزوعية .

فان الاحساس والتخيل والروية ليست كافية في أن تفعل دون أن يقترب الى ذلك تشوق الى ما أحس او تخيل أو تروى فيه وعلم ؛ لأن الارادة هي أن تنزع بالقوة النزوعية

الى ما أدركت ، فاذا علمت بالقوة النظرية ، السعادة ، ونصبت غايتها وتشوقت بالنزوعية واستنبطت بالقوة المروية ما ينبغي أن تعمل حتى تقبل بمعاونة المتخيلة ، والحواس على ذلك ، ثم فعلت باللات القوة النزوعية تلك الأفعال . كانت أفعال الانسان كلها خيرات وجميلة ، فاذا لم تعلم السعادة أو علمت ولم تنصب غايتها بتشوق ، بل نصبت الغاية شيئاً آخر سواها وتشوقت بالنزوعية واستنبطت بالقوة المروية ما ينبغي أن تعمل حتى تنال بمعاونة الحواس والمتخيلة ، ثم فعلت تلك الأفعال باللات القوة النزوعية كانت أفعال ذلك الانسان كلها غير جميلة .

١١ - القول في الوحي ورؤية الملك

وذلك أن القوة المتخيلة اذا كانت في انسان ما قوية كاملة ، وكانت المحسوسات الواردة عليها من خارج لا تستولى عليها استيلاء يستغرقها بأسرها ؛ ولا أخذمتها للقوة الناطقة ، بل كان فيها مع اشتغالها بهذين فضل كثير تفعل به أيضاً أفعالها التي تخصها ، وكانت حالها عند اشتغالها بهذين في وقت اليقظة مثل حالها عند تحملها منها في وقت النوم وكثير من هذه التي يعطيها العقل الفعال ، فتتخيلها القوة المتخيلة بما تحاكيها من المحسوسات المرئية ، فان تلك المتخيلة تعود فترسم في القوة الحاسة ، فاذا حصلت رسومها في الحاسة المشتركة ، انفعلت عن تلك الرسوم القوة الباصرة ، فارتسمت فيها تلك ، فيحصل عما في القرّة الباصرة منها رسوم تلك في الهواء المضيء الموصل للبصر المنحاز بشعاع البصر ذذا حصلت تلك الرسوم في الهواء عاد ما في الهواء فيرسم من رأس في القوة الباصرة التي في العين ، وينعكس ذلك الى الحاس المشترك والى القرّة المتخيلة ولأن هذه كلها متصلة بعضها ببعض فيصير ما أعطاه العقل الفعال من ذلك مرئياً لهذا الانسان فاذا اتفقت المحاكيات التي حاكت بها القوة المتخيلة تلك الأشياء مع محسوسات في نهاية الجمال والكمال قال الذي يرى ذلك إن لله عظمة جليلة عجيبية ، ورأى أشياء عجيبية لا يمكن وجود شيء منها في سائر الموجودات أصلاً ، ولا يتمتع أن يكون الانسان اذا بلغت قوته المتخيلة نهاية الكمال ، فيقبل في يقظته عن العقل الفعال الجزئيات الحاضرة والمستقبلية ، أو محاكياتها من المحسوسات ويقبل محاكيات المعقولات المفارقة وسائر الموجودات الشريفة ويراهها . فيكون له بما قبله من المعقولات نبوة بالاشياء الالهية ، فهذا هو اكل المراتب التي تنتهي اليها القوة المتخيلة ، واكمل المراتب التي يبلغها الانسان بقوته المتخيلة .

ودون هذا من يرى جميع هذه ، بعضها في يقظته وبعضها في نومه ، ومن يتخيل في نفسه هذه الأشياء كلها ولكن لا يراها ببصره . ودون هذا من يرى جميع هذه في نومه فقط وهؤلاء تكون أقاويلهم التي يعبرون بها أقاويل محاكية ، ورموزاً والغايات ، وابدالات وتشبيهات ؛ ثم يتفاوت هؤلاء تفاوتاً كثيراً :

فمنهم من يقبل الجزئيات ويراهها في اليقظة فقط ولا يقبل المعقولات ، ومنهم من يقبل المعقولات ويراهها في اليقظة فقط ولا يقبل الجزئيات ؛ ومنهم من يقبل بعضها ويراهها دون بعض ؛ ومنهم من يرى شيئاً في يقظته ولا يقبل بعض هذه في نومه ؛ ومنهم من لا يقبل شيئاً في يقظته ، بل انما يقبل ما يقبل في نومه فقط . فيقبل في نومه الجزئيات ولا يقبل المعقولات ؛ ومنهم من يقبل شيئاً من هذه وشيئاً من هذه ؛ ومنهم من يقبل شيئاً من الجزئيات فقط ، وعلى هذا يوجد الاكثر . والناس أيضاً يتفاضلون في هذا ، وكل هذه معاونة للقوة الناطقة .

وقد تعرض عوارض يتغير بها مزاج الانسان فيصير بذلك معداً لأن يقبل عن العقل الفعال بعض هذه في وقت اليقظة أحياناً وفي النوم أحياناً ؛ فبعضهم يبقى ذلك فيهم زمناً وبعضهم الى وقت ما ثم يزول .

وقد تعرض أيضاً للانسان عوارض فيفسد بها مزاجه وتفسد تخاييله فيرى أشياء مما تركبه القوة المتخيلة على تلك الوجوه مما ليس لها وجود ولا هي محاكيات لوجود وهؤلاء الممرورون والمجانين وأشباههم .

١٢ - القول في احتياج الانسان الى الاجتماع والتعاون

وكل واحد من الناس مفطور على انه محتاج في قوامه ، وفي ان يبلغ افضل كمالاته الى اشياء كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها كلها وحده ؛ بل يحتاج الى قوم يقوم له كل واحد منهم بشيء مما يحتاج اليه ، وكل واحد من كل واحد بهذه الحال ، فلذلك لا يمكن الانسان أن ينال الكمال الذي لأجله جعلت الفطرة الطبيعية ، الا باجتماعات جماعة كثيرين متعاونين يقوم كل واحد لكل واحد ببعض ما يحتاج اليه في قوامه ، وفي أن يبلغ الكمال . ولهذا كثرت اشخاص الانسان فخلوا في المعمورة من الارض ، فحدث منها الاجتماعات الانسانية ، ففها الكاملة ومنها غير الكاملة والكاملة ثلاث : عظمى ، ووسطى ، وصغرى .

فالعظمى اجتماعات الجماعة كلها في المعمورة ، والوسطى اجتماع أمة في جزء من المعمورة ، والصغرى اجتماع أهل مدينة في جزء من مسكن أمة . وغير الكاملة : أهل القرية ، واجتماع أهل المحلة ، ثم اجتماع في سكة ، ثم اجتماع في منزل ؛ واصغرها المنزل والمحلة والقرية ثم هي جميعاً لأهل المدينة ، الا أن القرية للمدينة على انها خادمة للمدينة ، والمحلة للمدينة على انها جزؤها ، والسكة جزء المحلة ، والمنزل جزء السكة ، والمدينة جزء مسكن أمة ، والامة جزء جملة اهل المعمورة .

فالخير الافضل والكمال الاقصى ، انما ينال اولاً بالمدينة لا بالاجتماع الذي هو ناقص ولما كان شأن الخير في الحقيقة ان يكون ينال بالاختيار ، امكن أن تجعل المدينة للتعاون على بلوغ بعض الحاجات التي هي شروء ؛ فلذلك كل مدينة يمكن أن ينال بها السعادة . فالمدينة التي يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الاشياء التي تنال بها السعادة في الحقيقة هي المدينة الفاضلة ؛ والاجتماع الذي به يتعاون على نيل السعادة هو الاجتماع الفاضل ، والامة التي تتعاون مدنها كلها على ما تنال به السعادة هي الامة الفاضلة ؛ وكذلك المعمورة الفاضلة ، انما تكون اذا كانت الامة التي فيها يتعاونون على بلوغ السعادة ، والمدينة الفاضلة تشبه البدن التام الصحيح الذي يتعاون اعضاؤه كلها على تميم حياة الحيوان ، وعلى حفظها عليه .

وكما ان البدن اعضاؤه مختلفة متفاضلة الفطرة والقوى ، وفيها عضو واحد رئيس وهو القلب ، واعضاء تقرب مراتبها من ذلك الرئيس ، وكل واحد منها جعلت فيه بالطبع قوة يفعل بها فعله ابتغاء لما هو بالطبع غرض ذلك العضو الرئيس ، واعضاء اخر فيها قوى تفعل افعالها على حسب أغراض هذه التي ليس بينها وبين الرئيس واسطة ، فهذه في الرتبة الثانية ؛ واعضاء اخر تفعل الافعال على حسب غرض هؤلاء الذين في هذه المرتبة الثانية ، ثم هكذا الى ان تنتهي الى أعضاء تخدم ولا ترأس أصلاً ؛ وكذلك المدينة اجزاؤها مختلفة الفطرات متفاضلة الهيئات ، وفيها انسان هو رئيس ، واخر يقرب مراتبها من الرئيس وفي كل واحد منها هيئة وملكة يفعل بها فعلاً يقتضى به ما هو مقصود ذلك الرئيس ، وهؤلاء هم أولو المراتب الاول ، ودون هؤلاء قوم يفعلون الافعال على حسب اغراض هؤلاء وهؤلاء هم في الرتبة الثانية ، ودون هؤلاء ايضاً من يفعل الافعال على حسب اغراض هؤلاء ، ثم هكذا تترتب اجزاء المدينة الى أن تنتهي الى اخر يفعلون افعالهم على حسب أغراضهم ، فيكون هؤلاء هم الذين يخدمون ولا يخدمون ، ويكونون في ادنى المراتب ،

ويكونون هم الاسفلون ؛ غير ان اعضاء البدن طبيعية ، واجزاء المدينة — وان كانوا طبيعيين — فان الهيئات والملكات التي يفعلون بها افعالهم للمدينة ليست طبيعية بل ارادية ، على ان أجزاء المدينة مفطورون بالطبع بفطر متفاضلة يصلح بها انسان لانسان لشيء دون شيء ، غير انهم ليسوا أجزاء المدينة بالفطر التي لهم وحدها ، بل بالملكات الارادية التي تحصل لها وهي الصناعات وما شاكلها والقوى التي هي اعضاء البدن بالطبع ، فان نظائرها في أجزاء المدينة ملكات وهيئات ارادية .

١٣ - القول في العضو الرئيس

وكا أن العضو الرئيس في البدن هو بالطبع أكمل أعضائه ، وأتمها في نفسه وفيما يخصه وله من كل ما يشارك فيه عضو آخر أفضلها ، ودونه أيضاً أعضاء أخرى رئيسة لما دونها ، ورياستها دون رياسة الأول ، وهي تحت رياسة الاول ترؤس وترأس ؛ ذلك رئيس المدينة هو أكمل أجزاء المدينة فيما يخصه ، وله كل ما شارك فيه غيره أفضله ، ودونه قوم مرءوسون منه ويرؤسون آخرين . وكا ان القلب يتكون أولاً ثم يكون هو السبب في أن يكون سائر أعضاء البدن ، والسبب في أن يحصل لها قواها وأن تترتب مراتبها ، فإذا اختل منها عضو كان هو المرفد منه بما يزيل عنه ذلك الاختلال . كذلك رئيس هذه المدينة ينبغي أن يكون هو أولاً ، ثم يكون هو السبب في أن تحصل المدينة وأجزائها ، والسبب في أن يحصل الملكات الارادية التي لأجزائها في أن تترتب مراتبها وأن اختل منها جزء كان هو المرفد له بما يزيل عنه اختلاله ؛ وكا ان الاعضاء التي تقرب من العضو الرئيس تقوم في الافعال الطبيعية التي هي على حسب غرض الرئيس الأول بالطبع بما هو شرف ، وما هو دونها من الاعضاء يقوم في الأفعال ؛ بما هو دون ذلك في الشرف الى أن ينتهي الى الاعضاء التي تقوم بها من الافعال أخس ، كذلك التي تقرب في الرياسة من رئيس المدينة تقوم من الافعال الارادية بما هو أشرف ، ومن دونهم بما هو دون ذلك في الشرف الى أن ينتهي الى الاجزاء التي تقوم من الافعال باخسها .

وخسة الأفعال ربما كانت بنحسة موضوعاتها ، فان كانت الافعال عظيمة الغناء مثل فعل المثانة وفعل الامعاء السفلى في البدن ، وربما كانت لقلّة غنائها ، وربما كانت لاجل أنها كانت سهلة جداً ، كذلك في المدينة ، وكذلك كل جملة كانت أجزاؤها مؤتلفة منتظمة مرتبطة بالطبع ، فان لها رئيساً حاله من سائر الاجزاء هذه الحال ، وتلك أيضاً حال

الموجودات ؛ فان السبب الأول نسبته الى سائر الموجودات كنسبة ملك المدينة الفاضلة الى سائر أجزائها ، فان البرئة من المادة تقرب من الاول ودونها الاجسام السماوية ، ودون السماوية الاجسام الهيولانية ، وكل هذه تحتذى حذو السبب الاول وتأمة وتقفيه ، ويفعل ذلك كل موجود بحسب قوته ، إلا أنها إنما تقتفى الغرض بمراتب ؛ وذلك ان الاخس يقتفى غرض ما هو فوقه قليلا ، وذلك يقتفى غرض ما هو فوقه ، وأيضاً كذلك للثالث غرض ما هو فوقه ، الى أن تنتهى الى التى ليس بينها وبين الاول واسطة أصلا .

فعلى هذا الترتيب تكون الموجودات كلها تقتفى غرض السبب الاول ، فالتى أعطيت كل ما به وجودها من أول الامر فقد احتذى بها من أول أمرها حذو الاول ومقصده ، فعادت وصارت فيه فى المراتب العالية ؛ وأما التى لم تعط من أول الامر كل ما به وجودها فقد اعطيت قوة تتحرك بها نحو ذلك الذى يتوقع على نيله ويقتفى فى ذلك ما هو غرض الاول ، وكذلك ينبغى أن تكون المدينة الفاضلة فان أجزائها كل ما ينبغى أن تحتذى بأفعالها حذو مقصد رئيسها الاول على الترتيب ، ورئيس المدينة الفاضلة ليس يمكن أن يكون أى انسان اتفق ، لأن الرئاسة إنما تكون بشيئين : أحدهما انما يكون بالفطرة والطبع معداً لها ، والثانى بالهيئة والملكة الارادية .

والرئاسة التى تحصل لمن فطر بالطبع معداً لها ، فليس كل صناعة يمكن أن يرأس بها ، بل أكثر الصنائع صنائع يخدم بها فى المدينة ، وأكثر الفطر هي فطر الخدمة ، وفى الصنائع صنائع يرأس بها ويخدم صنائع آخر ، وفيها صنائع يخدم بها فقط ولا يرأس بها أصلا ؛ فكذلك ليس يمكن أن تكون الصناعة راسة المدينة الفاضلة أى صناعة ما اتفقت ولا يمكن اى مملكة ما اتفقت .

وكما ان الرئيس الاول فى جنس لا يمكن ان يرأسه شىء من ذلك الجنس ، مثل رئيس الاعضاء ، فانه هو الذى لا يمكن ان يكون عضواً آخر رئيساً عليه ، وكذلك فى كل رئيس فى الجملة ، كذلك رئيس الاول للمدينة الفاضلة ينبغى ان يكون صناعته صناعة نحو غرضها تام الصناعات كلها وإيام يقصد بجميع افعال المدينة الفاضلة ، ويكون ذلك الانسان انساناً لا يكون يرؤسه انسان اصلا ، وانما يكون ذلك الانسان انساناً قد استكمل ، فصار عقلا ومعقولا بالعقل قد استكملت قوته المتخيلة بالطبع غاية الكمال على ذلك الوجه الذى قلنا ، وتكون هذه القوة منه معدة بالطبع لتقبل اما فى وقت اليقظة ، او فى وقت النوم عن العقل الفعال الجزئيات اما بنفسها ، واما بما يحاكيها ، ثم المعقولات بما يحاكيها ،

وأن يكون عقله المنفعل قد استكمل بالمعقولات كلها ، حتى لا يكون تبقى منها شيء وصار عقلاً بالفعل .

فأى انسان استكمل عقله المنفعل بالمعقولات كلها صار عقلاً بالفعل ، ومعقولا بالفعل ، وصار المعقول منه هو الذى يعقل حصل له حينئذ عقل ما بالفعل رتبته فوق العقل المنفعل اتم ، وأشد مفارقة للمادة ومقاربة من العقل الفعال ويسمى العقل المستفاد ويصير متوسطاً بين العقل المنفعل وبين العقل الفعال ، ولا يكون بينه وبين العقل الفعال شيء آخر ، فيكون العقل المنفعل كالمادة ، والموضوع للعقل المستفاد والعقل المستفاد كالمادة ، والموضوع للعقل الفعال والقوة الناطقة التى هى هيئة طبيعية تكون مادة موضوعة للعقل المنفعل الذى هو بالفعل عقل .

وأول رتبة التى بها الانسان انسان هو أن تحصل الهيئة الطبيعية القابلة المعدة لأن يصير عقلاً بالفعل ، وهذه هى المشتركة للجميع فيبينها وبين العقل الفعال رتبتان : أن يحصل العقل المنفعل بالفعل ، وان يحصل العقل المستفاد ؛ وبين هذا الانسان الذى بلغ هذا المبلغ من أول رتبة الانسانية وبين العقل الفعال رتبتان ؛ واذا جعل العقل المنفعل الكامل والهيئة الطبيعية كشيء واحد على مثال ما يكون المؤتلف من المادة والصورة شيئاً واحداً .

واذا أخذ هذا الانسان صورة انسانية هو العقل المنفعل الحاصل بالفعل ، كان بينه وبين العقل الفعال رتبة واحدة فقط ، واذا جعلت الهيئة الطبيعية مادة العقل المنفعل الذى صار عقلاً بالفعل ، والمنفعل مادة المستفاد والمستفاد مادة العقل الفعال وأخذت جملة ذلك كشيء واحد . كان هذا الانسان هو الانسان الذى حل فيه العقل الفعال ، واذا حصل ذلك فى كلا جزئى قوته الناطقة وهما : النظرية والعملية ، ثم فى قوته المتخيلة . كان هذا الانسان هو الذى يوحى اليه ؛ فيكون الله عز وجل يوحى اليه بتوسط العقل الفعال ، فيكون ما يفيض من الله تبارك وتعالى الى العقل الفعال يفيضه العقل الفعال الى عقله المنفعل لتوسط العقل المستفاد ثم الى قوته المتخيلة ، فيكون بما يفيض منه الى عقله المنفعل حكماً فيلسوفاً ، ومقبلاً على التمام ، وبما يفيض منه الى قوته المتخيلة نبياً منذراً بما سيكون ، ومخبراً بما هو الآن من الجزئيات بوجود يعقل فيه الالهيات .

وهذا الانسان فى اكل مراتب الانسانية ، وفى أعلى درجات السعادة ، وتكون نفسه كاملة متحدة بالعقل الفعال على الوجه الذى قلناه .

وهذا الانسان هو الذى يقف على كل فعل يمكن أن يبلغ به السعادة ، فهذا أول شرائط الرئيس ثم ان يكون له مع ذلك قوة بلسانه على جودة التخيل بالقول لكل ما يعلمه ، وقدرة على جودة الارشاد الى السعادة ، وإلى الاعمال التى بها يبلغ السعادة ، وان يكون له مع ذلك جودة ثبات يبدنه لمباشرة أعمال الجزئيات .

١٤ - القول كيف تصير هذه القوى والأجزاء نفساً واحدة

فالفازية الرئيسة شبه المادة للقوة الحاسة الرئيسة . والحاسة صورة فى الفاذية ، والحاسة الرئيسة شبه مادة للناطقة الرئيسة ، والناطقة صورة فى المتخيلة ، وليست مادة لقوى أخرى ، فهى صورة لكل صورة تقدمتها . وأما النزوعية فانها تابعة للحاسة الرئيسة ، والمتخيلة ، والناطقة ، على جهة ما توجد الحرارة فى النار تابعه لما تتجوهر به النار . فالقلب هو العضو الرئيس الذى لا يرؤسه من البدن عضو آخر ، ويليه الدماغ فانه أيضاً عضو ما رئيس ، ورئاسته ليست برئاسة أولية لكن رئاسة ثانية : وذلك لأنه يراس سائر الأعضاء ، فانه يخدم القلب فى نفسه ، وتخدمه سائر الأعضاء بحسب ما هو مقصود القلب بالطبع ، وذلك مثل صاحب دار الانسان : فانه يخدم الانسان فى نفسه وتخدمه سائر أهل داره بحسب ما هو مقصود الانسان فى الأمرين ، كانه يخلفه ويقوم مقامه وينوب عنه ، ويبدل فيما ليس يمكن أن يبدله الرئيس ، وهو المستولى على خدمة القلب فى الشريف من أفعاله .

من ذلك أن القلب ينبوع الحرارة الغريزية ، فنه تنبث فى سائر الأعضاء ، ومنه تسترشد وذلك بما ينبث فيها عنه من الروح الحيوانى الغريزى فى العروق الضوارب ، ومما يرفدها القلب من الحرارة انما تبقى الحرارة الغريزية محفوظة على الأعضاء والدماغ هو الذى يعدل الحرارة التى شأنها أن تنفذ اليه من القلب ، حتى يكون ما يصل الى كل عضو من الحرارة معتدلاً ملائماً له ، وهذا أول أفعال الدماغ . وأول شئ يخدم به وأعماها للأعضاء ، ومن ذلك أن فى الأعصاب صنفين : أحدهما آلات لرواخذ القوة الحاسة الرئيسة التى فى القلب فى أن يحس كل واحد منها الحس الخاص به ، والآخر آلات الأعضاء التى تخدم القوة النزوعية التى فى القلب بها يتأتى لها أن تتحرك الحركة الارادية .

والدماغ يخدم القلب فى أن يرفد أعصاب الحس ما يلقى به قواها التى بها يتأتى للرواخذ أن تحس . والدماغ أيضاً يخدم القلب فى أن يرفد أعصاب الحركة الارادية ما يلقى بها

قواها التى بها يتأتى للأعضاء الآلية الحركة الارادية ، التى بها القوة الزوجية التى فى القلب فان كثيراً من هذه الأعصاب مراكزها التى منها يسترفد ما يحفظ به قواها فى الدماغ نفسه ؛ وكثيراً منها مفارزها فى النخاع النافذ ، والنخاع من أعلاه متصل بالدماغ فان الدماغ يرفدها بمشاركة النخاع لها فى الارفاد . ومن ذلك أن تحيل القوة المتخيلة انما يكون متى كانت حرارة القلب على مقدار محدود . وكذلك فكر القوة الناطقة انما يكون متى كانت حرارته على ضرب ما من التقدير ، وكذلك حفظها وتذكرها للشيء .

فالدماغ أيضاً يخدم القلب بأن يجعل حرارته على الاعتدال الذى يجود به تحيله وعلى الاعتدال الذى يجود به فكره ورويته ، وعلى الاعتدال الذى يجود به حفظه وتذكره ، فجزء منه يعدل به ما يصلح به التخيل ، وجزء آخر منه يعدل به ما يصلح به الفكر ، وجزء ثالث يعدل به ما يصلح الحفظ والذكر . وذلك ان القلب لما كان ينبوع الحرارة الغريزية لم يمكن أن يجعل الحرارة التى فيه الا قوية مفرطة ليفضل منه ما يفيض الى سائر الاعضاء ، ولئلا يقصر أو يجود فلم تكن كذلك فى نفسها الا لغاية تغلبه . فلما كان كذلك وجب أن يعدل حرارته التى تنفذ الى الاعضاء ، ولا تكون حرارته فى نفسها على الاعتدال الذى يجود به أفعاله التى تخصه . فجعل الدماغ لاجل ذلك بالطبع بارداً رطباً حتى فى الملمس بالاضافة الى سائر الاعضاء ، وجعلت فيه قوة نفسانية تصير بها حرارة القلب على اعتدال محدود محصل ، والاعصاب التى للحس والتى للحركة ، لما كانت أرضية بالطبع سريعة القبول للجفاف ، كانت تحتاج الى أن تبقى رطبة الى لدان مؤاتية للتمدد والتقاصر . وكانت أعصاب الحس محتاجة مع ذلك الى الروح الغريزى الذى ليست فيه دخانية أصلاً . وكان الروح الغريزى السالك فى أجزاء الدماغ هذه حاله ، ولما كان القلب مفرط الحرارة ناريها لم يجعل مفارزها التى بها يسترفد ما يحفظ قواها فى القلب ؛ لئلا يسرع الجفاف اليها فتتحلل وتبطل قواها . وأفعالها جعلت مفارزها فى الدماغ ، وفى النخاع لأنهما رطبان جداً لتنفذ من كل واحد منهما فى الاعصاب رطوبة تبقئها على اللدونة ، وتستبقى بها قواها النفسانية . فبعض الاعصاب يحتاج فيها الى أن تكون الرطوبة النافذة فيها مائية لطيفة غير لزجة أصلاً ، وبعضها يحتاج فيها الى لزوجة ما . فما كان منها محتاجاً الى مائية لطيفة غير لزجة ، جعلت مفارزها فى الدماغ ؛ وما كان منها محتاجاً فيها مع ذلك الى أن تكون رطوبتها فيها لزوجة جعلت مفارزها فى النخاع ، وما كان منها محتاجاً فيها الى أن تكون رطوبتها قليلة جعلت مفارزها اسفل الفقار والعصص . ثم بعد الدماغ

الكبد ، وبعده الطحال ، وبعد ذلك اعضاء التوليد ، وكل قوة في عضو كان شأنها ان تفعل فعلا جسمانياً ينفصل به من ذلك العضو جسم ما ويصير الى آخره . فانه يلزم ضرورة ، اما ان يكون ذلك الآخر متصلاً بالاول مثل اتصال كثير من الاعصاب بالدماع ، وكثير منها بالتخاع ، او ان يكون له طريق ومسيل متصل لذلك العضو يجري فيه ذلك الجسم ، وكانت تلك القوة خادمة له ، او رئيسة مثل الفم والرئة والكلية والكبد والطحال ، وغير ذلك . وكلما احتاجت او كان شأنها ان تفعل فعلاً نفسانياً في غيره ، ثم يلزم ضرورة ان يكون بينهما مسيل جسماني مثل فعل الدماغ في القلب ، فأول ما يتكون من الاعضاء القلب ثم الدماغ ثم الكبد ثم الطحال ثم تتبعها سائر الاعضاء .

واعضاء التوليد متأخرة الفعل من جميعها ، ورياستها في البدن يسيرة مثل ما ينبى من فعل الانثيين وحفظهما الحرارة الذكورية والروح الذكري السابقين من القلب في الحيوان الذكر الذي له انثيان ، والقوة التي يكون بها التوليد اثنيان احدهما تعد المادة التي يتكون عنها الحيوان الذي له تلك القوة ، والاخرى تعطى صورة ذلك النوع من الحيوان وتحرك المادة الى ان تحصل لها تلك الصورة التي لذلك النوع . والقوة التي تعد المادة هي قوة الانثى . والتي تعطى الصورة هي قوة الذكر الذي هو ذكر بالقوة التي تعطى تلك المادة صورة ذلك النوع الذي له تلك القوة ، والعضو الذي يخدم القلب في ان يعطى مادة الحيوان هو الرحم ، والذي يخدمه في ان يعطى الصورة اما في الانسان وإما في غيره من الحيوان هو العضو الذي يكون المنى ، فان المنى اذا ورد على رحم الانثى فصادف هناك دماً قد اءده الرحم لقبول صورة الانسان ، اعطى المنى ذلك الدم قوة تتحرك بها الى ان يحصل من ذلك الدم اعضاء الانسان ، وصورة كل عضو وبالجمل صورة الانسان . فلدن المعد في الرحم هو مادة الانسان . والمنى هو المحرك لتلك المادة الى ان تحصل فيها الصورة .

ومنزلة المنى من الدم المعد في الرحم منزلة الانفحة التي ينعد عنها اللبن . وكما أن الانفحة هي الفاعلة للانفقاد في اللبن وليس هي جزءاً من المنعد ولا مادة . كذلك المنى ليس هو جزءاً من المنعد في الرحم ولا مادة والجنين يتكون عن المنى كما يتكون الرائب من الانفحة . ويتكون عن دم الرحم كما يتكون الرائب عن اللبن الحليب والابريق عن النحاس والذي يكون المنى في الانسان هي الاوعية التي يوجد فيها المنى . وهي العروق التي تحت جلد العانة . يرفدها في ذلك بعض الارفاد الانثيان . وهذه العروق نافذة الى المجرى الذي في القضيب ليسيل من تلك العروق الى مجرى القضيب ويجري في ذلك المجرى الى أن ينصب في الرحم ويعطى الدم الذي فيه مبدأ قوة يتغير بها الى أن تحصل به الاعضاء .

وصورة كل عضو . وصورة جملة البدن ، والمنى آلة الذكر . والآلات منها مواصلة ومنها مفارقة من ذلك . مثل الطبيب فإن اليد آلة للطبيب يعالج بها ، والمبضع آلة له يعالج بها ، والدواء آلة له يعالج بها ، فالدواء آلة مفارقة وانما يواصله الطبيب حين ما يفعله ويصنعه ويعطيه قوة يحرك بها بدن العليل الى الصحة ، فاذا حصلت فيه تلك القوة ألقاها في جوف بدن العليل مثلاً فتحرك بدنه نحو الصحة . والطبيب الذى ألقاها غائب أو ميت مثلاً وكذلك منزلة المنى والمبضع لا تفعل فعلها الا بمواصلة الطبيب المستعمل له . واليد أشد مواصلة له من المبضع . وأما الدواء فإنه يفعل بالقوة التى فيه من غير أن يكون الطبيب مواصلاً له .

كذلك المنى فإنه آلة للقوة المولدة الذكورية وتفعل مفارقة وأوعية المنى والاثنيان آلة للتوليد مواصلة للبدن .

فمنزلة العروق التى تكون آلات المنى من القوة الرئيسية التى فى القلب منزلة يد الطبيب التى يعمل بها الدواء ويعطيه قوة محركة ويحرك بها بدن العليل الى الصحة فإن تلك العروق التى يستعملها القلب بالطبع ، هى آلات فى أن يعطى المنى القوة التى يحرك بها الدم المعد فى الرحم الى صورة ذلك النوع من الحيوان . فاذا أخذ الدم عن المنى القوة التى يتحرك بها الى الصورة . فأول ما يتكون القلب وينتظر بتكوينه تكوين سائر الأعضاء وما يتفق أن يحصل فى القلب من القوى فإن حصلت فيه مع القوة الغذائية القوة التى بها تعد المادة تكون سائر الاعضاء على انها أعضاء أنثى . فإن حصلت فيه القوة التى تعطى الصورة تكون سائر الاعضاء على انها أعضاء ذكر فتحصل من تلك الاعضاء المولدة التى للذكر . ثم سائر القوى النفسانية الباقية تحدث فى الانثى على مثال ما هى فى الذكر .

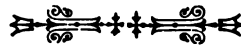
وهاتان القوتان أعنى الذكورية والانثوية هما فى الانسان مفترقتان فى شخصين وأما فى كثير من النبات فلهما مقترتان على التمام فى شخص واحد . مثل كثير من النبات الذى يتكون عن البذر فإن النبات يعطى المادة وهى البذر ويعطى بها مع ذلك قوة يتحرك بها نحو الصورة . فإن البذر فى استعداد لقبول الصورة وقوة يتحرك بها نحو الصورة . فالذى أعطاه الاستعداد لقبول الصورة هى القوة الانثوية والذى أعطاه مبدأ يتحرك به نحو الصورة هو القوة الذكورية

وقد يوجد أيضاً فى الحيوان ما سبيله هذا السبيل ويوجد أيضاً ما القوة الانثوية فيه نامية وتقرن بها قوة ما ذكرية ناقصة تفعل فعلها الى مقدار ما ثم تجوز فتحتهج الى

معين من خارج مثل الذى يبيض بيض الريح ومثل كثير من أجناس السمك التى تبيض
ثم تودع بيضها فيتبعها ذكورها فتلقى رطوبة فاية بيضة أصلها من تلك الرطوبة شئ
كان عنها حيوان . وما لم يصحبها ذلك فسدت

وأما الانسان فليس كذلك . بل هاتان القوتان متميزتان فى شخصين . ولكل واحد
منهما أعضاء تخصه وهى الاعضاء المعروفة وسائر الاعضاء فيهما مشتركات . وكذلك
يشتركان فى قوى النفس كلها سوى هاتين . وما يشتركان فيه من أعضاء فانه فى الذكر
أسخن . وما كان منها فله الحركة والتحريك فانه فى الذكر أقوى حركة وتحريكا .
والعوارض النفسانية ، فما كان منها مائلا الى القوة مثل الغضب والقسوة ، فانها فى الانثى
أضعف وفى الذكر أقوى .

وما كان من العوارض مائلا الى الضعف مثل الرأفة والرحمة فانه فى الانثى أقوى على
أنه لا يمتنع أن يكون فى ذكورة الانسان من توجد العوارض فيه شبيهة بما فى الاناث .
وفى الاناث من توجد فيه هذه شبيهة بما هو فى الذكور . فهذه تفرق الاناث والذكور
فى الانسان ، وأما فى القوة الحاسة وفى التخيلة وفى الناطقة فليس يختلفان فيحدث عن
الاشياء الخارجة رسوم المحسوسات المختلفة الاجناس المدركة بأنواع الحواس الخمس فى
القوى الحاسة الرئيسية ويحدث عن المحسوسات الحاصلة فى هذه القوى رسوم التخيلات
فى القوى التخيلة فتبقى هناك محفوظة بعد غيبتها عن مباشرة الحواس لها فيتحكم فيها
فيعرض بعضها عن بعض أحيانا ويركب بعضها الى بعض أصنافاً من التركيبات كثيرة بلا
نهاية بعضها كاذبة وبعضها صادقة



٣ - ابنه سينا

هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا ، الملقب بالشيخ الرئيس ، أشهر أطباء العرب ، ومن أعظم فلاسفتهم ، فارسي الأصل ، نشأ في ولاية ما وراء الأنهر كان أبوه من أهل بلخ ، طاب له المقام في بخارى لعهد نوح بن منصور ، أحد امراء الأسرة السامانية ، عين والياً لخرميتان إحدى عواصم بخارى . تزوج عبد الله والد علي من امرأة من افشنا ، وهو بلد صغير على مقربة من خرميتان ، فانجبت له به عليا في شهر صفر عام ٣٧٠ للهجرة (اغسطس سنة ٩٨٠) وبعد ميلاده بيضع سنين عاد به أبوه الى بخارى وعنى بتربيته

ذكر ابن سينا عن تهذيبه انه في العاشرة من عمره كان قد استظهر القرآن وألم بجزء صالح من العلوم الدينية ، ومبادئ الشريعة الفراء ، وعلم النحو . وكان الناس يعجبون بحفظه وبذكائه السابق لأوانه ، وكان أبوه يضيف في منزله عالماً اسمه عبد الله ناتيلي ، فوكل اليه تهذيب ولده ، ففاق التلميذ استاذَه وانقطع عليٌ للدرس بمفرده ، فحاض غمار الرياضيات والطبيعات والمنطق وما وراء الطبيعة ، ثم اكب بعد ذلك على درس فن الطب على استاذ مسيحي اسمه عيسى بن يحيى .

ولم يبلغ عليٌ السادسة أو السابعة عشرة من عمره حتى طبقت شهرته الخافقين لحذقه في الطب ، وحتى دعاه نوح بن منصور أمير بخارى لعيادته في مرض ألم به ، وأعيى حيل الأطباء ، فعالجه الى أن عوفي فانبسط له واسغ عليه ذيل الرضى وأسبل عليه ثوب النعمة وفتح له خزانة كتبه فوجد بها الطبيب الحكيم خير مجال لرغبة الدرس وأرحب ميدان لطلب العلم واستقى من تلك الينابيع العذبة ما شاء اقباله عليها . وقد حدث ان احترق خزانة الكتب ، فأتهم ابن سينا بأنه محرقها ، رغبة في أن يتفرد بما وعته من الحكمة ، وخشية أن ينتفع بما حوته سواء !

وقد مات الأمير نوح بعد ذلك بقليل في شهر رجب عام ٣٨٧ هجرية (يولييه سنة ٩٩٧) وقد هوى بموته نجم أسرته أو كاد

قضى والد على وهو في الثانية والعشرين من عمره ، وكان يعينه في أعمال الدولة حتى اذا فرغ منها عكف على تأليف بعض الكتب والرسائل ، كان يسأله في وضعها لفيف من الأكابر والأعيان . فلما ان نكب في والده ثقلت عليه الإقامة في بخارى فرحل عنها وسكن جرجان وبعض مدن خوارزم وخراسان وداغستان وهي إحدى البلاد الدانية من بحر قزوين . وقد أصابه في تلك البلاد داء عضال ، ثم عاد الى جرجان فتعرف برجل كبير القدر اسمه ابو محمد الشيرازي ، فأهدى اليه داراً فانتفع بها لالقاء الدروس للطلاب . واذ ذاك بدأ ابن سينا بوضع كتاب قانون الطب ، وهو المؤلف الذي خلد ذكره ، واكسبه صيتاً بعيداً في أوروبا حيث بقى قانون ابن سينا هو أساس العلوم الطبية وعمدة الطالبين لها خلال قرون متتالية .

وكانت المشاغب السياسية تلجئه الى تغيير موطنه ، وفي هذا من قطع العمل والتشويش على العلم ما فيه الى أن استوزره شمس الدولة أمير همذان ، بيد أن وزارته لم ترض الجند فأسروه وطلبوا قتله فأغضب صنعمهم شمس الدولة واتخذ ابن سينا من أيديهم بعد جهد جهيد . وقد اختفى ابن سينا عن الأعين حيناً ثم عاد الى حاشية الأمير يتعهده مذ أصابه داء في الأحشاء وشرع يدون أجزاء شتى من كتاب الشفاء .

وكان في كل عشية يلقي على تلاميذه دروساً في الفلسفة والطب . ويحكى عنه أنه كان يحب الأنس والأطعمة الفاخرة ، فكان كل ليلة بعد نهاية الدرس يستقدم العازفين ، ويمد الموائد الممتعة ، ويقضى كذلك هزيباً من الليل مع تلاميذه واحبابه ولما أن مات شمس الدولة وتولى الامارة ابنه بعده لم ترقه حال ابن سينا فاعرض عنه فحقد عليه الشيخ الرئيس وكاتب في السراي ومنظره علاء الدولة أمير اصبهان فكشف أمره ، وعوقب على فعلته بالسجن في حصن ، وبعد سنين كذلك فاز في الفرار الى اصبهان فرحب به علاء الدولة ، وكان يصحبه في معظم غزواته وأسفاره .

وقد افنت تلك المناع بذيته وزادته ضعفًا على الذي لحقه من الافراط في العمل واللهم .
فأصابه داء في الاحشاء فتناول دواءً شديداً سربيع الأثر ، فاشتدت علته وقد بلغت
الآلة نهايتها في غزوة اصطحبه فيها علاء الدين الى همدان

ولما أن رأى ابن سينا دنو أجله تاب الى الله توبة نصوحاً وتصدق بأعلى وأثن
ما كان يملك وانقطع الى العبادة وأعد للقاء الله عدته وقضى الى رحمة الله في شهر
رمضان المبارك عام ٤٢٨ للهجرة (يولييه سنة ١٠٣٧) وهو يبلغ سبعة وخمسين عاماً .
وقد دون تلميذه الجرجاني ترجمته وهو المعروف عند الافرنج باسم (جورجوروس)
ونقلت هذه الترجمة الى اللغة اللاتينية وافتتحت بها عدة من مؤلفات الشيخ الرئيس
التي نشرت في أوروبا

كان ابن سينا من أعجب العبقرين ، وأبلغ الكتّاب . فانه خلال قيامه بأعباء
المناصب وشد الرحال الى البلاد القصية ، وفي مثار الحروب وثنايا الفتن الأهلية تمكن
من وضع كتب كثيرة ممتعة يكفي أحدها لتأسيس مجده ، ووضع في مصاف كبار حكماء
المشرق . وقد دون أكثر من مائة كتاب تتباين في الاتقان ولكنها تشهد بفضله وبالمه
بسائر علوم عصره ، واكبابه على العمل في أخرج الأحوال . ومعظم مؤلفاته لا تزال
محفوظة الى يومنا هذا ، وكثير من كتبه الكبرى كالقانون والشفاء ترجمت الى اللاتينية
وطبعت عدة مرات وسنقصر الكلام بإسهاب في هذه المعجالة على الشفاء والنجدة

كتاب الشفاء وهو من موسوعات العلوم ودوائر المعارف في ثمانية عشر مجلد
محفوظة منها نسخة كاملة بمدرسة اكسفورد الجامعة . والنجدة موجز الشفاء ، وضعه
الرئيس رغبة في ارضاء بعض اصفياه وقد طبع الأصل العربي بعد القانون في رومة
عام ١٥٩٣ وهو في ثلاثة أقسام المنطق والطبيعات وما وراء الطبيعة وليس يوجد فيه
القسم الخاص بالعلوم الرياضية التي أشار اليها المؤلف في فاتحة الكتاب وقال بضرورة
ذكرها في الوسط بين الطبيعات ، وعلم ما وراء الطبيعة وقد طبع هذان الكتابان كاملين
ومتفرقين عدة مرات باللغة اللاتينية منها مجموعة طبعت في البندقية عام ١٤٩٥ تشمل

- (١) المنطق
- (٢) الطبيعيات (مقتبسة من كتاب الشفاء)
- (٣) السماء والعالم
- (٤) الروح
- (٥) حياة الحيوان
- (٦) على العقل
- (٧) فلسفة الفارابي على العقل
- (٨) الفلسفة الأولى

ونقل « نافيه » منطق ابن سينا الى الفرنسية ونشره بباريس عام ١٦٥٨ كذلك طبع العلامة سمولدرز ارجوزة منطقية لابن سينا في « مجموعة الفلسفة العربية » أما فلسفة ابن سينا فهي بالضرورة كفلسفة غيره من أتباع أرسطودع عنك ما تحويه، عدا مبادئ المعلم الأغريقي ، من التعاليم الأخرى التي لم تخل منها حكمة سواء من فلاسفة العرب

ذكر ابن طفيل في كتابه « حي بن يقظان » أن ابن سينا قال في فاتحة الشفاء أن الحقيقة في رأيه ليست في هذا التصنيف وان من يريد لها فليتمسكها في كتاب الحكمة الشرقية بيد أن هذا الكتاب لم يصل إلينا ، وقد عرفنا ممن وقع لهم ان موضوعه ربما كان في تعليم رأى وحدة الوجود على الطريقة الشرقية . ولذا يجب علينا أن نقنع بما وصل إلينا من كتبه الأخرى التي ظهر فيها بمظهر الاستقلال الفكري حيناً وحيناً بمظهر المقلدين الناقلين . على أنه اعترف بأنه اعتمد في منطقته كثيراً على مؤلفات الفارابي ، فان من يقرأ كتب ابن سينا يرى رابطة متينة في التأليف ويرى رغبة الشيخ ظاهرة في تنسيق العلوم الفلسفية وترتيبها بدقة شديدة وردها الى سلسلة واحدة لا بد منها .

(راجع كتاب المال والنحل للشهرستاني النسخة العربية ص ٣٤٨ و ٤٢٩)

وقد قسم العلوم في الشفاء الى ثلاثة أقسام :

(١) العلوم العالية أى التي لا علاقة لها بالمادة . وهى الحكمة الأولى أو ما وراء الطبيعة

(٢) العلوم الدنيا وهى الخاصة بالمادة وهى الطبيعيات وما يتبعها وهى العلوم الخاصة بكل ما كان له مادة ظاهرة وما ينشأ عنها

(٣) العلوم الوسطى وهى التى تتعلق تارة بما وراء الطبيعة وطوراً بالمادة وهى الرياضيات

وقد عدها كذلك لأنها بين بين ، فان علم الحساب مثلاً خاص بما لا علاقة له بالمادة بطبيعته ولكنه يتصل بها بمقتضى الحال . وعلم الهندسة خاص بالموجودات التى يمكن تخيلها بدون اتصالها بالمادة ومع أنها لا وجود لها فى الحس فان لا قوام لها إلا بالأشياء المرئية أما الموسيقى وفنون الآلات والعلوم البصرية فان علاقتها بالمادة قريبة إلا أن نسبة رفعة بعضها عن البعض راجعة الى دنوها من الطبيعيات . وقد تكون العلوم فى بعض الأحوال مشتبكة لا يمكن فصلها كما هى الحال فى علم الفلك فانه علم رياضى ولكنه خاص بأرقى طبقة من طبقات العلم الطبيعى

وان هذا التقسيم للدليل قاطع على مقدار ما استفاده ابن سينا من كتب أرسطو ويرى الحبير من الامعان فى مؤلفات ابن سينا أن التلميذ فاق استاذة فى فحص العلوم وتبيينها . فان أرسطو قسم الفلسفة النظرية الى ثلاثة أقسام : الرياضيات ، والطبيعيات ، وعلم اللاهوت . وبذا جعل الرياضيات نوعاً من الفلسفة ونسب الى الرياضيات فناً تبحث فى غير المادة (فيما ليس متحركاً ومنفصلاً عن المادة) ثم ذكر علوماً أخرى كالفلك وعلم المراتب وفن الانسجام ونسبها الى الطبيعيات ولكنه لم يحط بتقسيم بلغ من الدقة والجلاء ما بلغه تقسيم ابن سينا للعلوم (راجع كتاب ما وراء الطبيعة لارسطو الكتاب السادس الفصل الأول والطبيعيات له أيضاً الكتاب ٢ فصل ٢) . ولم تكن زيادة البيان التى إمتاز بها ابن سينا قاصرة على تقسيم العلوم . بل كان ذلك يشمل النظريات الفلسفية فان ابن سينا قال كسابقه فى نظرية الكائن بالممكن والضرورى ثم أضاف الى ذلك آراء خاصة بها ينبغى الوقوف عليها . فانه قسم الكائن الى ثلاثة أقسام : ما كان ممكناً فقط وفى هذا القسم ادخل سائر الكائنات التى تولد وتموت . القسم الثانى ما كان ممكناً

بذاته وضرورياً بسبب خارج عنه . أو بعبارة أخرى كل كائن قابل للتولد والفناء (ما عدا السبب الأول مثل الدوائر والأفلاك) والعقول التي هي بذاتها كائنات ممكنة ولا نصير واجبة إلاً باتصالها بالسبب الأول ، أما القسم الثالث فهو قاصر على ما كان واجباً بذاته وهو الله . يقول ابن سينا وتقرر هذا الكائن الفرد وحده باتحاد الوجود والوحدة والروح . أما في الكائنات التي سبق ذكرها في القسمين الأولين فإن الوحدة والوجود هما حادثان طرأاً على روح الأشياء واتصلا بها

وقد عارض ابن رشد هذا التقسيم في أما كن شتى من مؤلفاته وأنتقده وأفرد له رسالة على حدة لا يوجد منها الآن إلاً نسخة عبرية بالمكتبة الوطنية بباريس . يقول ابن رشد أن ما كان واجباً بسبب خارج عنه لا يمكن أن يكون ممكناً بذاته إلاً اذا هلك السبب الخارج وهذا مستحيل فيما فرضه ابن سينا لأن السبب الأول واجب الوجود وليس عرضة للهلاك . ثم أن ابن رشد يرد بشدة على ما زعمه ابن سينا من أن الوجود والوحدة ليسا سوى عارضين يطرآن على حقيقة الأشياء .

ويقول إن ابن سينا خلط الوحدة العددية التي هي لا شك طارئة بالوحدة المطلقة التي هي وروح الأشياء واحد لا يتعدد وبذا لا تنفصل عنه (أى عن ذلك الروح) ثم ذكر ابن رشد أن ابن سينا قد قال في ذلك بآراء المتكلمين الذين يعتبرون الكون الأرضي بما فيه في دائرة الكائنات الممكنة ويعتقدون أنها قابلة للتغير . إنما تفوق ابن سينا عليهم في التمييز بين الممكن والواجب لإثبات وجود كائن روى (هيولانى)

وبعد أن أظهر ابن رشد خطأ ابن سينا في تقسيمه قال « وقد رأينا في هذا الزمن كثيرين من اتباع ابن سينا يفسرون رأيه ليحوروه فيقولون أن بن سينا لم يقل بوجود مادة منفصلة بذاتها وهذا في زعمهم ناشئ عن كيفية الشرح التي استعملها ابن سينا في عدة مواضع في الكلام على واجب الوجود . وهذا أيضاً هو أساس فلسفته التي وضعها في كتاب الحكمة المشرقية ، وقد أطلق عليها هذا الاسم لأنه استعارها من المشاركة الذين يوحدون بين الله وبين الدوائر السموية (الأفلاك) وهذا الرأى منطبق على رأى ابن سينا » اهـ كلام ابن رشد

أن فكرة وحدة الوجود الشرقية هذه لم تترك أثراً في كتابات ابن سينا التي تربطه بالمشائين وهي غاية بحثنا في هذه الرسالة

تساهل ابن سينا مع المتكلمين كما رأيت ولكنه لم يتردد في القول مع الفلاسفة بأزلية العالم التي تختلف عن أزلية الله بأن لها سبباً خاصاً وقائماً بها (وهذا السبب لا يقع في الزمان) أما الله فأزلى الوجود بذاته

أن ابن سينا يقول وغيره من الفلاسفة أن السبب الأول لكونه الوحدة المطلقة لا يمكن أن يكون له أثر مباشر سوى الوحدة ، ويقول في البرهان على ذلك أنه ثبت أن الكائن الواجب الوجود بذاته هو واحد في كل صفاته فلا يمكن أن يصدر عنه إلا كائن واحد . لأنه إذا صدر عنه كائنان مختلفان حقيقة فانهما لا يصدران إلا عن جهتين مختلفتين من روحه . فإذا كانت هاتان الجهتان متصلتين بروحه ينتج عن ذلك أن ذلك الروح قابل للتقسام ، وقد أثبتنا استحالة ذلك وخطأه (راجع ما وراء الطبيعة لابن سينا الكتاب التاسع الفصل الرابع والشهرستاني ص ٨٣٠ والغزالي مقاصد الفلاسفة)

نقول وإذا صدق قول ابن سينا في أنه لا يصدر عن الواحد إلا ما كانت صفته الأولية الوحدة فكيف نعلل صدور العالم عن الله وهو مجموع كائنات متعددة . للجواب على هذا فرض ابن سينا أن حركة الدوائر لم تصدر عن الله مباشرة ومن المعلوم عن رأي المشائين أن أثر علة العلل في الكون الأرضي ظاهر في الحركة التي تشكل المادة . انما يصدر عن الله العقل الأول ، أي عقل الدائرة المحيطة التي تسبب حركة الدائرة الثانية ، وهذه الدائرة المحيطة الأولى وان كانت صادرة عن الكائن الفرد فانها مركبة لأن بعقلها غايتين ، العقل الأول والدائرة ذاتها . يقول ابن رشد وهذا خطأ في رأي المشائين أنفسهم لأن العاقل والمقول هما واحد في العقل الانساني وهما كذلك بقوة أشد في العقول المنفصلة (عن المادة) ثم يقول ابن رشد أن هذا الرأي ليس لأرسطو ، انما استفاده الفارابي وابن سينا من بعض الحكماء الأقدمين الذين قالوا بأن

الخير والشر خاصة والاضداد عامة لا تصدر عن سبب واحد .

واذا عمننا هذا الفرض وصلنا الى وضع قاعدة مفردة ، وهى أنه لا يصدر مباشرة وبلا وسيط عن السبب البسيط المفرد الا أثر فرد . وقد أظهر ابن رشد أنهم أخطأوا فى نسبة هذا رأى الى ارسطو وقد نشأ ذلك عن سوء فهم المعنى المراد لفكرة الوحدة فى قول هذا الحكيم عند ما وصف الكون بأنه وحدة أو مجموع حيوى صادر عن سبب أول مفرد .

ولم يتردد ميمونيد الذى يرجع سائر نظريات ابن سينا الى آراء المعلم ارسطو فى نسبة هذا الفرض الى سواء (راجع كتاب مرشد الحيران تأليف ميمونيد القسم الثانى الباب الثانى والعشرين) وقد انتشرت هذه الهفوة فى المدارس المسيحية خلال القرون الوسطى ، ومن أثر ذلك أن نسب البرت الكبير هذا الفرض الى ارسطو وسائر تلاميذه ، واتباع تعليمه ما عدا حكيماً واحداً قال انه يعتقد بصدور شيئين من وحدة بسيطة ، هما المادة العامة والشكل العام .

وكان ابن سينا يقول كغيره من الفلاسفة بامتداد احاطة علم الله بالموجودات العامة لا بالأشياء الخاصة ، والحوادث التى تقع مصادفة ، وينسب الى نفوس الدوائر العلم بالجزئيات ، وانه بواسطة تلك النفوس يتصل علم الله بالموجودات الأرضية ، ويفرض ابن سينا أن لنفوس الدوائر خاصة التخيل التى تلم بأشياء لا حد لها ، لأنه لا يقدر أن لا ينسب العلم بالحوادث التى تقع مصادفة ، والأشياء المفردة إما الى عقول الدوائر ، وإما الى العقل الالهى . ان الأشياء الخاصة المفردة الأرضية لها رد فعل على علتها القريبة وتخترق صورها الدوائر بالتدرج فتتصل شيئاً فشيئاً من علة الى علة الى أن تصل الى السبب الأول ، وقد أثبت لنا ابن رشد ان هذا الفرض خاص بابن سينا ، وقد رد ابن رشد عليه

يقول ابن رشد ان الخيال متصل بالحواس ومعتمد عليها ، وحيث ان الحواس لا يمكن نسبتها الى الأجرام السموية حينئذ لا تمكن نسبة الخيال اليها ، وهو يبيح أن

ينسب الادراك للأجرام السماوية ، وطبيعة هذا الادراك كطبيعة ادراك المتقنن الذي يبدع تأليفاً أو صورة أو عمارة أو تمثالاً قبل ابرازها من حيز الفكر الى حيز الوجود .

ولكن هذا الادراك أو الخيال يلم بالأمر المقصود انجازه المأمأ عاماً أو نوعياً لا المأمأ تفصيلياً ، لذا لو فرضنا أن للأجرام السماوية خيالاً ، فلا يمكن أن يكون لهذا الخيال علاقة بالموجودات الخاصة الأرضية ، ويظهر مما سبق في الأمثال والإيضاح ، أن ابن سينا أراد بفرضه أن يقرب بين السبب الأول وبين الموجودات الأرضية ، وقد حاول هذا التقريب بإيجاد حلقات متتابعة يمكن بواسطتها اتصال القوة المجردة بسائر الموجودات المادية ، ولا يخفى أن ابن سينا حاول في مواطن شتى أن يجيد عن اتباع آراء ارسطو ، ولكن ابن رشد كان على العكس لا يريد الا تثبيت سلطة ارسطو الفلسفية ومناصرة آرائه ومبادئه وتحقيق فكره . لذا لم يعلق أهمية كبرى على ما كان خاصاً بابن سينا من النظريات ، وكثيراً ما اشتهر امتنانه لها (راجع مرشد الحيران الجزء ١ ص ٢٣١ ملحوظة ١٠ تأليف ميمويند) أما نظرية النفس فقد عالجها ابن سينا بعناية فائقة ، وقد نقل بالدقة تقسيم ارسطو لمواهب النفس ونظرية العقل المؤثر والعقل المتأثر وأضاف الى آراء ارسطو ونظرياته شروحات وملحوظات ذات قيمة ، فقد تبعه حكماء العرب في التقسيم القياسى لمواهب النفس البشرية الذى وضعه وسار على سنتهم فلاسفة القرون الوسطى المدرسيون وبعض الحكماء المحدثين وهذا هو التقسيم القياسى الذى وضعه ابن سينا

(١) الخواص الظاهرة أو الحواس الخمس

(٢) الخواص الباطنة

(٣) الخواص المحركة

(٤) الخواص العاقلة

وقد قسم كل خاصة منها الى أقسام أدق فذكر القوة الوهمية في الفصل الثالث من القسم الثانى وبها يكون الحيوان حكمه كما يفعل الانسان بقوة الفكر أو التأمل فانه بالوهم تعلم الشاة أن صغارها فى حاجة الى حنانها وانهم فى خطر من الذئب

وكان الفلاسفة السابقون على ابن سينا يخلطون بين تلك القوة ، وبين القوة الخيالة ، ومن خواص ابن سينا أنه جعل مقر خواص النفس في تجاوزيف المخ الثلاثة

أما فيما يتعلق بصلة العقل المؤثر بالنفس البشرية فلم يحاول ابن سينا أن يقر رأياً وهو كسائر حكماء العرب يرى في تلك الصلة أسمى ما تتطلع اليه النفس البشرية ؛ لذا ينصح للنفوس بالمساعي ولكنه يفضل قهر المادة وتطهير النفس من أدرانها حتى تصير وعاء نقياً جديراً بتلقي الالهام الالهى (راجع كتاب ما وراء الطبيعة الكتاب التاسع الفصل السابع)

يقول ابن سينا « أما النفس العاقلة فكما لها الحقيقى خفى ومصيرها أن تكون عالماً عقلياً تنبسط فيه صور الموجودات وترتيبها والخير العام الذى يخترق الأشياء عامة وهو قاعدة الكون الأولى ، ثم المواد الروحية العالية ، ثم النفوس المتصلة بالأجساد ، ثم الأجرام السامية ، وما لها من الخواص والحركات ، وهكذا الى أن تصير النفس عالماً عاقلاً مماثلاً للعالم العقلى بأجمعه عارفة بآتم الأشياء . كالجمال التام ، والخير التام ، والمجد التام فتتصل به وتصير كما ذكرت مادة . ولكننا ما دمنا فى هذا العالم الأرضى وفى هذه الأجساد فلا نستطيع أن نشعر بتلك السعادة لما يحيط بنا من الشهوات فنحن لا نبحث عن تلك السعادة الكاملة ولا نشعر بأننا قادرون أن نحصل عليها الا اذا تخلصنا مما يعلقنا بالشهوات وأنواع الفتنة والهوى . حينئذ نستطيع أن نتخيل شيئاً من تلك السعادة فى نفوسنا شريطة أن تتبدد الشكوك وأن تستنير بصائرنا ويظهر أن الانسان لا يقدر على الخلاص من هذا العالم وما يحيط به الا اذا تعلق بأهداب العالم العقلى الذى ذكرت فتجذبه رغبته اليه وتصونه عن النظر الى ما ورائه وهذه السعادة لاتنال الا بممارسة الفضائل والكمالات » ويقول فى مكان آخر « يوجد رجال ذوو طبيعة طاهرة اكتسبت نفوسهم قوة بالطهر وتعلقها بقوانين العالم العقلى . لذا هم ينالون الالهام . وبوحي اليهم العقل المؤثر فى سائر الشؤون ويوجد غيرهم لا حاجة بهم الى الدرس للاتصال بالعقل المؤثر لأنهم يعلمون كل شئ بدون واسطة . هؤلاء هم أصحاب العقل

المقدس . وأن هذا العقل لمن السمو بحيث لا يمكن لكل البشر أن ينالهم منه نصيب »
(راجع الشهرستاني ص ٤٢٨ نسخة ألمانية جزء ٢ ص ٣٣٢ - ٣٣١ في آخر تحايل
طبيعات ابن سينا)

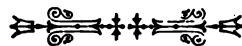
ويرى القارىء مما تقدم من قول الرئيس أنه يقصد بأصحاب العقل المقدس الأنبياء
الذين يحظون بالوحى الربانى . وهو قائل به البتة ما دام يعترف بأن بين النفس البشرية
والعقل الأول علاقة طبيعية وما دام الانسان ليس أبداً فى حاجة الى الحصول على
العقل المكتسب بالدرس

يتبين لك مما سبق أن الشرائع السماوية والقوانين الأدبية تشغل مكاناً فسيحاً فى
مبادئ ابن سينا وأنه بعيد بمراحل فى لغته الطاهرة عن المبادئ الحرة المخالفة للدين التى
شرحها وقال بها ابن رشد . وسيرى القارىء فيما يلى مقدار انقياد ابن رشد الى رأيه
فى العقل . ويقول ابن سينا بقاء وحدة النفس البشرية التى لها مادة منفصلة عن
الجسد ، وأن هذه المادة محافظة على ذاتها ، ولكنها غير متعلقة بالمكان ، أو الزمان
(راجع مرشد الحيران جزء ١ ص ٤٣٣ ملحوظة ٢)

ان فى كل فرع من فروع العلوم الفلسفية آراء جديدة أضافها ابن سينا الى فلسفة
ارسطو ولكن هذه الفلسفة لم تتغير فى مجموعها بما أضافه الرئيس تغيراً كبيراً .

وبالجملة فان ابن سينا أخرج سائر أجزاء فلسفة ارسطو بنظام تام ، وتسلسل محكم ،
ووسع نطاقها بمذهب الافلاطونية الحديثة (نيوبلاتونيزم)

وهو لا ريب معدود اكبر أساتذة فلسفة ارسطو فى القرون الوسطى . ومع أنه
تساهل كثيراً اكراماً لمبادئ الاسلام فانه لم يحدث تغيراً كبيراً فى مجموع فلسفة
ارسطو التى لا يمكن اتفاقها مع الدين الحنيف . ولا ريب فى أن الغزالى قصد اليه
بكتابه « تهافت الفلاسفة » .



✽ ايضاح عن ابن سينا ✽

أن ما ذكرناه بالايجاز عن حياة الشيخ الرئيس، من الشؤون العادية يدل دلالة سطحية على حياته ويحار المؤرخ اذا حاول الوصول الى علم يقينى عن نفسية ابن سينا وأخلاقه ويظهر للواقف على أخباره أن أبا عبيد الجرجاني وهو صاحبه الذى نقل عنه لم يدون ما يلقى شعاعاً من النور على تلك الناحية من حياة الرئيس ولكن المدقق قد يصل بعد طول الامعان الى بصيص من الضياء . وقد جاءت النبذ الدالة على خلقه وعقله عرضاً لا قصداً من ذلك أنه نشأ منذ نعومة أظفاره مستقلاً برأيه وترعرع ونما وهو يحافظ على ذلك الاستقلال بالرأى الذى هو الجوهر فى أخلاق الرجال

فقد حكى أن أباه وأخاه كانا من الاسماعيلية وانه سمع منهما كلاماً فى النفس والعقل على طريقة يرضاها أبوه وأخوه ولا يقبلها عقله ولا ترتاح اليها نفسه فلم يقبل عليها ونبا عنها ، وهذا الاستقلال فى الرأى والاعتداد بالنفس دليل قوة الفكر والارادة . حقاً أن الاعتداد بالنفس من أدلة الإعجاب بها وفى الإعجاب بالنفس عيوب ومحاسن ، ويظهر لنا أن ابن سينا استفاد بإعجابه بنفسه سمواً فى خلقه وعلواً فى مقاصده واقترباً من المثل الأعلى ولم يخف علينا ذلك فقد وصف نفسه بالتقدم فى العلم والبراعة فيه بكلام ملؤه الإعجاب بالذات

ويظهر من أخباره أنه كان عبقرية ممتازة قادراً على الامام بالعلوم والمعارف واستنباط الأفكار القوية ببساطة وبدون تكليف ظاهر أو خفى فكان عقله مخلوقاً للفلسفة . فقد سبقه فى كل الأمم فلاسفة وصلوا الى الحقيقة بعد الجهد والتعب وبعد التألم والمعاناة فى سبيل البحث عنها ولكن ابن سينا كان فذاً فى عبقريته حقاً وكان ذكاؤه من النوع الذى يظهر قبل أوان ظهوره عند أشباهه فى السن والمواهب فقد أتم ابن سينا تعليمه ودراسته فى أواخر العقد الثانى من عمره الحافل بالعجائب وكان على قمة الفتوة مالمالك زمام العلوم المعروفة لعهدہ يعيها ويحفظها ويحللها ثم اندمجت تلك العلوم فى نفسه فنضجت النفس وتجلت معرفتها أجمل تجلى وليس لدينا دليل على أنه زاد على علمه شيئاً بكر السنين ومرها ولكنه أحسن استعمال الأدوات التى حباه الله إياها فلما فرغ من تحصيل العلوم بأسرها فى مقتبل الشباب لم يزد عليها شيئاً ولم يتجدد له علم ولكن فطرته السليمة وبصيرته المنورة وعقله الجبار وإرادته القوية تضافرت كلها وتآزرت على المحافظة فيما بقى من عمره على الأسس العامية التى ركزت فى نفسه فى عنفوان الفتوة والتى صرف جهده فى صقلها وتهذيبها .

ومما يؤيد قولنا بأن عقل ابن سينا كان مخلوقاً للفلسفة ، وأن ممارسة العقليات كانت لديه أسهل منها لدى غيره ، أنه بعد تفوقه في سرعة احراز العلوم ، وامتلاك ناصيتها بقليل عناء ، صار التأليف والتصنيف من أبسط الأمور وأسهلها وأسرعها لديه ، فلم يكن من الحكماء الذين يطيلون النظر فيما يكتبون ، ثم اذا هم دونوا شيئاً يصرفون وقتاً في تحويره وتبديله بعد تقديمه وتمحيصه ، بل كان ابن سينا فياضاً بحكمته وفلسفته يثبته ، ولا يمحو ما أثبت ، ولا يتردد في تنقيح أو تصحيح ، ولا يشك في صحة ما كتب . ودليلنا على ذلك كثرة الكتب التي ألفها ابن سينا ، وكلها قيمة ممتعة ، وقد ألف بعضها وهو في نضارة العمر يترقرق في وجهه ماء الشباب ، على أنه لم يبلغ أكثر من ثلاث وخمسين سنة على الأقل أو ثمان وخمسين سنة على الأكثر

ينتج مما تقدم أن الشيخ كان من أظهر صفاته كثرة العمل وسهولته ، وسرعة اتمامه وكان يشبه جوته الفيلسوف الألماني من بعض وجوه ، فإن جوته ألف رواية « فوست » في جزئين بين الاول والثاني منهما نحو ستين عاماً ، كذلك ابن سينا ألف الجزء الاول من الشفاء مذ كان في معية الأمير شمس الدولة ، وما زال يوالى التأليف فيه في فترات متباعدة حتى أتمه وهو في معية الأمير علاء الدولة . وهذا دليل على انه رضى عما ألفه في شبابه بعد أن بلغ أشده ، وثبتت في الحكمة قدمه . كذلك كانت حال « جوته » وكتابه الخالد « فوست » ، وكذلك كان كتاب الشفاء للرئيس أوسع وأمتع ما وضعه في الحكمة .

أما عن عقيدة ابن سينا فقد وردت نصوص تدعو للتقول والظن ، ولكن الاخبار الصادقة الصحيحة المروية عن الجرجاني الثقة وغيره ، مجمعة على أن الشيخ الرئيس كان اذا أشكلت عليه معضلة ، توضأ وقصد المسجد الجامع وصلى ودعا الله أن يسهلها عليه ، ويفتح مغلقها بين يديه ، وهذا دليل على العاطفة الدينية القوية في نفس ابن سينا . ويصح لنا أن نقول إن إيمانه كان جزءاً من عبقريته ، وإن اعتناؤه بواجب الوجود كان من أقوى أسباب ظهور عبقريته

أما ما رواه الجرجاني من أن الرئيس كان شديد القوى كلها وأن قوة الحب كانت لديه أقوى وأغلب ، وأن مظاهر تلك القوة المعنوية والمادية جذبت الشيخ اليها ، واستدعت منه جهوداً أثرت في مزاجه ، وكانت من أسباب علته واشتداد وطأتها عليه ، فقد كان

هذا صحيحاً ، وكانت هذه الصفات موضع العجب لدى الباحثين ، ولكن منذ ظهر العلامة «فرويد» واستوفى النظر فيما بين قوة الحب الجنسي والمواهب العقلية ، فقد أصبحت دراسة تلك العاطفة القوية لدى العبقرين ، من أهم الوسائل للوقوف على كثير من خفايا نفوسهم وأسرار حياتهم العقلية والقلبية ، وهذه الاشياء التي ذكرت تلميحاً في تاريخ الفلسفة ، أصبحت ذات شأن كبير في نظر علماء النفس وتحليل قواها ومواهبها . وصار هذا البحث نفسه علماً قائماً بذاته اسمه (Psychoanalyse)





(صورة شمسية)

للمنزل الذي ألف فيه الغزالي كتاب « احياء علوم الدين » بالجهة الشمالية الشرقية لقبة الصخرة بالقدس الشريف . والواقف الى اليمين السيد اسحق درويش الحسيني بك مفتش المعارف الاهلية بفلسطين والى اليسار الفيلسوف الشاعر الكبير صديقنا أمين الريحاني ، واليه يرجع الفضل في اهداء هذه الصورة

٤ — الغزالي

ابو حامد محمد بن محمد الغزالي ، كان يدعو العامة بالغزال ، أكبر علماء الكلام لعمره وأحد أئمة المذهب الشافعي . ولد في طوس إحدى مدن خراسان عام ٤٥٠ للهجرة (١٠٥٨ للمسيح) ودرس العلوم في بلده ، ثم رحل في طلب العلم الى نيسابور ، وظهرت عليه منذ صباه علامات الذكاء الخارق والنجابة النادرة . وكان علمه الواسع بعلوم الكلام ، ووقوفه على فنون الفلسفة ، سبباً في اقبال نظام الملك وزير السلطان ملك شاه السلجوقي عليه ، فوكل اليه إدارة المدرسة النظامية التي أسسها ببغداد .

وكان الغزالي حينئذ في الثالثة والثلاثين وله بين العلماء مرتبة رفيعة . وبعد سنين قليلة ترك المدرسة النظامية ، وقصد الى أداء فريضة الحج في مكة ، ولما أتم هذا الفرض المقدس ، ألقى دروساً في جوامع دمشق وبيت المقدس والاسكندرية ، وإذ كان بالاسكندرية أوشك أن يرحل الى المغرب ليقدم على يوسف بن تاشفين أمير مراكش أحد امراء المرابطين فأتاه نعي يوسف ، فعاد الى طوس واتقطع الى حياة الفكر ، وعاش عيش المتصوفة وانكب على تأليف الكتب ، وكانت غايته من وضعها تقرير امتياز دين الاسلام على غيره من الأديان ، وعلى الفلسفة ولذا سمي حجة الاسلام وزين الدين وأشهر كتبه إحياء علوم الدين وهو كتاب في علم الكلام والآداب مقسم الى أربعة أقسام : الأول في الشعائر والاحتفالات الدينية والثاني في القوانين الخاصة بأحوال الحياة الدنيوية والثالث فيما يهلك والرابع فيما ينقذ ، أى في الرذائل والفضائل

ثم هجر التأليف وعاد الى نيسابور ، ليدبر المدرسة النظامية ، ثم عاد الى طوس وأسس ملجأ للصوفيين (تكية) وقضى بقية أيامه في العبادة والتأمل ، وقضى الى رحمة الله عام ٥٠٥ للهجرة (١١١١ للمسيح)

أما المعلومات الكاملة عن حياته ، فقد أعطاها الموسيو دى هامير ، في مقدمة كتاب « أيها الولد » في الترجمة العربية الالمانية ، وهو كتاب في الأخلاق من كتب الغزالي

إنما الذى يهمنى فى هذا الباب ، هو تاريخ حياة الغزالى الفكرية ، وسير دراسته والدرجة التى تنبغى له بين فلاسفة الاسلام ، وتأثيره فى فلسفة عصره ، وقد هداانا الى حل تلك المسائل الغزالى ذاته فى كتاب اسمه « المنقذ من الضلال » وقد شرح فيه حقائق الموجودات وحلل هذا الكتاب تحليلاً كاملاً الميسو پاليا والموسيو شمولدرز فى مقالة على « مبادئ الفلسفة عند العرب » وقد نشر شمولدرز نص رسالة الغزالى العربى وترجمة فرنسية فيها بعض أغلاط ولكنها لا شك كافية .

وهذه الرسالة هى فى شكل جوابات على أسئلة وجهها اليه صديق فتكلم أولاً فى الصعوبة التى لقيها فى التمييز بين المبادئ والتعاليم الفلسفية المختلفة ، وفى معرفة الخطأ من الصواب ، وتكلم عن المساعى التى لم يذته من بذلها منذ سن العشرين فى سبيل الوقوف على الحق . قال وبعد أن درس مبادئ الفلاسفة الدينية والحكمية وتعمق فيها أخذ يشك فى كل شىء ، وسقط فى هوة الجحود المطاق وارتاب فيما يهديه اليه الحس ، الذى طالما يرشدنا الى أحكام يناقضها العقل ، كذلك لم يكن العقل كافياً لاقناع الغزالى لأن لا شىء ثبت صحة مبادئه ، وأن الذى نعتقده صواباً فى اليقظة بواسطة الحس أو العقل ليس كذلك إلا لعلاقته بالحال التى نحن عليها ولكن هل نحن متحققون من أن حالاً أخرى لا تتلو تلك وتكون بالنسبة لليقظة كنسبة اليقظة للنوم بحيث نعرف فى تلك الحال الحادثة أن كل ما حسبناه صحيحاً بواسطة العقل ، لم يكن إلا حلاماً لا حقيقة له . وفى الواقع رجع الغزالى عن جحوده ، ولكن هذا لم يكن بقوة العقل إنما فى اثناء بحثه عن الحقيقة ، انقطع للتعلم فى مبادئ المتكلمين والباطنية والفلاسفة والمتصوفين ، ولم تجد نفسه هداها إلا فى التصوف والتأمل والانجذاب الذى يعرفه الصوفيون . بيد أنه ليس للغزالى أثر ظاهر فى مبادئ الصوفيين ، ولكن أثره الأعظم هو فى تاريخ الفلسفة العربية فان جحوده الذى لم يظهره فى كتبه بشكل مبدأ ، خدمه ليطنن المبادئ الفلسفية طعنة مشؤومة

بين مؤلفات الغزالى التى عددها الموسيو هامر فى رسالته كتابان جديران بالنظر .

الكتاب الأول « مقاصد الفلاسفة » والثاني « تهافت الفلاسفة » ، أما كتاب المقاصد فهو تلخيص للعلوم الفلسفية شرح فيه المؤلف علم المنطق ، وما وراء الطبيعة ، والطبيعيات ولم يتعد في شرحه عن مبادئ أرسطو ، التي شرحها الفارابي وابن سينا وقد نُقل هذا الكتاب الى اللغة اللاتينية في أواخر القرن الثاني عشر بواسطة « دومينيك جندسالي » وطبع في البندقية عام ١٥٠٦ م . بواسطة « برتوس ليشتنشتين دي كولوني » تحت اسم « منطق العرب وحكمتهم للغزالي » .

وقد يدهش من يرى الغزالي في المقاصد يشرح مبادئ الفلاسفة التي يهدمها في كتاب التهافت وقد ظن الموسيوريتير في كتابه (Geschichte der Philosophie) (تاريخ الفلاسفة ج ٨ ص ٥٩) أن الغزالي كتب المقاصد ، لما كان لا يزال قائلًا بمبادئ أرسطو ولكن الحقيقة هي أن الغزالي لم يرد بالمقاصد إلا الاستعداد لهدم المبادئ التي شرحها شرحًا وافيًا ، كما بين ذلك في المقدمة التي لم تنشر في كل النسخ الخطية اللاتينية وفي طبعة فينيس (البندقية) ولكنها موجودة في نسختين خطيتين باللغة العبرية وفي نسخة لاتينية في مكتبة السربون . وهذا ما قاله الغزالي في المقدمة ردًا على من سألوه رد حجة الفلاسفة : « تسألني يا أخى تأليف كتاب كامل واضح للرد على الفلاسفة وتبين خطأ مبادئهم لتتق بذلك الوقوع في الخطأ ، ولكن هذا عبث قبل أن تعرف مبادئهم وتعاليمهم تمام المعرفة لأن الرغبة في الوقوف على خطأ بعض الآراء قبل الوقوف عليها تمام الوقوف تعد خطأ ينتهي بالعمى والخلط . فظهر لي من الضروري قبل الشروع في نقض آراء الفلاسفة أن أضع كتابًا أشرح فيه ميول علومهم المنطقية والطبيعية والالهية دون التمييز بين الخطأ والصواب في مبادئهم لأن غايي هي شرح نتائج أقوالهم دون الاسهاب في أمور زائدة عن الحاجة ولا علاقة لها بالبحث ، فسأكتفي بشرح مبادئهم مضيغًا اليها الأدلة التي يثبتون بها أقوالهم ، فغاية هذا الكتاب هي شرح مقاصد الفلاسفة ولهذا اخترت له ذلك الاسم » . ثم ذكر الغزالي أنه سترك العلوم الالهية جانبًا لاتفاق العامة على صحة مبادئها وأن ليس بها ما يحتاج الى النقض وكذلك مبادئ

المنطق هي علي العموم صحيحة والخطأ فيها نادر، أما الطبيعيات فالحق فيها ممتزج بالباطل .

وهذا ختام الكتاب في الأصل العربي والنسختين العبريتين : « فهذا ما أردنا أن نحكيه من علومهم المنطقية والالهية والطبيعية من غير اشتغال بتمييز الفث من السمين والحق من الباطل ولنفتتح بعد هذا الكتاب تهافت الفلاسفة حتى يتضح برهان ما هو باطل من هذه الجملة » .

وبعد هذا البيان الشافي ، ليس مكان للعجب من شرح مبادئ الفلاسفة في كتاب المقاصد . اما كتاب التهافت فغاية الغزالي منه هي تقض تعاليم الفلاسفة ، بنقد عام يظهر ما فيها من التناقض ، ويوضح مخالفتها للعقل ، وهذا نص ختام كتاب التهافت « واذا أعترض علينا بأن انتقادنا لا يخلو من الريب ، تقول إن بالنقد يتضح برهان ما هو صحيح وما هو باطل ، فاذا عرضت صعوبة أمكن حلها بفحص النقد والاعتراض . إنما الذي نرمي اليه في هذا الكتاب ، هو أن نشرح مبادئهم وأن نقابلها بما ينقضها من الأدلة ولا نريد أن نكون على مبدأ منها ، وليس مقصدنا أن نذكر أدلة على حدوث العالم ، إنما هدم ما ذكره من الأدلة تأييداً للقول بقدم المادة . وبعد الفراغ من هذه الرسالة سنشرع في تأليف غيرها لاثبات الرأي الصحيح الذي غايته تشييد الحق ، كما أن غايتنا من هذا الكتاب هي هدم الباطل »

وبدأ الغزالي مقدمة الكتاب بنقد آراء القائلين بآراء الفلاسفة ، المعارضين عن حكمة الدين ليثبت أن كل ما يقولون به مما يخالف قواعد الدين ليس له أساس .

ثم اسهب في القواعد الأربع ، التي اهتدى بها في تأليف هذا الكتاب ، وبعد المقدمة شرع الغزالي في تقض حجج الفلاسفة في عشرين نقطة ، ست عشرة منها في الآلهيات وأربع في الطبيعيات .

وأهم ما في هذه النقط هو الفصل المتعلق بالمسببات ، وملخص قوله في هذا الباب يرجع الى مسألتين : الأولى انه اذا اجتمع أمران معاً فليس فيه دليل قاطع على أن

الأول علة الثاني ، الثانية : اذا فرضنا صحة فعل بعض الظروف (تعلق أمر بأمر) بناء على قانون طبيعي ، فليس ينتج من ذلك أن الأثر يكون بذاته في ظروف متماثلة حتى ولو كانت الأشياء متماثلة . فان القطن يمكن بارادة الله أن يتخذ شكلاً يقيه الحريق ، وبعبارة أخرى أن ما يسميه الفلاسفة بقوانين الطبيعة أو قاعدة العلل ، هو أمر يقع تبعاً لارادة الله ونحن قبله كأمر واقع محقق لأن الله سبحانه وتعالى في سابق علمه علم مصير الأمور فعلاً ما اياه ، فليس هناك ، والأمر كذلك ، قانون طبيعي ثابت يقيد ارادة الخالق جل وعلا .

نقول ان بعض الفلاسفة ، مثل ابن رشد كانوا يعتقدون أن الغزالي لم يكن مخلصاً في قوله ، وان الخلاف بينه وبين الفلاسفة ، كان على تقط محدودة ، انما أراد الطعن عليهم في سائر النقط لتزداد به ثقة أهل السنة . وذكر موسى بن ناربون ، بعد أن ذكر رأى ابن رشد السابق في بداية شرحه على المقاصد ، ان الغزالي كتب بعد الفراغ من تأليف التهافت ، رسالة صغيرة لم يعلم بها الا بعض المقرئين وفيها ردود على ما وجهه من النقد الى مبادئ الفلاسفة ، وان هذا الكتيب يُسمى « رسالة وضعها أبو حامد بعد التهافت ليكشف عن فكره للحكام وفيها مقاصد المقاصد واللييب تكفيه الاشارة » وفي هذا الكتاب أبحاث إلهية ذات أهمية كبرى ولكن لغتها عويصة الفهم على العامة ، وقد بدأ هذه الرسالة بالكلام في الدوائر العليا وحركاتها ونفوسها ، ثم تكلم في المحرك الأول وفي صفاته ، ثم تكلم في النفس ، وليس في هذه الرسالة أثر لاحتقار الفلسفة كما في التهافت انما يقيم الأدلة كأنه بعض الحكماء لا كالمتكلمين ، ويثبت بالحجة العقلية اموراً في الآلهيات ، حاول تقضها في التهافت . فانه يقول في هذه الرسالة مع الفلاسفة بازلية الزمان وحركة الدوائر السماوية ، وفي ختام هذه الرسالة حرم الغزالي الاطلاع عليها الا على أهل النفوس القويمة ، والعقول السليمة ، عملاً بقول النبي (ص) « خاطبوا الناس على قدر عقولهم » .

كتب ابن الطفيل رغم احترامه للغزالي ، يوضح اضطرابه وتردده في مبادئه

(نقلاً عن كتاب حى بن يقظان صفحة ١٩ - ٢١) نبذة أولها « اما عن كتابات الامام الغزالى الخ » . ثم ذكر ابن الطفيل نبذة من كتب الغزالى ، مؤداها أنه ألف كتباً باطنية ، لا يطلع عليها إلا فريق من الخاصة المقرين وان هذه الكتب ليست فيما وجد فى مكاتب الأندلس وأهمها كتاب المضمون به وهو موجود بصحبة أربع رسائل للغزالى فى المكتبة الوطنية بباريس (المكتبة الامبراطورية سابقاً) تحت عدد ٨٨٤ نسخ خطية وذكره العلامة شمولدرز فى مقاله ص ٢١٣ مذكرة ١ بالهامش وفى هذا الكتاب « المضمون به » أظهر الغزالى اتفاه مع الفلاسفة على قدم العالم ويقول كقولهم بأن الذات العلية تعلم الأمور إجمالاً لا تفصيلاً أى تحيط بالكليات لا بالجزئيات ، وأنها مجردة عن الصفات ، ولكن بعض المؤلفين نفى نسبة مثل هذا الكتاب للغزالى ، لبعده عما كان يقول به حجة الاسلام فى أمهات كتبه (يراجع فهرست الحاج خليفة طبعة الموسيو فلوجل ج ٥ ص ٥٩٠)

وجملة القول أن الغزالى اذا كان له مبدأ خاص به فانه لم يهتد اليه إلا بالتأمل وبالانجذاب الذى حل به منذ تصوف ولا تكون نتيجة الانجذاب فى الواقع مبدأ فلسفياً . ثم أن الغزالى يعلق أهمية كبرى على العمل وهو يمثله فى كتابه « ايها الولد » بالثمرة والعلم بالشجرة . ومن أهم كتبه فى الأخلاق والحث على الفضيلة كتاب « ميزان الأعمال » طبع له تفسير عبرى فى ليزيخ عام ١٨٣٩ وناقله عن العربية المعلم ابراهيم ابن حسد اى الاسرائيلى الاندلسى

وأهمية الغزالى عند الافرنج هى فى جحوده العلوم الفلسفية ويقول علماءهم أنه طعن الفلاسفة فى الشرق العربى طعنة قاضية وكان يكون نصيبها فى الغرب كذلك لو لم تاق فى ابن رشد حامياً لها أحياءها قرناً من الزمان



* إيضاح عن الغزالي *

(١)

لا شك في أن هذا الفيلسوف الحكيم ، يعد من أعظم أعلام الفكر العربي الاسلامي ومن أئمة أهل البحث والنظر في علوم الدنيا والدين ، وقد عده كثيرون من مؤرخي الفلسفة والأدب من نوادر الدهر نبوغاً ونوراً . وقد كان من الفضايل الذين زانوا القرن الخامس الهجري بعد نهاية الصدر الأول ، وقد شاء أن يكون من تأليفه ذلك الكتاب الذي فيه احياء وانتمائ لأئمة آثار السلف الصالح ، فلقبوه بحجة الاسلام بحق دون مغالاة أو مجاملة أما عن اسمه فقد اختلفوا في هل كان الغزالي بتخفيف الزاي أو تشديدها ، وقد بحثت هذه المسألة في « شذرات الذهب » والعبر لشمس الدين الذهبي و « طبقات الشافعية » لعبد الرحيم الاسنوي فقررنا أن اسمه كان بتشديد الزاي ، فقالوا الغزالي كالطاري والحجازي بتشديد الزاي والطاء والباء وهذه لهجة أهل خراسان في غزال وعطار وخباز بتشديد الحروف الوسطى . وجاء في « طبقات الشافعية » أن أباه كان يفزل الصوف فلقبه مستفاد من صناعة أبيه ولكن السمعاني قال « أن لقبه مستفاد من نسبته الى غزالة وهي إحدى ضواحي طوس » ونحن نميل الى تعليل السمعاني واطلاق اللقب بتخفيف الزاي

وسواء أكان الوالد يفزل الصوف ويديمه في حانوته أم لم يكن ، فقد توفي تاركا ولديه محمداً (وهو ابو حامد) واحمد في غضاضة الطفولة ، وكان بلارب رقيق الحال فأوصى بهما صديقاً متصوفاً قام على تهذيبهما حتى استنفدتا تركتهما أبهما ، وقد شاءت الأقدار للغزالي أن يسافر ويرحل في طلب العلم ككل الفلاسفة والحكماء والانبياء والمصلحين الذين لا تتكون نفوسهم إلا بالآلام في أوطانهم وفي اغترابهم . وقد صار الغزالي أنظر أهل زمانه ، واستطاع أن يؤلف ويدرس ويفيد الناس في حياة استاذة وهو في مقتبل عمره ، وهو شبيه في ذلك بابن سينا

(٢)

وما شاهدناه في اتصال الفلاسفة السابقين ، وم الكندي والفارابي وابن سينا بالخلفاء والوزراء ، وما اتخذوه من ذلك وسيلة لنشر أفكارهم وترويج مبادئهم ، نشاهد أيضاً في حياة الغزالي ، فقد اتصل بنظام الملك ونغر الملك وعاش في ظلال آل سلجوق ، فكان الفلاسفة المسكينة كانت أبدأ في حاجة للاحتواء بقوة الدولة منذ بداية التاريخ ، وهذا ارسطوطاليس اليوناني والمعلم الأول كان يعيش في ظل فيليدس المقدوني وأبنة الاسكندر ، وكان فولتير

(٦)

في الأزمان الحديثة يعيش في بلاط فردريك الاكبر، وكان جويته الالماني العظيم في بلاط امير فيار، ولم تتحرر الفلسفة وأصحابها إلا في حالتين، حالة الفيلسوف القانع الذي يعيش من عمله الضئيل ليندلي الحكمة، مثل سبينوزا الذي قضى حياته في صناعة الساعات والتأليف، والحالة الثانية حالة الفيلسوف الممول، اما بмираث مثل ارثورشوبنهور واما بشمرات مؤلفاته مثل جون ستيوارت ميل، وهذا أندر ما يكون بين الحكماء فعظم هؤلاء القوم فقراء يعيشون من ثمرة أفكارهم بالتدريس والكتابة، مثل فردريك نيتشه وبرجسون وغيرهما

(٣)

بين كتب أبي حامد التي ذكرناها في ترجمته كتاب « المضمون به على غير أهله » وقد وصفه بعض كتاب الافرنج بانه اعتراف الغزالي تشبهاً له باعتراف جان جاك روسو، على أن هناك فرقاً جوهرياً بين الكتابين، فجان جاك روسو دون اعترافه شاملاً لجميع شئون حياته المادية والمعنوية والعقلية، ولكن الشيخ الغزالي جعل هذا الاعتراف قاصراً على حياته العقلية والقلبية، وهو رسالة الى صديق له وصفه بانه أخوه وجعل هذا الكتاب جواباً على سؤال توجه اليه من هذا الأخ، فقال في استهلاله « فقد سألتني أيها الأخ أن أثبت اليك غاية العلوم وأسرارها، وأحكى لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك والطرق، وما استجرت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد الى يفاع الاستبصار، وما احتويته ثانياً من طرق أهل التعليم القاصرين لدرك الحق على تقليد الامام، وما ازدريته ثالثاً من طرق التفلسف وما ارتضيته آخراً من طريقة التصوف، وما انحل الى في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل الخلق من لباب الحق، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة، وما دعاني الى معاودتي بنيسابور بعد طول المدة » .

والظاهر من هذه النبذة الافتتاحية أن الغزالي قاسى كثيراً في استخلاص الحق، وانه ازدرى الفلسفة وارتضى التصوف وهذا هو مفتاح حياته العقلية، وظاهر من اعتراف الغزالي انه كان في عنفوان شبابه منذ راهق البلوغ قبل بلوغ العشرين، الى أن أناف على الخمسين أى قبيل موته بخمس سنين، لانه توفي في نصف العقد السادس، يحاول أن يستكشف أسرار كل طائفة بحرية مطلقة لا فرق في ذلك بين محق ومبطل، ومتسنى ومبتدع، فجمع في بحثه بين درس الفيلسوف ليقف على كنه فلسفته، والمتكلم ليجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، والصوفي ليحرص على العثور على سر صفوته، وأيضاً الزنديق المعطل والملحد الجاحد ليتجسس وراءه للتنبه لاسباب جرأته في تعطيله وزندقته

(٤)

وهذه حرية في البحث واستقصاء في الدرس يدلان على سعة صدره وسمو فكره، إذ لا يمكن للمحقق أن يستوعب سبل الحقيقة بغير الجمع بين سائر مظاهرها، مما يقال للشيء وعليه كما كان شأن « قانت » في كتابه الجليل « نقد العقل الصحيح أو العقل الصراح » وقد كان هذا الشيخ الجليل الغزالي في تعطش إلى درك حقائق الأمور من أول أمره وريعان عمره، وكان البحث وراء الحقيقة غريزة وفطرة وضعتا في جبلته . ومما يحذر بالنظر في نفسية هذا الفيلسوف أنه مازال هذا دأبه وديدنه حتى انحلت عنه رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة، لأن مطلوبه كان العلم بحقائق الأمور، ومن أمثاله التي ضربها في رفعة قدر العلم في نظره أنه إذا علم أن العشرة أكثر من الثلاثة فلو قال له قائل لا بل الثلاثة أكثر دليل أني أقلب هذه العصا ثعباناً وقلبها وشاهد ذلك منه، لن يشك بسبب هذه المعجزة أو الكرامة أو الحيلة السحرية في معرفته أن العشرة أكثر من الثلاثة ولم يحصل له منه إلا التعجب من قدرة هذا الذي قلب العصا ثعباناً، فأما الشك فيما علم فلا، ثم ثبت له أن كل ما لا يعلمه على هذا الوجه ولا يتأكد على هذا النوع اليقيني فهو علم لا ثقة له به ولا أمان معه، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني

(٥)

والغريب في أمر هذا الفيلسوف أنه سلك سبيل الفلسفة الحسية قبل (دافيد هيوم) الانجليزي بستة أو سبعة قرون، وإذا علمنا أن دافيد هيوم كان له أعظم فضل في تنمية فكر « عمانوئيل قانت » الألماني الذي أقر في كتابه بأن هيوم هو الذي أيقظه من غفلته، لعلمنا مقدار عقل الفيلسوف الغزالي بالنسبة لهؤلاء المحدثين الاجماد من أهل أوروبا، فإن الغزالي فتش عن العلوم فوجد نفسه عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة إلا في الحسيات والضروريات، فقال الآن بعد حصول اليأس لا مطمع في اقتباس المشكلات إلا من الجليات وهي الحسيات والضروريات، فلا بد من إحكامها أولاً ليتبين أن ثقته بالمحسوسات وأمانه من الغلط في الضروريات من جنس أمانه الذي كان من قبل في التقليديات

(٦)

ولما وصل إلى الفلسفة، قال أن الدهريين أول الفلاسفة الاقدمين، وانهم جحدوا الصانع المدبر العالم القادر، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه لا بصانع ولم يزل الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان كذلك كان وكذلك يكون أبداً

والصنف الثانى الطبيعيون وهم قوم اكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات واكثروا الخوض فى علم تشريح أعضاء الحيوانات ، فزعموا أن النفس تموت ولا تعود ، وجحدوا الآخرة ، وانكروا الجنة والنار ، والقيامة والحساب ، فأنحل عنهم اللجام وانهمكوا فى الشهوات انهماك الانعدام والصنف الثالث وقد وصفهم الغزالي بانهم الالهيون وهم المتأخرون ، منهم سقراط وهو استاذ أفلاطون ، وأفلاطون استاذ ارسطوطاليس ، وارسطوطاليس هو الذى رتب لهم المنطق وهذب العلوم وخر لهم ما لم يكن مخزاً من قبل ، وانضج لهم ما كان فجاً من علومهم ، وهؤلاء الالهيون ردوا على الصنفين السابقين وهم الدهريون والطبيعيون ، وأوردوا فى الكشف عن فضائهم ما أغنوا به غيرهم ، ثم رد ارسطوطاليس على أفلاطون وسقراط ومن كان قبله من الالهيين رداً لم يقتصر فيه حتى تبرأ عنهم جميعاً

ومن العجيب أن الامام الغزالي مع اعترافه بفضل فلاسفة الاغريق لا سيما ارسطو ، فانه عاب على الفلاسفة الاسلاميين اتباعهم إياه ، وذكر أن ابن سينا والفارابى لم يقيم بنقل ارسطو من فلاسفة الاسلام أحد كقيام هذين الرجلين . وكان هذا بالطبع قبل ظهور ابن رشد ولو أدركه الغزالي لفضله عليهما وان كان لهما فضل سبق والتقدم

(٧)

ولما فرغ الغزالي من النظر فى العلوم الفلسفية وقبل منها ما قبل ، وزيف ما زيف شعر بأن علومهم غير وافية بكمال الغرض ، فاتجه نظره الى البحث فى مذهب التعليم وعائلته ولكنه قبل الشروع فى درس هذا المذهب وصل الى ما وصل إليه «عمانوايل قانت» من أن العقل ليس مستقلاً بالاحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات وبهذه العقيدة الجديدة التى تعد المرحلة الثانية فى تكوين عقل الغزالي ، فان المرحلة الأولى كانت التقليد ، والثانية كانت البحث فى أقوال المتكلمين والفلاسفة ، أخذ يدرس مبادئ الطائفة التعليمية فابتدأ بطلب كتبهم كما فعل فى كتب الفلسفة ، وترتيب كلامهم ورتبه ترتيباً محكماً مقارنة للتحقيق ، واستوفى الجواب عنه حتى أنكر بعض أهل زمانه من العلماء عليه مبالغته فى تقرير حجتهم ، وقالوا ان هذا سعى لهم أى لطائفة التعليمية وانهم كانوا يعجزون عن نصره طائفهم لولا تحقيق الغزالي وترتيبه

(٨)

وليس هذا الاعتراض بين علماء الاسلام حديثاً ، فقد أنكر احمد بن حنبل على الحارث المحاسبي كتابه فى الرد على المعتزلة ، فأجابه الحارث بأن الرد على البدعة فرض

فقال ابن حنبل « نعم ولكنك حكيت شبهتهم أولاً ثم أجبت عنها فلم تأمن أن يطالع الشبهة من تعلق ذلك بفهمه ولا يلتفت الى الجواب أو ينظر اليه ولا يفهم كنهه »
وما ذكره ابن حنبل حق ولكن في شبهة لم تنتشر ولم تشتهر ، أما اذا انتشرت فالجواب عنها واجب ولا يمكن الجواب إلا بعد حكاية الشبهات على حقيقتها كما فعلنا في كتاب « الشهاب الراسد » الذي جعلناه رداً على موضوع الشعر الجاهلي

ويظهر لنا أن الغزالي لم يكن مدفوعاً الى الرد على مذهب التعليم من تلقاء نفسه فقط بل كان هناك دافع سياسي ، لانه بانتشار مذهب التعليمية شاع بين الناس تحدى هذه الطائفة بمعرفة معنى الامور من جهة الامام المعصوم القائم بالحق ، ويظهر أن الخليفة فطن الى ما يهدد مركز الخلافة من شيوع هذا المذهب فكلف الغزالي بالرد عليهم ، فقال الغزالي في حكاية هذا التكليف ما نصه « ثم اتفق ان ورد على أمر حازم من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم فلم يسعى مدافعتة وصار ذلك مستحثاً من خارج ضميمة للبائع الاصلى من الباطن » وهذا ألطف ما يقال في حسن التعليل إذ الظاهر من مذهب التعليمية أنه مزيج من السياسة والشريعة ، والسياسة فيه أظهر وقليل من الفلسفة اتخذه أربابه ترويحاً لمذهبهم ليصبغوه بصبغة الحكمة فاقتدوا ببعض أقوال فيثاغور فلم يكن هذا البحث ينحلو من رائحة الفلسفة لأن التعليميين لما عرضت لهم اشكالات لم يفهموها ولم يحلوها ، واحلواها على الامام الغائب ، قالوا انه لا بد من السفر اليه وضعوا عمرهم في طلب العلم وفي التجنح بالظفر به

(٩)

وعلى كل حال فان هذا البحث الاخير وجه الغزالي الى ما كان مخلوقاً له حقاً وهو طريق الصوفية ، فأقبل عليه بهمته وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتزهد عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله ، وكان العلم ايسر من العمل فقرأ كتبهم وطالع رسائلهم وأهمها : كتب ابى طالب المدكى ، والجارث المحاسبي والمأثور عن الجنيد والشبلى والبسطامى . وحصل الغزالي كل ما يمكن تحصيله من طريقتهم بالتعلم والسماع ، الى ان ظهر له ان أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات ، فكم من الفرق بين ان يعلم الانسان حد الصحة وحد الشبع وحد السكر وأسبابها وشروطها ، وبين أن يكون صحيحاً وشبعان وسكران

وكل باحث في حقيقة المتصوفين يعلم يقيناً أنهم ارباب احوال لا اعجاب اقوال

(١٠)

على ان الغزالي الذي رأيناه يعجب بمعجزة قلب العصا ثعباناً ولا يجعلها دليلاً أو وسيلة لانكار ما ثبت في نفسه من طريق العلم اليقيني ، نراه عند ولوجه باب التصوف يقول انه قد حصل له من العلوم التي مارسها والمسالك التي سلكها في التفتيش عن العلوم العقلية والشرعية ايمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر وان هذه الاصول الثلاثة من الايمان كانت رسخت في نفسه لا بدليل معين مجرد أى كما رسخ في نفسه ان العشرة اكثر من الثلاثة ، بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تفاصيلها تحت الحصر وكان بحكم السن واتقضاء العمر في مكارم الاخلاق وفضائل المجاهدات ظهر عنده ان لا مطمع له في سعادة الآخرة الا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وان رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاة والمال والهرب عن الشواغل .

(١١)

وقد عرضت تلك المشكلة للغزالي وهو في قمة مجده منغمس في العلائق وقد احدثت به من الجوانب ، وأهم اعماله اذ ذاك التدريس والتعليم والباعث عليهما طلب الجاه وانتشار الصيت ، فلم يزل يفكر في العزم على الخروج من بغداد لمفارقة تلك الاحوال ستة اشهر من رجب سنة ٤٨٨ هجرية الى آخر تلك السنة حتى مرض ويئس الاطباء من شفائه فخرج مرغماً مضطراً وهو يظهر انه مسافر الى الشام حذراً من ان يطلع الخليفة وابعابه على عزمه وهو ان لا يعود الى بغداد ابداً ، ثم دخل الشام وأقام بها سنتين في العزلة والحلوة والرياضة ثم دخل الى بيت المقدس واختلى في الصخرة ثم سار الى الحجاز ثم جذبته دعوات الأطفال الى الوطن ، ودام على ذلك مقدار عشر سنين وانكشفت له في أثناءها امور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها ، وخلاصتها التي يجوز الاتفاص بها هي انه علم يقيناً ان الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وان سيرهم احسن السير ، وطريقهم اصوب الطرق ، واخلاصهم اذكى الاخلاق

(١٢)

وظاهر من هذا ان الغزالي لم يكن فيلسوفاً عقلياً ، انما كان حكيماً دينياً بالفطرة ، وانه اتخذ العلم والعقل والشرع ذاته وسيلة للوصول الى الحال التي هيأتها لها الطبيعة ، على ان هذا لا يمنعنا من القول بان عقله النادر المثل لدى مروره بالفلسفة اليونانية والعربية أفادها واستفاد منها ، وهذا ظاهر من مؤلفاته التي ذكرناها لا سيما « مقاصد الفلاسفة » و « احياء علوم الدين » و « تهافت الفلاسفة » الذي سيرد الكلام عليه بالتفصيل في عرض الكلام على ابن رشد وهو الفيلسوف الاسلامي الوحيد الذي رد عليه بكتاب مثله .

٥ - ابنه باجه

هو أبو بكر محمد بن يحيى الملقب بابن الصائغ أو ابن باجه ، ويعرفه علماء الغرب في القرون الوسطى باسم اقمباس . من أشهر علماء العرب في الأندلس ، وكان مشهوراً بالطب والرياضيات والفلك ، ويشبه الفارابي في تفوقه في الموسيقى لاسيما التوقيع على العود . وقد ولد بسرقة في أواخر القرن الحادي عشر للمسيح . ولما شب تحول الى اشبيلية عام ١١١٨ للمسيح حيث أقام وانقطع لتأليف كتب في المنطق وأحد تلك الكتب موجود بمكتبة الاسكوريال تحت عدد ٦٠٩ . وقد فرغ الحكيم من وضعه يوم ٤ شوال عام ٥١٢ .

أما سبب تحوله الى اشبيلية فغير معلوم بالدقة ، وقد يكون اضطر الى الهجرة الى اشبيلية بعد أن فتح الفونس الأول مدينة سرقة عام ٥١٢ للهجرة ، فهجرها ابن باجه فيمن هجرها من العرب وكان اشتغل بها أمدًا ثم سافر الى غرناطة وأقام بها حينًا ثم رحل الى المغرب فكان موضع الاجلال والاكبار لدى أمراء المرابطين . وقد ورد في تاريخ الحكماء ، وفي حياة ابن الخطيب (للمكارى) ان ابن باجه كان وزير يحيى ابن أبي بكر حفيد يوسف بن تاشفين ، ولكن هذه الرواية مرتاب في صحتها لأن يحيى الذي كان أمير فاس لعهد جده يوسف فرّ من فاس عام ١١٠٧ بعد وفاة جده لأنه ثار على عمه علي بن يوسف صاحب الامارة بعد يوسف .

وقد قضى ابن باجه ولم يبلغ مبلغ الكهول عام ٥٣٣ للهجرة (١١٣٨ م) . وروى بعض مؤرخي العرب انه مات مسمومًا قضت عليه غيره قرناؤه في الطب . وقد أطنب ابن أبي أصيبعة في حياة الحكيم ابن باجه في كتابه عيون الأنباء ، وذكر أن أبا الحسن علي الغرناطي كان تلميذ ابن الصائغ وصديقه . وقد جمع نصيبًا من مؤلفاته وكتب لهذه المجموعه مقدمة ذكر فيها أن ابن الصائغ أول من انتفع بحكمة المشاركة من العرب (فلاسفة الشرق هكذا يسمى ابن سينا والفارابي والغزالي لتمييزهم عن فلاسفة الغرب

من العرب كابن الطفيل وابن باجه وابن رشد) وهذه الرواية لا ريب فيها لان مؤلفات هؤلاء الحكماء انتشرت في الأندلس منذ ولاية الحكم الثاني ٩٦١ - ٩٧١ فيكون ابن باجه أول من أشاع العلوم الفلسفية في الأندلس بغير نزاع . وقد اعترف بفضل ابن الطفيل الذي لم يعرفه بالذات ، انما خلفه بعد بضع سنين . وذكر ابن الطفيل ما كان عليه ابن باجه من توقد الذكاء وسعة الفكر ، وانه فاق أهل عصره وأسف عليه لأن مشاغل الحياة الدنيا ووفاته قبل الأوان عاقته عن فتح كنوز علمه لأن أهم ما خلفه من الكتب غير تام ولم ينجز سوى أبحاث صغيرة مكتوبة على عجل . بيد أن ثناء أفاضل أهل عصره لم يصن ابن الصائغ من ذم البعض ممن أعماهم الحسد والجهل فقد كتب الفتح بن خاقان في قلائد العقيان :

« ان الأديب أبا بكر بن الصائغ هو قذى في عين الدين وعذاب لاهل الهدى . وقد اشتهر بين أهل عصره بهوسه وجحوده واشتغاله بسفاسف الأمور ، ولم يشتغل بغير الرياضيات وعلم النجوم ، واحتقر كتاب الله الحكيم وأعرض عنه . وكان يقول بأن الدهر في تغير مستمر ، وأن لا شئ يدوم على حال ، وأن الانسان ك بعض النبات أو الحيوان ، وأن الموت نهاية كل شئ . . . الخ »

وقد ذكر ابن الخطيب في كتابه « الاحاطة في أخبار غرناطة » سبب العداء الذي استحکم بين ابن الصائغ وابن خاقان فقال ان الفتح افتخريوماً بمجلس بما ناله من رضى أمراء الأندلس فكذبه ابن الصائغ واحتقره

أما مؤلفات ابن باجة فقد ذكرها ابن أبي أصيبعة . فمنها كتب في الطب والرياضيات والحكمة وشروح لبعض كتب ارسطو في الطبيعيات وحوادث الجو وكتب في البداية والنهاية ، وكتاب في الحيوان . أما الكتب التي لم ينجزها وذكرها ابن طفيل فكثيرة منها ما هو في المنطق ومحفوظة في مكتبة الاسكوريال وكتاب في النفس ورسالته في تدبير المتوحد ، ورسالة الاتصال ، ورسالة الوداع . وقد تكلم في هذه الرسالة على العوامل التي تؤثر في الانسان وتدفع العقل على التفكير وشرح غاية الوجود الانساني

وغاية العلم وهما التقرب من الله والاتصال بالعقل الفعال الصادر عنه جل وعلا . ثم أضاف المؤلف جملاً مبهمه في خلود النفس وغرس بذور المذهب الذى توسع فيه ابن رشد وهو مبدأ وحدة النفوس ، وكان له من الشأن لدى علماء النصرانية ما كان حتى حاول تنفيذه القديس توما والبرت الكبير

ويظهر أنه كتب رسالة الوداع قبيل رحلة طويلة ، وبعث بها الى أحد تلاميذه وأصدقائه ليكون على بينة من آراء الحكيم فيما يتعلق بأهم المسائل اذا لم يلتقيا بعد وأول ما يظهر لقارئ رسالة الوداع رغبة المؤلف فى أحياء معالم العلم والفلسفة لأنهما فى رأيه جديران بارشاد الانسان الى الاحاطة بالطبيعة وبهدايته بعون الله الى معرفة ذاته وبالاتصال بينه وبين العقل الفعال . وقد لام الغزالى الذى أضل نفسه وأضل سواه بزعمه فى « المنقذ » ان الخلوة تفتح للذهن عالم العقوليات وتظهر للمتأمل أموراً إلهية ليس وراء رؤيتها لذة وانها هى الغاية التى يسعى اليها المتأملون .

أما الرسالة التى دعاها ابن باجة « تدبير المتوحد » فهي أهم وأنفع كتبه ، وقد ذكرها ابن رشد فى آخر كتابه على العقل الهولانى بما يأتى « أراد أبو بكر بن الصائغ أن يخطط خطة لتدبير المتوحد فى هذه الأمة ولكنه لم ينجزها وكثير منها غامض وسنحاول فى غير هذا المكان شرح غاية المؤلف من هذه الرسالة ، لأنه أول من سار فى هذا المضمار ، ولم يسبقه فيه أحد »

يبد أن رسالة ابن الصائغ لا أثر لها ، وليس فى مؤلفات ابن رشد انجاز لما وعد من الكلام عليها والفضل فيما نعلمه منها راجع الى أحد فلاسفة اليهود فى القرن الرابع عشر وهو موسى الزبونى شارح رسالة حى بن يقظان

ويظهر أن غاية ابن باجه من رسالة تدبير المتوحد أن يثبت قدرة الإنسان المتوحد المنتفع بحسنات الحياة البعيد عن مفاستها على الاتصال بالعقل الفعال بمجرد نموقواه الفكرية ، ولكن ابن باجه لا يوصى بالخلوة أو الوحدة المطلقة إنما يرشد الإنسان المشتغل بشئون الحياة الى سبل الوصول الى الكمال وهو يشير الى امكان ذلك لرجل بمفرده

أو لعدة رجال في درجة واحدة من الفكر وهم ذوو مقصد واحد وقد يستطيع ذلك أهل بلد بأسره لو كانت حياتهم تابعة لشروط الكمال . ولم تخف على ابن باجه صعوبة هذا الأمر فأوصى المتوحد بالعيش في أغزر المدن علماً أى في أقرب المدن الى الكمال وأجمعها لأهل الفضل والحكمة وهو يسميها أفضل الدول ورسالة التدبير مقسمة الى ثمانية فصول

✽ ملخص رسالة تدبير المتوحد ✽

الفصل الأول

غاية الرسالة شرح تدبير المتوحد بين أهل المدينة ، فشرع المؤلف في الكلام على لفظ «تدبير» قال : أن هذا اللفظ يدل في أكبر معانيه على مجموعة من الأعمال ترمى الى مقصد معلوم ، فلا يمكن أن يستدل بها على عمل مفرد إنما على جملة أعمال تنجز على وتيرة واحدة بناء على خطة مرسومة للوصول الى غرض معلوم كالتدبير السياسى والتدبير الحربى ، ويقال في هذا المعنى أن الله يدبر الكون لأن تدبيره جلّ وعلا على زعم العامة يشبه تدبير الحكومات وإن كان هذا التدبير في رأى الحكماء ، ليس مشابهاً الا في اللفظ دون المعنى . لأن تنظيم جملة من الأعمال على خطة معلومة والتفكير فيها قبل إنجازها هو من خواص البشر

ينبغى أن يكون تدبير المتوحد على مثال تدبير الحكومة الكاملة ، لذا شرع المؤلف يتكلم في التدبير السياسى ، قال : ومن علامات الحكومة الكاملة أن لا يكون بها أطباء أو قضاة فان أهل المدينة الكاملة ليسوا في حاجة الى المداواة لأنهم لا يتناولون من الغذاء الا ما يوافقهم وبذا تختفي الأمراض الصادرة عن الغذاء . أما الأدوية الخارجة عن الإنسان أى التى تصيبه بدون تفريط أو افراط منه فانها تزول بذاتها . أما الاستغناء عن القضاة فلأن العلاقات بين أبناء البلد يكون أساسها المحبة فلا يقع الخلاف بين الأصدقاء . ثم أن الحكومة الكاملة كفيلة بأن يبلغ الفرد فيها أرقى ما يمكن بلوغ الفرد اليه من مراتب الكمال لأن الكل يفكرون بأعدل وسائل التفكير وينظرون الى الأمور

أدق نظر ويطيع كل فرد ما تأمر به القوانين لأن الفرد يكون عالمًا بما يجوز وما لا يجوز كذلك تخلص الأعمال من الخطأ والهدر والخل فتصفو الطباع وتكرم الأخلاق بحيث لا تكون بالناس حاجة إلى طب النفوس وهو ما لا غنى للجمهوريات الناقصة عنه مثل الارستوقراطية والاوليجاركية والديموقراطية والموناركية

فالمتوحدون في حكومة غير كاملة ينبغي لهم أن يعيشوا كأنهم أفراد في حكومة كاملة فهم كالنبات الذي ينمو بذاته وبالطبيعة بين ظهرائي أمثالهم الذين هم كالنبات الذي ينمو نمواً صناعياً .

يقول ابن باجه وغايتنا من هذا الكتاب أن نشرح تدبير تلك النباتات التي ينبغي لها أن تسترشد بقواعد الجمهورية الكاملة بحيث لا تحتاج إلى أنواع الطب الثلاثة (طب النفس وطب الخلق وطب البدن) لأن الله وحده هو شافيها، والمتوحد قد يكون فرداً أو جماعة ما لم تتبع الأمة بأسرها خططهم وطريقهم لأنهم يكونون متميزين عن البقية بالسعى إلى الكمال وهؤلاء هم الذين يطلق عليهم المتصوفون اسم الغرباء لأنهم بما فطروا عليه من الفضائل وما اكتسبوه من الحكمة غرباء في أوطانهم يشذ عنهم الأهل وينأى عنهم الأصدقاء، ثم أنهم ينتقلون بفكرهم من الوسط الذي هم فيه إلى الجمهورية الكاملة التي هي لهم بمثابة الوطن والمستقر .

ملحوظة — راجع ما كتبناه عن الفارابي فانه في السيرة الفاضلة ذكر مثل هذا القول

في كلامه على خلاصة المنورين من الخاصة (Les ames bien nées.)

الفصل الثاني

شرع ابن باجه في الكلام على أعمال الإنسان ، ففصل أنواعها للتمييز بين الأعمال التي تنتهي به إلى غرض ، وبين الأعمال الإنسانية المحضة فقال : أن بين الإنسان والحيوان رابطة كالتى بين الحيوان والنبات والتي بين النبات والمعادن الجامدة . أما الأعمال البشرية المحضة والخاصة بالإنسان دون سواه فهي الناشئة عن الإرادة المطلقة أى عن إرادة صادرة عن التفكير لا عن غريزة ثابتة في البشر ثبوتها في الحيوان ، فلو أن رجلاً كسر

حجراً لأنه جرح به فانه يعمل عملاً حيوانياً ، أما من يكسر حجراً لثلاثا يجرخ به سواء فعله هذا يعد عملاً إنسانياً ، ومن يأكل خيار شنبر لينقى بدنه بحيث لا يكون الطعم اللذيذ الذى يستوعبه إلا عارضاً إنما يأتى عملاً إنسانياً بغايته ، حيوانياً عرضاً .

وزبدة القول هى أن العمل الحيوانى تدفعنا إليه الغريزة الثابتة فى الروح الحيوانى . أما العمل الإنسانى فيدفعنا إليه رأى أو الاعتقاد بقطع النظر عما اذا كان الفكر مسبقاً أو غير مسبق فى الوقت ذاته بمؤثر غريزى . وأغلب أعمال البشر الداخلة فى نطاق الأنواع الأربعة التى سبق الكلام عليها مركبة من عناصر حيوانية وأخرى انسانية ويندر أن تكون أعمال الإنسان حيوانية على الإطلاق إنما يغلب أن تكون إنسانية وهذا ما ينبغى للمتوحد . ومن لا يعمل إلا متأثراً بالفكر والعدل بدون إكتراث للروح الحيوانى فعله جدير بأن يسمى عملاً إلهياً لا إنسانياً وهو موضع عنايتنا فى هذه الرسالة وينبغى لمن يرمى الى هذا المقصد أن يسمو بفضائله بحيث اذا عزمت النفس العاقلة على إنجاز شيء إنقاد إليها الروح الحيوانى دون أن يخالفها ما دام الفكر يريد ذلك وبذلك يصل الروح الحيوانى ذاته الى فضائل الخلق لأن تلك الفضائل إنما هى « ابراز الوجود للروح الحيوانى » لهذا ينبغى للمتوحد أن يتميز بالفضائل . هذه هى القاعدة الأولى لتدبير المتوحد لأنه ان لم يتميز فى تلك الصفات وكانت النفس الحيوانية تضع له عقبات فى وقت العمل تكون هذه ناقصة وبدون غاية وان لم تكن كذلك يضجر المتوحد بسرعة ويمجد صعوبة . وفى الواقع أنه من طبيعة النفس الحيوانية أن تطيع النفس العاقلة ما عدا حال الرجل الذى ليس فى حاله الطبيعية كما هى حال الرجل ذى الطباع المتقلبة غير الثابتة أو الرجل الذى ينقاد للغضب

وهذا الرجل الذى تفوز لديه النفس الحيوانية على النفس العاقلة بحيث ينقاد الى شهواته ، والذى يحارب فكره ويخالفه هذا وان كان انساناً فهو يتبع الطبيعة الحيوانية ولا يعرف طريق الهدى من الضلال ، أقول ان الحيوان أفضل منه لأن الحيوان بطبع طبيعته الذاتية وفى الواقع يمكننا أن ندعو حيواناً بالمعنى المطلق ذاك الذى يملك

الفكر الإنسانى الذى يمكنه من أن يحسن الفعل وهو مع ذلك لا يحسن لأنه حينئذ لا يكون انساناً، والحيوان أرقى منه بل هو حيوان على الإطلاق لأنه مع وقوفه بذكائه على المعلومات وتمييز الخير من الشر تراه يتبع طبيعة الحيوان .

فى مثل هذه الأحوال يكون العقل البشرى وسيلة لزيادة الشر أى عند ما يزعم علمه بالخير تغلب الطبيعة الحيوانية على الذكاء ، ومثل الذكاء كمثل الغذاء الطيب الفاخر يعطى لبدن معتل ويقول بقراط : « ان هذا الغذاء يزيد الداء » . أن سقوط الجماد يتم بالطبيعة والصعود يتم بمجهود ولا شك فى أن هذه الأعمال تتم للضرورة ولا يوجد للجماد حرية القصد . ولا يمكننا أن نمتنع عنها لأن الحركة فى مثل هذا العمل لا تأتى منا . كذلك العمل الحيوانى فى النفس الغذائى والمعيد القوى والمزيد يتم بدون قصد أى انه يتم بالطبيعة ، وحيث أنه يصدر عنا فى قوتنا أن نقف ذاتنا وأن نمتنع عنه . أما العمل الإنسانى فهو يصدر على الدوام عن قوتنا وبقصد منها ولذا فى قوتنا أن نمتنع عند ما نريد . وينتج من هذا أن النهايات أو العلل النهائية لا تعين ولا تحدد إلا بالأعمال الإنسانية

الفصل الثالث

ثم دخل الفيلسوف فى الكلام على الأعراض العقلية وأنواعها ليوضح آخر غايات المتوحد . فبدأ ببيان أعمال الرجل الإنسانية وانها تصدر عن القوة العاقلة وان هذه القوة موجودة لقصد أو لغاية وهذه الغاية هى النوع الثانى من الأعراض العقلية أن كلمة « العقل » يستعملها العامة استعمال كلمة النفس ويستعملها الفلاسفة كترادف وبعض الأحيان يقصدون بذلك الحرارة الطبيعية التى هى أول عناصر النفس ، لأجل هذا يقول الأطباء أن الأرواح على ثلاثة أنواع الروح الطبيعية والروح العاقلة والروح المحركة ويقصدون بذلك النفس لا من حيث هى نفس على الإطلاق انما من حيث هى قوة محركة ، وفى هذا المعنى تكون كلمة عقل ونفس مترادفتان . وكلمة روح تطلق خاصة على الروح ذات الدرجة الثانية أى الروح العاقلة أو الجيوية ، وبعض الأحيان هم

يقصدون بكلمة روح المواد الجامدة المنفصلة التي تحرك مواداً أخرى والتي ليست أجساماً إنما هي أعراض للأجسام . ومع ذلك فإن الفلاسفة لا يطلقون على هذه المواد كلمة روح كما هي عادة لغويي العرب . إنما يقولون غالباً « روحاني » كلمة مركبة ومشتقة من روح كما تشتق كلمة جسماني من جسم ، ونفساني من نفس . وكلما بعدت مادة عن الجسمانية كلما وجب أن تطلق عليها كلمة روحاني . لذا كان العقل الفعال أحق المواد بهذه التسمية وكذلك المواد التي تحرك الأجرام والدوائر الفلكية .

ان الأعراض الروحانية أربعة أنواع مختلفة الأول الأجسام الفلكية أو النجوم الثاني العقل العام والعقل الصادر والثالث العقل الهولاني أو المادي أى الأعراض المعقولة أو الأفكار العقلية القائمة بالأشياء . والرابع الأفكار التي توجد في قوى النفس أو في الذوق العادي أى في الخيال وفي الذاكرة .

أما النوع الأول فلا علاقة له على الإطلاق بالمادة . والثاني ليس في ذاته هولانياً إنما له علاقة بالمادة لأنه يكمل الأشكال الهولانية كالعقل الصادر الذي يعمل الأشكال كالعقل الفعال . أما النوع الثالث فهو في علاقة مباشرة مع المادة ويسمونه هولانياً لأنه يشمل الأشياء المادية المعقولة أى التي ليست روحانية بروحها ، لها وجودها في المادة وخارجة عن الجسمانية . وهي بعض الأشكال التي تبقى في قوة النفس العاقلة عند ما تنتهي العلاقة الخاصة التي بين القوة العاقلة والشيء المفرد ، لأنه ما دامت هذه العلاقة تبقى القوة العاقلة متأثرة بأثر جسماني تجعل العلاقة جسمانية فلما تنتهي الجسمانية وتنتهي العلاقة وتصبح القوة العقلية روحانية لا تحفظ إلاً العلاقة العامة أى العلاقة التي تربطها بسائر الأفراد . والنوع الرابع متوسط بين المعقولات الهولانية وبين الأعراض المادية المحضة .

الفصل الرابع

توجد أعمال ليس لها غاية سوى الشكل البدني كالشرب والأكل واللبس والسكن . وهذه الأعمال لا غاية لها إلاً التمتع المادي وغايتها إتمام الشكل الجسماني ولا ينبغي إهمالها .

ثم أعمال غايتها الأشكال الروحانية الخاصة وهي تختلف باختلاف طبيعة الأشياء التي تقصد اليها نبلاً وخسة (١) مثل ذلك غرور بعض الناس بلبس الملابس الجميلة في الظاهر وهم يهملون الملابس الباطنية ، ان اللذة التي تعود عليهم ليست شهوانية إنما هي راجعة الى حاسة باطنية فيها شيء روحاني (ب) الأعمال الموجهة نحو العرض الروحاني الكامن في الخيال كأن يتسلح الانسان في غير وقت الحرب (ح) الأعمال التي غايتها التسلية والسرور كاجتماع الأحباب والألعاب وعلاقات الرجل بالمرأة لغير التناسل والترفيه في السكن وإقتناء الأثاث والبلاغة والشعر (د) الأعمال التي غايتها التكمّل في العقل والفكر كأن يدرس رجل علماً لذاته ليكمل عقله لا ليعود عليه بنفع مادي أو كأن يعمل عمل كرم أو شرف بدون انتظار نتيجة مقصودة أو منفعة كل هذه الأعمال ينبغي أن تتم لذاتها وأن لا تكون لها غاية أخرى سوى تكميل الشكل الروحاني للانسان . ومع ذلك يوجد أشخاص يقصدون بهذه الأعمال الشهرة والمجد ويظنون أن أعظم سعادة للرجل أن يبقى اسمه على مر الدهور ، والعرب يعاقبون على الذكر أهمية كبرى ويقول شاعرهم : الذكر للانسان عمر ثان

الأعمال التي يقصد بها الأشكال الروحانية العامة وهي أكل أعمال الرجل والأعراض المقصودة هنا هي متوسطة بين الأعمال السابقة التي هي ممتزجة بالجسمانية والروحانية المطلقة وهي الغاية النهائية لمن يبحث عن السعادة أو غاية المتوحد الكبرى

الفصل الخامس

بعد أن قسم الأعمال الإنسانية تبعاً للأعراض المقصودة بها أخذ الحكيم يمين غايات هذه الأعمال لكل شكل خاصة فقال إن الأغراض على ثلاثة أقسام :

أغراض متعلقة إما بالأعراض الجسمانية واما بالأعراض الروحانية الخاصة واما بالأغراض الروحانية العامة . أما الأعمال الجسمانية المحضة التي يشترك فيها الإنسان والحيوان فلا محل لها هنا .

أما الروحانية العامة فهي تحرك الإنسان الى الصفات الخلقية والعقلية وان بعض أخلاق الإنسان توجد أيضاً في الحيوان كالشجاعة في الأسد والعجب في الطاووس والتيقظ في الكلب . ولكن هذه الصفات ليست خاصة ببعض الأفراد من النوع إنما هي صفات غريزية راکزة في كل الجنس ولا توجد فردية إلا في الإنسان فكل الكلاب يقظة ولكن اليقظين من الرجال قليل ، ولذا فهي تسمى في الرجال فضائل اذا استعملها الرجال بمقدار معتدل وعلى الدوام كلما اقتضتها الحال

أما الصفات العقلية فتكوّن في الأعراض الروحانية الإنسانية قسماً خاصاً ليس له بالصفات الأخرى علاقة . فان الأعمال العقلية والعلوم في حقيقتها كلها كمالات مطلقة تعطى للإنسان الوجود الحقيقي التام ، أما العرض الروحاني الفردي فيعطى وجوداً محدود الزمن مثل العرض الروحاني الذي ينتج عن الشهرة فانه ليس بينه وبين ذاك الذي يحصل عليه بواسطة الصفات العقلية مقارنة

أن من يقتصر على الأعراض الجسمانية يضع نفسه في صفوف الحيوان كذلك يكون إهمال الوجود الجسماني ضد الطبيعة وهذا لا يباح إلا في بعض الظروف المستثناة حيث يكون احتقار الحياة فرضاً على الإنسان مثل وجوب موت الإنسان في سبيل الدفاع عن الوطن أو الدين ولا يمكن لأى رجل مادي أن يصل الى السعادة إنما لا يصل الرجل الى السعادة إلا اذا كان روحانياً محضاً وإلهياً حقيقة أن الرجل الروحاني ينبغي له أن يعمل أعمالاً جسمانية للضرورة لذاتها ، أما الأعمال الروحانية فيعملها لذاتها ، كذلك ينبغي للفيلسوف أن يعمل أعمالاً روحانية كثيرة بدون أن يكون فعلها لذاتها . أما المعقولة فهو يعملها لذاتها . فلا يتناول من الأعمال الجسمانية إلا ما كان أداة في مد أجله ولن يقدم الشئ الجسماني مطلقاً على الروحاني ولا يأخذ من أرفع درجات الروحاني إلا ما كان ضرورياً للمعقول ثم يتعلق في النهاية بالمعقول المطابق لأنه بواسطة الجسماني يكون مخلوقاً انسانياً وبالروحاني يكون مخلوقاً أرفع وبالمعقول يصير مخلوقاً سامياً إلهياً . فالفيلسوف هو بطبيعة الحال انساناً سامياً إلهياً ، على شرط أن يختار في كل نوع من

الأعمال ما كان أرفعها وأن يختلط بأهل كل طبقة من الناس لأجل أسمى ما في كل واحد منهم من الصفات وأن يمتاز عنهم جميعاً بأرفع الأعمال وأكثرها مجداً . فاذا وصل الى الغرض النهائي أى عند ما يفقه العقول البسيطة فى كل معانيها ، والمواد المنفصلة ، يصير واحداً منها ويمكن أن يسمى موجوداً إلهياً . فتبعد عنه صفات الجسمانية الغير الكاملة كذلك الصفات الروحانية السامية ويجدر أن يكون له صفة الإلهى بدون أن يكون به شىء جسمانى أو روحانى . كل هذه هى صفات المتوحد ابن الجمهورية الكاملة .

الفصل السادس

الأعراض الروحانية الفردية على أربعة أنواع : النوع الأول هو العالمى ومقره الحواس أو الاحساس ، والنوع الثانى فى الطبيعة أو الشهوة ، لأن من به ظمأ يجد فى ذاته عرضاً روحانياً يدفعه للبحث عن الماء ومن به جوع يجده لأجل البحث عن الغذاء ، وعلى العموم كل من يشتهى مدفوع للبحث عما يشتهى بعرض روحانى ، وهذا العرض الصادر عن الطبيعة لا ينصب على جسم خاص لأن من به ظمأ لا يتطلب نوعاً خاصاً من الماء انما يطلب ماء ما من الجنس الذى يشتهيه . النوع الثالث هو العرض الروحانى الذى ينشأ عن الفكر أو العرض الذى يصدر عن التأمل أو الدليل والايضاح

والنوع الرابع يشمل الاعراض التى تولد بواسطة تأثير العقل الفعال بدون تعزيد الفكر أو الدليل ، وفى هذا النوع يدخل الوحي النبوى ، والأحلام الصادقة التى هى صادقة بالضرورة ، وليست صادقة بالمصادفة . والنوعان الأولان مشتركان بين الانسان والحيوان والأعراض الضرورية للحيوان لكماله الطبيعى تعطىها الطبيعة لكل الحيوانات ، ولكن توجد أعراض تعطىها الطبيعة تكرماً ولا توجد الا فى بعض الحيوانات . وهذه الحال قاصرة على الحيوانات التى ليس لها دم كالنحل والفمل . والنوعان الأخيران من الأعراض الروحانية خاصان بالانسان وهما وسط بين الاعراض الروحانية الفردية والأعراض المعقولة لأنهما ليسا أعراضاً فردية لأجل الأجسام ولا أعراضاً

روحانية فردية كالأعراض الحساسة وليسا خالصين عن المادة بالمرة حتى يصح وصفهما بالعموم كالاعراض المعقولة ومن الممكن للمراقب أن يعرف من حدة النظر درجة الروحانية والذكاء التي وصل إليها الانسان

الفصل السابع

لا ينبغي للمتوحد أن يعمل لأجل الأعراض الروحانية لذاتها لأنها ليست نهايته وان كانت وسيلة للوصول الى الغاية القصوى وينبغي له أن لا يخالط الذين لا يملكون الاتلاك الأعراض الروحانية لأنهم قد يتركون في نفسه آثاراً تعوقه عن الوصول الى السعادة الأبدية

ولنفترض الآن ان رجلاً فاضلاً بالمرة كالمهدى وآخر فاجراً كأبي دلامة كل واحد منهما يملك العرض الخاص بالآخر . وكل عرض روحاني محرك للجسم الذي يوجد العرض به . فعرض أبي دلامة يحمل المهدي على السرور والهذر تبعاً لإدراك الأول للذائل وعرض المهدي يحمل أبا دلامة على التواضع والحياء . لأن أبا دلامة يذل بإدراك الطبيعة السامية التي هي طبيعة المهدي وبعرضها الشريف . ومن المحقق ان التواضع والحياء هما من الصفات التي هي أرقى من الخفة والباطل فحينئذ بعرض الرجل الراقى أى بإدراك هذا العرض يمكن للرجل المنحط أن يشرف ويرتقى وكذلك بعرض الرجل المنحط يمكن سقوط الرجل الراقى . فينبغي علينا والأمر كذلك أن نتوحد وبهذه الوسيلة ينقى أخس الناس نفسه ويعلمن عن مجد الرجل السامى والسامى يخلص من التأثير الذي يمكن أن يتلقاه من الخسيس ولا يفكر إلا في الوحدة وكذلك يجد كل واحد من كان قريباً منه إلى جانبه . وهكذا المتوحد سيقى تقياً من الاختلاط بالناس . لأن من واجبه أن لا يرتبط بالرجل المادى ولا بالرجل الذى ليس له غاية إلا الروحاني المطلق . وواجبه أن يرتبط بأهل العلم وحيث ان أهل العلم لا يوجدون في كل مكان فينبغي للمتوحد أن يعتمد على الناس على قدر الإمكان وأن لا يمتزج

بهم إلا لأجل الضروريات ، ينبغى له أن يبتعد عنهم لأنهم ليسوا من جنسه فلا يختلط بهم ولا يسمع لغتهم لأجل أن لا يحتاج لتكذيب أكاذيبهم وان لا يقضى وقته فى بغضهم وفى الحكم عليهم وهم أعداء الله . والأفضل للمتوحد أن لا يقضى وقته فى الحكم على الناس الذين يعيش بينهم انما يعطى نفسه لتعليمه الإلهى وأن يلقى بعيداً عنه ذلك العبء الثقيل وأن يكمل نفسه وأن يضىء لمن حوله كالنور وفى السري يعطى نفسه لتعلم علم الخالق كما لو كان ذلك أمراً معيماً وبذلك يكمل نفسه فى العلم وفى الدين الذى يرتضيه له أو يذهب الى الأماكن التى يوجد فيها العلماء فيرتبط بهم وبالمتقدمين فى السن الممتازين بذكائهم وعلمهم وصدق حكمهم وبفضائلهم العقلية ، وأن يجتنب الشبان القليلى الخبرة ، وان ما يقوله هنا لا يناقض العلوم السياسية التى تقول بأن مجانية الناس خطأ ، ولا العلوم الطبيعية التى تقول بأن الانسان مدنى بالطبع لأن هذين المبدأين صحيحان نظرياً حال تملك الرجال كمالاتهم الطبيعية ولكن قد يحدث أن يكون الخير فى الابتعاد عن المجتمع فان اللحوم والنبيد أغذية نافعة للإنسان كما ان الأفيون والحنظل قاتلان ومع ذلك فإنه يحدث أن هذين الأخيرين يكونان فى بعض الأحيان نافعان والغذاء العادى الطبيعى قد يحدث أن يكون قاتلاً . ولكن هذا نادر ولا يحدث إلا مصادفة وهذا أيضاً ينطبق على تدبير النفوس .

الفصل الثامن

أن غاية المتوحد النهائية هى فى الأعراض المعقولة والأعمال التى تؤدى إليها كلها فى حيز العقل ولا يصل المتوحد الى تلك الأعراض إلا بالتأمل والدرس وهذه الأعراض لها فى ذاتها تأكيد لوجودها وهى بعبارة أخرى أفكار الأفكار وأرقاها العقل المكتسب الصادر عن العقل الفعال الذى بواسطته يتوصل الإنسان لأن يفهم ذاته كوجود عقلى ثم أسهب ابن باجه فى الكلام على العقل المكتسب وطريقة الوصول الى فهم ذاته ، ثم قال « أن العقل الفعال لا ينقسم أى لا يتجزأ وحيث أن الأعراض الخاصة به جميعاً ليست فيه إلا واحدة أو على الأقل كل أرواحها هى أشياء لا تتجزأ أى أن كل

عرض خاص يوجد فيه أى فى العقل الفعّال كوحدة ، فعلم هذا العقل المنفصل كذلك واحد وأن كانت أغراضه متعددة كتعدد الأنواع . وإذا كانت الأعراض التى تصدر عنه متعددة فما ذلك إلا لأنها تظهر فى مواد مختلفة . وفى الواقع أن الأعراض الموجودة فى بعض المواد هى فى العقل الفعّال عرض واحد وليس المقصود من ذلك أنها كانت بالمعنى بعد أن كانت فى المواد كما يحدث هذا لأجل العقل فى الفعل . وليس هناك ما يعوق العقل فى الفعل عن عمل مجهود لتقريب هذه الأعراض المنفصلة منه الى أن يصل الى الإدراك المعقول أو العقل المكتسب ، لأجل هذا كان الإنسان بروحه أقرب الموجودات للعقل الفعّال وليس هناك ما يعوق العقل المكتسب عن أن يعطى ما تعطيه العقول الأخرى أى الحركة لأجل أن يتأمل فى ذاته وعند ذلك يصل الى الإدراك المعقول الحقيقى أى احساس المخلوق الذى بطبيعته هو عقل يعمل بدون أن يحتاج حالاً أو سابقاً الى شىء يخرجّه من حالة القوة . هذا هو إدراك العقل المنفصل أى العقل الفعّال كما يدرك ذاته وهذا هو آخر الحركات »

ويرى القارىء مما تقدم أن ابن باجه لا يوضح بجلاء الطريق التى تتم بها تلك الحركة العظمى وكيف يتم الاتصال بين العقل الإنسانى والعقل الفعّال العام ، وقد رأينا فى رسالة الوداع أنه مضطر الى إدخال قوة فوق الطبيعة لإتمام هذا الاتصال ، ثم لذكّر أن الكتاب الذى فرغنا من تلخيصه قد وجده ابن رشد غامضاً ، وقد وضعه ابن طفيل بين الكتب التى لم يتمها ابن باجه ووصفها بأنها مجزومة من أواخرها . ولكن الذى تهمنى معرفته هو أن ابن باجه أعطى للفلسفة العربية فى الأندلس حركة ضد الميول التصوفية التى ابتدعها الغزالي وقال ابن باجه : إن العلم النظرى وحده قادر على الوصول بالإنسان الى فهم ذاته وفهم العقل الفعّال كما أوضح ذلك فى رسالة الوداع وكما علمنا ابن طفيل وبذا اختط السبيل الذى سار عليه ابن رشد

✽ إيضاح لفلسفة ابن باجه ✽

١ - تحريف اسمه واضطهاده

يطلق عليه بعض الافرنج اسم (Avenpace) وبعضهم (Avimpace) وهي محرفة عن ابن باجه كما حرفوا (Avicenna) عن ابن سينا و (Averroes) عن ابن رشد وقد ولد في أواخر القرن الخامس للهجرة وتوفي في أوائل السادس (٥٣٣ هـ) ومات هذا الفيلسوف شاباً في مقتبل العمر ولا نعلم الشأ الذي كان يبلغه لو مد في أجله حتى كمال مواهبه الفطرية .

على أن حياته مع قصرها كانت مثالا لحياة الفيلسوف فقد بلى بمحن كثيرة وشناعات من العوام وقصدوا هلاكه مرات ولكنه نجا من بطشهم . وكان هذا الاضطهاد بسبب فكره وما نسبوه اليه من الخروج عن حدود العقائد الدينية . فكان سابقاً لابن رشد في تلك المحن التي سببتها جهالة السوق والمتنطعين .

٢ - تلاميذه ومكان قبره

كان من جملة تلاميذ أبي بكر محمد بن يحيى بن الصائغ القاضي أبو الوليد محمد بن رشد ومن جملتهم ابو الحسن علي بن عبد العزيز بن الامام الغرناطي وكان كاتباً فاضلاً متميزاً في العلوم والآداب وقد صحب أستاذه ابن باجه مدة ودرس معه واشتغل عليه وحضر وفاة ابن باجه ودفنه في فاس سنة ٥٣٣ هـ . وعندنا شهادة القاضي أبي مروان الاشبيلي بأنه رأى قبر ابن باجه بمدينة فاس بجوار قبر أبي بكر بن العربي الفقيه . أما ابو الحسن علي تلميذ ابن باجه فقد نزح عن المغرب وتوفي بقوص بصعيد مصر في النصف الثاني من القرن السادس للهجرة .

٣ - أحد تلاميذه يصف علمه وذكائه

نقل أبو الحسن بن علي بن الامام الغرناطي تلميذ ابن باجه مجموعاً من أقوال ابن باجه وهو ما يطلق عليه الفرنسيون لفظ (Cours) وكتب في صدره مقدمة جاء فيها : « هذا مجموع ما قيد من أقوال أبي بكر بن الصائغ رحمه الله في العلوم الفلسفية . وكان في ثقابة الذهن ولطف الغوص على تلك المعاني الجليلة الشريفة الدقيقة أعجوبة دهره ونادرة الفلك في زمانه . فان هذه الكتب الفلسفية كانت متداولة بالأندلس من عهد

« الحكم » وهو الخليفة الذي استجلبها وهو مستجلب غرائب ما صنف بالمشرق . وتقل من كتب الأوائل وغيرها (نصر الله وجهه) ، وتردد النظر في تلك الكتب فما انتهج فيها الناظر قبل ابن باجة سبيلاً . وما تقيد عن الناظرين في تلك الكتب قبل ابن باجة الاضلالات وتبديل كما تبدد عن ابن حزم الاشبيلي . وكان من أجل نظار زمانه وأكثرهم لمن تقدم على اثبات شيء من خواطره وكان أحسن منه نظراً واثقاً لنفسه تمييزاً .

وانما انتهجت سبل النظر في هذه العلوم بهذا الخبر وبما لك ابن وهيب الاشبيلي فانهما كانا متعاصرين غير أن مالكا لم يقيد عنه الا قليل تزر في أول الصناعة الذهنية (المعقولات) ثم اضرب الرجل عن النظر ظاهراً في هذه العلوم وعن التكلم فيها لما لحقه من المطالبات في دمه لسببها ، ولقصده الغلبة في جميع محاوراته في فوز المعارف »

وظاهر من هذه النبذة أن المطالبات في دم ابن وهيب الاشبيلي (الاضطهادات) لم تكن بسبب اشتغاله بهذه العلوم العقلية والفلسفية فقط بل كانت بسبب خلقه فقد كان يقصد الغلبة في جميع محاوراته في فوز المعارف وربما كان هذا السبب الثاني ادعى الى الاضطهاد والى غيظ العوام منه وحملتهم عليه . على أن ابن وهيب لم يكن فيلسوفاً بحق وذلك لأنه لم تكن تلوح على أقواله ضياء هذه المعارف الفلسفية ولا قيد فيها باطناً شيئاً عثر عليه بعد موته . ثم أن ابن وهيب أعرض عن الفلسفة وأقبل على العلوم الشرعية فظهر فيها .

أما ابن باجة فقد نهضت به فطرته الفائقة ولم يهجر النظر والاستنتاج والتقييد لكل ما ارتسمت حقيقته في نفسه على أطوار أحواله وكيفما تصرف به زمنه

٤ - العلوم التي اتقنها ابن باجة

لقد أثبت ابن باجة في الصناعة الذهنية (المعقولات) وفي أجزاء العلم الطبيعي ما يدل على حصول هاتين الصناعتين في نفسه صورة ينطق عنها ويفصل ويركب فيها فعل المستوى على أمرها والتمكن منها غاية التمكن .

وله تمايل في الهندسة وعلم الهيئة تدل على براعته في هذا الفن . وأما العلم الالهي فلم يوجد في تمايلقه شيء مخصوص به اختصاصاً تاماً إلا نزعات تستقرأ وتستنتج من قوله في رسالة الوداع التي سبق ذكرها واتصال الانسان بالعقل الفعال واشارات مبشرة في أثناء أقواله لكنها في غاية القوة والدلالة على نزوعه في ذلك العلم

الشريف الذى هو غاية العلوم ومنبتهاها وكل ما قبله من المعارف فهو من أجله وتوطئة له ومن المستحيل أن ينزع فى التوطئات وتنفصل له أنواع الوجود على كمالها ويكون مقصراً فى العلم الذى هو الغاية واليه كان التشوق بالطبع لكل ذى فطرة بارعة وذى موهبة إلهية ترقيه عن أهل عصره وتخرجه من الظلمات الى النور كما كان ابن باجه رحمه الله .

٥ - المقارنة بينه وبين أكابر فلاسفة المشرق

وقد وردت فى صدر المجموع الذى نقله أبو الحسن على بن عبد العزيز أقوال لابن باجه فى الغاية الانسانية على نهاية من الإيجاز ولكنها تعرب عما سبقت الإشارة اليه من سعة ادراك ابن باجه فى العلم الالهى وفيما قبله من العلوم الموطئة ويظن المؤرخون أن ابن باجه قد دون وعلق فى العلم الالهى ما لم يعثروا عليه . ويشبه أنه لم يكن بعد أبى نصر الفارابى مثله فى الفنون التى تكلم عليها من تلك العلوم فانه اذا قرنت أقاويله فيها وعورضت بأقاويل ابن سينا والغزالى وهما اللذان فتح عليهما بعد أبى نصر بالمشرق فى فهم تلك العلوم ودونا فيها بان لك الرجحان فى أقاويل ابن باجه وفى حسن فهمه لأقاويل ارسطو والثلاثة أئمة دون ريب وقد أتوا بما جاء به من قبلهم من بارع الحكمة عن يقين تمتاز به أقاويلهم ويتواردون فيها مع السلف الكريم .

٦ - بيان لمؤلفات ابن باجه

- (١) شرح كتاب السماع الطبيعى لارسطوطاليس
- (٢) قول على بعض كتاب الآثار العلوية لارسطوطاليس
- (٣) قول على بعض كتاب الكون والفساد لارسطوطاليس
- (٤) قول على بعض المقالات الاخيرة من كتاب الحيوان لارسطوطاليس
- (٥) كلام على بعض كتاب النبات لارسطوطاليس
- (٦) قول ذكر فيه التشوق الطبيعى وماهيته .
- (٧) رسالة الوداع وقول يتلوها .
- (٨) كتاب اتصال العقل بالانسان
- (٩) كتاب تدبير المتوحد
- (١٠) تعاليق على كتاب أبى نصر فى الصناعة الذهنية

- (١١) فصول قليلة (fragments) فى السياسة المدنية وكيفية المدن
وخل المتوحد فيها
- (١٢) كلام فى الامور التى بها يمكن الوقوف على العقل الفعال .
- (١٣) نبذ يسيرة على الهندسة والهيئة
- (١٤) رسالة كتب بها الى صديقه ابى جعفر يوسف بن احمد بن حسداى
(بعد قدومه الى مصر)
- (١٥) تعاليق حكيمية وجدت متفرقة
- (١٦) جوابه لما سئل عن هندسة ابن سيد المهندس وطرقه
- (١٧) كلام على شئ من كتاب الادوية المفردة لجالينوس
- (١٨) كتاب التجربتين على ادوية ابن وافد وقد اشترك معه فى تأليفه ابوالحسن سفيان
- (١٩) كتاب اختصار الحاوى للرازى .
- (٢٠) كلام فى الغاية الانسانية
- (٢١) كلام فى الامور التى بها يمكن الوقوف على العقل الفعال
- (٢٢) كلام فى الاسم والمسمى
- (٢٣) كلام فى البرهان
- (٢٤) كلام فى الاسطقات
- (٢٥) كلام فى الفحص عن النفس النزوعية وكيف هى ولم تنزع وبماذا تنزع .
- (٢٦) كلام فى المزاج بما هو طبي
- ولم يصلنا من هذه الكتب جميعها سوى كتابين :
- (١) مجموعة فى الفلسفة والطب والطبيعات ومنها نسخة فى برلين وأخرى فى
اكسفورد
- (٢) رسالة الوداع مفسرة بالعبرانية



٦ - ابن طفيل

أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي ، أحد أكابر حكماء العرب بالأندلس ولد في أوائل القرن الثاني عشر للمسيح (القرن السادس للهجرة) بوادي آش إحدى مدن ولاية غرناطة ، واشتهر بالطب والرياضيات والحكمة والشعر ، شغل منصب كاتم أسرار حاكم غرناطة زمناً يسيراً ثم صار وزيراً وطبيباً للأمير يوسف أبي يعقوب بن عبد المؤمن ، ثانی أمراء أسرة المهدي المتوفى سنة ٥٨٠ هـ

ذكر ابن الخطيب أن ابن طفيل علّم الطب في غرناطة وألف فيه كتابين ، وروى عبد الواحد المراكشي وهو ممن اتصلوا بأولاد ابن طفيل ، أن المودة كانت بين الحكيم والأمير عظيمة جداً ، وأنه رأى بنفسه كتباً في الفلسفة وفي علم النفس وكثيراً من شعره بخط الفيلسوف ، وقد انتهز ابن طفيل فرصة تقربه من الأمير فخلب إلى القصر مشاهير حكماء عصره ، وهو الذي قدم إلى الأمير ، حكيم الأندلس ابن رشد وكان الأمير طلب منه يوماً أن يرشده إلى عالم خبير بمؤلفات أرسطو ليطلب إليه تفسيرها وتحليلها تحليلاً جلياً فطلب ابن طفيل إلى ابن رشد أن يقوم بهذا العمل واعتذر للأمير عن انجازه بكبر سنه فلبى ابن رشد هذا الطلب وقام بتحليل كتب أرسطو

وقد توفي ابن طفيل في مراکش عام ١١٨٥ وسار المنصور في جنازته

ولم يبق لنا من مؤلفات ابن طفيل إلا كتاب واحد هو كتاب « حى بن يقظان » وذكر كازيرى كتاباً اسمه « أسرار الحكمة المشرقية » وهو كتاب « حى بن يقظان » نفسه وذكر ابن أبي أصيبعة في ترجمة ابن رشد ، أن ابن رشد ذكر لابن طفيل كتاباً « في البقع المسكونة والغير المسكونة » وقال ابن رشد أيضاً في الإلهيات (الكتاب الثاني عشر) أنه كانت لابن طفيل آراء ثمينة في الأجرام الداخلة والخارجة .

وهذا يدل على أنه كان لابن طفيل علم واسع بالفلك ، وذكر أبو اسحق البتروجي الفلكي الشهير في مقدمة كتابه في الفلك وهو الذي أراد أن يستبدل نظريات بطليموس به

« تعلم يا أخى أن استاذنا القاضى أبا بكر بن طفيل قال إنه وفق لنظام فلكى لتلك الحركات ، كان يتبعه غير النظام الذى اتبعه بطليموس ، وانه فى غنى عن الدوائر الداخلة والخارجة وان نظامه يحقق حركات الاجرام بدون وقوع فى الخطأ ووعدنا بالتأليف فى هذا الباب ولا عجب فان علمه غنى عن الاطناب »

أما الكتاب الوحيد الذى يثبت فضل ابن طفيل فهو الذى يتضمن فلسفة وقته فى شكل قصة خيالية .

ويظهر من هذا الكتاب أن ابن طفيل كان من الاشرافين ، وقد حاول بطريق التأمل أن يحل معضلة كبرى شغلت حكماء وقته وهى علاقة النفس البشرية بالعقل لأول ، فانه لم يقنع برأى الغزالي الذى اكتفى فى الاتصال بالتصوف انما اتبع رأى ابن باجه وأظهر نمو الفكر الانسانى درجة فدرجة فى شخص إنسان منقطع بعيد عن مشاغل الحياة سليم من آثارها وأدرانها ، واختار ابن طفيل مخلوقاً لم يعلم من الحياة شيئاً وقد نما عقله فى الانفراد المطلق بذاته وتنبه فكره بقوته وبدافع من العقل الفعال فأحاط بفهم أسرار الطبيعة وحل أعضل المسائل الالهية : هذا ما أراده ابن طفيل من كتابه « حى بن يقظان » ، وسيأتى الكلام عليه عند تحليل فلسفته

فكان ابن طفيل فلكياً ، رياضياً وطبيعياً وشاعراً ، ناثراً رشيق الأسلوب رقيق العبارة . والفضل فى إظهار مواهبه والاحتفاظ بها إلى الأمير يوسف بن عبد المؤمن ، فقد كان عبد المؤمن عهد فى حياته إلى أكبر أولاده وهو محمد بالامارة وبايعه الناس وكتب يبيعته إلى البلاد ، فلما مات عبد المؤمن لم يتم لابنه محمد الأمر وخُلع . وكان الذى سعى فى خلعه أخواه يوسف وعمر ابنا عبد المؤمن . ولما تم خلعه دار الأمر بين الأخوين المذكورين وهما من نجباء أولاد عبد المؤمن ومن ذوى رأى فتأخر منهما أبو حفص عمر وأسلم الأمر إلى أخيه يوسف وهو أبو يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن بن على القيسى الكومى صاحب المغرب فبايعه الناس واتفقت عليه الكلمة .

كان الأمير يوسف المذكور أعرف الناس كيف تكلمت العرب وأحفظهم لأيامها

في الجاهلية والاسلام . وقد صرف عنايته إلى ذلك ولقى فضلاء أشبيلية أيام ولايته ويقال إنه كان يحفظ صحيح البخارى وكان يحفظ القرآن الكريم مع جملة من الفقه ثم طمح إلى علم الحكمة وبدأ من ذلك بعلم الطب وجمع من كتب الحكمة شيئاً كثيراً .

وكان ممن صحبه من العلماء بهذا الشأن أبو بكر محمد بن الطفيل وكان متحققاً بجميع أجزاء الحكمة ، قرأ على جماعة من أهلها ، ويحسب ابن خلكان في ج ٢ ص ٣٧٤ أن أبا بكر بن الصائغ وهو المعروف بابن باجه السابقة ترجمته في هذا الكتاب كان من أساتذة ابن الطفيل وهذا غير صحيح ، بنص صريح من قول ابن الطفيل نفسه في كتبه سيأتى ذكره ص ١٠١ وكان ابن الطفيل حريصاً على الجمع بين علم الشريعة والحكمة وكان مفتناً ، ولم يزل يجمع إليه العلماء في كل فن من جميع الأقطار ومن جملتهم أبو الوليد محمد بن احمد بن محمد بن رشد كما سيأتى ذكره بالتفصيل في ترجمة ابن رشد

جعل ابن طفيل فلسفته في شكل جواب على سؤال توجه إليه من أحد اخوانه وهذا بالطبع تقليد لابن سينا والغزالي قال :

« سألت أيها الكريم الأخ الصفي الحليم ، منحك الله البقاء الأبدى ، وأسعدك السعد السرمدي » ، أن أثبت اليك ما أمكنني بثه من أسرار الحكمة المشرقية ، التي ذكرها الشيخ الامام الرئيس ابو على بن سينا . فاعلم أن من أراد الحق الذي لا جمجمة فيه فعليه بطلبها والجد في اقتنائها

وصف الحال التي شعر بها ابن طفيل

ولقد حرك مني سؤالك خاطراً شريعاً أفضى بي والحمد لله الى مشاهدة حال لم أشهدها قبل ، وانتهى بي إلى مبلغ هو من الغرابة بحيث لا يصفه لسان ، ولا يقوم به بيان ، لأنه من طور غير طورها ، وعالم غير عالمها . غير أن تلك الحال لما لها من البهجة والسرور ، واللذة والحبور ، لا يستطيع من وصل اليها وانتهى إلى حد من حدودها ، أن يكتفم أمرها أو يخفي سرها ، بل يعتريه من الطرب والنشاط ، والمرح والانبساط ما يحمله على

البوح بها مجملة دون تفصيل ، وان كان ممن لم تحذقه العلوم ، قال فيها بغير تحصيل ،
حتى أن بعضهم قل في هذه الحال : س . ب . ح . ا . ن . ي . م . ا . ع .
ظ . م . ش . ا . ن . ي ! وقال غيره : ا . ن . ا . ل . ح . ق ! وقال غيره ليس
في الثوب الأ . ل . ل . ه !

وأما الشيخ أبو حامد الغزالي رحمه الله فقال متمثلاً عند وصوله إلى هذه الحال
فكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

فلسفة ابن باجه في رأى ابن طفيل

وانظر إلى قول ابى بكر بن الصائغ المتصل بكلامه في صفة الاتصال ، فانه يقول
« اذا فهم المعنى المقصود من كتابة ذلك ظهر عند ذلك انه لا يمكن أن يكون معلوم من
العلوم المتعاطاة في رتبة ، وحصل متصوره بفهم ذلك المعنى في رتبة يرى نفسه فيها مبايناً
لجميع ما تقدم مع اعتقادات أخر ليست هيولانية ، وهى أجل من أن تنسب إلى الحياة
الطبيعية ، بل هى أحوال من أحوال السعداء ، منزهة عن تركيب الحياة الطبيعية ، بل
هى أحوال من أحوال السعداء خليفة أن يقال لها أحوال الهية يهبها الله سبحانه وتعالى
لمن يشاء من عباد » وهذه الرتبة التى أشار إليها أبو بكر ينتهى إليها بطريق العلم النظرى
والبحث الفكرى ، ولا شك أنه بلغها ولم يتخطها ...

الذى يعنيه ابن طفيل بادراك أهل النظر والطعن فى ابن باجة

الذى نعنيه بادراك أهل النظر هو ما يدركونه مما بعد الطبيعة ، مثل ما أدركه أبو بكر ،
ويشترط فى ادراكهم هذا أن يكون حقاً صحيحاً ، وحينئذ يقع النظر بينه وبين إدراك
أهل الولاية الذين يمتنون بتلك الأشياء بعينها مع زيادة وضوح وعظيم التذاذ . وقد
عاب أبو بكر ذكر هذا الالتذاذ على القوم ، وذكر انه للقوة الخيالية ووعد بأن يصف
ما ينبغى أن يكون حال السعداء عند ذلك بقول مفسر مبين . وينبغى أن يقال له

« لا تستحل طعم شيء لم تذوق ، ولا تتخط رقاب الصديقين ! » ولم يفعل الرجل شيئاً من ذلك ولا وفى بهذه العدة (الوعد) وقد يشبه أن منعه عن ذلك ما ذكره من ضيق الوقت واشتغاله بالنزول الى وهران ، أو راعى انه إن وصف تلك الحال اضطره القول إلى أشياء فيها قدح عليه فى سيرته وتكذيب لما أثبتته من الحث على الاستكثار من المال والجمع له وصرف وجوه الحيل فى اكتسابه (كذا)

ولم يكن فى المتأخرين أثقب ذهنًا ولا أصح نظراً ولا أصدق روية من أبى بكر ابن الصائغ ، غير أنه شغلته الدنيا حتى اخترته المنية قبل ظهور خزائن علمه وبث خفايا حكمته . واكثر ما يوجد له من التأليف انما هى غير كاملة ومجزومة من أواخرها ، ككتابه فى النفس وتدبير المتوحد وما كتبه فى المنطق وعلم الطبيعة . وأما كتبه الكاملة فهى كتب وجيزة ورسائل مختلفة ، وقد صرح هو نفسه بذلك وذكر أن المعنى المقصود برهانه فى « رسالة الاتصال » ليس يعطيه ذلك القول عطاءً بيناً إلا بعد عسر واستكراه شديد ، وان ترتيب عبارته فى بعض المواضع على غير الطريق الأكمل ، ولو اتسع له الوقت مال لتبديلها . فهذا حال ما وصل الينا من علم هذا الرجل ونحن لم نلق شخصه وأما من كان معاصراً له ممن لم يوصف بأنه فى مثل درجته فلم نر له تأليفاً

نقد فلسفة الفارابى وغيره من المتقدمين

بقلم ابن طفيل

وأما من جاء بعدهم من المعاصرين لنا ، فهم بعد فى حد التزايد أو الوقوف على غير كمال أو ممن لم تصل الينا حقيقة أمره

وَأَمَّا ما وصل الينا من كتب أبى نصر فأكثرها فى المنطق ، وما ورد منها فى الفلسفة فهى كثيرة الشكوك ، فقد أثبت فى كتاب « الملة الفاضلة » بقاء النفوس الشريفة بعد الموت فى آلام لا نهاية لها بقاء لا نهاية له ثم صرح فى السياسة المدنية بانها منحلة وصائرة الى العدم وانه لا بقاء إلا للنفوس الكاملة . ثم وصف فى كتاب الأخلاق شيئاً من أمر السعادة الانسانية وانما تكون فى هذه الحياة التى فى هذه الدار . ثم قال غقب ذلك

كلاماً هذا معناه : « وكل ما يذكر غير هذا فهو هذيان وخرافات عجائز » . فهذا قد
 يأس الخلق جميعاً من رحمة الله تعالى وصير الفاضل والشرير في رتبة واحدة إذ جعل
 مصير الكل إلى العدم ، وهذه زلة لا تقال وعثرة ليس بعدها جبر ! هذا ما صرح به
 من سوء معتقده في النبوة وانها بزعمه للقوة الخيالية خاصة ، وتفضيله الفلسفة عليها إلى
 أشياء ليس بنا حاجة إلى ايرادها (راجع ما اوردناه عن هذه المسألة الدقيقة في صفحة ٤٧
 من « ايضاح فلسفة الفارابي بنصوص منها »)

نقد فلسفة ابن سينا

وأما كتب ارسطوطاليس فقد تكفل الشيخ أبو عليّ بالتعبير عما فيها وجرى على
 مذهبه وسلك طريق فلسفته في كتاب الشفاء ، وصرح في أول الكتاب بأن الحق
 عنده غير ذلك وأنه ألّف ذلك الكتاب على مذهب المشائين وأن من أراد الحق
 الذي لا جمجمة فيه فعليه بكتابه في الفلسفة المشرقية ، ومن عني بقراءة كتاب الشفاء
 وبقراءة كتب ارسطوطاليس ظهر له في اكثر الأمور أنها تنفق وان كان في كتاب
 الشفاء أشياء لم تبلغ الينا عن ارسطو واذا أخذ جميع ما تعطيه كتب ارسطو وكتاب
 الشفاء على ظاهره دون أن يتفطن لسره وباطنه لم يصل به الى الكمال حسبما نبه عليه
 الشيخ أبو علي في كتاب الشفاء

نقد فلسفة الغزالي

وأما كتب الشيخ أبي حامد الغزالي فهو بحسب مخاطبته للجماهير يربط في موضع
 ويحل في موضع آخر ويكفر بأشياء ثم يتحللها ثم ان من جملة ما كفر به الفلاسفة في
 كتاب التهاافت انكارهم لحشر الأجساد واثباتهم الثواب والعقاب للنفوس خاصة ثم قال
 في أول كتاب « الميزان » أن هذا الاعتقاد هو اعتقاد شيوخ الصوفية على القطع ثم قال
 في كتاب « المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال » أن اعتقاده هو كاعتقاد الصوفية
 وان أمره إنما وقف على ذلك بعد طول البحث . وفي كتبه من هذا النوع كثير يراه

من تصفحها وأمعن النظر فيها وقد اعتذر عن هذا الفعل في آخر كتاب « ميزان العمل » حيث وصف أن الآراء ثلاثة أقسام . رأى يشارك فيه الجمهور فيما هم عليه . ورأى يكون بحسب ما يخاطب به كل سائل ومسترشد . ورأى يكون بين الانسان ونفسه لا يطلع عليه إلا من هو شريكه في إعتقاده ثم قال بعد ذلك « ولو لم يكن في هذه الألفاظ إلا ما يشكك في إعتقادك الموروث لكفى بذلك نفعاً فان من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العسى والحيرة » ثم تمثل بهذا البيت :

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

فهذه صفة تعليمه وأكثره إنما هو رمز وإشارة لا ينتفع به إلا من وقف عليها ببصيرة نفسه أولاً ثم سمعها منه ثانياً أو من كان معداً لفهمها فائق الفطرة يكتفى بأيسر إشارة وقد ذكر في كتاب « الجواهر » أن له كتباً مضموناً بها على غير أهلها وأنه ضمنها صريح الحق ولم يصل إلى الأندلس في علمنا منها شيء بل وصلت كتب يزعم بعض الناس أنها هي تلك المضمون بها، وليس الأمر كذلك وتلك الكتب هي « كتاب المعارف العقلية » وكتاب « النفخ والتسوية » و « مسائل مجموعة » وسواها وهذه الكتب وإن كانت فيها إشارات فإنها لا تتضمن عظيم زيادة في الكشف على ما هو مثبت في كتبه المشهورة وقد يوجد في كتاب « المقصد الاسنى » ما هو أغمض مما في تلك وقد صرح هو بأن كتاب « المقصد الاسنى » ليس مضموناً به فيلزم من ذلك أن هذه الكتب الواصلة ليست هي الكتب المضمون بها وقد توهم بعض المتأخرين من كلامه الواقع في آخر كتاب المشكاة أمراً عظيماً أوقعه في مهواة لا مخلص له منها وهو قوله بعد ذكر أصناف المحجوبين بالأثوار ثم انتقله إلى ذكر الواصلين « أنهم وقفوا على أن هذا الموجود العظيم متصف بصفة تنافي الوجدانية المحضة » فأراد أن يلزمه من ذلك أنه يعتقد أن الحق سبحانه في ذاته كثرة ما ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ! ولا شك عندنا في أن الشيخ أبا حامد ممن سعد السعادة القصوى ووصل تلك المواصل الشريفة المقدسة، لكن كتبه المضمون بها المشتملة على علم المكاشفة لم تصل إلينا

تمهيد لفلسفة ابن طفيل

التي أفرغها في قالب رسالته « أسرار الحكمة المشرقية »

ولم يتخلص لنا نحن الحق الذي انتهينا إليه وكان مبلغنا من العلم بتتبع كلام الغزالي وكلام الشيخ أبي عليّ وصرف بعضهما إلى بعض وإضافة ذلك إلى الآراء التي نبغت في زماننا هذا ، ولهج بها قوم من منتحلي الفلسفة حتى استقام لنا الحق أولاً بطريق البحث والنظر ثم وجدنا منه الآن هذا الذوق اليسير بالمشاهدة وحينئذ رأينا أنفسنا أهلاً لوضع كلام يؤثر عنا وتعين علينا أن تكون أيها السائل أول من أتحفناه بما عندنا وأطلعناه على ما لدينا لصحيح ولأنك وزكاء صفائك غير أنا ان ألقينا اليك بغايات ما انتهينا إليه من ذلك من قبل أن تحكم مبادئها معك لم يفدك ذلك شيئاً أكثر من أمر تقليدي مجمل هذا إن أنت حسنت ظنك بنا بحسب المودة والمؤالفة لا بمعنى أنا نستحق أن يقبل قولنا ونحن لا نقنع لك بهذه الرتبة ولا نرضى لك إلا ما هو أعلى منها إذ هي غير كفيلة بالنجاة فضلاً عن الفوز بأعلى الدرجات وإنما نريد أن نحمالك على المسالك التي تقدم عليها سلوكنا ونسبح بك في البحر الذي قد عبرناه أولاً حتى يفضى بك إلى ما أفضى بنا إليه فتشاهد من ذلك ما شاهدناه وتتحقق ببصيرة نفسك كل ما تحققناه وتستغنى عن ربط معرفتك بما عرفناه . وهذا يحتاج إلى مقدار معلوم من الزمان غير يسير وفراغ من الشواغل وإقبال بالهمة كلها على هذا الفن فان صدق منك هذا العزم وصحت نيتك للتشمير في هذا المطلب فستحمد عند الصباح مسراك وتنال بركة مسعاك وتكون قد أَرْضِيتَ ربك وأَرْضَاكَ وَأَنَالَكَ حيث تريده من أملك وتطمح إليه بهمنك وكنيتك وأرجو أن أصل من السلوك بك على أقصد الطريق وآمنها من الغوائل والآفات وان عرضت الآن إلى لحة يسيرة على التشويق والحث على دخول الطريق فانا واصف لك قصة « حي بن يقظان وابسال وسلامان » . ففي قصصهم عبرة لأول الألباب وذكري لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

﴿ إيضاح لفلسفة ابن طفيل ﴾

(١)

فلسفة ابن طفيل الباقية لنا موجودة في كتابه الوحيد الذى سماه « أسرار الحكمة المشرقية » وهو بنفسه رسالة « حى بن يقظان » ويظن الذين اطلعوا عليها ان ابن طفيل استخلصها من فلسفة ابن سينا وهذا خطأ لأنها فلسفة قائمة بذاتها ، وقد فرغنا فيما ترجمنا له من عرض آرائه في فلسفة الأئمة السابقين كالفارابى والغزالى وابن سينا وابن باجه ورأينا هذا الفيلسوف الأندلسى يخطط لنفسه خطة قائمة بذاتها مستقلة عن أفكار الجميع ، وقد مهد لها بتمهيد بليغ أقر فيه بأنه وقف على آراء الجميع واستخلص لنفسه مذهباً وهو أول فيلسوف اسلامى صب فلسفته في قالب قصصى وجعل بطل قصته شخصاً متوحداً يكون نفسه وأفكاره بالاحتكاك بالطبيعة وبالكائنات التى هى أقل منه درجات من جماد ونبات وحيوان الى أن يصل الى نقطة الادراك والاتصال فهذه القصة الخيالية تعد بحق نوعاً من الطوبى العقلية التى قلدها ونسج على منوالها كثيرون من كتاب الافرنج ومفكرهم

(٢)

وقد ذكر هذا الفيلسوف انه علم عن السلف الصالح ان جزيرة من جزائر الهند التى تحت خط الاستواء وهى الجزيرة التى يتولد بها الانسان من غير أم ولا أب وبها شجر يثمر نساء . ولا يخفى ما فى هذا القول من مفارقة بينه وبين تاريخ نشوء الانسان من آدم وحواء فان جميع الأديان اتفقت على ان أصل الانسان من رجل وامرأة خلقهما الله ، ولم يقل أحد من علماء الدين ان الانسان يخلق من الأرض لاعتدال جوها وخصب تربتها ، فهذا القول من ابن طفيل يعد غريباً بوصف كونه حكماً مسلماً نشأ فى القرن السادس للهجرة يقول ابن طفيل بعد أن تكلم على تكون الحرارة بسبب الحركة وملاقاة الأجسام الحارة والاضاءة ، وان بقاع الأرض التى على خط الاستواء لا تسامت الشمس رؤس أهلها سوى مرتين فى العام عند حلولها برأس الحمل وعند حلولها برأس الميزان وهى فى سائر العام ستة أشهر جنوباً وستة أشهر شمالاً منهم ، فليس عندم حر مفرط ولا برد مفرط وأحوالها بسبب ذلك متشابهة . وهذا القول يحتاج الى بيان أكثر من هذا لا يليق بما نحن بسبيله وانما نبهناك عليه لأنه من الأمور التى تشهد بصحة ما ذكر من تجويز تولد الانسان بتلك البقعة من غير أم ولا أب ، فمنهم (أى من علماء السلف الصالح) من بت الحكم وجزم

القضية بأن حي بن يقظان من جملة من تكون في تلك البقعة من غير أم ولا أب ، ومنهم من أنكر ذلك وروى من أمره خبراً نقصه عليك :

ثم اندفع ابن طفيل يروى قصة خيالية عن زواج سرى بين يقظان وبين أخت ملك تلك الجزيرة ، وان هذا الزواج السرى أثمر طفلاً وضعته أمه في تابوت والفته في البحر كما حدث لموسى عليه السلام .

وان الذى كفل الطفل الذى خاله ملك تلك الجزيرة وأبوه يقظان ظبية حنت عليه ورئمت به وألقته حاملة ثديها وأروته لبناً سائفاً ، وما زالت تتعده وتريه وتدفع عنه الأذى .

على أن ابن طفيل لم ترضه تلك القصة فعاد إلى رواية التكوين الطبيعى بغير أم ولا أب فقال : وأما الذين زعموا أنه تولد من الأرض فانهم قالوا ان بطناً من أرض تلك الجزيرة تحمرت فيه طينة على مر السنين والأعوام حتى امتزج فيها الحار بالبارد والرطب باليابس امتزاج تكافؤ وتعاود فى القوى ، وكانت هذه الطينة المتخمرة كبيرة جداً ، وكان بعضها يفضل بعضاً فى اعتدال المزاج والتهوى لتكون الأمشاج . وكان الوسط منها أعدل ما فيها وأتمه مشابهة بمزاج الانسان ، فتمخضت تلك الطينة وحدث فيها شبه نفاخت الغليان لشدة لزوجتها وحدث للوسط منها لزوجة ونفاخة صغيرة جداً منقسمة بقسمين بينهما حجاب رقيق ممتلئة بجسم لطيف هوائى فى غاية من الاعتدال اللائق به فتعلق به عند ذلك الروح الذى هو من أمر الله تعالى وتشبث به تشبثاً يعسر انفصاله عنه عند الحس وعند العقل !!

(٣)

ويستمر ابن طفيل فى سرد قصة هذا الطفل الذى هو أشبه الناس بروبصون كروزو اسلامى أندلسى يتميز عن ذاك الملاح المتوحد بأنه نشأ فريداً لم يعرف بشراً ولم يألف إنساً ولم يقف على شئ من شؤون الحياة المادية والمعنوية . ولم يفت ابن طفيل بعد أن مس مذهب النشوء والارتقاء عن بعد ، ان يلم بمبدأ تنازع البقاء بين الانسان والحيوان فقال : « واتخذ من أغصان الشجر عصياً سوى أطرافها وعدل منها وكان يهش بها على الوحوش المنازعة له فيحمل على الضعيف منها ويقاوم القوى منها فنبل بذلك قدره عند نفسه بعض نبالة وعلم أن ليده فضلاً كثيراً على أيديها اذ أمكن له بها من ستر عورته واتخاذ العصي التى يدافع بها عن حوزته ما استغنى به عما أراده من الذنب والسلاح الطبيعى » !!

(٤)

ولما كان ابن طفيل طبيباً وعالماً بالطبيعة والفلك والرياضيات فقد جعل بطل قصته الفلسفية على صورته وصورة من سبقه من الفلاسفة

« فبعد أن ماتت الطبيعة التي كانت تغذيه بلبنها تتبع ذلك كله بتشريح الحيوانات الأحياء والأموات ، ولم يزل ينعم النظر فيها ويحيد الفكرة حتى بلغ في ذلك كله مبلغ كبار الطبيعيين فتبين له أن كل شخص من أشخاص الحيوان وإن كان كثيراً بأعضائه وتفنن حواسه وحركاته فانه واحد بذلك الروح الذي مبدؤه من قرار واحد » .

وكان حي بن يقظان ينازع الحيوان البقاء في سن سبع سنين . فلما بلغ واحداً وعشرين عاماً كان قطع مرحلتين في الحياة الأولى اتقانه التشريح ووقوفه على سر الحياة المادية والثانية استعماله بعض الجماد والنبات أدوات للمحاربة والتغلب ، واتخاذ بعض الحيوان بالحيلة أو بالقوة لاختضاع البعض الآخر مما هو في حاجة الى استخدامه .

هذا ما أردنا إirاده من تلخيص تلك الفلسفة وسنذكر الآن بعض نصوص من قلم ابن طفيل نفسه في وصف الترقى الروحاني ووصف الطريق التي سلكها حي بن يقظان الى ان وصل الى الغاية التي يرمى اليها ابن طفيل وقد قسمنا موضوع الاقتباس الى ستة اقسام:

القسم الاول : في كيفية علم حي بن يقظان ان كل حادث لا بد له من محدث .

القسم الثاني : في نظر حي بن يقظان في الشمس والقمر والكواكب وبقيّة الاجرام السماوية .

القسم الثالث : في ان كمال الذات ولذتها انما هو بمشاهدة واجب الوجود .

القسم الرابع : في أنه نوع كسائر أنواع الحيوان وانه انما خلق لغاية أخرى .

القسم الخامس : في ان السعادة والفوز من الشقاء انما هي في دوام المشاهدة لهذا الموجود والواجب الوجود .

القسم السادس : في الفناء والوصول .

٥ - القسم الأول

في كيفية علم حي بن يقظان ان كل حادث لا بد له من محدث

« فعلم بالضرورة ان كل حادث لا بد له من محدث فارتسم في نفسه بهذا الاعتبار فاعل للصورة ارتساماً على العموم دون تفصيل ، ثم انه تبع الصور التي كان قد علمها قبل ذلك صورة صورة فرأى انها كلها حادثة وانها لا بد لها من فاعل ثم انه نظر الى ذوات الصور

فلم ير انها شيء اكثر من استعداد الجسم لأن يصدر عنه ذلك الفعل مثل الماء فانه اذا أفرط عليه التسخين استعد للحركة الى فوق وصلاح لها فذلك الاستعداد هو صورته اذ ليس هنا الا جسم وأشياء تحس عنه بعد ان لم تكن مثل الكيفيات والحركات وفاعل يحدثها بعد ان لم تكن ، فصولح الجسم لبعض الحركات دون بعض هو استعدادده بصورته ولاح له مثل ذلك في جميع الصورة فتيين له ان الافعال الصادرة عنها ليست في الحقيقة لها وانما هي لفاعل يفعل بها الافعال المنسوبة اليها وهذا المعنى الذى لاح له هو قول رسول الله (ص) « كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به » وفي محكم التنزيل « فلم تقتلوه ، ولكن الله قتلهم ! وما رميت اذ رميت ، ولكن الله رمى ! » فلما لاح له من امر هذا الفاعل ما لاح على الاجمال دون تفصيل حدث له شوق حثيث الى معرفته على التفصيل وهو بعد لم يكن فارق عالم الحس فجعل يطلب هذا الفاعل المختار من جهة المحسوسات «

٦ - القسم الثانى

في نظر حى بن يقطان في الشمس والقمر والكواكب وبقية الاجرام السماوية

« فنظر أولاً الى الشمس والقمر وسائر الكواكب فراها كلها تطلع من جهة المشرق وتغرب من جهة المغرب فما كان منها يمر على سمت رأسه رآه يقطع دائرة عظمى وما مال عن سمت رأسه الى الشمال أو الى الجنوب رآه يقطع دائرة اصغر من تلك ، وما كان ابد عن سمت الرأس الى أحد الجانبين كانت دائرته اصغر من دائرة ما هو اقرب حتى كانت اصغر الدوائر التي تتحرك عليها الكواكب دائرتين اثنتين احداها حول القطب الجنوبي وهى مدار سهيل والأخرى حول القطب الشمالى وهى مدار الفرقدين ولما كان مسكنه على خط الاستواء الذى وصفناه اولاً كانت هذه الدوائر كلها قائمة على سطح أفقه ومتشابهة الاحوال فى الجنوب والشمال وكان القطبان معاً ظاهرين له وكان يتربح اذا طلع كوكب من الكواكب على دائرة كبيرة وطلع كوكب آخر على دائرة صغيرة وكان طلوعهما معاً فكان يرى غروبهما معاً وأطرد له ذلك فى جميع الكواكب وفى جميع الاوقات فتيين له بذلك ان الفلك على شكل الكرة وقوى ذلك فى اعتقاده ما رآه من رجوع الشمس والقمر وسائر الكواكب الى المشرق بعد مغيبها بالمغرب ، وما رآه ايضاً من انها تظهر لبصره على قدر واحد من العظم فى حال طلوعها وتوسطها وغروبها وانها لو كانت حركتها على غير شكل الكرة لكانت لا محالة فى بعض الاوقات اقرب الى بصره منها فى وقت آخر .

٧ - القسم الثالث

في ان كمال الذات ولذتها انما هو بمشاهدة واجب الوجود

« فلما تبين له ان كمال ذاته ولذتها انما هو بمشاهدة ذلك الموجود الواجب الوجود على الدوام مشاهدة بالفعل أبداً حتى لا يعرض عنه طرفة عين لكي توافيه منيته وهو في حال المشاهدة بالفعل فتصل لذته دون أن يتخللها ألم ، واليه أشار الجنيد شيخ الصوفية وامامهم عند موته بقوله لأعجابه « هذا وقت يؤخذ منه الله اكبر وأحرم الصلاة » ثم جعل يتفكر كيف يتأتى له دوام هذه المشاهدة بالفعل حتى لا يقع منه اعراض ، فكان يلزم الفكرة في ذلك الموجود كل ساعة كما هو ، الا ان يسبح لبصره محسوس ما من المحسوسات أو يخرق سماعه صوت بعض الحيوان ، أو يعترضه خيال من الخيالات ، أو يناله ألم في بعض أعضائه ، أو يصيبه الجوع أو العطش ، أو البرد أو الحر ، أو يحتاج الى القيام لدفع فضوله فتختل فكرته ويزول عما كان فيه ويتعذر عليه الرجوع الى ما كان عليه من حال المشاهدة الا بعد جهد ، وكان يخاف أن تفجأ منيته وهو في حال الاعراض فيفضي الى الشقاء الدائم وألم الحجاب فساء حاله ذلك وأعياء الدواء . »

٨ - القسم الرابع

في أنه نوع كسائر أنواع الحيوان وأنه انما خلق لغاية أخرى

« قطع بذلك على أنه هو الحيوان المعتدل الروح الشبيه بالأجسام السماوية كلها وتبين له انه نوع كسائر أنواع الحيوان وانه إنما خلق لغاية أخرى وأعد لأمر عظيم لم يعد له شيء من أنواع الحيوان وكفى به شرفاً أن يكون أخس جزأيه وهو الجسماني أشبه الأشياء بالجواهر السماوية الخارجة عن عالم الكون والفساد المتزهة عن حوادث النقص والاستحالة والتغير ، وأما أشرف جزأيه فهو الشيء الذي به عرف الموجود الواجب الوجود وهذا الشيء العارف أمر رباني الهى لا يستحيل ولا يلحقه الفساد ولا يوصف بشيء مما توصف به الأجسام ولا يدرك بشيء من الحواس ولا يتخيل ولا يتوصل إلى معرفته بالة سواء بل وصل اليه به فهو العارف والمعروف والمعرفة وهو العالم والمعلم والمعلوم لا تباين في شيء من ذلك اذ التباين والانفصال من صفات الأجسام ولواحقها ولا جسم هناك ولا صفة جسم ولا لاحق بجسم »

٩ - القسم الخامس

في أن السعادة والفوز من الشقاء إنما هي في دوام المشاهدة لهذا الموجود الواجب الوجود
 « وقد وقف على أن سعادته وفوزه من الشقاء إنما هي في دوام المشاهدة لهذا الموجود
 الواجب الوجود حتى يكون بحيث لا يمرض عنه طرفة عين ثم أنه نظر في الوجه الذي
 يتأتى له به هذا الدوام ، فأخرج له النظر أنه يجب عليه الاعتماد في هذه الأقسام الثلاثة
 من التشبهات :

أما التشبه الأول فلا يحصل له به شيء من هذه المشاهدة بل هو صارف عنها وعائق
 دونها اذ هو تصرف في الأمور المحسوسة والأمور المحسوسة كلها حجب معترضة دون تلك
 المشاهدة وإنما احتيج الى هذا التشبه لاستدامة هذا الروح الحيواني الذي يحصل به
 التشبه الثاني بالأجسام السماوية فالضرورة تدعو اليه من هذا الطريق ولو كان لا يخلو
 من تلك المضرة .

وأما التشبه الثاني فيحصل له به حظ عظيم من المشاهدة على الدوام فهو مع تلك
 المشاهدة يعقل ذاته ويلتفت اليها حسبما يتبين بعد هذا .

وأما التشبه الثالث فتحصل به المشاهدة الصرفة والاستغراق المحض الذي لا التفات
 فيه بوجه من الوجوه إلا الى الموجود الواجب الوجود والذي يشاهد هذه المشاهدة قد
 غابت عنه ذات نفسه وفنيت وتلاشت وكذلك سائر الذوات كثيرة كانت أو قليلة إلا ذات
 الواحد الحق الواجب الوجود جل وتعالى وعز ! »

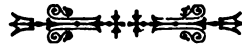
١٠ - القسم السادس

في الفناء والوصول

« فاضغ الآن بسمع قلبك وأحرق ببصر عقلك الى ما أشير اليه لعلك تجد منه هديا
 يلقيك على جادة الطريق ! وشرطى عليك أن لا تطلب منى في هذا الوقت مزيد بيان
 بالمشاهدة على ما أودعه هذه الاوراق فان المجال ضيق والتحكم بالالفاظ على أمر ليس من
 شأنه أن يلفظ به خطر . فاقول أنه لما فنى عن ذاته وعن جميع الذوات ولم ير في الوجود
 إلا الواحد الحى القيوم وشاهد ما شاهد ثم عاد الى ملاحظة الاغيار عند ما أفلق من حاله
 تلك التى هي شبيهة بالسكر خطر بباله أنه لا ذات له يغير بها ذات الحق تعالى وان
 حقيقة ذاته هي ذات الحق وان الشيء الذى كان يظن أولاً أنه ذاته المفايرة لذات الحق

ليس شيئاً في الحقيقة بل ليس شيء إلا ذات الحق وان ذلك بمنزلة نور الشمس الذي يقع على الاجسام الكثيفة فتراه يظهر فيها فانه وان نسب الى الجسم الذي ظهر فيه فليس هو في الحقيقة شيئاً سوى نور الشمس وان زال ذلك الجسم زال نوره وبقي نور الشمس بحاله لم ينقص عند حضور ذلك الجسم ولم يزد عند مغيبه ، ومتى حدث جسم يصلح لقبول ذلك النور قبله فاذا عدم الجسم عدم ذلك القبول ولم يكن له معنى

« وتقوى عنده هذا الظن بما كان بان له من أن ذات الحق عز وجل لا تتكثر بوجه من الوجوه وان علمه بذاته هو ذاته بعينها فلزم عنده من هذا أن من حصل عنده العلم بذاته فقد حصل عنده ذاته فقد كان حصل عنده العلم فحصل عنده الذات وهذه الذات لا تحصل الا عند ذاتها ونفس حصولها هو الذات فاذن هو الذات بعينها وكذلك جميع الذوات المفارقة للمادة العارفة بتلك الذات الحق التي كان يراها أولاً كثيرة وصارت عنده بهذا الظن شيئاً واحداً وكادت هذه الشبهة ترسخ في نفسه لولا أن تداركه الله برحمته وتلافاه بهدأته فعلم ان هذه الشبهة انما ثارت عنده من بقايا ظلمة الأجسام وكدورة المحسوسات فان الكثير والقليل والواحد والوحدة والجمع والاجتماع والافتراق هي كلها من صفات الأجسام »



٧ - ابن رشد

كلمة افتتاح

يعجب بعض الناس للمشتغلين بدرس آراء الأقدمين . ومبحث مناهج المتقدمين . والوقوف على أخبارهم . والأخذ بالصحیح من تراجمهم وسبب هذا العجب ظنهم أن كل قديم قد عفت آثاره . وانقطعت علاقته بهذا الزمن وأهله . فلا فائدة في تضييع العمر في التحرى عن العتيق ما دامت الحاجة بالجديد ماسة . والنفع به مؤكداً . وجوابنا على هذا هو : أن البحث في القديم ضرورى لمعرفة الجديد وتفهمه . وأن حياة الفكر الإنسانى منذ فجر الإدراك الى آخر الدهر (ان كان لهذا الدهر آخر) سلسلة واحدة متصل أولها بوسطها ووسطها بآخرها . وقد يكون آخرها كأولها !

لأجل هذا اتجه نظرنا الى درس فلاسفة العرب لأنهم عنا أشد عناية بفلسفة اليونان . وتمرغوا لها . وقلوها الى لغتهم ، وشرحوها وفسروها ، وعلقوا عليها ووضعوا غامضها وأبانوا مبهمها .

وقد وصلنا لدرس حياة ابن رشد وفلسفته وهو من اكبر وجوه التاريخ . وله ثلاث ميزات ليست لغيره من فلاسفة الاسلام : الأولى أنه اكبر فلاسفة العرب وأشهر فلاسفة الاسلام . والثانية أنه من أعظم حكماء القرون الوسطى عامة . وهو مؤسس مذهب الفكر الحرفى كان له قدر عظيم في نظر أهل اوروبا فجعلوه في مصاف فلاسفتهم المعادين للعقائد الدينية ولم يبخل عليه ميخائيل انجلو بمكان في جحيمة الخيالى الذى صورده في سقف معبد سيكتين بالفاتيكان لا باعتباره مسلماً بل بوصف كونه فيلسوفاً معطلاً كذلك ذكره دانتى في قصيدته في النشيد الثالث كما أنه لا يخلو كتاب فلسفى من ذكره وشرح مبدأه .

الميزة الثالثة أنه أندلسى . وللأندلس بذاتها وآفاقها وتاريخها وآثارها مكانة خاصة في تاريخ العالم . دع عنك ما تستنجه من قوة تأثير الوسط في عقل شرق النزعة والعقيدة غربي النشوء والمنتبت .

كان الفلاسفة في الأزمنة السالفة لا يستطيعون الحياة والظهور إلا إذا عاشوا في ظلال الأمراء والملوك . لأن الفلسفة لا تطعم خادماً ولا تكسوه ولا تجرى عليه رزقاً وان كان هو ينفق في خدمتها عمره وماله ويفقد في سبيلها حياته وولده وحرته فلم يكن لمحـب الحكمة بد من أن يلتمس العيش في اكناف أحد الملوك يؤلف الكتب ويهديها اليه ويحليها باسمه .

ثم أن الفلاسفة كانوا ولا يزالون موضع ارتياب العامة ، وحسد الخاصة . فالعامة ينظرون اليهم بعين الشدة ويسئئون بهم الظنون ، ويتقولون عليهم ، وينسبون اليهم أموراً ان صدق بعضها فمعظمها مخلق أو مبالغ فيه . أما الخاصة ممن لم يبلغوا شأوهم فاما يغارون منهم وإما يحسدونهم على نعمة الحكمة التي هي تقمة على الفلاسفة أنفسهم لأجل هذا كانت حاجة الفيلسوف الى أمير يلجأ اليه كحاجة الغرباء في بلاد الشرق الى الاحتماء بسفراء الدول الأجنبية

ولا عجب فان الفيلسوف غريب في وطنه أجنبي بين قربائه وأهله . على أن الالتجاء الى الأمراء والاحتماء بهم لم يكن منقذاً في كل حال ، فقديمًا كانت علاقة الفلاسفة بالأمراء سبب نكبتهم ومصدر بلوهم وشقوتهم ، وما هذا الا لتقلب الأمراء في الود وسهولة انقيادهم للقوى من الزعماء أو اضطرارهم لمجاراة تيار الفكر الشائع ، وطاعتهم صوت الخلق وقول الجماعة حتى ولو كان هذا وذاك على خلاف ما يرغبون وعكس ما يضمرون . وهذا الذي وقع لابن رشد في محنته الأليمة .

أما أحوال هذا الزمن فقد تغيرت وتبدلت وأصبح الفيلسوف في الغرب قادراً على العيش في كنف الحكمة دون الالتجاء الى نفوذ الملوك وظلال الأمراء . بل أصبح الفيلسوف بقوة عبقريته أميراً على العقول يخضع له الناس في مشارق الأرض ومغاربها

بفضل ما وصلت اليه الانسانية من الحرية المحدودة وأصبح صوت الفيلسوف اذا أرسله يهز عروش القياصرة ويزعزع من قوائمها وليس العهد بعيداً بآثار ليوتولستوى في نهضة شعب روسيا فظالما كتب أسطراً في صحيفة سيارة هلمت لها قلوب الذين استعبدوا الام واستباحوا ظلمها واستندوا في استبقاء سلطتهم الى الجهال والمشعوذين وأر باب المطامع النازلة والمقاصد الوضيعة وها هم قد دالت دولتهم ومحي من الوجود ذكرهم ودولة العقل والفكر باقية .

كذلك من يذكر اسم أوجست كومت وهربرت سبنسر وشوبنهاور يذكر أعلاماً مضيئة استنارت بها الانسانية والتفت حولها الامم مستنجدة بها في دياجى الحيرة .
حقاً أن اضطهاد الفيلسوف وتعذيبه في سبيل فكره والتنكيل به لشذوذه واعتزاله ، تلك أمور لا تزال مشاهدة في بعض الأوساط والأماكن لهدنا هذا .

ولكن اين الشرارة الصغيرة من النار العظيمة المتأججة وأين اللوم والتقريع في جريدة أو مجلة من الحكم بالاعدام شنعاً أو احراقاً فضلاً عن النفي والتعذيب كذلك لا ننسى ان الانسانية لا تزال في أدوارها الأولى على الرغم من التبجح ببلوغها سن الرشد .

تاريخ ابن رشد وفلسفته

اسمه وكنيته : محمد بن احمد بن محمد بن رشد ويكنى أبا الوليد وهى كنية انتحلها أجداده من قبله فلزمته

مولده : ولد عام ٥٢٠ هـ - ١١٢٦ م . وقيل ولد قبل وفاة جده بأشهر

وفاته : عام ٥٩٥ هـ في مساء الخميس ٩ صفر الموافق ١٠ دجنبر ١١٩٨

حياته : عمر اثنتين وسبعين سنة شمسية او خمسا وسبعين سنة هلالية تمتد طوال

القرن الثانى عشر المسيحى ، والقرن السادس الاسلامى

مكان ولادته : قرطبة بالأندلس

مكان وفاته : مراکش

أسرته : نشأ في بيت فقهاء وقضاة وكانت أسرته من أكبر الأسر وأشهرها في الأندلس وأبؤه من أئمة المذهب المالكي وكان هو وأبوه وجده قضاة قرطبة وانفرد حيناً بقضاء أشبيلية

كان جده محمد بن رشد من أهل العلم والفقه وكانت له مباحث فلسفية وشرعية وله مجموعة فتاوى رتبها وتقحها أحد مريديه وأتباعه ، ابن الوران ، إمام مسجد قرطبة لعده (وهي بمكتبة باريس الوطنية تحت عدد ٣٩٨ ملحقات عربية)

ولا ريب في أن أبا الوليد ورث كثيراً من مواهب جده واستعداده الفكري .

أما والده فلا يمتاز إلا بمنصب القضاء ، وليس له بين أيدينا أثر معروف ولكن رجلاً كأحمد بن محمد بن رشد يكفيه فخراً أن كان ابناً لأبيه ووالداً لولده فله نصيب عظيم في تربية ابنه وتهذيبه وتوجيه مواهبه .

هذا فيما يتعلق بالنسب من جهة الوالد . أما من جهة الأم فليس لدينا معلومات يُركن إليها وهذه حال معظم مشاهير الاسلام لأن النساء بحكم الآداب الدينية والعرفية لا يذكرن ولا يكون لأشخاصهن شأن يعرف في تربية أولادهن ولعل هذه الحال هي التي حدث ابن رشد الى مناصرة النساء والمطالبة بتحريرهن وقد رأى بعينه الفرق بين حياة الاسبانية المسيحية والأندلسية المسلمة .

علاقته باليهود

ذكر المؤرخون عند الكلام على نكته أنه عوقب بالنفي في « اليسانه » وهي بلد صغير كان أهلاً باليهود . وانه نفي اليه وحده أما بقية أصحابه وتلاميذه فأمرؤا أن يكونوا في موضع آخر وبما كان فيه إليه نوعاً من النكاية وزيادة في التنكيل لأن الخليفة المنصور الذي نفاه كان يبغض اليهود ويضطهدهم ولكن بعض أعداء ابن رشد انتهزوا فرصة غضب الأمير عليه ونفيه الى ذلك البلد وأشاعوا أن المنصور قد رد الفيلسوف الى أصله ونفاه في بلد قومه لأنه يُنسب في بني اسرائيل ولا تعرف له نسبة في قبائل الأندلس

ويجدر بالذكر أن ابن رشد كان ذا شأن عظيم في نظر اليهود وان كثيرين من فلاسفتهم أمثال ميمونيد وغيره نقلوا مؤلفاته الى اللغة العبرية ومنها نقلت الى اللاتينية والعربية والفضل يرجع اليهم في الإحتفاظ بتلك المؤلفات إلى أن بلغت أبناء الأجيال الحديثة . فهل جاءت تلك الحوادث عفواً ومصادفة أم كان لها سبب خفي قوى وهو صحة انتساب ابن رشد الى بنى اسرائيل وتسلسل جده من أهل تلك الملة ؟ أما نحن فنحسبها مصادفة .

نشأته وتربيته

درس ابن رشد الشريعة الاسلامية على طريقة الاشعريه وتخرج في الفقه على مذهب الامام مالك ولهذا يوجد شبه بين آرائه الشرعية والفقهية وبين ميوله الفلسفية ، اما الطريقة الاشعريه فقد اختارها أهله وأولياؤه والمذهب الشرعى يلزم باتباعه على ما كان أبوه ، أما المبدأ الفلسفى الذى خدمه فهو الذى اختطه لنفسه بإرادة حرة وقد يكون للطريقة التى درس بها الفقه والمذهب الذى تبعه أثر في أفكاره الفلسفية لا يمكن تحديده

وسيرى القارىء فيما يلى أنه تصدى في كثير من كتبه للطعن على الاشعريه وانتقاد طرقهم ومبادئهم انتقاداً مرّاً وذلك بعد أن اتسع نطاق فكره وامتدت أشعة بصيرته إلى أبعد مدى فانتصر المنطق الصحيح والرأى الراجح على الفروض الوهمية والتخمين الخيالى .

تاريخ حياته

لما بلغ ابن رشد الثامنة والعشرين من عمره سافر الى مراکش وقصد إلى بلاط الخليفة عبد المؤمن ثانى امراء الموحدين، ولما توفى عبد المؤمن وخلفه ولده يوسف تفضل ابن طفيل الفيلسوف الشهير فقدم ابن رشد لعظمته وكان يوسف يحب العلم والعلماء ويعظم الحكمة ويكرم الحكماء وكانت لابن طفيل عنده حظوة كبرى ، وروى عبد الواحد المراكشى

عن ابن رشد نفسه وصف المقابلة الأولى بين الحكيم والأمير وفيها أن ابن طفيل أسرَّ إلى ابن رشد رغبة الخليفة يوسف في نقل حكمة أرسطو . ولعله كان يرمى بذلك لأن يكون في الغرب كما كان المأمون في الشرق .

ويظهر أن ابن طفيل كان من أكرم الناس خلقاً وأوسعهم صدرأ وأخلصهم حباً للحكمة فانه شمل ابن رشد بعطفه فذكره في رسالة «حى بن يقظان» تلميحاً عند ذكر ابن باجه وأتباعه ومن خلفهم من الفلاسفة فضلاً عن أنه قدمه ليوسف وأوصاه به فلما توفي ابن طفيل عينه الأمير طبيياً لنفسه . ولما خلا منصب القضاء في قرطبة عينه مكان أبيه ولما توفي يوسف وخلفه ولده يعقوب المنصور بالله كانت حظوة ابن رشد عنده عظيمة فقر به ورفع الكلفة بينهما إلى درجة أن ابن رشد كان يخاطبه أثناء الحديث قائلاً اسمع يا أخي ! ولما كانت صداقة الملوك أسرع تقلباً من الجو وأقصر عمراً من لذيذ الرؤى وأقرب إلى الفناء من أزهار الربيع فقد انقلب يعقوب على ابن رشد في حديث طويل . أما سبب النكبة فمختلف فيه وقد عللها المؤرخون بعزل شتى ولكن السبب الحقيقي واحد وهو أن كل حكيم ذى مكانة يكثر أعداؤه وحساده الذين يغارون من شهرته وينقمون عليه علو كعبه وترفعه وهؤلاء الحساد والمقاومون يظهرون تارة باسم الدين وطوراً باسم الأخلاق والفضيلة وتارة باسم السياسة والحقيقة أنهم أعداء شخصيون للرجل العظيم . وكل ما حدث في نكبة ابن رشد أن أعداءه لبسوا ثياب الدين ودسوا عليه دسيسة في بلاط الخليفة ونجحوا فيها فتمكنوا بها من التغلب على حزب الفلاسفة الذى كان سائداً مسموع الكلمة لدى الخليفة بفضل ابن رشد ، ومما يؤيد هذا الرأى أن ابن رشد لم يكن وحيداً في الإهانة والأذى والنفي والاعتقال بل كان معه كثير من أتباعه وأمثاله العلماء وكان ذنبهم في نظر الخليفة وحزبه انقطاعهم للفلسفة ودرس كتب الأقدمين . والمحنة في ذاتها تقع في كل زمان ومكان وتاريخ العالم حافل بفظائع الاضطهاد والتنكيل . وتاريخ أوربا مملوء بوقائع التعصب والاضطهاد والحاق الأذى بالعلماء والمصلحين الدينيين والمخترعين والمكتشفين .

على أن الخليفة بعد أن أطاع مُشير السوء عاد فندم على ما فرط منه في حق الحكمة والحكمة فرجع إلى مراكش ونسخ المنشور الذي أذاعه في حق ابن رشد وصحبه ومحا أثره واشتغل بالفلسفة واسترضى ابن رشد ورفاقه ودعاهم إلى حضرته وقربهم من حظيرته وقدمهم واستمع لهم وأطاع رأيهم ونبذ حزب التعصب والجهل الذي كان سبباً في نكبتهم .

غير أن حياة ابن رشد لم تطل بعد محنته عاماً فلما توفي نقلت رفاتة إلى قرطبة ودفن في مدفن أجداده بمقبرة ابن عباس ويروى أن جثته نقلت على بعير وأصدق الأخبار عن وفاته أنه توفي بمراكش يوم الخميس التاسع من صفر سنة خمس وتسعين وخمسمائة قبل وفاة المنصور الذي نكبه بشهر أو نحوه ودفن بخارجها ثم سيق إلى قرطبة فدفن بها مع سلفه . وذكر ابن فرقد أنه توفي بعد النكبة الحادثة عليه المشتهرة الذكر ودفن بمجانة باب تاغزوت خارج مراكش ثلاثة أشهر وذلك في أول دولة الناصر .

أساتذته

روى عن أبيه أبي القاسم واستظهر عليه الموطأ حفظاً . وأخذ يسيراً عن أبي القاسم ابن بشكوال وعن أبي مروان بن مسرة . وعن أبي بكر بن سمحون وعن أبي جعفر ابن عبد العزيز وأجاز له أبو جعفر هذا وأبو عبد الله المازري الطب عن أبي مروان ابن جربول البلنسى واشتغل على الفقيه الحافظ أبي محمد بن رزق واشتغل بالعلوم وبالطب على أبي جعفر هرون ولازمه مدة وأخذ عنه كثيراً من العلوم الحكيمة .

الرجال الذين تعلم عليهم والعلوم التي درسها

الفقه : تلقاه على أئمة عهده . الطب : على أبي جعفر هرون . الفلسفة . قبل أنه تلقى علوم الحكمة على ابن باجة ولكن هذا قول ضعيف لأن وفاة ابن باجة توافق بلوغ ابن رشد الثانية عشرة من عمره فقد ولد ابن رشد في سنة ١١٢٦ وتوفي ابن باجة في

سنة ١١٣٨ وهذه سن لا تسمح بتلقى علوم الفلسفة ، قد يكون ابن رشد من النوابع الذين تظهر نجاتهم في العقد الأول من أعمارهم وقد يكون حظى بالتلقى عن ابن باجة ولكن هذا في مجال الافتراض والظنون . والمؤكد ان ابن باجة كان يختلف حتماً الى بيت ابن رشد زائراً فلا يبعد أن يكون قد حادث الصبي وناقشه أو استمع له نبذة محفوظة أو قصيدة مروية فصارت هذه الحادثة وما يكون تكرر من نوعها سبباً لانتساب ابن رشد اليه

ولعل الذي دعا بعض المؤرخين كابن أبي أصيبعة الى هذا القول تسلسل مذهب ابن رشد من مذهب ابن باجة ، على أن هذا التسلسل طبعى لأسباب كثيرة أهمها اتجاه الفكر في الأندلس وفي العالم في القرن الثاني عشر وتأثير الوسط والمبادئ ، وكانت تربطه بابن طفيل وأواصر المودة وهو الذي فتح له سبل التقدم في بلاط الخليفة وكانت بينه وبين آل زهر الذين اشتهروا بالعلم والفضل والأدب في الأندلس في القرن السادس للهجرة مودة عظيمة ومنهم أبو بكر بن زهر طبيب الخليفة وأبو مروان بن زهر مؤلف كتاب « التيسير » وكانا من أوفى أصدقائه ،

ومنهم أبو بكر بن العربي الفقيه صاحب التصانيف وبالجملة كان ابن رشد مختلطاً بأشهر وأعلم وأفضل أهل عصره .

ومن غرائب المصادفات ان ابن يطار وعبد الملك بن زهر ماتا وابن رشد في سنة واحدة وكان قد سبقهم الى دار الفناء ابن طفيل وأبو مروان بن زهر وقد توفيت الحكمة في أرض أندلس بوفاة هؤلاء العظماء الذين كانوا كالنقش الجليل إطاره تلك البقعة المباركة، أشرقت شمسهم في بداية القرن السادس الهجري وغابت بنهايته وهكذا عمر الحكمة كعمر زهر البنفسج يتنفس من الربيع ثم لا يلبث أن يذبل ولكنه محبوب لعطره ومعزز لأنه رمز الأمل الذي لا يموت ! فمن آثار هؤلاء الحكماء نستفيد ومن بحر فضلهم نغترف ومن ارثهم المقدس الذي تركوه لنا نبني حكمة جديدة أساسها الحب العام وغايتها التسامح الشامل .

أصدقاؤه

أبو عبدالله محمد بن ابراهيم الفقيه وقاضى بجاية وأبو جعفر الذهبي والفقيه أبو الرابع الكفيف وأبو العباس الحافظ الشاعر القراى .

وقد نكبوا معه لشدة اتصالهم به ، وامتزاج فكره بأفكارهم ومن أصدقاؤه أبو محمد عبد الكبير وكان مقرباً لدى ابن رشد فاستكتبه واستقضاه أيام قضائه بقرطبة وأبو جعفر ابن هارون الترجالى وهو شيخ أبى الوليد بن رشد فى التعاليم والطب وأصله من ترجمة من ثغور الأندلس .

تلاميذه

أبو عبدالله الندرومى ولد ونشأ بقرطبة ثم انتقل الى أشبيلية وكان قد لحق القاضى أبا الوليد بن رشد واشتغل عليه بصناعة الطب .

وأبو جعفر احمد بن سابق أصله من قرطبة وكان من طلبة القاضى أبى الوليد بن رشد ومن جملة المشتغلين عليه بصناعة الطب . وأبو القاسم الطليسان وقد روى عن ابن رشد انه كان يعرف شعر حبيب والمتنبى ومنهم أبو محمد بن حوط الله وأبو الحسن سهل ابن مالك وأبو الربيع بن سالم وأبو بكر بن جمهور وغيرهم .

نسله

وقد خلف ابن رشد ولداً هو أبو محمد بن عبدالله بن أبى الوليد محمد بن احمد ابن محمد بن رشد وكان فاضلاً فى صناعة الطب عالماً بها مشكوراً فى أفعالها وكان يقصد الخليفة الناصر ويعالجه . وخلف ابن رشد غير هذا أولاداً اشتغلوا بالفقه واستخدموا فى قضا، الكور .

المنطق والقرآن

كان متهموساً بمنطق أرسطو وقال عنه انه مصدر السعادة للناس وان سعادة الإنسان تقاس بعلمه بالمنطق وهو يرى عدم نفع « ايساغوجى » لفورفور يوس وكان يهتم بالنحو بصفة كونه قانوناً لجميع اللغات وأرسطو أوجد قانوناً لها فى كتابى هرمنوطيق والبلاغة .

والمنطق اداة تسهل الطريق الشاقة في الوصول الى الحقيقة التي لا يصل اليها العامة بل بعض الخاصة بفضل المنطق . وقد اتفق أنه وصل الى الحقيقة واكتشف الحق المطلق وذلك بدرس ارسطو ويعتقد أن للدين حقيقة قائمة به ولكنه يبغض علم الكلام لأنه يسمى لاثبات مالا يمكن اثباته بالعقل لأن الغرض الذي من أجله نزل القرآن ليس تعليم الناس ولكن تحسين أحوالهم فليس المطلوب العلم انما المطلوب الطاعة والاستقامة واتباع الطريق السوى وهذه هي غاية الشارع الذي يعلم أن سعادة الانسان لا تتم إلا بالمعيشة الاجتماعية

سيرته في القضاء

ولى قضاء قرطبة بعد أبي محمد بن مغيث فخدمت سيرته وتأملت له عند الملوك وجاهة عظيمة لم يصرفها في ترفيع حال ولا جمع مال انما قصرها على مصالح أهل بلده خاصة ومنافع أهل الأندلس عامة .
وكان قد قضى في اشبيلية قبل قرطبة وكانت الدراية أغلب عليه من الرواية ولم ينشأ بالأندلس مثله كمالاً وعلماً وفضلاً .

وكان على شرفه أشد الناس تواضعاً وأخفضهم جناحاً وعنى بالعلم من صغره الى كبره حتى حكى عنه انه لم يدع النظر ولا القراءة منذ عقل إلا ليلة وفاة أبيه وليلة بنائه على أهله . وروى أنه سود فيما صنف وقيد وألف وهذب واختصر نحواً من عشرة آلاف ورقة ومال إلى علوم الأوائل فكانت له فيها الامامة دون أهل عصره وكان يفرغ إلى فتواه في الطب كما يفرغ إلى فتواه في الفقه مع الحظ الوافر من الاعراب والأدب . وكان يحفظ شعر حبيب وشعر المتنبي ويكثر التمثيل بهما في محله ويورد ذلك أحسن إيراد . وكان مشهوراً بالفضل معنياً بتحصيل العلوم . وكان أوحد دهره في علم الفقه والخلاف . وكان متميزاً في عالم الطب وجيد التصنيف، حسن المعاني .
حدث القاضي أبو مروان الباجي قال « كان القاضي أبو الوليد بن رشد حسن الرأي ذكياً رث البزة قوى النفس وأقبل على علم الكلام والفلسفة وعلوم الأوائل حتى صار

يضرب به المثل فيها . ومن كلامه المأثور « ان من اشتغل بعلم التشريع ازداد إيماناً بالله تعالى . »

عن الأمير الذي نكب ابن رشد في عهده

ويظهر أن يعقوب انتخب لإمارة المؤمنين انتخاباً فقد روى ابن الأثير وابن خلكان أن يوسف مات من غير وصية بالملك لأحد من أولاده ، فاتفق رأى قواد الموحدين وأولاد عبد المؤمن على تمليك ولده يعقوب فملكوه في الوقت الذي مات فيه أبوه فهذا التقديم في ذاته دليل على اعتراف شيوخ الأمة بفضله وقام بالأمر أحسن قيام ، وهو الذي أظهر أبهة ملكهم ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع ونظر في أمور الدين والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين كما أقامها في سائر الناس أجمعين ، فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات .

استقلال القضاء عن السلطة التنفيذية

ومن نوادر عدله ان الأمير الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر ولد الأمير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد صاحب افريقية كان قد تزوج أخت الأمير يعقوب وأقامت عنده ، ثم جرت بينهما منافرة فجاءت إلى بيت أخيها يعقوب ، فسير زوجها في طلبها فامتنعت عليه ، فشكا إلى قاضي الجماعة براكش وهو أبو عبد الله محمد ابن علي بن مروان . فاجتمع القاضي المذكور بالأمير وقال له ان الشيخ أبا محمد عبد الواحد يطلب أهله ، فسكت يعقوب وتكرر اللقاء والطلب والسكوت ثلاث مرات وفي الثالثة قال القاضي للأمير « فاما أن تسير إليه أهله وإلا فاعزلني عن القضاء » . فسكت يعقوب ثم استدعى خادماً وقال له في السر « تحمل أهل الشيخ عبد الواحد إليه » فحملت في ذلك النهار ولم يتغير على القاضي ولا قال له شيئاً يكرهه . وهذه حسنة تعد له وللقاضى .

وقتل في بعض الأحيان على شرب الخمر وقتل العمال الذين تشكو الرعايا منهم .
 أرسل اليه صلاح الدين رسولاً من بني منقذ وهو شمس الدولة عبد الرحمن بن مرشد
 في سنة ٥٨٧ هـ ليستنجده على الفرنج الواصلين من بلاد المغرب الى الديار المصرية
 وساحل الشام ، ولم يخاطبه بأمر المؤمنين بل خاطبه بأمر المسلمين ، فعز ذلك عليه
 ولم يجبه إلى ما طلبه منه .

علاقة ابن رشد بالخليفة يوسف بن عبد المؤمن

وهو والد الخليفة يعقوب المنصور وكيف اتصل ابن رشد بالخلفاء بفضل ابن طفيل
 وفيه دليل على حب الخليفة يوسف العلم والعلماء

لما تولى أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي طمح به علوهته إلى تعلم الفلسفة
 فجمع كثيراً من كتبها وبدأ بالطب فاستظهر بعض كتبه مما يتعلق بالعلم دون العمل
 ثم تخطى إلى الفلسفة وأمر بجمع كتبها فاجتمع له كثير منها ولم يزل يبحث عن العلماء
 ويقر بهم وكان بلغ به حبه العلم والكتب حتى استباح مصادرتها في بيوت أربابها
 وحملها اليه اغتصاباً مع مكافأة أهلها بعد ذلك كما حدث ليوسف أبي الحجاج المراني
 فانه بعد أن صادر كتبه ولأه ولاية حسنة وكان ممن صحب هذا الخليفة من العلماء
 أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين بالاندلس وكان يجلب إلى الخليفة العلماء
 من جميع الأقطار ويحضره على أكرامهم وهو الذي نبهه على ابن الوليد محمد بن أحمد
 ابن محمد بن رشد فمن حينئذ عرفوه ونبه قدره عندهم . (راجع ص ٩٧ من هذا الكتاب)

أول مجلس بين الخليفة يوسف وابن رشد

وكيف استدرجه للتكلم في الفلسفة

روى محيي الدين في كتابه « المعجب » عن الفقيه الأستاذ أبي بكر بندود بن محيي
 القرطبي تلميذ ابن رشد قال « سمعت الحكيم أبا الوليد يقول أكثر من مرة لما دخلت
 على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو وأبا بكر بن طفيل فأخذ أبو بكر يثنى على »

ويذكر بيتي وسلفي ويضم بفضلہ إلى ذلك أشياء لا يبلغها قدرى فكان أول ما فاتحنى به أمير المؤمنين بعد أن سألنى عن إسمى واسم أبى ونسبى أن قال لى « ما رأيهم فى السماء (يعنى الفلاسفة) أقديمة هى أم حادثة ؟ » فأدركنى الحياء والخوف فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالى بالفلسفة ولم اكن أدرى ما قرر معه ابن طفيل ففهم أمير المؤمنين منى الروح والحياء فالتفت إلى بن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التى سألنى عنها ويذكر ما قاله أرسطو وأفلاطون وجميع الفلاسفة ويورد مع ذلك احتجاج أهل الاسلام عليهم فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها فى أحد من المشتغلين فى هذا الشأن المتفرغين له ولم يزل يبسطنى حتى تكلمت فعرف ما عندى من ذلك فلما انصرفت أمر لى بنال وخلعة سنية ومركب .

اقتراح الخليفة يوسف

على ابن رشد ترجمة أرسطو وتوسيط ابن طفيل فى ذلك

ثم استدعانى أبو بكر بن طفيل يوماً فقال لى سمعت اليوم أمير المؤمنين يتشكى من قلق عبارة أرسطوطاليس أو عبارة المترجمين عنه ويذكر غموض أغراضه ويقول « لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهماً جيداً لقرب مأخذها على الناس » فان كان فيك فضل قوة لذلك فافعل وانى لأرجو أن تنفى به لما أعلمه من من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك إلى الصناعة وما يمنعنى من ذلك إلا ما تعلمه من كبر سنى واشتغالى بالخدمة وصرف عنايتى إلى ما هو أهم عندى منه .

قال أبو الوليد « فكان هذا الذى حملنى على تلخيص ما لخصته من كتب الحكميم أرسطوطاليس » قال محي الدين من عنده « وقد رأيت أنا لأبى الوليد هذا تلخيص كتب الحكميم فى جزء واحد فى نحو مائة وخمسين ورقة ترجمه بكتاب الجوامع لخص فيه كتاب الحكميم المعروف بسمع الكيان وكتاب السماء والعالم ورسالة الكون والفساد وكتاب الآثار العلوية وكتاب الحس والمحسوس ثم لخصها بعد ذلك وشرح أغراضها فى

كتاب مبسوط في أربعة أجزاء وبالجملة لم يكن في بني عبد المؤمن فيمن تقدم منهم وتأخر ملك بالحقيقة غير أبي يعقوب هذا !!

هذا مجمل أخبار اتصال ابن رشد بالخليفة يوسف بن عبد المؤمن والد الخليفة يعقوب المنصور الذي نكب الفيلسوف قد أوردناه لكامل البحث والاستقصاء .

الأمير يعقوب المنصور وابن رشد

وقد اتجه نظرنا منذ قرأنا كتب ابن رشد وعزمنا على ترجمته وتلخيص فلسفته إلى المحنة التي أصابته وأسبابها وتأثيرها في التاريخ الاسلامي وفي تاريخ الفلسفة وعزمنا على تحقيقها وتحليلها والتدقيق في معرفة أصولها لنصل إلى حقيقة يحسن الوقوف لديها والسكوت عليها .

ولما كان الذي أوقع المحنة بابن رشد هو المنصور بالله يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الرابع من خلفاء الموحدين أخذنا نبحت في تاريخه لنعلم هل كانت النكبة فعلاً فردياً أملاه على الأمير ظلمه وحقه وجهله أم كانت فعلاً قومياً يدل على حالة الأمة في أخلاقها وميولها ، وهل كان الأمير سليم العقل والارادة مسؤولاً عن أفعاله مسؤولية تامة أمام التاريخ والأجيال اللاحقة أم كان معتلاً مختلاً لا يسأل عما يفعل ذهبت بعقله سلطة الفرد ونزق الاستبداد وسوء الوراثة وملأه القصور التي ينغمس فيها أمثاله

فان الظاهر دل على أن نكبة ابن رشد كانت عملاً عاماً دعت اليه ضرورة سياسية أو دينية أو اجتماعية فأقيمت عليه الدعوى الجنائية وحوكم محاكمة استبدادية وصدرت في حقه عقوبة النفي والتنكيل ولم يكن لدينا مصدر لفحص هذه المسألة إلا كتب التاريخ لأن عرب الأندلس لم يتركوا متاحف ولا سجلات ولا ملحقات ولا قيوداً يلجأ إليها السلف كما هي الحال في بعض الممالك الأوروبية على أننا لا نلومهم على ذلك فلو تركوا شيئاً مما ذكر لما أبقى عليه ملوك اسبانيا الذين خلفوهم فقد أحرقوا كل ما وصلت اليه أيديهم من آثار العرب الأدبية وبددوا تحت تأثير التعصب الوطني والديني ثروة كانت

تستفيد منها الانسانية أعظم فائدة ، لأجل هذا كانت مصادرنا في هذا المبحث محصورة في كتب التاريخ العربية والافرنجية .

تاريخ الأمير الذى نكب ابن رشد

هو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الخليفة الرابع من دولة الموحدين التي أسسها بسوس محمد بن تومرت المسمى بالمهدى في صدر القرن السادس سنة ٥١٥ هجرية خلف يعقوب أباه يوسف في سنة ٥٨٠ وكانت سنة يوم صار اليه الأمر اثنتين وثلاثين سنة وكانت مدة ولايته ست عشرة سنة وثمانية أشهر وتوفي في سنة ٥٩٥ وله من العمر ثمان واربعون سنة وقد خطه الشيب وكانت أمه رومية اسمها ساحر (كارمن) فبرى من ذلك أنه من نسل مختلط وانه الحفيد الرابع لرجل عصامي من مؤسسى الدول الشرقية في الغرب ويتبع هذا التسلسل تطور في الفرائز والأخلاق يشاهد في الاحفاد .

وكان عهده حافلاً بالحروب والغزوات والفتن ففي سنة ٥٨٠ وهى أولى أيام ولايته خرج الميرقيون بنوا ابن غانية يقودهم على بن غانية من جزيرة مبرقة قاصدين مدينة بجاية فملكوها وأخرجوا من بها من الموحدين فخرج اليهم يعقوب وهزمهم في حسامة دقيوس . وفي عودته انتقضت عليه مدينة قفصة فحاصرها ودخلها عنوة وقتل أهلها قتلاً ذريعاً .

وفي سنة ٥٨٥ هجم بطرس بن رودريج (بطروبن الريق) على مدينة شلب من الأندلس فملكها فتجهز يعقوب في جيوش ونزل على شلب وأخرج منها بطرس وأخذ من حصون الافرنج حصناً وفي سنة ٥٩٠ انتقض ما بينه وبين الفونس فخرجت خيل الفونس تدوس الحدود والتقى الجيشان في سنة ٥٩١ في «فحص الجديد» وهو مكان بين أشبيلية وطليطلة فهزم الفونس وجنوده وفي السنة التالية هجم على طليطلة وتوغل في أرض الاسبان فطلب الفونس منه هدنة فهادنه عشر سنين

ننته فى غزو مصر

وكان ينوى غزو مصر ويذكرها وما فيها من المناكر والبدع ويقول «نحن انشاء الله مطهروها» ولم يزل هذا عزمه الى أن مات وكانت بينه وبين الفونس تلك الهدنة .

قتل أخيه وعمه

وكان له من اخوته وعمومته منافسون لا يرونه أهلاً للإمارة فلقى منهم شدة . ولما استوثق أمره عبر البحر بعساكره وسار حتى نزل مدينة سلا وبها تمت بيعته واستجاب له من كان تلكاً عليه من أعمامه ومن ولد عبد المؤمن بعد ما ملأ أيديهم أموالاً وأقطعهم الأقطاع الواسعة ثم تركهما فطمع فى الأمر أخوه أبو حفص عمر وعمه سليمان بن عبد المؤمن فأمر بالقبض عليهما وتقيدهما وحملهما بعد التقييد الى مدينة سلا ووكل بهما من يقوم عليهما وأثقلهما بالحديد وسار حتى بلغ مراکش فكتب إلى القيم عليهما بقتلهما وتكفينهما والصلاة عليهما ودقهما فقتلهما صبراً ودقهما وكتب يعلمه بذلك وقال له « بنيت قبريهما بالكندان والرخام » وجعل يذكر حسنهما فكتب اليه « ما لنا ولدن الجبابرة إنما هما رجلان من المسلمين فادقهما كيف يدفن عامة المسلمين » وقد استدعت تلك الحروب والفتن تغيبه عن مقر ملكه أمداً وأصيب أثناءه بمرض شديد . ففى غيبته ومرضه طمح أخ له ثان اسمه أبو يحيى فى الخلافة فقبض عليه وحاكمه وقتله بمحضر من الناس وأمر باخراج بقية الأمراء حفاة عراة الرؤوس

أخلاقه

كان شديد الذكاء وكثير الإصابة بالظن لا يكاد يظن شيئاً إلا وقع كما ظن مجرباً للأمور عارفاً بأصول الشر والخير وفروعهما ولى الوزارة أيام أبيه فبحث عن الأمور بحثاً شافياً وطالع أحوال العمال والولاة والقضاة وسائر من ترجع اليه الأمور مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور فدبرها بحسب ذلك فجرت أموره على قريب من الاستقامة والسداد حسب ما يقتضيه الزمان والأقليم .

سوء شبابه

روى المؤرخون أن أقاربه كانوا متهاونين بأمره محتقرين له لأشياء كانت تظهر منه في صباه توجب ذلك فبعد أن قتل أخاه وعمه ونكل ببقية الأمراء هابوه وأشربت قلوبهم خوفه

حبه العدل بين الناس

وكان في جميع أيامه وسيره مؤثراً للعدل متحرراً له بحسب طاقته وما يقتضيه اقليله والأمة التي هو فيها وأراد في أول أمره الجرى على سنن الخلفاء الأول . وكان يقعد للناس عامة ولا يحجب عن أحد من صغير ولا كبير حتى اختصم اليه رجلان في نصف درهم ففضى بينهما وأمر الوزير أبا يحيى صاحب الشرطة ان يضربهما ضرباً خفيفاً تأديباً لهما وقال لهما اما كان في البلد حكام قد نصبوا لمثل هذا ، ثم صار يقعد في أيام مخصوصة لمسائل مخصوصة لا ينفذها غيره كأنه محكمة عليا .

ولما ولي أبا القاسم بن بقى القضاء ، كان فيما اشترط عليه أن يكون قعوده بحيث يسمع حكمه في جميع القضايا . فكان يقعد في موضع بينه وبين أمير المؤمنين ستر من ألواح . وكان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضرة في كل شهر مرتين يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم . وكان إذا وفد عليه أهل بلد فأول ما يسألهم عن عمالهم وقضاتهم وولاتهم ، فاذا أثنوا خيراً قال اعلموا انكم مسؤولون عن هذه الشهادة يوم القيامة فلا يقولن أحد منكم إلا حقاً !

حبه الخير

وبنى بمدينة مراکش مستشفى يظن المؤرخون أن ليس في الدنيا مثله ، وتخيره له ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد وأجرى له ثلاثين ديناراً في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجاً عما جلب اليه من الأدوية ، وأقام فيه الصيدالة لتجهيز أنواع الدواء وأعد للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء ، فاذا تقه

المريض الفقير أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يشتغل ، ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء ولم يقصره على أهل البلد ، بل كل من مرض من الغرباء يحمل اليه ويعالج إلى أن يشفى أو يموت . وكان يزوره في كل جمعة ويعود المرضى ويسألهم بقول « كيف حالكم وكيف القومة عليكم » وبمناسبة الغرباء نذكر أن جمهورية جنيف في وقتنا هذا تتقاضى من الغرباء ضريبة باسم المستشفى الخيري . ولكنها جعلت العلاج فيه قاصراً على أهل البلاد دون الغرباء !

حبه الصدقة المنظمة

وكان كثير الصدقة تصدق مرة بأربعين ألف دينار خرج منها للعامة نحو من نصفها والباقي في القراية . وقد قسموا مدينة مراكش أربعاً وجمعوا في كل ربع أمناء معهم أموال يتحررون بها المساكين وأرباب البيوتات . وكان كلما دخلت السنة يأمر أن يكتب له الأيتام المنقطعون فيجمعون إلى موضع قريب من قصره فيختنون ويأمر لكل صبي منهم بمئقال وثوب ورغيف ورهانة .

عدم تصديقه الخرافات

سمع النساء يوماً يمجدن ذكر سلفه ابن تومرت المتسمى بالمهدى ويقولن ما معناه بلسانهن « صدق مولانا المهدى نشهد أنه الامام حقاً » فابتسم استخفافاً بقولهن لأنه لا يرى شيئاً من هذا كله . وكان لا يرى رأيهم في ابن تومرت . وروى أبو العباس احمد ابن ابراهيم بن مطرف المربى انه قال له « يا أبا العباس اشهدلى بين يد الله عز وجل انى لا أقول بالعصمة (يعنى عصمة ابن تومرت) » وقال له يوماً وقد استأذنه في فعل شئ ، يقتصر الى وجود الإمام « يا أبا العباس أين الإمام !! »

بفضه التمليق

روى أبو بكر بن هانى قال « لما رجع أمير المؤمنين من غزوة الأرك وهى التى أوقع فيها بالافونس وأصحابه خرجنا نلتقاه فقدمنى أهل البلد لتكليمه ، فرفعت اليه فسألنى

عن أحوال البلد وأحوال قضاته وولاته وعماله على ما جرت عادته فلما فرغت من جوابه سألتني كيف حالى فى نفسى فتشكرت له ودعوت بطول بقائه ثم قال لى ما قرأت من العلم ؟ قلت قرأت تواليف الامام أعنى ابن تومرت فنظر الى نظرة الغضب وقال « ما هكذا يقول الطالب ! انما حكمك أن تقول قرأت كتاب الله وقرأت شيئاً من السنة ثم بعد هذا أتلى ما شئت »

حبه العمارة

شرع فى بنىان مدينة عظمى على ساحل البحر والنهر من العدوۃ التى تلى مرا كاش وقد أتم سورها وبنى فيها مسجداً عظيماً كبير المساحة ، وعمل له مأذنة فى نهاية العلو على حياة منار الاسكندرية ، وقد تمت المدينة فى حياته وكملت أسوارها وأبوابها وعمر كثيراً منها وهى تجبى فى طولها نحواً من فرسخ وهى قليلة العرض ولم يزل العمل فيها وفى مجدها طول مدة ولايته الى سنة ٥٩٤

حبه الطلبة

نال عنده طلبة العلم ما لم ينالوا فى أيام أبيه وجده ، وانتهى أمره معهم الى ان قال يوماً بمحضرة كافة الموحدين بسمعهم وقد بلغه حسدهم للطلبة على موضعهم منه وتقريبه إياهم وخلوته بهم دونهم « يا معشر الموحدين أنتم قبائل فمن نابه منكم أمر فزع الى قبيله وهؤلاء الطلبة لا قبيل لهم إلا أنا فهمنا نابهم أمر فأنا ملجأهم والى فزعهم والى ينتسبون » فعظم من ذلك اليوم أمرهم وبالغ الموحدون فى برهم واکرامهم .

اضطهاده اليهود بعد اسلامهم

وفى آخر أيام أبى يوسف أمر أن يتميز من أسلم من اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم ، ولم يزالوا كذلك بقية أيامه ومقداراً من أيام ابنه عبد الله . وانما حمل أبى يوسف على ذلك شكه فى اسلامهم ، وكان يقول « لو صح عندى اسلامهم

لتركهم يختلطون بالخلق في انكحتهم وسائر أمورهم . ولو صح عندى كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم نسيئاً للمسلمين . ولكنى متردد فى أمرهم ولم تنعقد عندنا ذمة ليهودى ولا نصرانى منذ قام أمر المصادمة ، ولا فى جميع بلاد المسلمين بالمغرب يبعة ولا كنيسة . انما اليهود عندنا يظهرون الاسلام ويصلون فى المساجد ويقرؤن أولادهم القرآن جارين على ملتنا وسنتنا . والله أعلم بما تكنه صدورهم ونحوه بيوتهم » .

ميله الى التصوف

وبعد قتل أخيه وعمه فى السنة السادسة بعد الثلاثين من عمره أظهر زهداً وتقشفاً وخشونة ملابس ومأكل وانتشر فى أيامه للصالحين والمتبتلين صيت وقامت لهم سوق وعظمت مكانتهم ، ولم يزل يستدعى الصالحين من البلاد يكتب اليهم يسألهم الدعاء ويصل من يقبل صلته بالصلوات الجزيلة . ولما خرج الى الغزوة الثانية (٥٩٢) كتب قبل خروجه الى جميع البلاد للبحث عن الصالحين والمنتهمين الى الخير وحملهم اليه ، فاجتمعت له منهم جماعة كبيرة كان يجعلهم كلما سار بين يديه فاذا نظر اليهم قال لمن عنده « هؤلاء الجند ، لا هؤلاء ! » ويشير الى العسكر ، ولما رجع أمر لهؤلاء القوم بأموال عظيمة .

محاربته مذهب مالك

أمر باحراق كتب مذهب مالك ، وشهد بعض المؤرخين بمدينة فاس أنه كان يؤتى من كتب المذهب بالاحمال فتوضع ويطلق فيها النار . وكان قصد الأمير فى الجملة محو مذهب مالك وازالته من المغرب مرة واحدة ، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده الا أنهما لم يظهراه وأظهره يعقوب وتقدم إلى الناس فى ترك الاشتغال بعلم الرأى والخوض فى شئ منه ، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة

مدينة قرطبة

التي نشأ فيها ابن رشد

قرطبة عاصمة مقاطعة تعرف باسمها بمملكة الأندلس باسبانيا واقعة في جنوب سطح جبل سيارامورينا وعلى الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير وتبعد ٧٥ ميلاً عن أشبيلية ، أسسها الرومان وجعلها العرب باسوار وقلاع وقصور وشادوا بها المساجد والمعاقل والجسور واكبرها من الجنوب جسر عظيم جمع بين جلال البناء الرومانى واتقان الهندسة العربية وجمال الدقة الأندلسية ، جعلوه على ستة عشر عقداً ، وهو الذى يطلق عليه اسم « قنطرة الوادى » وكان بها لأمرء الأندلس قصر فخم يقصر البيان عن وصفه لا يقل فى الحسن عن الحمراء . وأسس عبد الرحمن الأول جامعها الأعظم فى مكان هيكى رومانى . والمسجد لا يدل ظاهره على جماله الداخلى الذى ينطق بالمثل الأعلى لفن العمارة العربى فى أوروبا .

كانت قرطبة منذ نشأتها عزيزة الجانب فقد استوطنها أشراف الرومان واطلقوا عليها اسم « قرطبة الشريفة » لكثرة من أظلت من العظماء . ويظن المؤرخون انها قرطاجنية الاسم والتكوين ، وجاء عليها حين كانت أعظم مدن اسبانيا شأناً وأوفرها سكاناً وأوسعها رزقاً وأقواها حصوناً وأعرضها جاهاً . وروى أن قيصر حاصرها وقاسى فى سبيل اخضاعها أهوالاً فلما وقعت له بعد موقعة « اوندا » اعمل السيف فى رقاب ٢٠٠٠٠ من رجالها

ولما دخل العرب أرض اندلس الحقوها بخلافة دمشق ثم لم تلبث ان صارت عاصمة ملكهم . ويقول المؤرخون انها فى أيام مجدها كان بها ٢٠٠٠٠٠ منزلاً ، و ٦٠٠ مسجداً ، و ٩٠٠ حماماً ، ومكاتب عامة كثيرة ، ويتبعها ثمان مدن و ٣٠٠ بلد و ١٢٠٠٠ ضاحية

وقد أنجبت قرطبة في كل أجيالها رجالاً أعظماء ففي عهد الرومان ولد فيها لوكان وسنيكا وفي عهد العرب ابن رشد وأساتذته وتلاميذه وابن حزم عدا عدداً من القواد والمصورين والكتاب والصالحين . ومما يدعو الى أسف أهل الفنون والمؤرخين أن الأسباب بعد زوال دولة العرب جعلوا قصر الخليفة سجنًا وقلبوا المسجد كنيسة

وقد عاب شارل الخامس رجال الدين وانهم في رسالة مشهورة منها « لقد بنيتم في مكان المسجد ما كنتم تستطيعون تعميده في أية بقعة أخرى ، ولكنكم أنتم شيئاً فذا لم يكن له في العالم مثيل » ان الكاتدرائية جميلة حقاً ولكن أين المسجد يسند ساحاته العظمى ١٢٠٠٠ عموداً ، بل أين التسعة عشر باباً المصنوعة من البرنز ، بأيدي صناع حذقوا تشكيل المعادن والتصوير فيها وهم من أهل دمشق نزحوا الى الأندلس فيمن نزح اليها من مهرة المشاركة !

وأين الخمسة آلاف مصباح تضاء بزيت عطرية فتملأ الفضاء نوراً وعبقاً . أما المحراب المسبب فقد كان مسقفاً بدائرة من المرمر الأبيض مزينة بالذهب والزجاج الملون ومرصعة بالحجارة الكريمة ومنمقة بقبشاني بيزنطة فكانت تلك الدائرة المرمرية لصفائها وحسن زينتها أشبه بقبة من الأولو

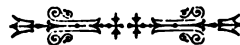
ويظهر أن قرطبة لم تشهد عهداً أسعد من عهد عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) فقد كانت عاصمة ملكه في أعلى درجات النجاح المادى والتقدم المعنوى . وكان للمال والزراعة والتجارة من الشأن ما كان للفنون والعلوم والفلسفة . وعدد سكان قرطبة لعهده كمدد سكان القاهرة لهدنا هذا وبها إذ ذاك ٣٠٠٠ مسجداً و ١١٣٠٠٠ بيتاً و ٣٠٠ حماماً و ٢٨ ضاحية . فلم يكن في العالم الاسلامى مدينة تضارعها أو تفوق عليها غير عاصمة الرشيد والمأمون فكانت بغداد في الشرق وقرطبة في الغرب مثل باريس ولندن في عصرنا هذا .

أما قوة الخليفة فكانت تعادل قوة الملوك العظام لهدنا فكان له أسطول عظيم ضمن له السيادة في بحر الروم فجعله بحيرة أندلسية وسهل له الاستيلاء على سيوتا وهى إذ ذاك

تعادل جبل طارق أو بورت سعيد . وكان له جيش عرمرم منظم عدّه المؤرخون أئخر جيوش العالم وأجملها وهو الذى سوده على أهل الشمال من الاسبان . وكان أعظم ملوك الأرض يخطبون مودته ويرجون معاهدته فورد على بلاطه سفراء الدول من امبراطور القسطنطينية وملوك ألمانيا وإيطاليا وفرنسا

ومما يذكر للخليفة بالفضل ان مجلسه كان مؤلفاً من أئمة المسلمين ورؤساء الأديان الاخرى بغير تمييز . وكانت بقرطبة مدرسة جامعة من أشهر جامعات الدنيا مقرها بالمسجد الأعظم الذى سبق ذكره حيث كان فطاحل العالم الاسلامى شرقاً وغرباً يلقون الدروس على الطلاب الواردين الى حلقاتهم من كل فج فكان أبو بكر بن معاوية القرشى يحدث وأبو على القالى البغدادى يملئ أماليه الشهيرة وهى كنز شعر وتاريخ وأمثال وفقه لغة وأدب وكان ابن القطيعة أشهر نحاة الأندلس يلقي الطلاب قواعد النحو والصرف وهكذا كان لكل علم وفن استاذ من الأئمة الممتازين فيه لا يقلون قدراً عن ذكرنا على سبيل التمثيل والتدليل

وعد طلاب العلم بالجامع الأعظم بقرطبة بالآلوف وأساتذتهم بالئات ومعظمهم يقصدون تحصيل الفقه وبعضهم يدرسون الحكمة فالمسجد الأعظم كان منذ الف سنة مثل الجامع الأزهر شهرة ومكانة ويفضله فى أمرين الأول جماله الذى أبرزه أهل الفنون والثانى تخرج الفلاسفة أمثال ابن رشد والأزهر لم يخرج لنا منذ تأسيسه الى الآن احداً يدانى هذا الحكيم أو يقرب منه فى الفضل وسعة العلم وجليب المنفعة للدين والدنيا معاً .



نكبة ابن رشد

كلمة عامة

كان ابن رشد ممتازاً بالحكمة والعلم وشرف المنبت وازداد مجدداً بتقربه من الخليفة يوسف أبي يعقوب الذي عرف قدره وفضله على غيره من قرنائه وفضلاء عصره وعلى ولده المنصور يعقوب

وكل رجل ممتاز لا يأمن حسد معاصريه ومعاشره ولا ينجو من غيظهم وانتقامهم مهما كان نافعاً، وطيب القلب حسن النية بعيداً عن الأذى وربما كانت خصاله الطيبة سبباً في اشتداد البغضاء ومرارة الحقد. وأظن هذه الحال في الشرق أظهر منها في الغرب وقد تكون في المسلمين أقوى منها في غيرهم.

ويظهر ان أعداء ابن رشد حاولوا النكاية به المرة بعد المرة ففشلوا في أول الأمر لأن الخليفة المنصور كان في بداية عهده محباً للفلسفة مجاهراً بذلك. فكادت سوق السعايات ولكن الأعداء (لا كانوا) لا يسأمون من الانتظار ويرقبون أوقات المضرة فلما تحولت، نفس المنصور عن الحكمة والحكماء بسبب ما لحقه من التطور العقلي الذي حجب اليه التصوف والالتجاء الى الأولياء والزهاد، كان ابن رشد قد علا نجمه في أفق المجد بما ظهر من فضله في التأليف في الفلسفة وسعة علمه ودقة عمله في الطب وعلو كعبه في الشريعة والقضاء وتلك مواهب ثلاث لم تجتمع لرجل واحد في وقت من الأوقات

وكان ابن رشد اذ ذاك في السبعين من عمره فتحركت أحقاد أعدائه وقد رأوا الفرصة سانحة بانصراف المنصور الى مشايخ الطرق الصوفية فتسلح هؤلاء الأعداء وأنصارهم من حاشية الأمير (كعادتهم وعادة من مضى قبلهم ومن أتى وسيأتي بعدهم من أعداء حرية العقل الانساني) بسلاح المدافعة عن شريعة الاسلام، وكان المنصور مقيماً بمدينة قرطبة وقد امتد بها أمد الإقامة وانبسط الناس لمجالس المذاكرة فتجددت للأعداء آمالهم وقوى تألبهم واسترسالهم فأدلو بحفيظتهم وأوضحوا للأمير ما شاءوا من

« سيئات » أبي الوليد بن رشد في مؤلفاته فتمرت في مجلس الأمير وتدولت أغراضها ومعانيها وقواعدها وتمكن الأعداء والحساد من تخريبها بما دلت عليه أسوأ مخرج . وقد ذيلوها بمكرهم وسوء طويتهم حتى هاجوا غضب الأمير وأيقظوا قوة الشر الكامنة في نفسه بحجة المدافعة عن شريعة الاسلام ويظهران وقبعتهم بآبن رشد كانت علانية في مجلس الأمير فان أحد المؤرخين يقول « فلم يمكن عند اجتماع الملأ الا المدافعة عن شريعة الاسلام »

ويظهر أيضاً ان أعداء ابن رشد طلبوا الى الخليفة اهراق دمه لتنجو شريعة الاسلام من شر ابن رشد وتعلو بخير هؤلاء المدافعين عن كيائها الخائذين عن حياضها ! ولكن الخليفة استعمل الرأفة « وآثر فضيلة الابقاء وأغمد السيف التماس جميل الجزاء » .

أعداء ابن رشد

ومن أعداء ابن رشد الذين جاهدوه بالمنافرة والمجاهرة القاضي أبو عامر يحيى ابن أبي الحسين بن ربيع وقد نافره لغير علة ظاهرة . وعلى ذلك النفور كان أبناء القاضي أبو القاسم وأبو الحسين والقاضي أبو عبد الله والخطيب أبو علي بن حجاج وغيرهم فلما أخذ أعداء ابن رشد للحملة عليه عدتهم آثروا أن يحشروا معه فريقاً من أصدقائه ومريديه وتلاميذه لتكون محنة الحكمة شاملة ونكبة الحكماء عامة . وأشاروا على المنصور أن يصبغ غضبه بصبغة الدفاع عن الملة لتكون النكاية بالحكماء أشد واللوم على الوقية بهم أخف . فأمر المنصور طلبة مجلسه وفقهاء دولته بالحضور بجامع المسلمين وتعريف الملأ بأن ابن رشد ومن معه مرقوا من الدين وانهم استوجبوا اللعنة جهاراً .

شركاء ابن رشد

أما أصدقاء ابن رشد الذين أضيفوا إليه فهم الفقيه أبو عبد الله بن ابراهيم الأصولي فقد لف معه في حريق الملام ، لأشياء نُقمت عليه في مجالس المذاكرة وفي أثناء كلامه مع توالى السنين والأيام ، وأبو جعفر الذهبي الفقيه وأبو الزابع الكفيف وأبو العباس الحافظ الشاعر القراي .

أسباب النكبة

تضارب المؤرخون في ذكر النكبة التي أصابت الحكمة في شخص ابن رشد ومدرسته ومعظم المؤرخين يرغبون في ردها إلى أسباب مادية محسوسة أغضبت الخليفة ولكن واحداً أو اثنين منهم يحومان حول السبب الحقيقي ويلمحون إليه فقال أحدهما : « وكان لها سببان : جلى ، وخفى . فأما سببها الخفى وهو اكبر السببين فان الحكيم أبا الوليد رحمه الله أخذ في شرح كتاب الحيوان لارسطاطاليس صاحب كتاب المنطق فهدبه وبسط أغراضه وزاد فيه ما رآه لائقاً به . فقال في هذا الكتاب عند ذكره الزرافة وكيف تتولد وبأى أرض تنشأ » وقد رأيتها عند ملك البربر « جاريًا في ذلك على طريقة العلماء في الأخبار عن ملوك الأمم وأسماء الأقاليم غير ملتفت الى ما يتعاطاه خدمة الملوك ومتحولوا الكتاب من الاطراء والتقريظ وما جانس هذه الطرق فكان هذا مما أحقنهم عليه غير أنهم لم يظهروا ذلك ، وفي الجملة فانها كانت من أبى الوليد غفلة » .

وقال مؤرخ آخر « ان قومًا من مناوئيه من أهل قرطبة ، ويدعون معه الكفاءة في البيت وشرف السلف سعوا به عند أبى يوسف ووجدوا إلى ذلك طريقًا بأن أخذوا بعض التلاخيص التي كان يكتبها فوجدوا فيها بخطه حاكياً عن بعض قدماء الفلاسفة بعد كلام تقدم « فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة » فأوقفوا أبا يوسف على هذه الكلمة فاستدعاه بعد أن جمع له الرؤساء والأعيان من كل طبقة وهم بمدينة قرطبة . فلما حضر أبو الوليد رحمه الله قال له بعد أن نبذ إليه بالأوراق أخطأك هذا ؟ فأنكر . فقال أمير المؤمنين « لعن الله كاتب هذا الخط » وأمر الحاضرين بلعنه ، ثم أمر باخراجه على حال سيئة وابعاده وابعاد من يتكلم في شيء من هذه العلوم وكتبت عنه الكتب الى البلاد بالتقدم الى الناس في ترك هذه العلوم جملة واحدة وباحراق كتب الفلسفة كلها إلا ما كان من الطب والحساب وما يتوصل به من علم النجوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار وأخذ سمت القبلة فانتشرت هذه الكتب في سائر البلاد وعمل بمقتضاها

ثم لما رجع الأمير إلى مراکش نزع عن ذلك كله وجنح إلى تعلم الفلسفة وأرسل يستدعى أبا الوليد من الأندلس إلى مراکش للاحسان إليه والعفو عنه . فحضر ابن رشد إلى مراکش ففرض بها مرضه الذي مات منه في آخر سنة ٥٩٤ وقد ناهز السبعين ، ثم توفي أمير المؤمنين في غرة صفر الكائن في سنة ٥٩٥ .

وقال آخر « ومن أسباب نكته اختصاصه بابي يحيى المنصور وإلى قرطبة . وحدث الشيخ أبو المحسن الرعيني عن شيخه أبي محمد عبد الكبير أن هذا الأخير اتصل بابن رشد المتفلسف أيام قضاؤه بقرطبة وحظي عنده فاستكتبه ابن رشد واستنقضاه فقال أن هذا الذي ينسب إليه ما كان يظهر عليه ولقد كنت أراه يخرج إلى الصلاة وأثر ماء الوضوء على قدميه وما كدت آخذ عليه فلتة إلا واحدة وهي عظمى الفلتات وذلك حين شاع في المشرق والأندلس على السنة المنجمة أن ريجاً عاتية تهب في يوم كذا وكذا في تلك السنة تهلك الناس واستفاز ذلك حتى اشتد جزع الناس منه واتخذوا الاتفاق تحت الأرض توقياً لهذه الريح

ولما انتشر الحديث بها وطبق البلاد استدعى وإلى قرطبة إذ ذاك طلبتها وفأوضحهم في ذلك وفيهم ابن رشد وهو القاضي بقرطبة يومئذ وابن بندود فلما انصرفوا من عند الوالي تكلم ابن رشد وابن بندود في شأن هذه الريح من جهة الطبيعة وتأثيرات انكواب قال أبو محمد عبد الكبير وكنت حاضراً فقلت في أثناء المفاوضة ان صح أمر هذه الريح فهي ثانية الريح التي أهلك الله تعالى بها قوم عاد إذ لم تعلم ريح بعدها يعم أهلاكها قال فأنبرى إلى ابن رشد ولم يتمالك ان قال والله وجود قوم عاد ما كان حقاً ! فكيف سبب هلاكهم ؟ فسقط في أيدي الحاضرين واكبروا هذه الزلة التي لا تصدر إلا عن صريح الكفر والتكذيب لما جاءت به آيات القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه »

العقاب والعفو

مجلس المحاکمة

احضر ابن رشد وأصحابه الى المسجد الجامع الأعظم بقرطبة وقد عقد الخليفة مجلسه ونهض القاضى ابو عبد الله بن مروان والتقى خطبة هى أشبه الكلام بمرافعة المدعى العام ، وقد يكون الغرض من ندب هذا القاضى فى تلك الفرصة رفع الدعوى على ابن رشد .

مرافعة القاضى ابى عبد الله

قال : ان الأشياء لا بد فى كثير منها أن تكون لها جهة نافعة وجهة ضارة كالنار وغيرها فمتى غلب النافع على الضار عمل بحسبه ومتى كان الأمر بالضد فبالضد

التهمة

ثم قام الخطيب أبو على بن حجاج وعرف الناس بما أمر به من أنهم (أى ابن رشد وصحبه) قد مرقوا من الدين وخالفوا عقائد المؤمنين باشتغالهم بالفلسفة وعلوم الأوائل فنالهم ما شاء الله من الجفاء ، وتفرقوا على حكم من يعلم السر وأخفى .

الحكم

أمر أبو الوليد بسكنى اليسانة بقول من قال انه ينسب فى بنى اسرائيل وانه لا يعرف له نسب فى قبائل الأندلس .

فى أن ابن رشد لم يدافع

ولم يذكر المؤرخون ان ابن رشد أو أحد أصحابه طلب أن يتكلم عن نفسه أو طلب اليه الخليفة ذلك وفى هذا شناعة لأنه حرم حق الدفاع . وإذ ذكرنا دفاع فيلسوف عن حرية فكره يخطر ببالنا دفاع سقراط لدى قضاة بائنا قبل محاكمة ابن رشد بستة عشر قرناً فنتملكنا عاطفتان الأولى عاطفة حق على أعداء العقل الذين لم ينفكوا

ينحاربون حرية الفكر من أبعد العصور وأقدم الأجيال . والثانية عاطفة إعجاب بهؤلاء العرب المتحضرين الذين كانوا أعدل وأرحم من اليونان في القرن الرابع قبل المسيح على ما بين الأمتين من الفروق في المدنية والتنور . فأن قضاة ابن رشد اكتفوا بإبعاده مؤقتاً . أما قضاة سقراط العظيم فلم يشفقوا على شيخوخته ولم يخشعوا أمام جلال حكمته وجمال خلقه وأسلموه للجلاد فسقاه كأس الردى على مرأى ومسمع من أهله وأحبابه ومريديه وتلاميذه ، بل كان عرب الأندلس أشفق وأعدل من معذبي « جاليليه » في القرن السابع عشر بعد السيد المسيح ، وأرحم بكثير من أهل جنيف وعلى رأسهم « كالشن » إذ أحرقوا في مدينتهم في نصف السادس عشر « ميشل سرفيه » لاكتشافه الدورة الدموية .

ولكن هذا لا يقلل من غضبنا على الذين حاكموا ابن رشد فان الاضطهاد مرذول في كل زمان ومكان وأنصاره محنقرون وملعونون بكل لسان ما داموا يتسلحون بالدفاع عن الدين في محاربة العقل ، فأن ذلك حق يراد به باطل لأن الدين لم يأمر بالتعذيب والقتل والنفي في سبيل نصرته . ولكن الجهال وأهل الضلال والفتن هم الذين يشفون غليلهم ويثلجون صدورهم المتقدة بنار الغيظ والحسد باسم الدين والملة والشرعية وهى منهم بريئة .

تسخير الشعر في محاربة الفلسفة

عوقب ابن رشد وأصحابه بالنفي بعد التعذير والتعنيف ، ثم كتبوا في حقهم منشوراً شديداً للولايات وراء البحر ، ثم سخروا الشعر في محاربة الفلسفة ، فقام الحاج أبو حسين ابن جبير وقد حفظ لنا التاريخ اسمه ونظمه في تلك القضية ، وللتاريخ عجائب وخوارق وهذه من غرائبه فانه لم يحفظ أسماء كثيرين من أهل الفضل والفن في مواضع كانوا بها أحق وأجدر بخلود الذكر

قال الحاج :

الآن قد أيقن ابن رشد ان تواليفه توالف
يا ظالماً نفسه تأمل هل تجد اليوم من توالف

لم تلزم الرشد يا ابن رشد لما علا في الزمان جدك
وكنت في الدين ذا رياء ما هكذا كان فيه جدك

كان ابن رشد في مدى غيه قد وضع الدين بأوضاعه
فالحمد لله على أخذه وأخذ من كان من أتباعه

نفذ القضاء بأخذ كل مضلل متفلسف في دينه متزندق
بالمنطق اشتغلوا فقل حقيقة ان البلاء موكل بالمنطق

وقال يمدح المنصور ويذكر أدوار القضية :

بلغت أمير المؤمنين مدى المنا لأنك قد بلغت ما نؤمل
قصدت الى الاسلام تعالى مناره ومقصودك الأسنى لدى الله يقبل
تداركت دين الله في أخذ فرقة بمنطقهم كان البلاء الموكل
اقتهمو للناس يبرأ منهم ووجه الهوى من خزيهم يتهلل
وأوعزت في الأقطار بالبحث عنهم وعن كتبهم والسعي في ذاك أجمل
وقد كان للسيف اشتياق اليهم ولكن مقام الخزي للنفس أقتل
وآثرت درء الحد عنهم بشبهة لظاهر اسلام وحكمك أعدل

وهذا ما أردنا الاستشهاد به من شعر ابن جبير في الموضوع وله غير ذلك ضربنا

عنه صفحا .

كلمة عن ابن جبير

أبو الحسن محمد بن محمد بن جبير الاندلسى البلنسى كان من أهل المنزلة العالية في الغرب بالعلم والأدب والشعر . رحل في أواخر القرن السادس للهجرة ثلاث رحلات وزار مصر والشام والحجاز والعراق وصقلية وأقام في الاسكندرية يحدث الى أن توفي في أواخر القرن السادس وطبعت رحلته في ليدن مرتين وترجمت الى الفرنسية والايطالية وأخباره في الاحاطة باخبار غرناطة ص ١٦٨ ج ٢ .

وكان من أبلغ شعراء الاندلس وانصعهم ديباجة وأصدق شعراء العرب قصداً وأسلمهم قلباً وأقواهم ايماناً وأصحهم عقيدة ويشهد الشعراء الأقدمون والمحدثون بفضله وأصدق دليل على حجة شهادتهم قصيدته التي يصف بها الأماكن المقدسة التي قصدها لأداء فريضة الحج . وكان ابن جبير من معاصري ابن رشد ولا نظن أن الذي دعاه الى هجاء ابن رشد رغبه في تمليق أمير كبير ومجرد الافتخار بمظهر المدافعة عن الدين وانما الذي دعاه الى الوقوع في هذا الخطأ شدة ايمانه وصحة عقيدته ولا يستطيع مؤرخ معتدل أن يلوم ابن جبير على انه لم يفهم فلسفة ابن رشد لأن طريق الشعر والدين غير طريق العلم والحكمة . ولا نملك إلا الأسف على تلك الهفوة من أديب جليل يعد من أئمة الشعر العربي وكبار المؤلفين والسائحين .

أقصى ما أصاب ابن رشد في أثناء نكبته

يظهر أن أقصى ما أصيب به ابن رشد في ابان محنته تألب العامة عليه وعلى ولده وتصديهم الى سبهما والاعتداء عليهما . والعامة في كل زمان ومكان خصم ثالث يدخل بين الملوك ورجال الدين والفلاسفة الذين يتنازعون القوة فيما بينهم والعامة أنفسهم هم الذين يسعى المتنازعون للسيادة عليهم فالملوك ورجال الدين يتطلبون القوة الدنيوية التي لا تقوم إلا على الجمهور والحكام يتطلبون القوة العقلية التي تقوم على تنويرهم

أخبر أبو الحسن بن قطرال عن ابن رشد أنه قال « أعظم ما طرأ على في النكبة اني دخلت أنا وولدى عبد الله مسجداً بقرطبة وقد حانت صلاة العصر فثار لنا بعض سفلة العامة فأخرجونا منه »

المنشور

لم يكتف المنصور أو محرضوه بما لحق ابن رشد وأصحابه من اللوم والتأنيب في مجلس المحاكمة وما تلاهما من عقوبة النفي التي وقعت بغير دفاع فشأت الأحقاد أن يذاع أمر التشهير بابن رشد في سائر البقاع فأمر المنصور كاتبه أبا عبد الله بن عياش أن يكتب منشوراً الى مراکش وغيرها بما حدث لابن رشد في هذه القضية وكاتب المنشور هو كاتب سر الخليفة وكاتب يده واسمه أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش من اهل برشانة (لعلمها برسولونه) من اعمال المرية في بلاد الاندلس ولم يزل هذا الرجل كاتباً للمنصور ولابنه محمد ولابن ابنه يوسف وقد عمر طويلاً وتوفي في شهر سنة ٦١٩ وانفرد أبو عبد الله المذكور بالمهارة وحسن السبك ولم يكتب لخلفاء بني تومرت منذ قام أمرهم من عرف طريقتهم وصب في قلوبهم وجرى على مهيهم وأصاب ما في أنفسهم كأبي عبد الله المذكور لأنه كانت لهم طريقة تخالف طريقة الكتاب . ويظهر انه كان يلبس لكل حال لبوسها ويمجاري كل أمير في ميوله ومقاصده والا ما تمكن من الانفراد بثقتهم وخدمة ثلاثة أو أربعة من خلفائهم فكان عبد الله هذا ك بعض رجال الحاشية في بعض بلاد الشرق يصلحون لكل عهد ويخدمون كل جالس على العرش ويثبتون في مراكزهم مهما تغلبت الحوادث وتحولت الأحوال وتغيرت المبادئ والأطوار فهم هم الخدم المخلصون والصحابة المقربون والله أعلم بما يظهرون وبما يظنون

نص المنشور

« قد كان في سالف الدهر قوم خاضوا في بحور الأوهام ، و اقر لهم عوامهم بشفوف عليهم في الأفهام ، حيث لا داعي يدعو الى الحى القيوم ، ولا حاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم ، فخلدوا في العالم صحفًا ما لها من خلاق ، مسودة المعاني والأوراق ، بعدها من الشريعة بعد المشرقين ، وتباينها تباين الثقلين ، يوهمون أن العقل ميزانها والحق برهانها وهم يتشعبون في القضية الواحدة فرقًا ويسيرون فيها شواكل وطرقا ذلكم بأن الله خلقهم للنار وبعمل أهل النار يعملون ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون ! ونشأ منهم في هذه الحجة البيضاء شياطين أنس يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورًا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ، فكانوا عليها أضمر من أهل الكتاب وأبعد عن الرجعة الى الله والمآب ، لأن الكتابي (؟!) يجتهد في ضلال ويجد في كلال وهؤلاء جهدهم التعطيل وقصاراتهم التويه والتخيل دب عقاربهم في الآفاق برهة من الزمان الى أن أطلعنا الله سبحانه منهم على رجال كان الدهر قد منا لهم على شدة حروبهم وأعفى عنهم سنين على كثرة ذنوبهم وما أملى لهم الا ليزدادوا اثمًا ، وما أهلوا الا ليأخذهم الله الذي لا اله الا هو وسع كل شيء علمًا .

« وما زلنا -وصل الله كرامتكم- نذكرهم على مقدار ظننا فيهم وندعوهم على بصيرة الى ما يقر بهم الى الله سبحانه ويدينهم فلما أراد الله فضيحة عمايتهم وكشف غوايتهم وقف لبعضهم على كتب مسطورة في الضلال موجبة أخذ كتاب صاحبها بالشمال ظاهرها موشح بكتاب الله وباطنها مصرح بالاعراض عن الله لبس منها الايمان بالظلم ، وجيء منها بالحرب الزبون في صورة السلم ، مزلة للاقدام ، وهم يدب في باطن الاسلام أسياف أهل الصليب دونها مغلولة وأيديهم عما يناله هؤلاء مغلولة فانهم يوافقون الأمة

في ظاهرهم وزبيهم ولسانهم ويخالفونهم بباطنهم وغيهم وبهتانهم فلما وقفنا منهم على ما هو قذى في جفن الدين ، ونكتة سوداء في صفحة النور المبين ، نبذناهم في الله نبذ النواة وأقصيناهم حيث يقصى السفهاء من الغواة وأتقضناهم في الله كما اتا نحب المؤمنين في الله وقلنا اللهم ان دينك هو الحق اليقين وعبادك هم الموصوفون بالمتقين وهؤلاء قد صرفوا عن آياتك وعميت أبصارهم وبصائرهم عن بيناتك فباعد أسفارهم وألحق بهم أشياءهم حيث كانوا وأنصارهم ولم يكن بينهم الا قليل وبين الالام بالسيف في مجال ألسنتهم والايقاظ بحده من غفلتهم وسنتهم ولكنهم وقفوا بموقف الخزى والهون ثم طردوا عن رحمة الله ولو رُدوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون

« فاحذروا وفقم الله هذه الشرذمة على الايمان حذرکم من السموم السارية في الأبدان ومن عثر له على كتاب من كتبهم فجزاؤه النار التي بها يعذب أربابه واليهما يكون مآل مؤلفه وقارئه ومآ به ومتى عثر منهم على مجد في غلوئه عِم عن سبيل استقامته واهتدائه فليعاجل فيه بالشتيف والتعريف ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار؟ وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون أولئك الذين حبطت أعمالهم أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون والله تعالى يظهر من دنس الملحدين أصقاعكم ويكتب في صحائف الأبرار تضافركم على الحق واجتماعكم انه منعم كريم ! » اه المنشور

بعد المحاكمة

بعد المحاكمة ، وتحرير المنشور ، وإرساله إلى أطراف الدولة ، ونظم القصاصد في ذم ابن رشد ، والطعن في عقيدته ، قيل أن ابن رشد نفى إلى اليسانه (Lucena) ولكن مدة العقوبة لا تعلم بالدقة

ومعظم المؤرخين على رأى أن المحنة وعقوبتها والعفو عنها لم تطل اكثر من سنة فقد ذكر شيخ الشيوخ تاج الدين « لما دخلت الى البلاد (يعنى الأندلس) سألت عن (١٤)

ابن رشد قليل أنه مهجور في داره من جهة الخليفة يعقوب ولا يدخل عليه أحد ولا يخرج هو إلى أحد » وهذا نوع من الاعتقال السياسي لأن ابن رشد على هذه الرواية لزم بيته واستقر في كسر داره فسأل تاج الدين عن السبب قالوا رفعت عنه أقوال رديئة ونسبت اليه كثرة الاشتغال بالعلوم المهجورة من علوم الأوائل وروى تاج الدين أن ابن رشد مات وهو محبوس بداره برا كش في أواخر سنة ٥٩٤ هـ

ولكن الراجح عندنا أن جماعة من الأعيان باشبيلية شهدوا لابن رشد أنه على غير ما نسب اليه فرضى المنصور عنه وعن سائر الجماعة من أصحابه ومريديه وتلاميذه الذين عوقبوا معه وشفعوا لهم وطلبوا العفو عنهم وكان ذلك في سنة ٥٩٥ هـ فرضى المنصور عنهم وشملهم بعفوه وقرب ابن رشد .

وجعل أبا جعفر الذهبي مزار الطلبة ومزار الأطباء أى تقياً للطائفتين جميعاً وكان يقول عن أبي جعفر الذهبي استرضاء له أنه كالذهب الابريز الذى لم يزد في السبك الأجودة يشير بذلك الى أن النكبة انضجت الذهبي كأن الحكماء في حاجة الى الحبس والنفي ليستحقوا ثناء الملوك وأعجابهم !

خلاصة عامة

كان الخليفة المنصور في أول أمره أميراً عاقلاً عادلاً محباً للحكمة والحكماء . وكانت حاشيته منهم كما كان أبوه من قبل قدشاً على أكرامهم وتبجيلهم وفي أواخر أيامه تغير وتعطف وقرب الأولياء والزهاد . وأعرض بعض الأعراض عن الفلاسفة فاتهم أعداء ابن رشد هذه الفرصة وشوا به وتلاميذه ومريديه وأقنعوا المنصور بان اطلاق الحرية للفلاسفة يقولون ويكتبون ما يشاءون مضر بالدولة والدين ورسموا له طريق الاضرار بهم فأتاعهم وتبع خطتهم منقاداً لا مختاراً وتلطف في العقاب فاكتفى بالنفي المؤقت ثم ندم فعفا وأصلح واسترضى فهذه النكبة كلها لم تكن إلا مظهرًا من مظاهر الانتقام والحسد وقد وجد الحاسدون والحاقدون مجال الدسائس واسعا فنفتوا سمومهم وشفوا غليلهم ثم استبان الخليفة الحق فتاب .

مؤلفات ابن رشد

لم يثبت البحث التاريخي أن ابن رشد ألف كتاباً من كتبه قبل السنة السادسة والثلاثين من عمره وليس في هذا غرابة لأن الاستعداد في الطب والفقه والحكمة يقتضى أعواماً طويلة ولم يكن ابن رشد من المبتدعين الذين وضعوا كتباً في أمور لم يسبقوا إليها مثل الشعراء أو كتاب القصص ولكنه كان عالماً والعالم يحتاج قبل التدوين إلى التمحيص والتحقيق ويجدر بالذكر أنه منذ بدأ بالتأليف لم يقف به عقله القوى وإرادته الغالبة عن الاستمرار في طريق الفكر فقضى ما بقى من عمره الحافل بمجليل الأعمال في المدرس والبحث والتدوين وقد ذكر رينان عن فهرست عربي في خزانة اسكوريال ثمانى وسبعين رسالة أو كتاباً في الفلسفة والطب والفقه وعلوم الكلام وذكر ابن أبي أصيبعة منها خمسين كتاباً ولم يذكر ابن الأثير إلا أربعة كتب ولعله اكتفى بأشهرها

الكتب المطبوعة بالعربية

- (١) تهافت التهافت
- (٢) فصل المقال
- (٣) الكشف عن مناهج الأدلة
- (٤) القسم الرابع من وراء الطبيعة
- (٥) بداية المجتهد ونهاية المقتصد

وله بعض كتب عربية مخطوطة سيأتى ذكرها وما عدا ذلك من الكتب فموجود اما باللاتينية أو العبرية ومطبوع باحدهما وتوجد مجموعة مخطوطة لبعض كتبه الفلسفية بالعربية في دار كتب أوفيتشى بفلورانس بإيطاليا رأيناها صيف عام ١٩١٠ .

تاريخ وضع مؤلفاته

للأسن التي يكتب فيها المؤلف كتبه تأثير عظيم وقد عنينا بالبحث في ترتيب مؤلفات ابن رشد على حسب السنين التي وضعت فيها فوصلنا الى النتيجة الآتية ، وسيلاحظ

حوالى السنة ٣٦ من عمره وضع الكليات فى الطب

ويبقى بعد هذا الجدول مما لم يمكن ضبط تاريخ وضعه من مؤلفات ابن رشد ما يأتي :

- وما عداها من كتب أرسطو لا يوجد له إلا الشرحان الوسط والصغير ومن كتب أرسطو مما لا يوجد له شرح (١) الحيوان و(٢) السياسة ومجموعها عشرة كتب وشرح الحيوان مفقود وذكره عبد الواحد وابن أبي أصيبعة وواضع فهرست اسكوريال ولم يشرح ابن رشد سياسة أرسطو وقال في مقدمة الشرح الوسط للاخلاق أنه لم ير

ترجمة عربية لسياسة أرسطو في بلاد المغرب ولما أخذ في شرح جمهورية أفلاطون قال أنه لم يشرع فيها إلا لأن كتب أرسطو في السياسة لم تصل اليه ولو وصلت لاستغنى بها عن الجمهورية وهذا يدل على عدم المامه بأداب اليونان لأنه لو ألم بها لعرف أن ما دونه أرسطو في السياسة كان نذراً وأنه كان مقلداً لأفلاطون فلم يكتب شيئاً يداني الجمهورية جمالا وحكمة ولاجل تقريب موضوع المؤلفات لذهن القارئ أردنا وضعها على الصورة الآتية :

مؤلفات فلسفية

- (١) تهافت التهافت وموضوعه رد على تهافت الفلاسفة للغزالي . والمقصود بكلمة التهافت سقوط التعاليم على بعضها وانتقاعها وغاية الكتاب إسقاط كتاب الغزالي ومنه نسخة عربية مطبوعة وله تراجم لاتينية وعبرية
- (٢) رسالة في تركيب الاجرام وهو جملة مقالات دونت في أوقات مختلفة والكتاب منتشر باللاتيني والعبراني
- (٣) و (٤) كتابان في الاتصال يوجدان باللاتينية والعبرية
- (٥) أربعة كتب في مسألة هل العقل المادى يمكنه إدراك الصور المنفصلة (لاتينى)
- (٦) شرح كلام ابن باجة في اتصال العقل المنفصل بالانسان (اسكوريال)
- (٧) كتاب الكون
- (٨) في المقولات الشرطية
- (٩) الضرورى في المنطق
- (١٠) مختصر المنطق
- (١١) مقدمة الفلسفة في اثني عشر رسالة (عربى اسكوريال عدد ٦٢٩)
- (١٢) شرح جمهورية أفلاطون عبرى ولاتينى
- (١٣) شرح الفارابى وأرسطو في المنطق
- (١٤) شروح على الفارابى في مختلف المسائل
- (١٥) نقد الفارابى في التحليلات الثانى لأرسطو
- (١٦) رد على ابن سينا في تقسيم المخلوقات وقوله أنها ممكنة مطلقاً وممكنة بذاتها ولازمة بما هو خارج عنها ولازمة بذاتها

- (١٧) شرح وسط لما بعد الطبيعة عن ترجمة نيقولا الدمشقي
 (١٨) في علم الله بالجزئيات
 (١٩) في الوجودين الأزلي والوقتي
 (٢٠) البحث فيما ورد في كتاب الشفاء عما وراء الطبيعة
 (٢١) في وجود المادة الأولى
 (٢٢) في الزمان
 (٢٣) مسائل في الفلسفة
 (٢٤) في العقل والمعقول (عربي اسكوريال عدد ٨٧٩)
 (٢٥) شرح الفردوسي في العقل
 (٢٦) أسئلة وأجوبة في النفس
 (٢٧) أسئلة وأجوبة في علم النفس
 (٢٨) السماء والدنيا

وقد وضع هذا الجدول على سبيل الحصر وليس لابن رشد غير هذه الكتب في الفلسفة ولا يجوز الزيادة عليها أو إقصاها ولا يعول على قول أحد في المؤلفات اذا خالف هذا الجدول الدقيق

في الالهيات

- (١) فصل المقال (مطبوع)
 (٢) ملخص لفصل المقال
 (٣) التقريب بين المشائين والمتكلمين
 (٤) كشف مناهج الأدلة
 (٥) شرح كتاب الايمان للامام المهدي ابني عبد الله محمد بن تومرت شيخ الموحدين

كتبه في الفقه

- (١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد
 (٢) مختصر المستصفي في أصول الفقه
 (٣) كتاب في التنبيه الى اغلاط المتون
 (٤) دعاوى : ٣ مجلدات

(٥) دروس في الفقه العربي (اسكوريال)

(٦) كتابان في الذبيحة

(٧) كتاب الخراج

(٨) الكسب الحرام

وله غير هذا أربعة كتب في الفلك وكتابان في النحو وعشرون كتاباً في الطب

تعليم ابن رشد

لم تزد معرفة ابن رشد عن العلوم الشائعة في عصره فكانت معرفته بالطب محدودة بعلم جالينوس ، وفلسفته مستمدة من ارسطو ، وفلكه مأخوذاً عن المجسطى وبقه فقه معاصريه واسلافه من أئمة المالكية . فلم يكن الحكيم ابن رشد مبتكراً ولا مبتدعاً أى انه لم يؤسس علماً جديداً . ولكنه امتاز عن معاصريه بمقدرة في الانتقاد نادرة في زمنه وغير زمنه ، وهي ظاهرة في تقده فلك بطليموس ، وفيه مبادئ وتقدم فكري لا تصدر الا عن عقل من أقوى العقول (راجع النبذة ١٣ من القسم الأول من تلخيص مقالات ارسطو فيما بعد الطبيعة) .

كان ابن رشد طبيباً وفيلسوفاً ولكن فلسفته أعظم من طبه فان مؤلفاته الطبية التي اعتمد فيها على جالينوس لم تبلغ شأو قانون ابن سينا وكان فقيهاً وفلكياً . على اننا لم نقف على آثاره في خدمة الشريعة ولم يحفظ لنا التاريخ أحكامه وفتاواه .

ويظهر أن جده كان اكثر منه توفيقاً في القضاء والتشريع ، فله مجموعة فتاوى في مكتبة باريس عني أحد تلاميذه بجمعها وتنظيمها ولكن الذي ميز ابن رشد حقاً هو شرحه الكبير لارسطو ، ذلك الشرح الذي جعله في مصاف كبار الفلاسفة المتقدمين وصدق ارنست رينان حيث قال : « القي ارسطو على كتاب الكون نظرة صائبة ، ففسره وشرح غامضه ، ثم جاء ابن رشد فالتقى على فلسفة ارسطو نظرة خارقة ففسرها وشرح غامضها »

ألف ابن رشد في كل فن شريف مثل الطب والفلسفة والفلك والفقه وكان يحفظ موطأ مالك عن ظهر قلب

وكان في جنب اشتغاله بتلك العلوم محباً لفنون الأدب . فقرأ شعر العرب في الجاهلية والإسلام ، وحفظ كثيراً من قصائد عنترة وامرئ القيس والأعشى وأبي تمام والناطقة والمتنبى . وأثر محفوظاته ظاهر في أسلوبه ومقتبساته لدى شرح كتاب الشعر لارسطو ونستنتج من هذا عرضاً أن العقول الكبيرة القوية تفوق غيرها باتساع دائرتها واقتدارها على الامام بأنواع العلوم والآداب ولا ترى في ذلك تناقضاً

جهله باليونانية

يلفت نظر الباحث في حياة ابن رشد وكتبه عدم الملمه بلغة غير العربية . أهو اعتداد بالنفس واكتفاء بما حوته اللغة العربية من العلم والأدب ، أم ازدراء بما في غيرها من اللغات والكتب ، أم يأس من التحصيل لتعذر التعليم ؟ لم يعرف ابن رشد اليونانية التي وضعت بها مؤلفات استاذه ورئيسه ارسطو ولم يعرف غيرها من اللغات الأخرى الشائعة لعهد ، مثل السريانية والفارسية حتى ولا الاسبانية وهي لغة القوم الذين شب وشاب في بلادهم

على أن ابن رشد لم يكن وحيداً في عزم الأخذ باللغات لأن معظم أسلافه من حكماء العرب لم يأخذوا بها ، وقد ضاعت عليهم لهذا السبب جميع كنوز أديبها الغنية فلم يقفوا على شعر هوميروس ولاپندار ولاسوفوكليس فضلاً عن ايشيل واريستوفان وديموستين . بل أنهم أهملوا أفلاطون نفسه وقصروا كل همهم على درس فلسفة ارسطو لأن تراجمة الشرق عنوا بكتبه دون غيرها

ولا شك في أن مؤلفات ارسطو التي شرحها ابن رشد وصلت اليه باللغة العربية التي نقلت إليها في القرن الثالث الهجرى قبل ظهور ابن رشد بثلاثة قرون . ويرجع فضل تلك التراجم الى عصابة من أدباء الشام أمثال حنين بن اسحق واسحق بن حنين ويحيى بن عدى وأبو بشر منى

كان ابن رشد حريصاً على الجوهر فان فاتته اللغة الأصلية (وهذا يدعو الى الأسف) فلم تفته فكرة المقارنة بين جميع التراجم المعروفة لعهدده فقد جمعها وفحصها وناقشها بحذق فائق حتى يكاد من لا يعرف الواقع يحسب أنه كان يعرف اللغة الأصلية وقد عزيت الى جهله باليونانية أغلاط وقع فيها وأخذها عليه ألد أعدائه لويس فيفيس ، ولا شك أن التعصب الديني وعمى البصيرة دفعا لويس الى المعاندة والمعاكسة ولكن هذا لا ينفي صدق انتقاده في أمور .

فقد خلط ابن رشد بين بروتاغوراس وفيثاغورس وبين فراطل وديموقريط وحسب هيراقليط جماعة من أتباع هرقل أولهم سقراط ، وزعم أن اناكساغور رئيس المذهب الايطالى ... على أن لويس فيفيس الذى أعماه التعصب أخذ هذه الأغلاط على علائها وحاسب ابن رشد عليها ولم يدرك عذره لنقلها عن الترجمة الذين كان جهلهم بآداب اليونان وتاريخهم عظيماً .

ونظن احجام العرب عن الشعر القصصى والتأليف التمثيلي راجع الى جهلهم بآداب اليونان واكتفائهم بدرس فلسفة ارسطو على أن ارسطو نفسه لم يبدأ بتدوين الفلسفة الا بعد أن اتقن آداب قومه . وفى مؤلفاته من الأمثال والشواهد والاقباس ما يدل على ذلك ، ويجوز أن اعراض العرب عن القصص والتمثيل نشأ عن الظن بانهما خاليان من الجد والجلال القائمين بالفلسفة ، وحسبوا أن الاسلام دين جد وخشونة ، فنشأوا عليهما وبعثوا عن عوامل الاستهواء والتخدير وخطأ هذا الرأى ظاهر

أسلوب ابن رشد

أسلوب ابن رشد يشوبه الجفاف ، وله العذر . فان الفيلسوف لا يملك أن يصوغ تعاليمه فى أسلوب رقيق جميل إلا اذا توافرت له شروط كثيرة لم تتوافر لابن رشد . منها سهولة اللغة وغناها وتهذيبها بأقلام العشرات بل المئات من الشعراء والكتاب بحيث تصبح فى يد الفيلسوف اداة سهلة تمكنه من التعبير عن أدق المعانى والأفكار وأبعد

العواطف غوراً . ومنها أن يكون الفيلسوف نفسه كاتباً بارعاً في فنون الأدب ولا نذكر أن هذين الشرطين اجتماعاً لاحد اجتماعهما لنتشبه في المانيا ، وبرجسون في فرنسا . وكثيرون من الفلاسفة الافرنج يشبهون ابن رشد في أسلوبه ونخص منهم بالذكر أوجست كومت على ان الواقع يدعو الى التسامح . لأن مؤلفات ابن رشد التي تمكن القارئ من الحكم على أسلوبه لصدورها عن قلمه مباشرة نادرة جداً وهي في العربية لا تتجاوز ثلاثة أو أربعة سيأتي الكلام عليها تفصيلاً

وذلك لأن معظم كتبه التي كانت موضع الثقة من الطلاب في أوربا هي باللاتينية ومنقولة عن العبرية

وسلسلة تأليفه من حيث تعدد الأساليب كثيرة الحلقات . فان ارسطو كتب باليونانية ونقلت كتبه منها الى السريانية ، وترجمها العرب الى العربية ، فقرأها ابن رشد وشرحها ، ونقلت شروحه الى العبرية فاللاتينية .

ويستخلص من أسلوب ابن رشد في كتبه شغفه بذكر الرجال وتمحيص آرائهم فأولهم ارسطو ثم شراح فلسفته من اليونان أمثال اسكندر فردوسي فمستبيوس فيقولوا الدمشقي ، ومن العرب ابن سينا والغزالي وقد يشتد في مجادلتها لاعتراض مختلفة ، فهو يحارب الغزالي حرباً خارجية لأنه يدافع فيها عن الفلسفة والفلاسفة . أما حربه مع ابن سينا فحرب داخلية أهلية سببها النزاع في تأييد المذاهب وتقضها ، وجداله مع اسكندر ومستبيوس ، قوامه انتقاد شرحيهما وتخطئة فهمهما ، وقد ظهر عليهما وبان الحق في جانبه ، واذا ذكر ابن باجة فأنما للثناء عليه وتركته ، ويسميه والد الفلسفة بالأندلس وهو في معظم كتبه حاد المناقشة قاسي اللهجة شديد المراس على خصومه ، وقد يسمو به القلم الى أعلى درجات الكمال الفكري

ويمتاز أسلوبه بوضوح شخصيته سواء اكان موجزاً أم مسهباً . فان أسهب واستطرد كان لطيف العبارة لين القول مقبول الاشارة ، ولا تفوته الغاية بالتطويل ولا تغيب عن نظره نتيجة البحث وله على نفسه سلطان يقف في الوقت الملائم عند حده

وقيمة كتبه في وقتنا هذا تاريخية محضة ومن يتناول البحث في كتب ابن رشد وأفكاره فلما يفعل ذلك بوصف كونها حلقة شريفة من سلسلة الفكر البشري لا مصدراً موثقاً به لتعاليم ارسطو فان فلسفة ارسطو ظهرت باكتشاف كتبه بأصولها ونصوصها اليونانية في وسط القرن الخامس عشر وتقلت الى اللاتينية وسائر لغات أوروبا الحية ولكنها لم تنقل بجملة الى الآن بالعربية . أما تمجيد ابن رشد لأرسطو فلا حد له فيكاد يؤله وقد وضع له أوصافاً تجعله فوق درجات الكمال الانساني عقلاً وفضلاً ولو كان ابن رشد يقول بتعدد الآلهة لجعل ارسطو رب الأرباب والذي يملأنا إعجاباً وفخاراً بابن رشد انه بالرغم من تقديس أستاذه بما يفوق العبادة فهو لا يتنحى عن الجهر برأيه وان اختلفوا له في ذلك طريقة ظريفة فلا يعارض العلم الأول ولا يعترض عليه بل يلفت نظر القارئ الى رأى نفسه ويتخلى عن نتائج رأى أستاذه لاسيما اذا كان يشتم من هذا الرأى مخالفة للدين والمقائد المنزلة مثل ذلك ما جاء في الشرح الوسط للطبيعات قال انه يقصد الى شرح المشائين دون ذكر رأيه بذاته وانه في ذلك يقتدى بالامام الغزالي في شرح آراء الفلاسفة في كتابه « مقاصد الفلاسفة » ليتمكن من الرد عليها بحقيقتها كذلك عند كلامه على اتصال العقل المفارق بالانسان فقد تنحى عن نتائج الاسترسال فيه ولم يكن ابن رشد مبتكر هذه الطريقة فقد سبقه اليها ابن سينا والغزالي وابن طفيل وسبب هذا الحذر العجيب خوفهم من تهمة الالحاد على أن هذا التأدب الشديد في حق الدين لم يبق ابن رشد شرتهمة التعطيل لأن الفلاسفة اذا اقبلوا أئمة او كرادلة فلا يجديهم ذلك نفعاً في نظر أعداء الفلسفة .

شرح ابن رشد مؤلفات ارسطو بثلاث طرق : شرح صغير وشرح وسط وشرح كبير ففي الكبير اقتباس لكل نبذة من ارسطو مع تحديدها بقوله « قال ارسطو » ثم يبدأ الشرح بالاسهاب والتعمق والاستطراد وهذا الشرح الكبير أشبه شئ بتفسير القرآن من حيث التمييز المطلق بين المتن والشرح وقد امتاز ابن رشد بهذه الطريقة على الفارابي وابن سينا فقد كانا يمزجان نصوص ارسطو بشروحيهما أما الشرح الوسط

فيقتبس الكلمات الأولى من متن ارسطو ثم يسير على طريقة الفارابي . والشرح الصغير عبارة عن تحليل وجيز وهو من قبيل نثر المنظوم فالتكلم فيه ابن رشد ذاته ويسير فيه على الطريقة التي ترضيه في الاقتباس والاستشهاد والناظر في هذا الشرح يعتقد انه تفسير قائم بذاته . والثابت أن ابن رشد وضع الشرح الكبير بعد الصغير والوسط ودليلنا على ذلك انه في آخر الشرح الكبير للطبيعيات الذي أتمه في الستين من عمره أشار الى شرح أوجز منه صنفه في مستقبل العمر وكذلك في الشرح الوسط أعطى على نفسه عهداً بوضع الشرح الكبير .

في أسباب عدم اشتهاره عند المسلمين

وسرعة انحلال الفلسفة بعده

السبب في عدم اشتهاره عند المسلمين كما يجب وسرعة انحلال الفلسفة واندثار معالم الحكمة بعده يرجعان الى عدم انتشار كتبه في الأقطار لأنها لم تخرج من الأندلس التي لم يطل عهد الدول الإسلامية فيها وقد أمر بعده المتعصب الجهول زيمينز باحراق المخطوطات العربية وذلك بعد الفتح المسيحي وزوال دولة الموحدين فاحترقت في ساحة غرناطة ثمانون ألف نسخة من الكتب العربية ولا شك في أن جميع مؤلفات ابن رشد قد التهمتها نيران التعصب الأوربي في تلك الحريقه العظمى

وكل ما بقي للعالم من مؤلفات ابن رشد مكتوب بخط مغربي مما يدل على انه منقول من الكتب الأصلية في الأندلس ونقل الى أفريقيا ومراكش قبل تلك النكبة . أما الكتب العربية الموجودة في مكتبة اسكوريال فليست من آثار عرب الأندلس انما من اسلاب السفن التي كان يأسرها قرصان الاسبان من المغاربة ومع ذلك فلم تنج تلك الكتب المغتصبة من اللهب فقد أحرقت مرتين في مفتح القرن السابع عشر وقبيل ختامه (١٦١١ و ١٦٧١ م .) فلف اكثر من نصفها

وعدا الكتب القليلة الموجودة باسكوريال فله كتب عربية بمكتبة أوفيتشى بفلورنسا وهي شرح وسط لكتاب الكون وصغير للبلاغة والشعر وشرح كامل لكتب المنطق وبعض كتبه الطبية في مكتبة باريس الوطنية وليدن واسكوريال وكتبه العربية نادرة جداً ولكنها كثيرة الانتشار بالعربية واللاتينية ولم ينشر بالعربية لابن رشد كتاب قبل أواسط القرن التاسع عشر (١٨٥٩) أى بعد موته بستة قرون ونصف والفضل في ذلك للعالم الألماني مولر الذى تقدم غيره في نشر فصل المقال . والفضل في نشر كتبه باللاتينية في القرن الخامس عشر لمدن البندقية وبادوا ثم بولونيا وروما ونابولى بإيطاليا ثم ليون بفرنسا وقد كثر الاقبال عليها في السادس عشر ثم نامت في السابع عشر ثم نسيت بتاتا وكان هذا آخر عهد ابن رشد بالشهرة في الغرب .

مذهب ابن رشد

أن تعاليم ابن رشد تشبه بصفة عامة تعاليم أسلافه ومعاصريه من فلاسفة العرب . وهذه التعاليم ذاتها لا تخرج عن فلسفة ارسطو مضافاً إليها نظريات من الأفلاطونية المستحدثة وقد امتاز فلاسفة العرب بأن أضافوا إلى تعاليم ارسطو نظرية عقول الدوائر أو الكريات الكائنة بين المتحرك الأول وبين العالم وانبثاق فكرة « الانبثاق العام » والمقصود بها أن الكائنات جميعها انبثقت وصدرت عن الله أى أنه تعالى هو مصدر خلق الكائنات والمقصود من القول بهذه النظرية اتصال الحركة من المحرك الأول بما هو قريب منه من الكريات ومنها إلى ما هو أدنى من سائر أجزاء الكون وهكذا إلى العالم الأرضى .

وانما التجأ فلاسفة العرب إلى هذا المذهب « الانبثاق » ليظهروا تعاليم ارسطو من مذهب الثنوية أى اشتراك القوة والمادة في خلق العالم ولملأوا الفراغ الفاصل بين القوة القائمة بذاتها . أو القوة المحض وبين المادة الأولى . ولا يخفى أن الثنوية الارسطية غايتها تحليل العالم بفرض وجود عنصرين مطلقين في ذاتهما مستقلين عن بعضهما

منفصلين تمام الانفصال وهما الروح أو القوة والمادة ولما كان التوحيد اولى فرائض الإسلام وكان ارسطو هو الفيلسوف الوحيد الذى انتحل المسلمون تعليمه وكان تحويل تعليمه أهون عليهم وأسهل لديهم من الانحراف عن العقيدة الدينية انتحلوا مذهب « الابطاشاق العام » وأحلوه محل الثنوية الارسطية على ما فيه من مخالفة جوهرية لبقية تعاليم ارسطو .

وقد سار ابن رشد على هذا الدرب الذى سار عليه من قبل الفارابى وابن سينا . لأجل ما تقدم صار مذهب ابن رشد علماً على مذاهب فلاسفة العرب الذين اهتموا بارسطو وتبعوا مدرسته ويجوز أن يطلق عليهم تجاوزاً اسم « المشائين فى العرب » فمذهب ابن رشد يجمع مذاهبهم ويوفق بين آرائهم ويلم شعث تعليمهم . وقد صار اسمه اسماً للفلسفة العربية لأنه لم يشتغل واحد من فلاسفة العرب بغير تعاليم ارسطو ومن حسن حظّه أنه جاء متأخراً وقد ألم بمؤلفات المتقدمين منهم وذكرهم وروى عنهم وقرض بعضهم وانتقد البعض الآخر فنتج عن ذلك أن امتزجت أفكارهم بأفكاره واختلطت آثارهم بآثاره فنسب اليه المؤرخون فى الشرق والغرب آراء الذين سبقوه مثل ابن سينا والفارابى

على أن العدل يقضى بالقول بأن فضل ابن رشد لا يربو على فضلهم إلا فى أنه أسهب فى شرح أقوالهم على أن ابن رشد لم يكن ناقلاً وشارحاً ومقلداً فقط كما يذهب اليه بعض المؤرخين . بل كان أيضاً واضعاً ومبتدعاً ومجدداً ومثله فى الابتداع والتجديد فى أثناء الشرح والتفسير مثل غيره من فلاسفة العرب فإنهم لم يقنعوا بشرح ارسطو بغير نقص أو ازدياد انما اتخذوا شرح مذهبه وسيلة لبيان مذاهبهم

ومن ينعم النظر فى كتب العرب التى جعلوها شرحاً لفلسفة اليونان يستطع استخلاص فلسفة عربية اسلامية قائمة بذاتها متميزة بعناصر فكرية خاصة بها وبغايرة فى مجموعها للفلسفة المعروفة لعهدهم والمعمول بها بين أهل الراى وهذه الفلسفة العربية الاسلامية الخاصة ظاهرة آثارها بجملاء فى مذاهب الفرق المعتزلة والقدرية والجبورية والصفائية

والباطنية والأشعرية وفي علوم الكلام . ويظهر هذا من مراجعة أمثال كتاب المال والنحل والفرق بين الفرق ولكن العرب لم يطلقوا على مباحث هذه الفرق اسم الفلسفة لأسباب يطول شرحها وليس هنا مقام الكلام فيها . إنما قصرنا اسم الفلسفة في عرفهم على فلسفة الأقدمين وأطلقوا اسم الفيلسوف على من ينقطع لدرسها وفحصها وشرحها . إذا تقرر ذلك وضح لنا أن ما يعرف بالفلسفة العربية هو في الحقيقة جزء محدود جداً من الحركة الفكرية في الإسلام .

وقد اختلف الناس في أى الوصفين أفضل الفلسفة العربية أو الفلسفة الإسلامية ولكل من منتحلي أحد الوصفين حجج وقرائن أما نحن فنفضل وصف الفلسفة الإسلامية لأن إبحاثنا في الكندي والفارابي دلت على أن الفضل في انتحال الفلسفة اليونانية راجع للعباسيين وهم من سلالة فارسية أى من شعب آرى من هندو أروبا . وإن كانت الفلسفة بعيدة عن العرب وغريبة عنهم بوصف كونهم شعباً سامياً فهاهى بالغريبة عن الإسلام بوصف كونه مجموعة عقائد وجدانية وقواعد عقلية وأنظمة اجتماعية ومبادئ مدنية . على أن هذا التمييز لا يضير العرب فى شىء ولا يقلل من قدرهم فإن العباسيين لولا الإسلام ما اتجه نظرهم نحو الفلسفة اليونانية وأول فلاسفة الإسلام عربى صميم وهو الكندي والإسلام ذاته مصدره نبي عربى نشأ وترعرع ودعا لدينه فى البلاد العربية فمثل الفلسفة الإسلامية كمثل كتاب ذى جزئين الأول مصدره الشرق وقد دونه الكندي والفارابي وابن سينا والثانى مصدره الغرب ومؤلفوه ابن باجة وابن طفيل وابن رشد . والناظر فى فلسفة ابن رشد يرى أنها لا تختلف فى جوهرها عن فلسفة ابن باجة وابن طفيل . وهذان الحكيمان قد أكملّا وأتما فى الغرب ما بدأ به الثلاثة الأول فى الشرق .

فى الفلسفة الإسلامية ثلاثة أسماء تعلو على ما عداها علو قمم حملايا والجبل الأبيض على قلل الجبال الصغرى هذه الأسماء هى ابن سينا والغزالي وابن رشد أما ابن سينا فهو أعلى فلاسفة الشرق الإسلامى كعباً وأوسعهم رأياً وأطولهم نفساً وأرحبهم

فكراً. والغزالي باقتحام داهيتهم ومقدمهم لأنه أقدرهم بحثاً وأبعدهم نظراً وأعظمهم فكراً وأطولهم باعاً وأبلغهم براعاً وقد كان من حظه انه أدرك قبل سواء استحالة الوصول الى الحقيقة بطريق العقل وقد جاءت فلسفة كانط الألماني بعده بعدة قرون تؤيد رأيه . فلما قرى في نفس الغزالي عجز العقل البشرى عن الوصول الى الحقيقة بطريق البحث الفكرى تصوف ظناً منه ان طريق الصوفية أقرب الطرق للوصول وكان من نتائج هذا التحول الطبيعى فى عقل جبار كعقله انه بدأ يهدم آراء الفلاسفة فألف كتاب تهافت الفلاسفة ضد آراء ابن سينا وحاول هدم « مبدأ العلة » فالغزالي سبق كانط فى القول باستحالة وصول العقل الى الحقيقة وأقول أنه سبق أيضاً هيوم الايقوسى الذى كان جاحداً ومعطلاً وكان لآرائه بعض الأثر فى ذهن كانط والفرق بينهما ان هيوم وضع مبدأ اليأس على أساس الفوضى ولكن كانط وضعه على أساس المنطق والنظام .

الغزالي أنكر قدر العلم وحط من قيمته. ونهى عنه لقلة نفعه وأنكر قوة العقل وأثبت عجزه فسبق فى ذلك حكيمين من اكبر حكماء أوربا الحديثة وهما هيوم وكانط ثم أخذ يبحث عن طريق للوصول الى الحقيقة فاهتدى الى مذهب الافتطار وهو المذهب الذى يقول به الآن فى فرنسا الفيلسوف برجسون هذان هما العالمان اللذان ظهرا فى الشرق ابن سينا والغزالي وثالثهما ابن رشد وقد ظهر فضله فى امور كثيرة منها ان الفلسفة كانت منذ القدم تشمل نظريتين عظيمتين فى تحليل الكون وتفسيره وحقيقة السبب الأول وتحديدده .

النظرية الأولى تقول بحرية علة العلل وبان لها مميزات تحددها وتعينها وان للعناية ما لها من القدرة فى تدبير العالم وتشرح سبب خلق الكون وغايته ونهايته وتقول بأن النفس الانسانية كائن مادى خالد .

والنظرية الثانية تقول بأن المادة أزلية وان أصل الحياة جرثومة تنطور بفعل قوتها الكامنة وان علة العلل غير محدودة وان للطبيعة قوانين لا بد من نفوذها وان الضرورة من قوانين الكون وان للعقل وجوداً غير مستقل وقد كان من نصيب فلاسفة الاسلام

ان انتحلوا النظرية الثانية . وكان الفضل في اظهارها وتفسيرها ودعما لابن رشد اكثر من غيره وهو كما أسلفنا ثالث العلمين ابن سينا والغزالي واذا أمعنا النظر في المذهبين السالفين نرى ان أولهما مذهب الخلق وثنانيهما مذهب التطور والارتقاء . وكان من حسن الحظ ان ابن رشد دحض نظرية الخلق وتقضها وأيد نظرية التطور وقال بها ومن مستلزماتها القول بأزلية المادة وضرورتها وانها أصل الكائنات وانها « لا بد منها ولا غنى عنها . »

أما عن تدبير الكون بالنسبة لعلّة العلل فقد قال ابن رشد « ان حكم الكون يشبه حكم المدينة فالحاكم هو المصدر الأعلى لكل ما ينفذ ولكن جزئيات حوادثها وتفاصيلها لا تصدر عنه مباشرة ولا يتحتم علمه بها . »

ويعتبر ابن رشد السماء كائنًا حيًا مكونًا من عدة أجرام لها أنظمة خاصة بها في حياتها ودوراتها وتأثيرها في بعضها البعض وفي الانسان وهذا كله مستفاد من الكتاب الثانى عشر من بعد الطبيعة لارسطو ، ونظرية ابن رشد في العقل الانسانى هى خلاصة الكتاب الثالث من كتاب الروح مضافًا إليها مزيج من التصوف والتوفيق والتقريب التى يمتاز بها حكماء الاسلام .

مذهبه في العقل

غير ان ابن رشد امتاز بمذهبه في العقل وقد قال فيه قولاً اهتز له علماء اللاهوت في القرن الثالث عشر المسيحى فانه لما أخذ يشرح رأى ارسطو في العقل الفعال أو المؤثر . والعقل المتأثر أو المتلقى بدأ بالرد على آراء الشراح السالفين وفندها وزيفها وقرر انه استخرج رأى ارسطو على حقيقته دونهم وانهم لم يدركوه ولم يبلغوا شأوه وهاك رأيه ملخصاً بإيجاز عن مقاله « فى النفس » المحفوظة بدار الكتب الوطنية بباريس : ان القوة التى تتلقى المعقولات لا تتأثر بها ولا تفعل بتأثير ، سوى تأثير الادراك وهذه القوة تعادل قوة الشيء المدرك ويمكن تصورهما بطريق القياس . وقوة المعقولات كالحس للمحسوسات مع فارق وهو ان القوة التى تتأثر بالمحسوسات تخالطها نوعاً

أما قوة المعقولات فخالصة مطلقاً شريفة بذاتها منزهة عن الاختلاط بالصورة ومما لا بد من بيانه ان هذه القوة هي العقل الهيولى ، لما كانت تدرك كافة المعقولات وتلم بجميع الصور فلا يجوز أن تمازج الصور والأشكال لثلاثتها احدى الصور التى تخالطها عن ادراك غيرها من الصور أو يؤدى التمازج الى تغير الصور المذكورة ، فاذا تغيرت تلك الصور اضطرب التعقل ، وفقد العقل الهيولى قوته التى أصلها ادراك الصور على حقيقتها وتحولت طبيعته وهى الالمام بالأشكال بغير تغير طبيعتها .

لهذا تقضى الضرورة ببقاء العقل قوة قائمة خالصة من شوائب الاختلاط طاهرة من ادراك الامتزاج بالأشكال . فاذا تقرر ذلك ، ثبت ان طبيعة العقل لا تكون الاسجية بسيطة غير مركبة ، وما العقل بعنصر محتاج الى الترتيب انما هو الترتيب بذاته والنظام بعينه . والعقل فى القوة يقابله العقل الهيولى ، والهيولى اما مكون من مادة مصورة واما بسيط فهو المادة الأولى .

هذا هو معنى العقل المتأثر الذى وضعه ارسطو وشرحه اسكندر فردوسى . ثم أخذ ابن رشد يشرح تفسير تمستيس ومرجه ان العقل أو الهيولى لا يخالط قوى النفس الأخرى وهو عبارة عن استعداد ذى مادة منفصلة عما عداها من القوى . ويقول ابن رشد ان العقل سجية أو استعداد بغير صور هيولية وهو كذلك مادة منفصلة محلاة بهذا الاستعداد . لأن الاستعداد القائم بالانسان يجوز اتصاله بالمادة المنفصلة لأنها لاصقة بالانسان ، أما الاستعداد فليس ملازماً لطبيعة المادة المنفصلة كما ظن الشراح وليست استعداداً صافياً كما ظن اسكندر بفرده .

ومما يدل على أن الاستعداد ليس خالصاً بذاته كون العقل الهيولى يدرك هذا الاستعداد بدون صور مع ادراك الصور فيتجتم حينئذ أن يدرك اللاوجود حيث يمكنه ادراك ذاته بغير صور وينتج عن هذا أن القوة التى تدرك هذا الاستعداد والصور التى تطرأ عليه تكون حتماً خارجة عنه و يظهر من هذا جلياً أن العقل الهيولى هو شئ مركب . مكون من الاستعداد القائم بالانسان ومن عقل يضيف ذاته الى هذا الاستعداد ويبقى

مستعداً بالقوة لا بالفعل وهذا العقل هو العقل الفعال بذاته ، وما دام فعالاً بالقوة فهو عاجز عن ادراك ذاته وقادر على ادراك ما عداه أى الموجودات الهيولية واذا ما انفصل عن الاستعداد صار عقلاً بالفعل مدركاً ذاته دون ما كان خارجاً عنه من الهيوليات ولما كان فى النفس وظيفتان الأولى صنع الصور المعقولة ، والثانية تلقيها فما دام العقل يصنع صوراً معقولة فهو عقل فعال وما دام يتلقاها فهو متأثر وما هاتان الوظيفتان المتعددتان فى الظاهر الا وظيفة واحدة فى الحقيقة .

ويظهر مما تقدم أن اسكندر اسنقل دون من عداه من الشراح برأى يخالفهم ولكن رأى ارسطو جامع بين الاثنين ، وغنى عن البيان أن ابن رشد يشارك حكماء العرب فى شرح هذه المسألة العويصة ولكنه امتاز بمبحث عظيم الشأن وهو ما اذا كان العقل الانسانى أو الهيولى أو المتأثر يستطيع الاندماج فى الحياة الدنيوية بالعقل الفعال العام فقسم ابن رشد قوى النفس وبين علاقاتها ببعضها ثم أوجب الارتباط بين العقل المنفصل الفعال وبين العقل الهيولى كارتباط المادة بالصور وقال إن العقل بالملكة يدرك العقل الفعال العام وان العكس مستحيل لأن العقل الفعال العام لو أدرك العقل بالملكة أى العقل الانسانى لطراً عليه حادث وحيث أن العقل الفعال العام مادة أبدية وليست عرضة للطوارئ ، فالعقل الانسانى هو الذى يدرك العقل العام ، أى أنه يرفع ذاته الى العقل العام ويتحد به مع كونه قابلاً للفناء ومع بقائه كذلك ، فيتولد منه استعداد جديد يمكنه من ادراك العقل العام ومثل العقل العام كالنار والعقل الانسانى هشيم يشتعل ويتحول لهباً بقر به من النار وهذا هو الاتصال المباشر .

وقد يكون الاتصال بالعقل المستفاد أو المنبثق ، وتكلم فى امكان الاتصال بالعقل العام وهو أقصى درجات الكمال فقال إنه يختلف باختلاف الأفراد ، ومرجه ثلاث قوى : الأولى قوة العقل الهيولى الأصيل وأساسها قوة الخيال ، الثانية كمال العقل بالملكة ويتقضى بذل جهود فى التفكير ، الثالثة الالهام وهو معونة ربانية تصدر من فضل الله جعلها ابن باجة شرطاً أساسياً للاتصال ، فاذا ما توافرت للفرد تلك المواهب الثلاث

وهيأته العناية للوصول خفيت ذاتية المتصل والعقل الفعال ذاته ينحى لدى اتصاله بالله الموجود الحق الفرد الذى له الوجدانية المطلقة وكذلك تنحى سائر صفات النفس كما تلتهم النار مستصغر اللهب .

ومجمل القول إن الكمال الأعلى يبلغ بالدرس والتفكير والترفع عن الدنيا والشهوات بعد تكميل العقل المفكر ولا يكفي ما زعمه الصوفيون للاتصال من التأمل العقيم بدون درس وهذه السعادة العليا لا ينالها الانسان فى هذه الحياة إلا بالدرس والاجتهاد والمثابرة ومن لا ينالها فى هذه الحياة يهلك بالموت ويلحقه العذاب الأليم ، ولما كان ابن رشد لم يقل بأن العقل الهيولى مادة فردة ، إنما جعله استعداداً بسيطاً يوجد ويعدم مع الانسان الذى يولد ويموت ، فلا يرى شيئاً خالداً سوى العقل الفعال العام ، والانسان لا يكسب بالاتصال شيئاً ينقله من الوجود الدنيوى ، أما خلود النفس فخرافة .

والمعلومات العامة التى تصدر عن العقل الفعال العام لا تفنى بأجمعها وان كانت العقول التى تتلقاها تفنى وقد سبق ابن رشد فى نظرية العقل المؤثر والعقل المتأثر فيلسوفاً جاء بعده بعدة قرون وهو لينتز فقد قال ابن رشد بوحدة العقول البشرية ويمكن للباحث المقارنة بين قول ابن رشد وبين نظرية لينتز المعروفة باسم (Monopsychisme) ولابن رشد فى هذا فضل على ارسطو لا ينكر ، فان ارسطو قد وصل اليه بأبحاثه ولكنه لم يقل به صراحة

ومن يقرأ الكتاب الثالث فى «الروح» لا يسعه الا استنتاج مذهب وحدة النفوس نتيجة مباشرة لمذهب ارسطو ، ولكن ارسطو لم يقل بها وأما ابن رشد فقال بها . وما أشبه قول مالبرانش بقول ارسطو فى العقل الغير المعين الذى يرشد الخلق جميعاً وبدونه لا يدرك شئ . وقد اتفق مع ابن رشد فى الوصول الى هذه النظرية واستنتاجها من كتب ارسطو جميع الشراح الاغريق الذين تصدوا لشرح ارسطو أمثال اسكندر فردوسى وتمستىوس دى فليبون وسائر فلاسفة الاسلام ولما كان لهذه النظرية شأن عظيم فلا بأس من الامام بها بإيجاز .

يظهر أن السبب الذي منع ارسطو عن التصريح بها مخالفتها لروح فلسفة المشائين بل غرابتها بتاتاً ، وهو نفسه في الكتاب الثامن من الطبيعيات يقول بأنها من آراء اناكساغور ويمكن تلخيص نظرية ارسطو بأن العقل يحتاج في فعله إلى أمرين الأول أثر خارجي يتلقاه الكائن المفكر بطريق الحس ، الثاني رد فعل يصدر عن الداخل بمناسبة حدوث الأثر : فالحس يقدم للفكر مادة التفكير والعقل الصرف يقدم شكل التفكير أى أن الحس والعقل يتضافران في إحداث المعقول ، الأول يعطى الموضوع والثاني يعطى الشكل ، وهذه النظرية لا تختلف في شيء جوهرى عن النظريات الحديثة في المعرفة التي وصل اليها الفلاسفة في القرن التاسع عشر قبل ظهور برجسون في فرنسا . جاء شراح ارسطو وبسطوا نظرية العقل حسبما تقتضيه آراء المشائين فأبرزوا لنا خمسة مباحث

الأول — تمييز بين العقل الفعّال والعقل المتأثر .

الثاني — عدم هلاك العقل الفعّال أو المؤثر وقابلية الثاني للهلاك .

الثالث — عقل فعّال خارج عن الانسان مثله كمثل شمس العقول

الرابع — وحدة العقل الفعّال

الخامس — وحدة العقل الفعّال مع آخر العقول الدنيوية

واذا رجعنا الى نصوص ارسطو ألفينا كلامه جلياً واضحاً في المبحثين الاول والثاني ومتردداً في الثالث . والفضل في إبراز المبحثين الرابع والخامس يرجع إلى ابن رشد وبقية الشراح . وقد قال بهما بعد ذلك لينتزو ما لبرانش وكلاهما من أتباع ديكرت وخلفائه المباشرين في فلسفته وهو يعد واضع الفلسفة الحديثة . وقد تفوق ابن رشد على غيره من الشراح حتى الأغريق منهم وهم الذين قرأوا ارسطو في الأصل لأن ابن رشد وان كان قد اعتمد على التراجم إلا أنه وصل بعقله القوى في وسط ظلام النقل والتحريف إلى ما لم يصل اليه أحد من قراء الأصول

تقدم ابن رشد لأنه بحق أفضل من شراح اليونان أمثال اسكندر فردوسى فانه ينسب إلى ارسطو القول بأن العقل حالة استعدادية للتلقى والحقيقة هي التي قال بها

ابن رشد وهى أن ارسطو قال بأن العقل كائن مستعد للتلقى ويقيم ابن رشد الحجة على اسكندر ويجادله جدلاً عنيفاً فى كتبه وينسب اليه التقصير والقصور عن إدراك حقيقة آراء ارسطو . ويخطئه بجرأة الفكر الواثق من نفسه ، والحقيقة هى التى قال بها ابن رشد وأيده فيها بقية الفلاسفة

فى النفس

أما رأى ابن رشد فى النفس فهو يقول بأنها متصلة بالجسم اتصال الصورة بالمادة وهو يخالف ابن سينا فى قوله بنظرية النفوس المتعددة فى الخلود أى خلود النفوس جملة لأن النفس لا وجود لها إلا مكملة للجسم المتصل بها . ومجمل آراء ابن رشد فى علم النفس تنفق مع آراء ارسطو وتخالف جالينوس ولا يخالف ارسطو إلا فى نظرية واحدة وهى نظرية ارسطو فى « نوس » فان ابن رشد يخالفه مخالفة على غير أساس مستمداً آراءه من الافلاطونية المستحدثة ، على ما فيها من التناقض لمذهب ارسطو فى جملة

أما قوله فى العقل فغايتة أن العقل المتأثر هو عقل الأفراد وهو قابل للزوال والعقل الأزلى هو عقل الانسان بوصف كونه جنساً ، ووظيفة العقل الفعال تقديم الصور النفسية بهيأة مقبولة للعقل المنفصل فيتقبها ويدركها .

ظن كثيرون من فلاسفة القرون الوسطى ان ابن رشد قال بوحدة النفوس ، وحاولوا الطعن فيه والرد عليه ، فقد خيل اليهم ان رأى ابن رشد يؤدى الى القول بأن النفس العامة تكون عاملة وغير عاملة ، وطروباً وحزينة على التوالى ، وفى هذا من التناقض ما فيه . انما عقيدة ابن رشد فى وحدة النفوس كانت ترمى الى غرض اسى فى نظام الكون . فقد كان يعتقد ان أجزاء الكون متشابهة وذات حياة ووجود لا شك فيهما وان الفكر الانسانى فى مجموعه نتيجة القوى العليا ومظهر عام للكون بأسره .

ومعنى هذا ان ابن رشد كان يقصد بوحدة النفوس القول بأن الانسانية تعيش عيشة دائمة وان خلود العقل الفعال هو احياء دائم للانسانية واستمرار دائم للمدينة . وهنا

نلفت نظر الباحثين الى الاتفاق التام بين هذا القول وبين نظرية أوجست كومت في خلود الانسانية وبقائها تلك النظرية التي أدت به الى وضع دين الانسانية فأقيمت له معابد في بعض ممالك الغرب .

يقول ابن رشد مستمراً في نظرية وحدة النفوس ان العقل كائن مطلق مستقل عن الافراد كأنه جزء من الكون . وان الانسانية وهي أحد أفعال هذا العقل عبارة عن كائن لازم الوجود أزلي ، وانه بناء على هذا ، لابد من ظهور الفلسفة وان وجودها ضرورى ليتمكن الفيلسوف من الاشراف على العقل المطلق ، وينتج من هذا ان الانسان والفيلسوف لازمان لنظام الكون .

مذهب الاتصال

هو أساس علوم النفس في الشرق ، وهو المذهب الذى شغل فلاسفة الأندلس أمثال ابن باجة وابن طفيل كما أسلفنا بل هو مذهب التصوف ، وبه كان للصوفية سبعة منازل أو درجات وقد عبر عنه بعض فلاسفة الافرنج مثل ارنست رينان انه مذهب « نحن وأنت » أو مذهب القائلين أنا أنت ، وأنت أنا ، وأنا هو .

إذا تبدى حبيبي بأى عين أراه
بعينه أم بعيني فما يراه سواه

ومن حسن حظ الفلسفة أن ابن رشد بقى بعيداً عن هذا المذهب ، لأنه كان أقل الفلاسفة تصوفاً ، واكثرهم اتباعاً للعقل واقتفاءً لأثر الحقائق وكان يقول بأن الاتصال ممكن بالعلم دون سواه ، وأعظم نقط الوصول بلوغ العقل الانسانى أعلى درجات السمو الفكرى والعلمى وان اتصال الانسان بواجب الوجود ممكن اذا تمكن الانسان من رفع النقاب عن وجه الحقيقة ونظر اليها مباشرة وبغير حجاب .

ولابن رشد رأى شديد في الصوفية ، فهو يطعن في زهدهم ويقول بأن غاية الانسان انتصار أرق اجزاء نفسه على حواسه . فمن بلغ هذه الدرجة فقد بلغ الجنة ، مهما كانت

عقيدته ، وان هذه أرقى درجات السعادة وان السبيل اليها وعر والوصول نادر لأنها مقصورة على خاصة العظماء لا يصلون اليها الا في الشيخوخة بعد طول البحث والتعمق في العقليات والإعراض عن الأعراض الزائلة ، والقناعة بما يكفي الحياة المادية .

وان كثيرين من الحكماء قد بلغوا هذه الدرجة وذاقوا حلاوتها لدى الموت ، لأن هذا الكمال النفساني ينمو على عكس الكمال البدني ، فكما ضعف الجسم ، دنت النفس من تلك الرتبة العليا

وقال ابن رشد أن الفارابي سعى الى هذه الدرجة طول عمره وانتظرها الى آخر نسمة من حياته ، فلما لم ينلها قال انها وهم باطل ، ولكن حرمان الفارابي من الوصول ليس دليلاً على عدمه ، ولكنه دليل على انه لم يوفق ، ولم يكن بين الذين اختارهم العناية للتمتع بهذه النعمة الكبرى .

تقول أن الذي يعمن النظر في هذا القول يرى ان ابن رشد لم يستطع التخلص من اراء معاصريه فها هذا القول الا نوع من التصوف العقلي قد جعله ابن رشد بديلاً من التصوف الروحاني الذي قال به الغزالي ولكنه «تصوف» .

النظام الطبيعي في فلسفته

فلسفة ابن رشد نظام طبيعي متماسك الأجزاء ، مجموع الشمل ، محبوبك الأطراف . وهذا ظاهر في رأيه في الخلود فند قال بأن العقل الفعال وحده خالد ، وأنه هو العقل العام للانسانية ، فالانسانية وحدها خالدة كما قل بعده أوجست كومت . وأن العناية الألهية منحت الكائن الهالك قوة التناسل ، تعزية وسلوى ، لأن في التناسل بفضل الوراثية نوعاً من الخلود .

وقد ذهب البعض إلى أن ابن رشد نفى وجود الحواس والذاكرة والمواظف في الحياة الأخرى ، وأن البدن بعد انحلاله لا يبقى من آثاره شيء وأن الذي يبقى هو العقل وهو من المواهب العليا كما أن الحواس والمواظف من الصفات السفلى .

ولكن ابن رشد لم يقل بهذا في كتبه صراحة ، لأن في التصريح انكاراً صريحاً للبعث والخلود . ولكن يمكن القول بأن روح مذهب ابن رشد تؤدي الى هذا الاستنتاج ولكنه قال بغير شك أن الانسان لا يثاب ولا يعاقب الا في الحياة الدنيا . وكان هذا القول أمضى سلاح شهره الغزالي في وجه الفلاسفة ، ونحن لا نعيب ذلك على ابن رشد بل نشكره على انه نقض الخرافات التي يقول بها العوام عن الحياة الأخرى كالقول بأن الفضيلة الدنيوية وسيلة السعادة الأخروية . وقد أحسن ابن رشد بطعنه في آراء أفلاطون التي سبها في خرافة لفقهائها عن الحياة الأخرى باسم « هير الأرمي » وقال ان هذه الخرافات تضلل عقول الأمم ولا نفع فيها .

قال ابن رشد في « التهافت » ان حكماء العرب المتقدمين يحسبون البعث خرافة وان أول من قال به أنبياء بنى اسرائيل بعد نبينهم موسى ثم ورد ذكره في الانجيل وكتب الصابئين ودينهم في قول ابن حزم ، أقدم الاديان وان الذي دعا واضع الاديان الى القول بالبعث اعتقادهم بقوته في اصلاح البشر وحثهم على الفضيلة حباً في المنفعة الذاتية .

ويرد ابن رشد على الغزالي قوله بأن الروح عارض اي انها تعود الى جسمها الذي هلك ، وخلق بالغزالي ان يقول بأن الروح خالد اي انه سيحل بدنًا مشابهاً لبدنه الأول لأن البدن الذي هلك واعتراه الفساد لا يعود ثانية الى الوجود وهذان الجسمان اي الهالك والجديد وان تعددا فواحد بالنظر الى الجنس والنوع وهذا القول لا يختلف عن قول ارسطو في كتاب « الكون والفساد » من ان السكائن القابل للهلاك لا يعود مماثلا لذاته بعد هلاكه ، ولكن يجوز ان يعود بالنوع الذي كان من جنسه

مذهبه في الاخلاق

لم يكن لابن رشد مذهب في الاخلاق قائم بذاته ، ولم يشأ ان يتخذ آداب ارسطو لأنها لا توافق العرب ، ولكن ابجائه العقلية أدت به الى مناقشة المتكلمين في اساس الاخلاق وهو الخير والشر . قال : يقول علماء الكلام ان الخير بما يريده الله وانه تعالى

لا يريد الخير لسبب قائم بذاته ، سابق لارادته ، بل لمجرد ارادته . وانه تعالى قادر على الجمع بين المتناقضات وانه يدبر الكون بغير قيد ولا شرط بل بحرية مطلقة

ولا يخفى ما فى هذا الرأى من الخطأ لأنه يقلب نظام الكون وينقض مذهب العدل الالهى . ثم انتقل ابن رشد الى نظرية الحرية فقال : ان الانسان ليس حراً على الاطلاق ولا مطلقاً بغير قيد اى انه ليس مخيراً وليس مسيراً وان الحرية تكمل فى نفس الانسان ولكنها تبقى محدودة بقضاء الاحوال الخارجة . فالعلة المؤثرة فى اعمالنا كائنة فينا اما العلة العرضية فخارجة عنا لأن ما يجذبنا مستقل عنا ، ونأشئ عن قوانين طبيعية اى عن العناية الالهية .

لأجل هذا وردت فى القرآن آيات تصف الانسان تارة بالحرية وطورا بالجبرية وتارة بالتحكم فى اعماله ، وهى حال وسط بين الأولى والثانية ، وقد أوضح ابن رشد هذا المذهب الوسط بين الجبرية والقدرية فى كتابه « مناهج الملة » . يقول ابن رشد ان المادة الأولى قابلة للتشكل بالمتناقضات كذلك للنفس قوة تقرير مصيرها ، حيال مختلف الشئون ، فهى بذلك حرة . ولكن ليست حريتها تابعة لهواها ، ولا حادثة عرضاً . لأن القوى الفعالة فى الكون مسؤولة عن نظامه ، وليست خلتها عدم المبالاة بسير الامور . والمصادفات لا وجود لها فى عالم المؤثرات

فلسفته السياسية والاجتماعية

لم يدرك ابن رشد أن جمهورية افلاطون كتاب خيالى وضعه فيلسوف واسع التصور فى قالب شعرى ، أو أدرك تلك الحقيقة ، ولكنه استصوب تطبيق مبادئ الجمهورية على الأنظمة الاجتماعية ، لأجل هذا كانت فلسفته السياسية مستمدة من هذا الكتاب الجميل ، فإشار بوضع السلطة فى أيدي الشيوخ ، وتعليم الأمة الفضيلة بقوة الفصاحة والشعر والعبارة ، ثم قال ان الشعر فى ذاته مضر لاسيما شعر العرب . وقال ان الحكومة الكاملة لا تحتاج الى قاض ولا طبيب ، ولا بد من الجيش لحماية الرعية .

ولما كان مجال الكلام في الجمهورية ، على العدل والظلم واسعاً ، فقد تناول ابن رشد ذلك وتكلم عن الظلم فقال : ان الظالم هو الذى يحكم الرعية لمصلحته لا لمصلحتها . وافضع انواع الظلم ظلم القساوسة ، ثم قال ان حكومة العرب القديمة في صدر الاسلام كانت على نظام جمهورية افلاطون ولكن معاوية هدم نظامها وأتلف جمالها بأن خلع سلفه ثم أسس دولة استبدادية ، وكان من نتيجة ذلك ، تقوض اركان دولة الاسلام وحدوث الفوضى في سائر بلادها ومنها بلاد اندلس . وتكلم عن المرأة فقال أنها تقل عن الرجل في ~~الدرجة~~ في الدرجة لا في الطبيعة: أى كمية لا نوعاً فهي قادرة على ممارسة أعمال الرجال مثل الحرب والفلسفة ، ولكن بدرجة أقل من الرجل وقد تفوقه في بعض الفنون مثل الموسيقى ويحسن وضع الأنعام بواسطة الرجال وتوقيعها بواسطة النساء وقال لا بأس اذا حكمت الجمهورية فهن صالحات للحرب وضرب أمثلاً بنساء افريقيا وقال « ان اناث الكلاب تحرس القطيع مثل ذكورها . »

ثم قال ابن رشد قولاً - كأن نفسه أوحى به الى قاسم أمين بعد موته بنحو تسعماية سنة - قال : إن حالتنا الاجتماعية لا تؤهلنا للاحاطة بكل ما يعود علينا من منافع المرأة . فهي في الظاهر صالحة للحمل والحضانة فقط وما ذلك إلا لأن حال العبودية التي انشأنا عليها نساءنا اتلفت مواهبها العظمى ، وقضت على اقتدارها العقلى . فلذا لا نرى بين ظهرائنا امرأة ذات فضائل أو على خلق عظيم . وحياتهن تنقضى كما تنقضى حياة النبات . فهن عالة على أزواجهن وقد كان ذلك سبباً في شقاء المدن وهلاكها بؤساً لأن عدد النساء يربو على عدد الرجال ضعفين فهن ثلثا مجموع السكان ولكنهن يعشن كالحیوان الطفيل على جسم الثلث الباقي بعجزهن عن تحصيل قوتهن الضرورى .

وقد دام الجدل بين علماء اللاهوت وبين أنصار ابن رشد من القرن الثالث عشر الى القرن السادس عشر الى ان اضطر الباباليون العاشر الى تكفيرهم بنشور بابوى اذا هم أصروا على القول برأى ابن رشد ، على ان ابن رشد الذى كفر البابا اتباعه لم يكن كافراً بل كان مؤمناً فقد نصح الناس بطاعة الدين في الصبي واحترامه في الشيخوخة .

وقد حاول ما حاوله الفارابي من قبل وهو الجمع بين الدين والفلسفة فألف في ذلك كتابي فصل المقال، ومناهج الادلة وقد بلغ ابن رشد بالفلسفة العربية اقصى ما يمكن الوصول اليه وفسر ارسطو بما لا غاية وراه . وكان آخر فلاسفة العرب وقد تركت تعاليمه اثراً عظيماً لدى اليهود والنصارى ، وربما كان هذا الأثر اعظم من اثرها في قومه !

واجب الوجود

ويظهر للباحث في تعاليم ابن رشد انه يمتاز عن الفلاسفة الذين تقدموه لاسمها ابن سينا بادراكه كون العالم خلقاً دائماً الحدوث ازلى النشوء أى أنه هيئة متحدة ضرورية واجبة الوجود بحالتها . ويرجع شأن هذا الرأى الى أنه يلتئم مع افتراض وجود كائن منفصل عن العالم يحركه وينظمه وهو خالقه وروحه ومحركه الأول وان هذا الخالق هو المبدأ الأول، والصورة الأولى وبه غاية الاشياء واليه نهايتها لأنه منظمها ونظامها ، والموفق بين المتناقضات بل هو الكل الكامل فى اسمى معانى الوجود . وبديهي أنه يترتب على هذا الرأى تقضى القول بعناية الهية بالمعنى المألوف . وقد انتهى مذهبه فى العقل والكون بتحتم وجود الفيلسوف فى العالم لأن عقل الفيلسوف بوقته يصهر فيها الكائن فيصير فكراً ، ويمرق ابن رشد عن العقائد الدينية فى ثلاثة أشياء .

الأول : قوله بأزلية العالم المادى وأزلية الأرواح التى تحركه .

الثانى : ضرورة السبب لحدوث النتائج ، فلامكان للعناية الالهية ولا المعجزات النبوية ولا كرامات الأولياء لأن ظهورها جميعاً يؤدى الى تقضى نظرية الأسباب والنتائج

الثالث : هلاك الأفراد هلاكاً لا مجال بعده لخلودهم أفراداً .

وكان ابن رشد مفكراً شجاعاً ثابت المبدأ ولم يكن مبتكراً وقد اكتفى بالبحث فى

الفلسفة النظرية

و يخالف ابن طفيل وابن باجة فى قولهما بالانفراد الفكرى والوحدة ، ويؤيد المذهب

الاجتماعى ، ويقول بضرورة تعاون الناس لاستثمار العالم والانتفاع بالحياة وقد قاده هذا

الرأى الى القول بتحرير المرأة لاشراكها فى أعمال المجتمع كما تقدم

مبادئ ابن رشد « مستفادة من كتبه »

كلمة في مؤلفات الغزالي وخصها وتقدها بإيجاز عن ابن رشد

يعيب ابن رشد على الغزالي تصريحه بالحكمة للجمهور في أماكن كثيرة من كتبه « التهافت » و « الكشف عن مناهج الأدلة » . قال في عرض الكلام على الفساد العارض لسبب التأويل في الكتاب الأخير « أول من غير هذا الدواء الأعظم (أى الأخذ بظاهر الشرع) هم الخوارج ثم المعتزلة بعدهم ثم الأشعرية ثم الصوفية ثم جاء أبو حامد فطم الوادي على القرى وذلك انه صرح بالحكمة كلها للجمهور وبارأء الحكماء على ما أداه اليه فهمه (كذا) وذلك في كتابه الذى سماه بالمقاصد فزعم أنه انما ألف هذا الكتاب للرد عليهم ثم وضع كتابه المعروف بتهافت الفلاسفة فكفرهم فيه في مسائل واتى بمحجج مشككة وشبه محيرة أضلت كثيراً من الناس عن الحكمة وعن الشريعة ثم قال في كتابه « جواهر القرآن » « أن الذى أثبتته في كتاب التهافت هى أقاويل جدلية وان الحق انما أثبتته في المضمون على غير أهله » ثم جاء في كتابه المعروف بمشكاة الأنوار فذكر فيه مراتب العارفين بالله فقال « ان سائرهم محجوبون الا الذين اعتقدوا أن الله سبحانه غير محرك السماء الأولى وهو الذى صدر عنه هذا المحرك وهذا تصريح منه باعتقاد مذاهب الحكماء في العلوم الالهية »

« وقال في غير ما موضع أن علومهم الالهية هى تخمينات بخلاف الأمر في سائر علومهم وأما في كتابه الذى سماه « المنقذ من الضلال » فانحى فيه على الحكماء وأشار الى ان العلم انما يحصل بالخلوة والفكرة وان هذه المرتبة هى من جنس مراتب الأنبياء في العلم وكذلك صرح بذلك القول بعينه في كتابه الذى سماه بكيمياء السعادة فصار الناس لسبب هذا التشويش والتخليط فرقتين فرقة انتدبت لدم الحكماء والحكمة وفرقة انتدبت لتأويل الشرع وروم صرفه الى الحكمة وهذا كله خطأ بل ينبغى أن يفسر الشرع على ظاهره ولا يصرح للجمهور بالجمع بينه وبين الحكمة لأن التصريح بذلك هو

تصريح بنتائج الحكمة لهم دون أن يكون عندهم برهان عليها . وفي كتابه الذى سماه « التفرقة بين الاسلام والزندقة » عدّد أصناف التأويلات وقطع فيه على أن المؤول ليس بكافر وإن خرق الاجماع فى التأويل . وهذا الذى فعله هذا الرجل ضار بالذات للحكمة والشريعة وان كان نافعا لهما بالعرض وذلك ان الافصاح بالحكمة لمن ليس بأهلها يلزم عن ذلك بالذات إما إبطال الحكمة وإما إبطال الشريعة وقد يلزم عنه بالعرض الجمع بينهما (؟) والصواب كان ان لا يصرح بالحكمة للجمهور .

الحكم على الغزالي وتخطيئه

قال ابن رشد فى عرض الكلام على الهيولى ورده على الغزالي فيما نسبته الى الفلاسفة فى حدوث النفس « فتعرض أبى حامد الى مثل هذه الأشياء على هذا النحو من التعرض لا يليق بمثله ، فإنه لا يخلو من أحد أمرين اما انه فهم هذه الأشياء على حقائقها فساقتها ها هنا على غير حقائقها ، وذلك من فعل الأشرار ، واما انه لم يفهمها على حقيقتها فتعرض الى القول فيما لم يحيط به علماً وذلك من فعل الجهال ، والرجل يجمل عندنا عن هذين الوضعين ولكن لا بد للجواد من كربة ، فكربة أبى حامد هى وضعه هذا الكتاب ولعله طرأ الى ذلك من أجل زمانه ومكانه . »

بذور مناهج الأدلة

كتب ابن رشد كتاب « الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة وتعريف ما وقع فيها بحسب التأويل من الشبه المزيفة والعقائد المضلة » حوالى السنة الرابعة من العقد السادس من عمره .

وكانت فكرة هذا الكتاب تجول فى خاطره عند وضع « تهافت التهافت » ولعل الذى أوحى بها اليه وقوفه على كتب الغزالي . وقصد ابن رشد من هذا الكتاب كما بينا ليس التوفيق بين الشريعة والحكمة بل قصده جعل الحكمة مقصورة على فريق من الناس يمتازون بالاستعداد الفطرى والاعتدال على الدرس بالمثابرة وهم الخواص .

أما كتابه «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» فليس المقصود منه المعنى الظاهر من عنوانه انما المقصود به الاتصال بين ظاهر الشرع والحكمة الالهية . ولم يفقد ابن رشد يوما قدرة التمييز والادراك حتى يحاول الجمع بين الدين والفلسفة وهذا القصد ظاهر ظهورا تاما من كتاب مناهج الأدلة . وكان ابن رشد يرمى اليه في التهافت وهذه نبذة تدل على فكرته الأولى التي صدر عنها كتاب المناهج (ص ٨٨ تهافت)

« ان الكلام في علم البارى تعالى بذاته وبغيره مما يحرم على طريق الجدل في حال المناظرة ، فضلا عن ان يثبت في كتاب فإنه لا تنتهى افهام الجمهور الى مثل هذه الدقائق . واذا خيض معهم في هذا بطل معنى الالهية عندهم فلذلك كان الخوض في هذا العلم محرما عليهم اذ كان المكافئ في سعادتهم أن يفهموا من ذلك ما طاقته افهامهم ولذلك لم يقتصر الشرع الذى قَصَدَهُ الأول تعليم الجمهور في تفهيم هذه الأشياء في البارى تعالى لوجودها في الانسان كما قال الله « لَمْ تَعْبُدْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا » .

« بل واضطر الى تفهيم معان في البارى تعالى بتمثيلها بالجوارح الانسانية مثل قوله « خلقت يدي » فهذه المسألة هي خاصة بالعلماء الراسخين الذين أطلعهم الله على الحقائق ولذلك لا يجب أن يثبت في كتاب إلا في الموضوعات على الطريق البرهاني وهي التي شأنها ان تقرأ على ترتيب وبعد تحصيل آخر يضيق على اكثر الناس النظر فيها على النحو البرهاني اذا كان ذا فطرة فائقة مع قلة وجود هذه الفطرة في الناس فالكلام في هذه الأشياء مع الجمهور هو بمنزلة من يسقى السموم أبدان كثير من الحيوانات التي تلك الأشياء سموم لها فان السموم انما هي أمور مضافة فانه قد يكون سمما في حق حيوان شئ هو غذاء في حق حيوان آخر وهكذا الأمر في الآراء مع الانسان أعني قد يكون رأى هو سم في حق نوع من الناس وغذاء في حق نوع آخر فمن جعل الآراء كلها ملائمة لكل نوع من أنواع الناس بمنزلة من جعل الأشياء كلها أغذية لجميع الناس . . . فاذا تعدى الشرير الجاهل (هل يقصد حجة الاسلام ؟) فسقى السم من هو في حقه سم على أنه غذاء فقد ينبغى على الطبيب أن يجتهد بصناعته في شفاؤه ولذلك استخرنا نحن التكلم

فى مثل هذا الكتاب والا فما كنا نرى أن ذلك يجوز لنا بل هو من أكبر المعاصى
أو من أكبر الفساد فى الأرض وعقاب المفسدين معلوم بالشريعة ! »
هذه الحملة فى التهافت كانت مقدمة للحملة فى مناهج الأدلة

الشريعة والفلسفة

لو تخيلت أمرآله مأمورون كثيرون وأولئك المأمورون لهم مأمورون آخرون ولا
وجود للمأمورين إلا فى قبول الأمر وطاعة الأمر ولا وجود لمن دون المأمورين إلا
بالمأمورين لوجب أن يكون الأمر الأول هو الذى أعطى جميع الموجودات المعنى الذى
به صارت موجودة فإنه أعطى كل شىء وجوده فى أنه مأمور ولا وجود له إلا من قبل
الأمر الأول وهذا المعنى هو الذى يرى الفلاسفة أنه عبرت عنه الشرائع بالخلق والاختراع
والتكليف فهذا هو أقرب تعليم يمكن أن يفهم به مذهب هؤلاء القوم من غير أن يلحق
ذلك الشنعة التى تلحق من سمع مذاهب القوم على التفصيل الذى ذكره الغزالى
وليس يفهم من مذهب ارسطو غير هذا ولا من مذهب افلاطون وهو منتهى ما
وقفت عليه العقول الانسانية . والفلسفة تفحص عن كل ما جاء فى الشرع فأن أدركته
استوى الادراك كان وكان ذلك أتم فى المعرفة وان لم تدركه أعلمت بقصور العقل
الانسانى عنه .

كذلك كان تمثيل المعاد للجمهور بالأمور الجسمانية أفضل من تمثيله بالأمور الروحانية
كما قال الله تعالى (مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار) فدل على أن
ذلك الوجود ، نشأة أخرى أعلى من هذا الوجود ، وطور آخر أفضل من هذا الطور
والذين شكوا فى هذه الأشياء وتعرضوا لذلك وأفصحوا به انما هم الذين يقصدون ابطال
الشرائع وابطال الفضائل وهم الزنادقة الذين يرون أن لا غاية للانسان إلا التمتع باللذات
وما قاله هذا الرجل (الغزالى) فى معاندتهم ، هو جيد .

وهذا الرجل كفر الفلاسفة بثلاث مسائل احداها هذه ، وقد قلنا كيف رأى الفلاسفة
فى هذه المسألة وانها عندهم من المسائل النظرية

والمسألة الثانية قولهم أنه لا يعلم الجزئيات وقد قلنا أيضاً أن هذا القول ليس من قولهم .
والثالثة قولهم بقدّم العالم وقد قلنا أيضاً إن الذى يعنون بهذا الاسم ، ليس هو المعنى
الذى كفرهم به المتكلمون ، وليس بكفرٍ من قال بالمعاد الروحانى ، ولم يقل بالمحسوس
اجمعا ، وجوز القول بالمعاد الروحانى .

« فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال »

و « الكشف عن مناهج الأدلة ، فى عقائد الملة »

« وتعريف ما وقع فيها بحسب التأويل من الشبه المزيفة والعقائد المضلة »

يقال أن الكتاب يعرف من عنوانه ، وعنوان كل من هذين الكتابين يدل على ما فيه
دلالة صريحة . فقد حاول ابن رشد فيهما ، أمرين من أصعب الأمور

الأول التوفيق بين الفلسفة والدين ومثله فى ذلك مثل الفارابى ، اذ حاول فى رسالة
مشهورة التوفيق بين رأيي الحكيمين افلاطون وارسطو ومثل الغزالى نفسه الذى انتهت
مبادئه الفلسفية (التى استنبطها فى بعض كتبه بعقله القوى وفكره الخارق ونفسه
المشتعلة) عند التصوف فلم ينل احدى السعادتين ، لا سعادة العقل ولا سعادة القلب ،
ولكن ابن رشد يمتاز بقوة لم تمنح الطبيعة مثلها سواه من فلاسفة العرب الا وهى رابطة
الجناس عند البحث الفلسفى ووزن الأشياء يميزان الاعتدال الدقيق .

فما رأيناه فى أحد كتبه يندفع وراء فكرة اندفاعا يفقده قيمة الحكم الصحيح
ولا شمنا من يراعه ربح الخيال الذى طار فى أفقه كثيرون من الفلاسفة . ونظن ذلك
راجعا إلى سببين الأول ايمانه الشديد بارسطو ، وارسطو اله المنطق ورب الاعتدال والثانى
تشبعه بالمبادئ القانونية التى من دأبها تحليل الأشياء ووزنها قبل اصدار حكم عليها .
وإلى القارئ دليلا على قولنا هذا من كتابيه المذكورين آفنا فقد تناول فى أولها
مسائل فى أعلى درجة من الأهمية العقلية والشرعية ، تناول تلك المسائل باحثا ومحللا
ومجادلا ولكن بدقة الجراح الحاذق الذى يشرح أصغر الشرايين والأوردة ولا يهرق
نقطة واحدة من الدم بدون فائدة .

بحث في الكتاب الأول في هل النظر في الفلسفة وعلوم المنطق مباح بالشرع أو محظور؟ واستدل على الإباحة بل الوجوب مستندا إلى آيات قرآنية وأحاديث نبوية ثم تدرج من ذلك إلى أن النظر في تلك العلوم لا يجوز أن يكون إلا بأنهم أنواع القياس وهو البرهان . وأثبت وجوب الاعتقاد في النظر في القياس العقلي وأنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله أى النظر في الفلسفة بالمنطق بما قاله من تقدمنا في ذلك سواء أكان ذلك الغير مشاركا لنا أم غير مشارك في الملة (أى فلاسفة اليونان وغيرهم من غير المسلمين)

ثم أثبت وجوب استعانة الحكيم بمن سبقه معتبرا ثمرات العقل البشرى منذ بداية تيقظه إرثا حلالا لمن يخلفون الحكماء . وأن يستعين في ذلك ، المتأخر بالمقدم ، فانه لو فرضنا صناعة الهندسة في وقتنا هذا معدومة ، وكذلك علم الهيئة ورام انسان واحد من تلقاء نفسه ان يدرك مقادير الأجرام السماوية وأشكالها وابعاد بعضها عن بعض لما أمكنه ولو كان أذكى الناس طبعاً .

ثم ضرب مثلاً بديعاً يصحح أن يكون مستنبطاً من صحف شو بنهور أو ارنست هيكل لولا صبغته الشرقية قال : « فهذه صناعة الفقه والفقه نفسه لم يكمل النظر فيها إلا في زمن طويل ، ولورام انسان اليوم من تلقاء نفسه أن يقف على جميع الحجج التي استنبطها النظار من أهل المذاهب في مسائل الخلاف التي وضعت المناظرة فيها بينهم في معظم بلاد الإسلام ما عدا المغرب لكان أهلاً أن يضحك منه لكون ذلك ممتنعاً مع وجود ذلك مفروغاً منه »

على أن هذا الحكيم الذى اشتهر بعجابه بارسطو الى درجة التقديس، لم يغب عن ذهنه وجوب الاحتراس لدى الدرس ووجوب « الانتقاد » قبل قبول الرأى حتى ولو كان رأى ارسطو نفسه قل : « ننظر في الذى قالوه وأثبتوه في كتبهم ، فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نهبنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم » . ثم اعترضته فكرة الخوف من قول الفقهاء

بأن من ينظر في كتب القدماء يضل ويكفر، فرد على ذلك بأبلغ رد قال : « وليس يلزم من أنه غوى غاوٍ بالنظر في تلك الكتب، وزل زال إما من قبل سوء ترتيب نظره فيها، أو من قبل غلبة شهواته عليه أو انه لم يجد معلماً يرشده الى فهم ما فيها أو من قبل اجتماع هذه الأسباب فيه أو أكثر من واحد منها أن نمنعها عن الذي هو أهل للنظر فيها فان هذا النوع من الضرر الداخِل من قبلها هو شيء لحقها بالعرض لا بالذات وليس يجب فيما كان نافعاً بطباعه وذاته أن يترك لمكان مضرّة موجودة فيه بالعرض - فان الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له »

وما زال كذلك الى ان فضل العقل على الشرع الظاهر فقال « فان الفقيه انما عنده قياس ظني والعارف عنده قياس يقيني ونحن نقطع قطعاً ان كل ما أدى اليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع ان ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي » وزاد على ذلك ان استشهد ببعض خصومه في الحكمة قال « قلنا أما لو ثبت الاجماع بطريق يقيني لم يصح وان كان الاجماع فيها ظنياً فقد يصح ولذلك قال أبو حامد وأبو المعالي وغيرهما من أئمة النظر انه لا يقطع بكفر من خرق الاجماع في التأويل »

وبعد ان استدل بقول الغزالي على عدم تكفير من يخرق الاجماع بالتأويل سأل القارئ سؤالاً جامعاً قال « فما تقول في الفلاسفة من أهل الاسلام كأبي نصر (الفارابي) وابن سينا فان أبا حامد (الغزالي) قد قطع بتكفيرهما في كتابه المعروف بالتهافت في ثلاث مسائل (١) في القول بقديم العالم و (٢) بأنه تعالى لا يعلم الجزئيات تعالى عن ذلك ! و (٣) في تأويل ما جاء في حس الأجساد وأحوال المعاد . قلنا الظاهر من قوله (الغزالي) في ذلك انه ليس تكفيره اياها في ذلك قطعاً اذ قد صرح في كتاب التفرقة ان التكفير بخرق الاجماع فيه احتمال .

ثم أخذ ابن رشد يبين خطأ الغزالي من حيث الادراك في النقطة الثانية قال « فقد نرى ان أبا حامد قد غلط على الحكماء المشائين (اتباع ارسطو أمثال ابن رشد نفسه) فيما نسب اليهم من أنهم يقولون انه قدس وتعالى لا يعلم الجزئيات أصلاً بل يرون انه

تعالى يعلمها بعلم غير مجانس لعلمنا ، وذلك ان علمنا معلوم للمعلوم به ، فهو يحدث بمحدثه ومتغير بتغيره وعلم الله سبحانه بالوجود على مقابل هذا (أى ضده) فانه علة للمعلوم الذى هو الموجود ، فمن شبه العلمين أحدهما بالآخر فقد جعل ذوات المتقابلات وخواصها واحدة وذلك غاية الجهل »

أنظر الى تلك الحملة المدبرة من أولها الى نهايتها . فقد نظمها عقل جبار ونفذها منطق سليم وصاغها قلم بليغ . لا يقصد ابن رشد الدفاع عن الفارابى وابن سينا انما يقصد الدفاع عن نفسه لأنه هو الذى تناول تلك النقط الثلاث بالبحث فأثبتها وقال بها واشتهرت برأيه فدفاعه ضد الغزالى الذى انتهى برمييه « بغاية الجهل » انما هو دفاع عن مبادئه البسه لباس الذود عن حكيمين سالفين من أنصار ارسطو وهما الفارابى وابن سينا

وقد تناول المسألة الثانية ، أولاً لأهميتها ثم عطف على الأولى وهى القول بقدم العالم فأفقدوها شأنها قال « وأما مسألة قدم العالم أو حدوثه فان الاختلاف فيها عندى بين المتكلمين من الأشعرية وبين الحكماء المتقدمين يكاد يكون راجعاً للاختلاف فى التسمية وبخاصة عند بعض القدماء » أفقدوها شأنها لأنه ردها الى خلاف لفظى وهو ما يسميه الفرنسيون (سوء تفاهم) أى ان الطرفين متفقان فى الجوهر ومختلفان فى العرض فما على راغب التوفيق الا أن يرد العرض الى الجوهر ، وهى مسألة لفظية فيزول الخلاف ، وقد أخذ فعلاً يبين تقسيم الموجودات من حيث القدم والحدوث الى ثلاثة أقسام ثم طرق من حيث يدرى باب البحث فى الزمان على طريقة الأقدمين وأظهر الفرق بين أفلاطون القائل بأن الماضى متناه ، وهذا الذى انتحله المتكلمون ، أما ارسطو وشيعته فيرون ان الماضى غير متناه كالحال فى المستقبل (غير المتناهى) واستنتج من ذلك انه لا يوجد محدث حقيقى ولا قديم حقيقى لأن المحدث الحقيقى فاسد ضرورة والقديم الحقيقى ليس له علة . ثم ضرب الضربة الأخيرة وهى ضربة معلم خبير بما يقول :

« فالمذاهب فى العالم ليست تتباعد كل التباعد حتى يكفر بعضها ولا يكفر فأن الآراء التى شأنها هذا يجب أن تكون فى الغاية من التباعد أعنى أن تكون متقابلة

(متناقضة) وبشبه أن يكون المختلفون في هذه المسائل العويصة إما مصيبين مأجورين وإما مخطئين معذورين ولذلك قال عليه السلام « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر » وأى حاكم أعظم من الذى يحكم على الوجود وهم العلماء .

ثم انتقل الى الكلام على الدلائل الثلاثة (١) الخطائية و (٢) الجدلية و (٣) البرهانية . وقال ان الايمان جائز بأى طريق يتفق للمؤمن من طرق الايمان الثلاث . فمثلاً يجوز تكفير « من يعتقد أنه لا سعادة أخروية ههنا ولا شقاء وانه انما قصد بهذا القول أن يسلم الناس بعضهم من بعض فى أبدانهم وحواسهم وانها حيلة وانه لا غاية للانسان الا وجوده المحسوس فقط » .

ثم عاد إلى الغزالي فلامه على أنه استعمل فى كتبه الطرق الشرعية والخطائية والجدلية وقال انه أضر بالشرع والحكمة معاً من حيث لا يدري لأنه كان يقصد خيراً وذلك أنه رام أن يكثر أهل العلم ، فكثر بذلك الفساد بدون كثرة أهل العلم وتطرق بذلك قوم إلى ثلب الحكمة وقوم إلى ثلب الشريعة وقوم إلى الجمع بينهما وبشبه أن يكون هذا أحد مقاصده بكتبه والدليل على أنه رام بذلك تنبيه الفطران لم يلزم مذهباً من المذاهب فى كتبه بل هو مع الأشاعرة أشعري ومع الصوفية صوفى ومع الفلاسفة فيلسوف وحتى أنه كما قيل :

يوماً يمان إذا لقيت ذا يمين وإن لقيت معدياً فعدنان

ثم انتقل الحكيم الأندلسى إلى قصد الشرع فقال ان مقصوده انما هو تعلم العلم الحق والعمل الحق . فالعلم الحق هو معرفة الله وسائر الموجودات على ما هى عليه ، والعمل الحق هو امتثال الأفعال التى تفيد السعادة وتجنب الأفعال التى تفيد الشقاء وقد قسم ابن رشد الناس إلى ثلاثة أقسام من حيث العلم بالشريعة والايمان بما ورد فيها .

(١) صنف ليس من أهل التأويل أصلاً وهم الخطايون الذين هم الجمهور الغالب

(٢) صنف من أهل التأويل الجدلى وهم الجدليون بالطبع أو بالطبع والعادة

(٣) أهل التأويل اليقيني وهم البرهانيون بالطبع والصناعة (الحكمة)

قال ابن رشد « وما يعلم تأويله إلا الله » بمثل هذا يأتي الجواب في السؤال عن الأمور الغامضة التي لا سبيل للجمهور إلى فهمها مثل قوله « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » . . فلا يجب أن تثبت التأويلات الصحيحة في كتب الجمهور فضلاً عن الفاسدة . والتأويل الصحيح هي الأمانة التي حملها الانسان فأبى أن يحملها وأشفق منها جميع الموجودات المذكورة في الآية « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال » ومن قبل التأويلات والظن بأنها يجب أن يصرح بها في الشرع نشأت فرق الاسلام حتى كفر بعضهم بعضاً وبدّع بعضهم بعضاً فأوقعوا الناس في تباغض وحروب ومزقوا الشرع وفرقوا الناس

ويرد ابن رشد هذه الخيبة التي لحقت المسلمين إلى جهل الأشعرية والمعتزلة بشرائط البرهان أى بالمنطق وان كثيراً من الأصول التي بنت عليها الأشعرية معارفها هي سوفسطائية وقد بلغ بهم التعدي الى أن فرقة منهم (الأشعرية) كفرت من ليس يعرف وجود الله بالطرق التي وضعوها في كتبهم لمعرفة !

ثم التفت ابن رشد إلى القرآن المحترم لفظة حكيم فقال « ان الكتاب العزيز إذا تؤمل وجدت فيه الطرق الثلاث الموجودة لجميع الناس (الخطائية) والطرق المشتركة لتعليم أكثر الناس (الجدلية) والخاصة (البرهانية) وقال ان أعقل أهل الاسلام هم الصدر الأول فانهم صاروا إلى الفضيلة الكاملة والتقوى باستعمال هذه الأقاويل دون تأويلات فيها ومن كان منهم وقف على تأويل لم ير أن يصرح به » .

وختم ابن رشد هذا الكتاب العجيب باپولوجيا ظريفة للتوفيق بين الفلسفة والدين أشبه بصلاة الاكليل بين عروسين متنافرين ، جمعت بينهما الضرورة وفرقتهما الطباع والأمزجة والميول ، فمثله كمثل قسيس حاذق يهيمه قبل كل شيء الخروج من مأزق قال : « ان الحكمة هي صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة فالأذية ممن ينسب اليها أشد الأذية مع ما يقع بينهما من العداوة والبغضاء والمشاجرة وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجواهر والغريزة !! »

أما كتاب « الكشف عن مناهج الملة » فهو مكمل لكتاب « فصل المقال » وتوسع في بعض أجزائه والمأم بنقط أغفلها المؤلف إما قصداً لضيق المجال وإما سهواً للشعب البحث وعادة الاستطراد في بعض الأحوال . وقد نبه الى ذلك في المقدمة ولكنه جعل غايته الأصلية فحص مسألة التأويل التي مر بها في « فصل المقال » مروراً دون أن يتعمق في أصولها وفروعها .

ثم بدأ بالكلام على الفرق الأربع المشتهرة لوقته وهي :

(١) الأشعرية (٢) المعتزلة (٣) الباطنية (٤) الحشوية .

وقال بضلال هذه الفرق الأربع وشرع في بيان ذلك بالكلام على ما قصد الشرع أن يعتقده الجمهور في الله تبارك وتعالى . قال : ان الفرقة الرابعة تقول ان طريق معرفة وجود الله هو السمع لا العقل . وقال ان هذه الفرقة بلغت بها فدامة العقل وبلادة القرينة الى أن لا تفهم شيئاً من الأدلة الشرعية التي نصبها النبي (ص) للجمهور فأمنت بالله من جهة السماع .

أما الفرقة الأولى فتصدق بوجود الله بالعقل ، ولكنهم سلكوا غير طرق الشرع ، وطريقتهم مبنية على نظرية حدوث العالم وانبنى على حدوث العالم تركيب الأجسام من أجزاء لا تتجزأ وان الجزء الذي لا يتجزأ يحدث وهو الجوهر الفرد وطريقتهم غير برهانية وغير مفضية ييقين الى وجود الله .

وقال أن للأشعرية طريقين أحدهما وأشهرهما ينبني على ثلاث مقدمات :

(١) ان الجواهر لا تنفك من الأعراض أى لا تخلو منها (٢) أن الأعراض حادثة

(٣) أن ما لا ينفك عن الحوادث حادث أعنى ما لا يخلو من الحوادث هو حادث .

وقد فند ابن رشد هذه المقدمات كلها بالبرهان المنطقي (ص ٣٤ و ٣٥ وما بعدهما

من كشف الأدلة) وأثبت أنها محفوفة بشكوك ليس في قوة صناعة الجدل حلها فاذاً يجب أن لا يجمل هذا مبدأ لمعرفة الله . وهذا سر قوله في أول الكتاب أن طريقة الأشعرية « غير مفضية ييقين الى وجود الله »

هذا هو الطريق الأول الذى سلكه معظم الأشعرية وعامتهم . وهو أشهر الطريقين كما قلنا وقد ظهر فساد . أما الطريق الثانى فهو الذى استنبطه أبو المعالى فى رسالته المعروفة بالنظامية ومبنى هذا الطريق على مقدمتين :

(١) أن العالم بجميع ما فيه جائز أن يكون على مقابل ما هو عليه . كأن تكون حركة كل متحرك فيه الى جهة ضد الجهة التى يتحرك اليها (لاحظ ما تشمله هذه النظرية من امكان انقلاب سائر القوانين الطبيعية كقانون الجاذبية وما يماثله)

(٢) أن الجائز محدث وله محدث أى فاعل صيره باحدى الجائزين أو لى أى وجهه نحو الحال الحاضرة بقوانينها وأنظمتها وهى التى عليها العالم .

وقد أظهر ابن رشد أن المقدمة الأولى خطائية قد تصلح لاقناع الجميع ولكنها كاذبة ومبطللة لحكمة الصانع الذى صنع الموجودات على وجه معين لحكمة معينة ، فأية حكمة فى الانسان اذا أبصر بأذنه ، وشم بعينه ؟

ويبدولنا أن ابن سينا أذعن لهذه المقدمة بوجه ما ، فلم يتردد ابن رشد فى الرد عليه . وقال عن رأيه : « أنه قول فى غاية السقوط » وقال عنه بازدراء : « وليس هذا موضع الكلام مع هذا الرجل ولكن للحرص على الكلام معه فى الأشياء التى اخترعها هذا الرجل استعجرنا القول الى ذكره »

الى هنا فرغ ابن رشد من تفنيد مقدمة أبى المعالى الأولى ، ثم انتقل الى الثانية فقال انها غير بينة بنفسها وانها من أعوص المطالب ولا يتبينها الا أهل صناعة البرهان والعلماء الذين خصهم الله بعلمه وقرن شهادتهم ، بشهادته وملائكته . ويقول بين السطور « وأنت يا أبا المعالى لست منهم وكفى على ذلك دليلاً أن أفلاطون وأرسطو اختلفا على تلك المقدمة . »

وأخذ ابن رشد نفسه يقدم مقدمات فى الارادة ضرورية لفهم القضية الثانية التى نحن بصددنا وأعقبها برأى قاطع وهو « أن الظاهر من الشرع انه لم يتعمق هذا التعمق مع الجمهور ولذلك لم يصرح لا بارادة قديمة ولا حادثة ، بل صرح بأن الارادة

موجدة موجوداتٍ حادثة ، وذلك في قوله تعالى « انما أمرنا لشيء اذا أردناه ، أن نقول له : كن فيكون ! » . فيتبين من هذا أن الطريقين المشهورين للأشعرية في السلوك الى معرفة الله ليست طرقاً نظرية يقينية ولا شرعية يقينية .

ثم انتقل فيلسوف قرطبة إلى نقد وسائل الصوفية فقال « ان طرقهم في النظر ليست نظرية (ويقصد بالطرق النظرية المركبة من مقدمات وافية) انما طريقتهم اشراقية فهم يزعمون أن معرفة الله وغيره من الموجودات شيء يأتى في النفس عند تجريدها من العوارض الشهوانية واقبالها بالفكر على المطلوب ولهم في الاحتجاج لتصحيح هذا ظواهر من الشرع كثيرة مثل قول الله « واتقوا الله ويعلمكم الله » .

وابن رشد يسلم بوجود هذه الطريقة ولكنها ليست عامة للناس لأنها لو كانت عامة ومقصودة لبطلت طريقة النظر وكان وجودها بين الناس عبثاً على أن القرآن كله دعوة إلى النظر والاعتبار وتنبيه على طرق النظر والتأمل والتفكير .

ثم انتقل إلى الكلام على المعتزلة فاعتذر عن الخوض في مذاهبهم بأنه لم يصل اليه في « جزيرة الاندلس » من كتبهم شيء ، ولكنه يحسب أن طرقهم يشبه أن تكون من جنس طرق الأشعرية . ونحن نظن أن ابن رشد كتب هذه الجملة بحذر وكياسة رغبة منه في تحاشي الكلام على طرق المعتزلة لانه لا يعقل أن تنقطع العلاقة العقلية بينه وبينهم بدعوى عدم وصول كتبهم الى أرض الاندلس . فإن الذي نقل كتب المتقدمين والمتأخرين إلى مدارس أندلس وجوامعها وبيوتها لا يضمن بنقل كتب المعتزلة والا فان كتب خصومهم من السنهين مشحونة بأخبارهم وأرائهم وشرح طرقهم للرد عليها .

على أننا نترك الأسباب التي دعت ابن رشد لأن يغفل ذكر المعتزلة وننتقل إلى كلامه على الطريق الشرعية التي اعتبرها الطريق المثلى فقد قال ان الطريق التي نبه الكتاب العزيز عليها ودعا الكل من بابها ، وجدت أنها تنحصر في جنسين .

(١) طريق الوقوف على العناية بالانسان ، وخلق جميع الموجودات من أجلها

ويسمى ابن رشد « دليل العناية »

(٢) الطريقة الثانية ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء والموجودات مثل اختراع الحياة والجناد والادراكات الحسية والعقل ويسميا ابن رشد « دليل الاختراع » .
وقال ان الأدلة على وجود الصانع منحصرة في هذين الجنسين ، دلالة العناية ودلالة الاختراع ، وهما بعينهما طريقة الخواص أى العلماء وطريقة الجمهور ، وانما الاختلاف بين المعرفتين فى التفصيل فالجمهور يقتصرون على المعرفة الأولى والعلماء يزيدون على ما يدرك بالحس ، ما يدرك بالبرهان .

وقال ابن رشد ان الدهريين مثلهم كمثل من أحس بالمصنوعات فلم يعترف أنها مصنوعات بل ينسب ما رأى فيها من الصنعة إلى الاتفاق والأمر الذى يحدث من ذاته .
وبعد أن فرغ ابن رشد من اثبات وجود الله بالطريقة المتقدمة تكلم على وحدانية الله فاثبت ذلك على الطريقة الشرعية أولاً بأيات قرآنية مثل « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا » وذكر أيضاً الآية « سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً . . . » وان من شئء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليماً غفوراً » وقد تناول ابن رشد هذه الآية وأخرج منها رداً مفجماً على الأشعرية فانهم يستنبطون منها دليل الممانعة وهو دليل لا يقدر الجمهور على فهمه فضلاً عن أن يقنع بصحة مدلوله لأن دليل الممانعة المذكور يعرف عند أهل المنطق بالقياس الشرطى المنفصل ويسميه الأشعرية « دليل السبر والتقسيم » والدليل الذى فى الآية هو الذى يعرف فى المنطق بالشرطى المتصل فالفرق بين الدليلين ظاهر .

وختم ابن رشد قوله فى هذه النقطة بهذه النتيجة العامة : من نظر فى كلمة « لا إله إلا الله » وصدق بالمعنيين الواردين فيها وهما الاقرار بوجود البارى ونفى الالهية عن سواه وكان تصديقه بالطريقة المذكورة آنفاً فهو المسلم الحقيقى وعقيدته إسلامية ومن لم تكن عقيدته مبنية على هذه الأدلة وان صدق بهذه الكلمة فهو مسلم مع المسلم الحقيقى باشتراك الاسم ، ثم تكلم عن الصفات الالهية فقال هى أوصاف الكمال الموجودة للانسان وهى العلم والحياة والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام وقال يسأل بعض الفرق هل الصفات

نفسية أو معنوية فلا شعرية تقول أنها معنوية وزائدة على الذات فالله عالم بعلم زائد على ذاته وهكذا يقول ابن رشد « وهذا قول النصارى الذين اعتقدوا أن الأقاليم ثلاثة الوجود والحياة والعلم وان واحداً منها قائم بذاته والآخر قائم بالقائم بذاته والعرض هو القائم بغيره والمؤلف من جوهر وعرض جسم ضرورة » ومكان الخلاف بين ابن رشد وبين العقيدة المسيحية أن النصارى اعتقدوا كثرة الصفات واعتقدوا أنها جواهر غير قائمة بغيرها بل قائمة بنفسها كالذات واعتقدوا أن الصفات التي بهذه الصفة هما صفتان العلم والحياة قالوا فالإله واحد من جهة ، ثلاثة من جهة ، يريدون أنه ثلاثة من جهة أنه موجود وحى وعالم وهو واحد من جهة أن مجموعها شئ واحد

ثم تكلم ابن رشد في معرفة تنزيه الخالق عن النقائص فأورد الأدلة الشرعية والعقلية على التنزيه ثم قال أن كل فرقة تأولت في الشريعة تأويلاً خاصاً بها وزعمت أنه الذي قصده الشرع حتى تمزق كل ممزق وبعد جداً عن موضعه الأول وقد قال صاحب الشرع « ستفترق أمتي على اثنتين وسبعين فرقة كلها في ... إلا واحدة » يعنى التي سلكت ظاهر الشرع ولم تؤوله تأويلاً صرحت به للناس

وأول من غير هذا الدواء الأعظم (أى سلوك ظاهر الشرع) هم الخوارج ثم المعتزلة ثم الاشعرية ثم الصوفية ثم جاء أبو حامد (يعنى الغزالى خصمه اللدود) فطم الوادى على القرى وذلك أنه صرح بالحكمة كلها للجمهور وبراء الحكماء على ما أداه اليه فهمه وذلك فى كتابه الذى سماه بالمقاصد فزعم أنه ألفه للمرد عليهم ثم وضع التهافت فكفرهم فى مسائل ثلاث (وهى التى سبق ذكرها) ثم قال فى كتابه « جواهر القرآن » أن الذى أثبتته فى التهافت هى أقاويل جدلية وان الحق إنما أثبتته فى « المضمون على غير أهله » وهذا كله خطأ بل ينبغى أن يقر الشرع على ظاهره ولا يصرح للجمهور بالجمع بينه وبين الحكمة .

ثم انتقل ابن رشد للمبحث الخامس فى معرفة الأفعال وهى إثبات خلق العالم وبعث الرسول والقضاء والقدر والتحوير والتعديل والمعاد . ويظهر للقارىء أن هذا المبحث

هو اكبر المباحث شأنًا لأن به محاولة حل مسائل الحياة والكون بعد أن مهد لها ابن رشد بأبحاثه وفنونه تمهيداً يدل على خطة مرسومة وغاية مقصودة وطريقة مختارة . فقال عن خلق العالم أن الذى قصده الشرع من معرفة العالم هو أنه مصنوع لله ومخترع له وأنه لم يوجد عن الاتفاق ومن نفسه وقد سلك الشرع بالناس فى تقرير هذا الأصل الطريق البسيطة القليلة المقدمات التى نتائجها قريبة من المقدمات المعروفة بنفسها أو بالبداهة . وينهى ابن رشد عن سلوك غير هذا النوع من الطرق بالجمهور ، ويرمى من يحميد عن الطريق البسيطة فى تفهيم الجمهور ومخاطبتهم بالجهل والزيغان . فقد لجأ الشرع إلى دليل قطعى بسيط مبناه على أصولين معترف بهما عند الجميع

الأول أن العالم بجميع أجزائه موافق لوجود الانسان ولوجود جميع الموجودات التى ههنا .

والأصل الثانى أن كل ما يوجد موافقاً فى جميع أجزائه لفعل واحد ومسدداً نحو غاية واحدة فهو مصنوع وان له صانعاً . وهذا النوع من الاستدلال هو النوع الموجود فى القرآن واستشهد ابن رشد ببعض آيات منها (ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً ؟) ثم قال تعليقاً على هذه الآية عبارة تدل على عدم علمه بدوران الأرض وهالك نصها : « أن الأرض خلقت بصفة يتأتى لنا المقام عليها وأنها لو كانت متحركة أو بشكل آخر غير الموضع الذى هى فيه أو بقدر غير هذا القدر لما أمكن أن توجد فيها ولا أن نخلق عليها » فقول ابن رشد « وأنها لو كانت متحركة » دليل قاطع على عدم علمه بأن الأرض متحركة فى الواقع فكيف يكون تعليل ابن رشد لهذا الدليل لو كان عالمًا بحركتها ودورانها ؟ وهل يصلح هذا الدليل لاقناع الجمهور فى كل العصور حتى عصرنا هذا الذى أصبح برنامج التعليم المدرسى فيه أوسع من سائر علوم القرون الوسطى ؟

واستمر ابن رشد فى الاستدلال بسكون الأرض على حكمة الخالق فقال « وأما قوله تعالى والجبال أوتاداً فإنه نبه بذلك على المنفعة الموجودة فى سكون الأرض من قبل الجبال فإنه لو قدرت الأرض أصغر مما هى ، كأن كانت دون الجبال ، لتزعزعت

من حركات باقى الاسطقتسات أعنى الماء والهواء ولتزلزلت وخرجت من موضعها . على أن ذكر هذه النصوص لا ينقص قدر ابن رشد لأنه لم يكن عالماً طبيعياً ولا فلكياً ولا رياضياً بل كان فيلسوفاً ولا لوم عليه اذا لم تصل اليه فى عصره وفى وطنه وبلغته تلك الحقائق العلمية التى اكتشفت بعده بأجيال ولكننا أوردنا هذه الملاحظة لتقدير قيمة الدليل الذى قدمه ابن رشد بحسن نية وجعله ميزاناً لاقتناع الجمهور بخلق العالم . ولعل مبالغة ابن رشد فى التبسط فى التدليل للعامة وشدة رغبته فى اقناع الجمهور بأمر سبق ثبوتها فى أذهانهم هو الذى دعاه إلى الطعن فى طرق الأشعرية الذين حاولوا التدليل ببراهين مركبة تنطبق على عقلية أرقى نوعاً من عقلية الجمهور ، لأن ابن رشد يعتقد اعتقاداً جازماً بأن « ليس يمكن للجمهور أن يتصوروا معنى ليس له مثال فى الشاهد » .

من أجل هذا يقول ابن رشد أن الآيات (وكان عرشه على الماء) و (خالق السموات والأرض فى ستة أيام) و (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) يجب أن لا يتأول شىء من هذا للجمهور ولا يتعرض لتنزيله على غير هذا التمثيل ومن غير ذلك فقد أبطل الحكمة الشرعية لأن العلماء فضلاً عن الجمهور لا يتصورون عقيدة الشرع فى العالم وهى أنه محدث وأنه خلق من غير شىء وفى غير زمان .

فينبغى الاكتفاء بهذا التمثيل وهو الموجود فى القرآن والتوراة وسائر الكتب المنزلة وأنه لم يثر الشبه فى الاسلام إلا أهل الكلام بتصریحهم فى الشرع بما لم يأذن به الله فلا هم أتبعوا ظواهر الشرع فكانوا ممن سعادته ونجاته باتباع الظاهر ولا هم أيضاً لحقوا بمرتبة أهل اليقين فكانوا ممن سعادته فى علوم اليقين .

ثم انتقل إلى الكلام على بعث الرسل وفيه موضعان الأول اثبات الرسل والثانى أن الذى يدعى الرسالة واحد منهم وليس بكاذب فى دعواه وأثبت ابن رشد بالمنطق تارة وبآيات القرآن طوراً أن الرسل موجودون وأن الأفعال الخارقة لا توجد إلا منهم وأن تلك الأفعال الخارقة أو المعجز دليل على تصديق النبى ويقصد ابن رشد بالمعجز شيئين « المعجز البرانى » الذى لا يناسب الصفة التى بها سعى النبى نبياً ويشبه أن

يكون التصديق الواقع من قبل المعجز البراني هو طريق الجمهور فقط والتصديق من قبل المعجز المناسب طريق مشترك للجمهور والعلماء فإن الشكوك والاعتراضات التي وجهها ابن رشد على المعجز البراني ليس يشعر بها الجمهور ، لكن الشرع إذا توكل وجد انه إنما اعتمد المعجز الأهلئ والمناسب لا المعجز البراني .

وانتقل ابن رشد إلى المسألة الثالثة وهي القضاء والقدر . وقد سلم من أول وهلة أنها أعوص مسائل الشرع لأن دلائل السمع والعقل فيها متعارضة . ففي القرآن آيات تدل بعمومها على أن كل شئ بقدر وأن الإنسان مجبر على أفعاله وفيه آيات تدل على أن للإنسان اكتساباً بفعله وأنه ليس مجبراً على أفعاله وقد أوردها وكذلك تلى الأحاديث في هذا أيضاً متعارضة .

وقد افترق المسلمون في هذا إلى فرقتين .

الأولى تعتقد أن اكتساب الإنسان هو سبب المعصية والحسنة ، ولكن هذا ترتب عليه العقاب ، والثواب وهي المعتزلة .

والثانية تعتقد أن الإنسان مجبور على أفعاله ومقهور وهي الجبرية ، وقد رامت الأشعرية أن تأنى بقول وسط بين القولين فقالوا أن للإنسان كسباً وأن المكتسب به ، والكسب مخلوقان لله تعالى .

وابن رشد ينتقد آراء الفرق الثلاث ويقول بأن الظاهر من مقصد الشرع ليس تفريق المسموع والمعقول وإنما قصده الجمع بينهما على التوسط الذي هو الحق في هذه المسألة وذلك أنه يظهر (كذا) أن الله خلق لنا قوى تقدر بها أن نكتسب أشياء هي اضداد لكن لما كان الاكتساب لتلك الأشياء لا يتم لنا إلا بمواتاة الأسباب التي مخرها الله لنا من خارج وزوال العوائق عنها كانت الأفعال المنسوبة إلنا تتم بالأمرين جميعاً فالأفعال المنسوبة إلنا يتم فعلها أيضاً بأرادتنا وموافقة الأفعال التي من خارج لها وهي المعبر عنها بقدر الله .

أما (الأفعال التي من خارج) فهي متممة للأفعال التي نروم فعلها أو عاتقة عنها

على مقتضى الحال ، وهى أيضاً السبب الذى يدفعنا لأن نريد أحد المتقابلين أى أحد شيئين مختلفين وبيان ذلك (وهنا دخل ابن رشد فى علم النفس على طريقة قديمة) أن الارادة انما هى شوق يحدث لنا عن تخيل ما أو تصديق بشئ ، وهذا التصديق ليس هو لاختيارنا بل هو شئ يعرض لنا عن الأمور التى من خارج مثال ذلك انه اذا ورد علينا أمر مشتهى من خارج اشتهيناه بالضرورة من غير اختيار فتحركنا اليه وكذلك اذا طرأ علينا أمر مهروب عنه من خارج كرهناه باضطراب فهربنا منه واذا كان هكذا فأرادتنا محفوظة بالأمور التى من خارج ومربوطة بها (وهنا يقرر ابن رشد مذهب الديتميزم وتأثيره فى أفعال الانسان) ويقول « ولما كانت الأسباب التى تجرى من خارج تجرى على نظام محدود وترتيب منضود فواجب أن تكون أفعالنا تجري على نظام محدود ، وليس يوجد هذا الارتباط بين أفعالنا والأسباب التى من خارج فقط بل وبينها وبين الأسباب الموجودة فى داخل أبداننا والنظام المحدود الذى فى الأسباب الداخلة والخارجة أعنى التى لا تحمل هو القضاء والقدر الذى كتبه الله على عباده وهو اللوح المحفوظ وعلم الله بالأسباب هو العلة فى وجودها وعلمه بها هو علمه بالغيب الذى انفرد به وحده »

وانتقل ابن رشد الى الكلام على الجور والعدل وهى المسألة الرابعة فتحفز كعادته فى مستهل كل بحث للرد على الأشعرية فى رأيهم فى العدل والجور ووصفه بأنه فى غاية من الشناعة لأنهم ميزوا بين الله والانسان . فقال ان أفعال الانسان توصف بانها عدل أو جور لكونه مكلفاً بالشرع ، وأما من ليس مكلفاً ولا داخلاً تحت حجر الشرع فليس يوجد فى حقه فعل هو جور أو عدل بل كل أفعاله عدل . وهذا القول فى ذاته صحيح لأن الأفعال بوصف كونها أفعالاً مجردة من قيود الأوصاف الشرعية لا يجوز أن تنسب الى شئ ، دون آخر فضلاً عن أن الأفعال يجب تقديرها من وجهة النظريات نسبياً بحسب مقتضيات حدوثها زماناً ومكاناً ودافعاً وسبباً وعلة وأثراً

ولكن ابن رشد يقيم القيامة على الأشعرية لقولهم بهذا رأى ، على أن ابن رشد

نفسه لم يتمكن من الاقدام على هذا البحث بدون الالتجاء الى التأويل الذى نهى عنه وعابه على أرباب المذاهب الأخرى وذلك فى عرض الاستشهاد بالآيات القرآنية التى يظهر فيها التناقض فقال : « فان قيل فما الحكمة فى ورود هذه الآيات المتعارضة فى هذا المعنى حتى يضطر الأمر فيها الى التأويل وأنت تنفى التأويل فى كل مكان ؟ » وكان جوابه أن تفهيم الأمر على ما هو عليه الجمهور فى هذه المسألة اضطره الى هذا وفى هذا القدر كفاية .

المسألة الخامسة وهى مسألة المعاد قال انه مما اتفقت على وجوده الشرائع واختلفت فى الشهادات التى مثلت بها للجمهور تلك الحال الغائبة ، وذلك أن من الشرائع من جعله روحانياً أعنى للنفوس ومنها من جعله للأجسام والنفوس معاً .

وأن الشريعة الاسلامية رأت أن التمثيل بالمحسوسات هو أشد تفهيماً للجمهور والجمهور اليها عنها أشد تحركاً فآخبرت أن الله تعالى يعيد النفوس السعيدة الى أجساد تنعم فيها الدهر كله بأشد المحسوسات تنعيماً وهو مثلاً الجنة ، وأنه تعالى يعيد النفوس الشقية الى أجزاء تتأذى فيها الدهر كله بأشد المحسوسات أذى وهو مثلاً النار

والشرائع كلها متفقة على أن للنفوس من بعد الموت أحوالاً ، وذكر ابن رشد انقسام المسلمين فى تلك المسألة الى ثلاث فرق وان بعض هذه الثلاث قد انقسم الى طائفتين ثم قال : « والحق فى هذه المسألة أن فرض كل انسان فيها هو ما أدى اليه نظره فيها بعد أن لا يكون نظراً يفضى الى ابطال الأصل جملة وهو انكار الوجود جملة ، فان هذا النحو من الاعتقاد يوجب تكفير صاحبه فهذا كله ينبئ على بقاء النفس أو تنبيهه على ذلك »

وهذا ختام بحث ابن رشد وقد نبهنا الى أهم ما جاء فيه وبيننا على قدر ما استطعنا وجهة نظر هذا الحكيم العميق الفكر البعيد النظر

تهافت الفلاسفة

وتهافت التهافت

لهذين الكتابين شأن عظيم جداً في تاريخ الفلسفة العربية ، فأولهما تهافت الفلاسفة ألفه أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، وبفضل هذا الكتاب وكتاب «أحياء علوم الدين» وصفه أنصاره ومريدوه بأنه الامام ، وحجة الاسلام ، لأنه نصب نفسه مدافعاً عن العقيدة ، ومحامياً عن الشريعة ضد الفلسفة والفلاسفة في جميع الأجيال وعلى مر القرون من أول حكماء اليونان ، الذين يسميهم القدماء الى ابن سينا وهو أحدث الفلاسفة عهداً في عصر الغزالي .

وليس هنا مجال الكلام على هذا الكتاب تقريرياً أو نقداً إنما محل الكلام عليه عند فحص مؤلفات الغزالي وترجمته وتلخيص تعاليمه . أما تهافت التهافت فهو الرد الذي دبحه يراع ابن رشد بعد ظهور الكتاب في عالم الوجود بنحو مائة عام . وقد وضع ابن رشد نفسه بالنسبة للفلسفة والفلاسفة في موضع يعادل مكانة الغزالي بالنسبة للشريعة أي انه نصب نفسه محامياً ومدافعاً ومحارباً ومقارعاً ونصيراً وظهيراً للحكماء من أول عهد الحكمة اليونانية الى وقته أي بعد وفاة الغزالي بنحو قرن من الزمان .

فان الغزالي توفي في مستهل القرن السادس للهجرة وابن رشد توفي في ختامه فحق لابن رشد أن يكون حجة الحكمة والحكماء كما كان الغزالي حجة الاسلام ، فان كتاب التهافت بقي مائة سنة قائماً يشن الغارة على الفلسفة والفكر الحر ويسفّه أحلام الحكماء ويكفرهم ويلعنهم ويتوعدهم بعذاب النار ويستنزل عليهم سخط الخلق وغضب الخالق ولم يتقدم أحد من فلاسفة الشرق أو الغرب للرد على هذا الكتاب أو تفنيد بعض ما جاء فيه مما يلحق العار والخزي بالفلاسفة أجمعين .

فلما تصدى ابن رشد لهذا الكتاب بالنقد والتفنيد محاً عن أسلافه وأساتذته وتلاميذه واخوانه من أهل الحكمة وصمة لم يقدر غيره على محوها عنهم وأعاد الحياة الى الفلسفة

فاستردت تاجها وبهجتها ، بعد أن أدعى الغزالي فؤادها وأصمى مهجتها ، ولنبدأ الآن بالكلام على تهافت التهافت ، بعد مقدمة وجيزة من تهافت الفلاسفة ، تبين اسمه والغرض من وضعه :

اسم الكتاب وغايته

قال الغزالي « ابتدأت بتحرير هذا الكتاب ، ردّاً على الفلاسفة القدماء ، مبيّناً تهافت عقيدتهم وتناقض كلماتهم فيما يتعلق بالالهيات ، وكاشفاً عن غوائل مذهبهم وعوراته التي هي على التحقيق مضاحك العقلاء ، وعبرة عند الأذكياء ، أعني ما اختصوا به عن الجماهير والدعاه ، من فنون العقائد والآراء » .

الفلاسفة الأقدمون وقصد الغزالي من تأليف الكتاب

وطريقة الغزالي هي حكاية مذهب الفلاسفة على وجهه (أي على حقيقته) ليتبين للملحدين ، تقليداً ، اتفاق كل مرموق من الأوائل والأواخر (أي كل شهير منهم) على الإيمان بالله واليوم الآخر . وعندئذ يتحقق كل من يظن أن التجمل بالكفر تقليداً ، يدل على حسن آرائه ، أو يشعر بفظنته أن هؤلاء الذين تشبه بهم من زعماء الفلاسفة ورؤسائهم براء عما قذفوا به من جحد الشرائع ، وانهم مؤمنون بالله ومصدقون لرسوله ولكنهم اختبطوا في تفاصيل بعد هذه الأصول قد زلوا فيها فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل .

سبب وضع الكتاب

يقول الغزالي أنه رأى طائفة ، يعتقدون في أنفسهم التميز عن الاتراب بالفطنة ، قد رفضوا طوائف الاسلام والعبادات واستحقروا شعائر الدين . وخلعوا ربقة ولا مستند لكفرهم غير سماع الغي وسماعهم أسماء هائلة كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وأمثالهم واطناب متبعيهم في وصف عقولهم ودقة علومهم (الهندسة والمنطق والطبيعة والالهيات) واستبدادهم بفرط الذكاء والقول عنهم أنهم مع رزانة عقولهم وغزارة فضلهم منكرون للشرائع والنحل ، وجاحدون لتفاصيل الأديان ، يعتقدون أنها نواميس مؤلفة

وحيل مزخرفة . فلما قرع ذلك سمعهم (أى سمع هذه الطائفة التى تعتقد فى نفسها التميز عن الاتراب فى الذكاء) ووافق ما حكى لهم ، من عقائد الفلاسفة طبعهم ، تجملوا باعتقاد الكفر تحيزاً إلى غمار الفضلاء بزعمهم وانخرطوا فى سلوكهم ، وترفعوا عن مساعدة الجماهير والدهماء واستنكافوا من القناعة بأديان الآباء

الاقتصار على أرسطو

وقد قال الغزالي فى أول الأمر ، أنه سيقصر على اظهار التناقض فى رأى مقدمهم الذى هو الفيلسوف المطلق والمعلم الأول فإنه رتب علومهم وهذبها بزعمهم (كذا) وحذف الحشو من آرائهم واثنى ما هو الأقرب الى أصول أهوائهم (أى الفلاسفة) وهو أرسطاطاليس وقد رد على كل من قبله حتى على أستاذه الملقب عندهم بالفلاطون الالهى ولكن الحقيقة هى أن الغزالي لم يقتصر على أرسطو كما ادعى بل خلط آراء جميع الفلاسفة .

علوم الفلاسفة

يقول الغزالي أنه سيقصر بحثه على المسائل الالهية ، لأن العلوم الحسائية والهندسية والمنطقية لا مجال فيها للنقد ، وأن الفلاسفة يستدلون على صدق علومهم الالهية بظهور العلوم الحسائية والمنطقية ويستدرجون بها ضعفاء العقول ولو كانت علومهم الالهية متقنة البراهين نقية عن التخمين كعلومهم الحسائية والمنطقية ، لما اختلفوا فيها كما لم يختلفوا فى الحسائية . وطبعاً لم يكن الغزالي يستطيع الرد عليها لأنه معترف بصحة العلوم الحسائية والمنطقية .

فلاسفة الاسلام

ثم المترجمون لكلام أرسطو ، لم ينفك كلامهم عن تحريف وتبديل ، محوج إلى تفسير وتأويل ، حتى أثار ذلك أيضاً نزاعاً بينهم ، وأقومهم بالنقل والتحقيق من المتفلسفة الاسلامية الفارابى أبونصر وابن سينا ، فلنقتصر على أبطال ما اختاره وآياه الصحيح من مذاهب رؤسائهم فى الضلال (كذا) فليعلم أنا مقتضرون على رد مذاهبهم بحسب نقل هذين الرجلين .

بيان المسائل العشرين

التي أظهر فيها الغزالي تناقض الفلاسفة في كتابه

- (١) مذهب الفلاسفة في أزلية العالم
- (٢) مذهبهم في أبدية العالم
- (٣) قولهم إن الله صانع العالم وإن العالم صنعه
- (٤) عجزم عن اثبات الصانع
- (٥) تعجيزهم عن إقامة الدليل على استحالة آلهين
- (٦) مذهبهم في نفي صفات الله
- (٧) قولهم أن ذات الأول (الله) لا ينقسم بالجنس والفصل
- (٨) قولهم أن الأول موجود بسيط بلا ماهية
- (٩) تعجيزهم عن بيان الأول ليس بجسم
- (١٠) القول بالدهر ونفي الصانع لازم للفلاسفة
- (١١) تعجيزهم عن القول بأن الأول يعلم غيره
- (١٢) تعجيزهم عن القول بأن الأول يعلم ذاته
- (١٣) قولهم أن الأول لا يعلم الجزئيات
- (١٤) قولهم أن السماء حيوان متحرك بالارادة .
- (١٥) ما ذكروه من الغرض المحرك للسماء
- (١٦) قولهم أن نفوس السموات تعلم بالجزئيات الحادثة في هذا العالم .
- (١٧) قولهم باستحالة خرق العادات
- (١٨) تعجيزهم عن البرهان العقلي على أن نفس الانسان جوهر قائم بنفسه ليس بجسم ولا عرض
- (١٩) قولهم باستحالة الفناء على النفوس البشرية
- (٢٠) انكارهم البعث وحشر الأجساد مع التلذذ والتألم في الجنة والنار بالالذات والآلام الجسمانية .

ويرى القارىء الملم بهذه المباحث أن هذه المسائل العشرين تناولت جميع مشاكل العلوم الالهية والطبيعية قديماً وحديثاً عند فرق المسلمين وغيرهم من أصحاب العقائد ماعدا ما كان سبب القول به جهل المفكرين كالمسائل ١٤ و ١٥ و ١٦ .

أما الرياضيات فلا معنى لانكارها ، ولا للمخالفة فيها ، والمنطقيات فهى نظر فى آلة الفكر فى المعقولات ولا يتفق فيه خلاف به مبالاة (أى ذو شأن) وبعد أن أسهب الغزالي بسط تلك المسائل وتفنيدها على طريقته وزعمه بأدلة ومسائل وبيانات ومسالك وطرق وأصول وفروع ومقامات واعتراضات لا عدد لها ختم كتابه العجيب بقوله : « فإن قال قائل قد فصلتم مذاهب هؤلاء افتقطعون بكفرهم ووجوب القتل (١) لمن يعتقد اعتقادهم قلنا (أى الغزالي) تكفيرهم لا بد منه فى ثلاث مسائل

- (١) مسألة قدم العالم وقولهم أن الجواهر كلها قديمة
- (٢) قولهم أن الله تعالى لا يحيط علماً بالجزئيات الحادثة من الأشخاص
- (٣) فى انكار بعث الأجساد وحشرها .

فهذه المسائل الثلاث ، لا تلائم الاسلام بوجه . ومعتقدها معتقد كذب الأنبياء وأنهم ما ذكروه إلا على سبيل المصلحة تمثيلاً للجواهر الخلق وتفهيماً . وهذا هو الصريح الذى لم يعتقده أحد من فرق المسلمين .

فأما ما عدا هذه المسائل الثلاث من تصرفهم فى الصفات الالهية واعتقاد التوحيد فيها فمذهبهم قريب من مذاهب المعتزلة ومذهبهم فى تلازم الأسباب الطبيعية هو الذى صرح المعتزلة به فى التولد ، وكذلك جميع ما نقلناه عنهم قد نطق به فريق من فرق الاسلام الا هذه الأصول الثلاث

فمن ير تكفير أهل البدع من فرق الاسلام يكفرهم أيضاً به ومن يتوقف على التكفير يقتصر على تكفيرهم بهذه المسائل ، وأما نحن فلسنا نؤثر الآن الخوض فى تكفير أهل البدع ، وما يصح منه وما لا يصح ، كيلا يخرج الكلام عن مقصود

وبديهي أن هذه النتيجة الحتمية الودية المتواضعة، لا تلتئم في شيء مع الطبل والزمر الذى بدأ به الغزالي كتابه فقد يخيّل لقارئه في أوله انه سيخرق الأرض وسيبلغ الجبال وأنه سيهدم قبة الفلسفة على رؤوس الحكماء ولن يبق في بناء الاكروبول حجراً على حجر ! وهو ذلك الهيكل الفخم الذى شاده القدماء لعبادة منرفا الهة الحكمة

ويظهر أن الغزالي كان يعرف طريقة «التمهيد بالمدايع» فانه حشد في مقدمة كتابه ألفاظاً وجملاً طنانة تدخل الرعب الى قلوب خصومه ، ثم أخذ يناقش الفلاسفة بطريقة شبه منطقية ويعزز قوله في كل حين بعبارات دينية يعد من لا يؤمن بها كافراً ، وهو بين جملة وجملة يلعن الفلاسفة ويسبهم ويحقرهم ويستعبد بالله منهم ومن كفرهم .

كل ذلك على أشكال تهيج غيظ الحليم ، وتبعث المتعجل على سوء الظن به لا سيما وان الغزالي يناقش الفلاسفة بأصول علومهم كأنه واحد منهم قد أتقن معرفتهم ووقف على أسرارهم ، ثم شهر عليهم هذه الحرب الشعواء في كتبه وهذا الذى ينفر القارىء الخالى الغرض من الغزالي مع انه ذو شخصية مقبولة وكان من أئمة الفكر البشرى في الشرق .

وأغرب مما تقدم هبوط الغزالي من أفق التهويل بتلك الخاتمة البسيطة التى سحب بها معظم إجماعه ، فقد سبق فكفر الفلاسفة في عشرين مسألة وتصدى الرد عليهم من ارسطو الى ابن سينا ناقداً ومفنداً ومظهراً أوجه الخلاف والتناقض .

ثم اختصر العشرين مسألة واقتصر على ثلاث منها ، ولو كانت غايته الحقيقية تكفير الفلاسفة في تلك المسائل الثلاث لاقتصر عليها دون سواها ، ولكن الغزالي كالمصارع الشهير تقدم الى الميدان ليعجز خصمه في حركة بدنية تقتضى متهى المهارة والحدق ، فلما أتى بتلك الحركة استعذب الاستحسان فاستمر في ابداء الخفة حتى أتى على عشرين حركة يقدر مصارعه على اتيان سبع عشرة منها ، ولما أراد الانسحاب من ساحة المصارعة قال بصوت خافت للجمهور الذى استولت عليه الدهشة :

« سادقنى اننى أظهرت لكم مهارتى والحقيقة اننى وخصمى متفقان الا فى ثلاث حركات
ولعلنا نتفق فيها أيضاً اذا طالت فرصة الامتحان »

وبعد هذه المقدمة التى لم يكن عنها بد سنترك المجال لابن رشد وهو خصم الغزالى
ونذه ومصارعه وصارعه فى ميدان الفكر الفلسفى



لابن رشد فى كتبه التى وقعت لنا ترتيب وتقسيم وتبويب وطرق تنطبق على
أصول العلم الحديث فى التأليف .

أما كتاب التهافت الذى نحن بصددده فقد اتبع فيه طريقة الغزالى فى « تهافت
الفلاسفة » فصار يقتبس المتن جملة جملة ويردفها بالرد عليها وأخذ فى ذلك الى قدر كبير
ثم أدرك أن هذه الطريقة تقتضى تدوين كتابين فى كتاب وفى ذلك من الملل والتطويل
ما فيه فصار يكتب فى اقتباس أوائل جمل الغزالى ويختتمها بقوله « الى قوله كذا أو الى آخر
ما قال ابو حامد » وهذه الطريقة تقتضى وجود الكتابين امام القارىء ليقرا كلام الغزالى
ورد ابن رشد عليه .

ولكن دون هذه الغاية مصعب شتى، منها أن ابن رشد لا يشير الى الصفحات أو النبذ
لأنها لم تكن فى زمنه معينة بأعداد ، ولم تكن النسخ متحدة فى الكتابة والشكل حتى
ينطبق ما فى نسخته على ما فى عداها مما يوجد بين أيدي الجمهور ، ومنها أن الشخص
الشرقى الذى طبع هذين الكتابين جمعهما فى جلد واحد ولا بد من فصلهما قبل البدء
فى التمتع بقراءتهما ، هذا فضلاً عن أن الطمع وعدم الذوق اديا بالناشر الى « تزيين »
هوامش الكتابين بكتاب ثالث تأليف من يدعى « خوجه زاده أو أحد علماء الروم »
وهو لا شك من علماء زمن الانحطاط فى الشرق الاسلامى وليس لكتابه قصد أو قيمة
ولا عجب فان هذا العالم الرومى ! تصدى للتحكيم بين الغزالى وابن رشد فيما اختلفا
فيه ، وهذه العبارة وحدها كافية للدلالة على قلة فهمه لأن التحكيم والتوفيق بينهما

ومنحيلان اذ كل منهما في اتجاه من الفكر ، والعقيدة ، والرأى ، والطريقة ، يناقض ويخالف اتجاه الآخر .

وبهذا وبذاك أصبح كتاب التهافت ، في حاله الحاضرة ، عبارة عن مجموعة ملازم مطبوعة على ورق نباتى بحروف سقيمة في صحف متلاصقة مزدحمة تصد بمنظرها وقطعها اشجع القراء وأشدهم تعلقاً بالحكمة . ولا شك في أن المقارنة بين كتب الفلسفة العربية ، وبين ما يمثّلها من الكتب الأفرنجية كافية للدلالة على مكانة الحكمة من عقولنا وقلوبنا ، بل كافية للدلالة على مركزنا العقلى فى العالم .



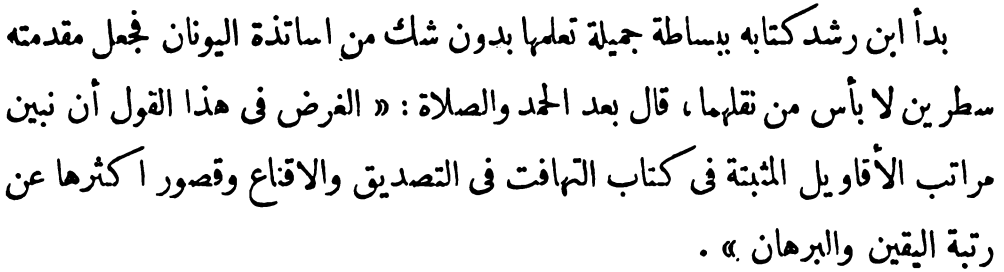
على أن لكتاب تهافت التهافت ، قيمة خاصة لأنه عبارة عن دفاع فيلسوف عن الفلسفة ، وفي نظرنا أنه أعظم دفاع لأعظم فيلسوف عربى مسلم ، ضد أعظم مفكر شرعى مسلم

يظهر ابن رشد فى هذا الكتاب بمظهر الواقف على الفلسفة فى جميع أدوارها ، العالم بما جاء فى كتب القدماء والمحدثين من اليونان والعرب ، كذلك يظهر بمظهر المدافع الرزين الثابت الجأش الذى لا يخرججه افتراء الخصم عن حلمه ، ولا يخرججه سوء النية فيقول ما لا يليق بالعاقل ولا تستهويه رغبة الانتصار على خصمه ، الى الاستهانة بقدره ولا يدفعه حب الانتصار لاسلافه من الفلاسفة الى مظاهرتهم بغير حق

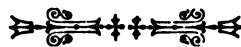
ويظهر لنا أنه لا يحترم أحداً بعد اليونان ، ولا يحترم فى اليونان أحداً قبل ارسطو أو بعده . وهو لا يغمط حق ابن سينا والفارابى ولكنه يتناول مبادئهما بالنقد الصحيح كذلك لا يندفع فى الطعن على الغزالى بل كثيراً ما يذكره بالعلم والفطنة

ويقول فى مواضع كثيرة « قال أبو حامد رضى الله عنه أو رحمه الله » ولكنه لا يقلل عشرته فى أما كن معينة فيحمل على طريقته فيقول مثلاً عنه : « وهذه المعاندة كما قلنا خبيثة وهى من مواضع الابدال المغالطة ان كنت تعلم (للقارىء) كتاب السفسطة »

ويظهر أن خوجه زاده المتوفى في أواخر القرن التاسع للهجرة خدم العلم بأمر واحد، ليس هو تطوعه للتحكيم بينهما، إنما تأليفه دعا الى عناية بعض الترك بالكتابين ونشرهما ليكون لخوجه زاده، شرف الخلود على الهوامش. فتمد دلنا الاختبار على أن المؤلفات الرشدية التي لا مساس لها الا بالفلسفة قد فنت وبادت واحرقت



لاريب عندنا في أن الحقيقة لا تحتاج الى زفة ، لأنها غنية بقوتها وجمالها عن كل المظاهر



كلام ابن رشد على الكتاب

قال لا يمتنع عند الفلاسفة أن يعدم العالم بأن ينقل الى صورة أخرى لأن العدم يكون هنا تابعاً وبالعرض وانما الذى يمتنع عندهم أن يعدم الشيء الى لا موجود أصلاً لأنه لو كان ذلك كذلك لكان الفاعل يتعلق فعله بالعدم أولاً وبالذات ، فهذا القول كله أخذ فيه الغزالي بالعرض على انه بالذات والنزاع الفلاسفة منه ما قالوا بامتناعه ! واكثر الاقاويل التى ضمن هذا الكتاب هي من هذا القبيل ولذلك كان أحق الاسماء بهذا الكتاب كتاب التهافت المطلق أو تهافت ابى حامد لا تهافت الفلاسفة . وكان أحق الاسماء بهذا الكتاب (أى تهافت التهافت تأليفه) كتاب التفرقة بين الحق والتهافت من الاقاويل (ص ٤١ طبع مصر)

وقال : اذا كان الغرض انما هو أن نبين أن ما يحتوى عليه هذا الكتاب من الأقاويل هي أقاويل غير برهانية واكثرها سفسطائية واعلى مراتبها أن تكون جدلية فان الأقاويل البرهانية قليلة جداً وهي من الاقاويل بنزلة الذهب الابريز من سائر المعادن والدر الخالص من سائر الجواهر (ص ٨٤)

وقل فى عرض الكلام على علم الله بالكون والموجودات « وهذا كاف فى تهافت هذا القول كله وسخفه فلنسم هذا الكتاب التهافت باطلاق لا تهافت الفلاسفة (ص ٩١)

وقال : هذا الفصل (يقصد مسألة نفى الصفات وهي السادسة فى كلام الغزالي) كله مغالطة سفسطائية فهذا الرجل (ابو حامد) فى أشال هذه المواضع فى هذا الكتاب لا يخلو من الشرارة أو الجهل ، وهو أقرب الى الشرارة منه الى الجهل (ص ٩٩)

وقال : وجميع ما فى هذا الكتاب لأبى حامد على الفلاسفة ، وللفلاسفة عليه أو على ابن سينا كلها أقاويل جدلية من قبل اشتراك الاسم الذى فيها (ص ١٠٠)

وتكلم فى مواطن كثيرة عن الغزالي نفسه بما اقتضاه سياق الموضوع ، فقال فى كلام أبى حامد ضد رأى الفلاسفة فى أزلية العالم (المسألة الأولى من المسائل العشرين)

هذا القول هو في أعلى مراتب الجدل وليس هو موصلاً موصل البراهين لأن مقدمته عامة والعامة قريبة من المشتركة ، ومقدمات البراهين من الأمور الجوهرية المتناسبة . وهذا كما لا يخفى على القارئ رد منطقي لأن الغزالي عالج جميع المسائل على طريقة المنطق التي أتقنها لتكميل نفسه أو لمحاربتهم

وحاول الغزالي في هذه المسألة الأولى بعينها أن يضرب أمثالا من الشرع فرد عليه ابن رشد : هذا المثال الوصفي الوهمي من الطلاق أوهم أنه يؤكد به حجة الفلاسفة وهو يوهنها لأن الاشعرية لها أن تقول انه كما تأخر وقوع الطلاق في اللفظ الى وقت حصول الشرط من دخول الدار أو غير ذلك كذلك تأخر وقوع العالم عن إيجاد الباري اياه الى وقت حصول الشرط الذي تعلق به وهو الوقت الذي قصد فيه وجوده . لكن ليس الأمر في الوصفيات كالأمر في العقليات .

وقال عن أدلة الغزالي في المسألة ذاتها : فقد تبين لك انه ليس في الأدلة التي حكاه عن المتكلمين في حدوث العالم كفاية في أن تبلغ مرتبة اليقين وانها ليست تلحق بمراتب البرهان ولا الأدلة التي أدخلها وحكاها عن الفلاسفة في هذا الكتاب لاحقة بمراتب البرهان وهو الذي قصدنا بيانه في هذا الكتاب .

وقال في الرد على قول الغزالي بالزام الفلاسفة ان وصفوا الامكان بحدوث النفس غير منطبع في المادة أن يكون الامكان الذي في القابل كالامكان الذي في الفاعل لأن يصدر عنه الفعل فيستوى الإمكانان

ويقصد الغزالي من هذا أن تكون النفس مفارقة أى بعيدة عن الجسم وتدبره من خارج كما يدبر الصانع المصنوع فلا تكون النفس في البدن كما لا يكون الصانع هيئة في المصنوع أخرى وهذا الغرض ينطبق على توفيق العلماء الى ابتداع سفينة حربية أو طائرة أو سيارة تتحرك بقوة كهربائية بعيدة عنها ومستقلة دونها

وقد فرض ابن رشد امكان ذلك قائلاً انه لا يمتنع أن يوجد من الكمالات التي تجري مجرى الهيئات ما يفارق محله ولو صح هذا أيضاً فهو لا يرى منفعة في تساوى

الامكانين، الامكان الذى فى القابل والامكان الذى فى الفاعل، ولا فائدة فى تشبيههما . ولما شعر أبو حامد أن هذه الأقاويل كلها إنما تفيد شكوكاً وحيرة عند من لا يقدر على حلها وهو من فعل الشرار السفسطائيين أقر بأنه إنما يحارب الفلاسفة بمعارضته الاشكالات التى تنتج من أقوالهم باشكالات من نوعها ويقصد بالاشكالات شكوكاً تعرض عند ضرب أقاويل الفلاسفة بعضها ببعض ومثل الغزالى فى ذلك كمثل المتقاضى الذى يتقن فهم قانون الاجراءات ليستفيد منه وسائل لارباك خصمه بالدفع الفرعية . وقد كان ابن رشد قاضياً ابن قاض ابن قاض كما كان فيلسوفاً منطقياً ولذا تمكن من تلخيص أقوال الغزالى ومعرفة الجيد منها من الردىء وعاب عليه أنه يلجأ إلى معاندة غير تامة لأن المعاندة التامة إنما هى التى تقضى أبطال مذهب الخصم بحسب الأمر فى نفسه لا بحسب قول القائل فقال : وقد كان واجباً على أبى حامد أن يبتدىء بنقير الحق قبل أن يبتدىء بما يوجب حيرة الناظرين وتشكيكهم لئلا يموت الناظر قبل أن يقف على ذلك الكتاب أو يموت هو (الغزالى) قبل وضعه . ويشير ابن رشد بذلك إلى وعد الغزالى بتأليف كتاب يظهر به الحق دون أن ينصر مذهباً مخصوصاً غير « مشكاة الأنوار » ونظن أنه « مقاصد الفلاسفة » ولكن هذا الكتاب لم يكن وصل إلى المغرب . لأن ابن رشد يقول « والظاهر من الكتب المنسوبة اليه أنه راجع فى العلوم الالهية إلى مذهب الفلاسفة ، ومن اثبتها فى ذلك وأصحها ثبوتاً له كتابه المسمى بمشكاة الأنوار » .

ولا يتردد ابن رشد فى الاعتراف بصحة أقاويل الغزالى كقوله فى ص ٧٨ « قد أجاد فى أكثر ما ذكره من وصف مذاهب الفلاسفة فى كون البارى تعالى واحداً مع وصفه بأوصاف كثيرة ومثاله أيضاً لدى قوله « أن العالم ليس موجوداً فى باب الاضافة وإنما هو موجود فى باب الجوهر والاضافة عارضة له » .

وقد رد الغزالى على الفلاسفة فى شخص ابن سينا فجاء ابن رشد ونصر الغزالى على ابن سينا وقهر الصحة فى رأى ابن سينا على صور الاجرام السماوية وما يدرك من

الصور المفارقة للمواد (ص ٤٥) ومعنى هذا أن ابن رشد كتب كتابه لنصرة الفلاسفة ولكنه لم يتحيز لرأى من آرائهم وأقر الغزالي في بعض المسائل المنسوبة اليهم وحاول تفسيرها وتبين أسباب خطأ الحكماء فيها وهذا أعظم دليل على حسن النية حيال خصم عنيد نسب ابن رشد اليه سوء النية في أكثر من مكان من كتابه

وهاك نموذجاً من كلام هذا الحكيم الجليل عند الكلام على القول « بأن الواحد بالعدد البسيط لا يصدر عنه إلا واحد بسيط بالعدد لا واحد بالعدد من جهة وكثرة من جهة وأن الوجدانية منه هي علة وجود الكثرة » . فقد تناول الغزالي أصل هذا القول المنسوب إلى ابن سينا ظناً منه أنه يفهم الفلاسفة في النيل من أحدهم فقال ابن رشد « هذه الأقاويل التي هي أقاويل ابن سينا ومن قال بمثل قوله وهي غير صحيحة وليست جارية على أصول الفلاسفة ولكن ليست تبلغ من عدم الاقتناع المبالغ الذي ذكره هذا الرجل (الغزالي) وليس هذا القول من الشناعة في الصورة التي أراد أن يصورها هذا الرجل حتى ينفر بذلك النفوس عن أقوال الفلاسفة ويبخسهم في أعين النظر فإن كان الرجل قصد قول الحق في هذه الأشياء فغلط فهو معذور وإن كان عِلْمَ التمويه فيها فتصده فإنه لم يكن هنالك ضرورة داعية له فهو غير معذور وإن كان إنما قصد بهذا ليعرف أنه ليس عنده قول برهاني يعتمد عليه في هذه المسألة أعني المسألة التي هي « من أين جاءت الكثرة ؟ » فهو صادق في ذلك إذ لم يبلغ الرجل المرتبة من العلم المحيط بهذه المسألة وهذا هو الظاهر من حاله فيما بعد وسبب ذلك أنه لم ينظر الرجل إلا في كتب ابن سينا فلحقه القصور في الحكمة من هذه الجهة وقد خرج الغزالي بأقوال ابن سينا في مسألة علم الباري بذاته وبسائر الموجودات فإن ابن سينا إنما رام أن يجمع بين القول بأنه لا يعلم إلا ذاته ويعلم سائر الموجودات بعلم أشرف مما يعلمها به الإنسان إذ كان ذلك العلم هو ذاته . وهذا قول جميع الفلاسفة واللازم عن قولهم وقد أخرجت مكابرة الغزالي صدر ابن رشد في هذه المسألة فقال « إذا تقرر هذا لك فقد بان لك قبح ما جاء به هذا الرجل من الحمل على الحكماء مع

ما يظهر من موافقة الرجل لهم في أكثر آرائهم » . وهذا مصداق لما هو مشهور عن الغزالي من أنه يوافق الفلاسفة في معظم أقوالهم ولكنه أراد الظهور بمخالفتهم ليحظى بشرف الانتصار للشريعة أو أنه كان مع الحكماء بعقله ومع الشرع بقلبه فغلب القلب على العقل في مواطن كثيرة ولكن اقتناع العقل كان ظاهراً في كل حال .

ثم حمل ابن رشد على الغزالي حملته الكبرى وهي من أقوى وأبلغ ما كتبه حكيم غضبان للحكمة والحق ، ومن سياق الحديث يفهم سبب تلك الحملة :

«وأما قوله أن قصده هنا ليس هو معرفة الحق وإنما قصده ابطال أقاويلهم وإظهار دعاوهم الباطلة فقصده لا يليق به بل بالذين في غاية الشر وكيف لا يكون ذلك كذلك ومعظم ما استفاد هذا الرجل من النباهة وفاق الناس فيما وضع من الكتب التي وضعها إنما استفادها من كتب الفلاسفة ومن تعاليمهم ؟ وهبك اذا أخطأوا في شيء فليس من الواجب أن ينكر فضلهم في النظر وما راضوا به عقولنا ولو لم يكن لهم إلا صناعة المنطق لكان واجباً عليه وعلى جميع من عرف مقدارها شكرهم عليها وهو معترف بهذا المعنى وداع اليه وقد وضع فيها التآليف ويقول أنه لا سبيل الى أن يعلم أحد الحق إلا من هذه الصناعة وقد بلغ الغلو فيها الى أن استخرجها من كتاب الله تعالى أفيجوز لمن استفاد من كتبهم وتعاليمهم مقدار ما استفاد هو منها حتى فاق أهل زمانه وعظم في ملة الاسلام صيته وذكره أن يقول فيهم هذا القول ويصرح بذهمهم على الإطلاق وذهم علومهم ؟

« وان وضعنا أنهم يخطئون في أشياء من العلوم الالهية فأنا إنما نحتج على خطأهم من القوانين التي علمونا إياها في علومهم المنطقية ونقطع أنهم لا يلزمونا على التوقيف على خطأ ان كان في آرائهم فان قصدهم إنما هو معرفة الحق ولو لم يكن إلا هذا التصد لكان ذلك كافياً في مدحهم مع أنه لم يقل أحد من الناس في العلوم الالهية قولاً يعتد به وليس بمعصم أحد من الخطأ إلا بأمر خارج عن طبيعة الانسان فلا أدري ما حمل هذا الرجل على مثل هذه الأقاويل أسأل الله العصمة والمغفرة من الزلل ! »

على أن ابن رشد كان في كتابه حائراً بين أمرين الأول ضرورة الرد على الغزالي بما يقنع ويفهم ويعجز الخصم والثاني بغضه التصريح بالحكمة للجمهور خوفاً عليهم من الضلال بالقليل الذي لا يشفي الغليل فهو يقول « ولذلك كان هذا الكتاب أحق باسم التهافت من الفرقين جميعاً وهذا كله عندي تعدى على الشريعة وفحص عما لم تأمر به شريعة لكون قوى البشر مقصرة عن هذا وذلك ان ليس كل ما سكت عنه الشرع من العلوم يجب أن يفحص عنه ويصرح به للجمهور وربما أدى اليه النظر أنه من عقائد الشرع فانه يتولد عن ذلك مثل هذا التخليط العقيم فينبغي أن يمسك من هذه المعاني كل ما سكت عنه الشرع ويعرف الجمهور أن عقول الناس مقصرة عن الخوض في هذه الأشياء ولا يتعدى التعليم الشرعي المصرح به في الشرع اذ هو التعليم المشترك للجميع الكافي في بلوغ ذلك »

هذا ابن رشد - أشهر فلاسفة الاسلام وقد رماه معاصروه بالاحاد ونسبوا اليه التعطيل وحاكمه الأمير في مجلس حافل وعاقبه بالنفي ولو أن ابن رشد عاصر الغزالي لكان أشد خصومة ولقامت بينهما حرب عقلية أشد من التي أثار الغزالي غبارها بكتابه وحركها الوليد بعد موت خصمه بمائة عام - تقول أن ابن رشد يظهر في كل صفحة من صفحاته أنه أصدق دفاعاً عن الشريعة وأشد مناصرة لاحكامها من ذلك الرجل الذي لقبوه بحجة الاسلام .

فان ابن رشد في مواضع كثيرة من كتبه ينهى عن بذل الحكمة وعن تأويل ظاهر الشرع ويتناول تلك المسائل كارهاً الخوض فيها وناقماً على من هتك ستر الحكمة ورفع النقاب عن وجهها وأباح لساثر الأنظار أن تطأها يقول « فلنرجع الى ما كنا بسبيله مما دعت اليه الضرورة وإلا فالله العالم والشاهد والمطلع إنا ما كنا نستجيز أن نتكلم في هذه الأشياء ، هذا النحو من التكلم » .

وقد كتب ابن رشد كتاب التهافت إقذاً للعقول من الضلال أي أنه تدارك الخطر الذي يحدثه الغزالي فعمله مفهوم لأنه لغاية معلومة . أما الغزالي فقد انتدب نفسه لغير

سبب وقصد الى تشويش الأفكار باعترافه . فأيهما أقرب الى الصواب وأيهما أكثر ارتباطاً بالحق وأيهما أحسن نية وأسلم طوية وأشرف قصداً من صاحبه ؟ .

لقد أجاب ابن رشد على هذا السؤال في عرض الكلام على « الغرض المحرك للسماء إذ قال الفلاسفة أن السماء حيوان مطيع لله تعالى » وهي المسألة الخامسة عشرة من مسائل الغزالي : قال ابن رشد ردّاً عليه « قد يظن أن هذا الكلام لسخفه يصدر عن أحد رجلين إما رجل جاهل وإما رجل شرير وأبو حامد مبرأ عن هاتين الصفتين ولكن قد يصدر من غير الجاهل قول جاهلي ومن غير الشرير قول شريرى على جهة الدور ولكن يدل هذا على قصور البشر فيما يعرض لهم من التقلبات »
فما أصدق هذا القول على من تصدى للحق ظناً منه أنه يقلل من نوره !

رد ابن رشد على طريقة الغزالي

يتهم ابن رشد خصمه الغزالي بأنه سفسطائي وأنه تناول مسائل كثيرة عظيمة تحتاج كل واحدة منها الى أن تفرد بالفحص عنها وعمّا قاله القدماء فيها وأخذ المسألة الواحدة بدل المسائل الكثيرة هو موضع مشهور من مواضع السفسطائيين السبعة والغلط في واحد من هذه المبادئ هو سبب لغلط عظيم في إجراء الفحص عن الموجودات

ويتهمه أيضاً بأنه سريع الأخذ بأبسط الخطأ المنسوب الى الحكماء شديد الفرح به فانه لما ظفر في مسألة « جواز وجود كثرة في المعلول الأول عن غير علة » بوضع فاسد منسوب الى الفلاسفة ولم يجد مجيباً يجيبه بجواب صحيح ، سر بذلك وكثرت المحالات اللازمة لهم ، وكل ما جر باطلاً يسره .

أما ما عده من أجناس العلم الطبيعي الثمانية فصحيح على مذهب أرسطوطاليس وأما العلوم التي عددها على أنها فروع له فليست كما عددها أما الطب فليس هو من العلم الطبيعي وهو صناعة تؤخذ مبادئها من العلم الطبيعي لأن العلم الطبيعي نظري والطب عملي أما الكلام في المعجزات فليس فيه للقدماء من الفلاسفة قول لأن هذه كانت

عندهم من الأشياء التي لا يجب أن يتعرض للفحص عنها وتعمل مسائل فإنها مبادئ الشرائع والفاحص عنها والمسلّك فيها يحتاج إلى عقوبة عندهم مثل من يفحص عن سائر مبادئ الشرائع العامة مثل هل الله تعالى موجود ، وهل السعادة موجودة ، وهل الفضائل موجودة ؟ وأنه لا يشك في وجودها وإن كيفية وجودها هو أمر إلهي معجز عن إدراك العقول الانسانية

أن ما حكاه الغزالي في الرؤيا عن الفلاسفة فلا أعلم أحداً قال به من القدماء والذي يقول القدماء في أمر الوحي والرؤيا إنما هو عن الله تعالى بتوسط موجود روحاني ليس بجسم وهو واهب العقل الانساني عندهم وهو الذي يسميه الخذاق منهم العقل الفعال ويسمى في الشريعة ملكا .

ولا حاجة بنا إلى القول بأن الاقدام على تأليف تهافت التهافت كاف بذاته للتدليل على رسوخ قدم ابن رشد في الفلسفة بأصولها وفروعها والالام بتاريخ مذاهب الفلاسفة القدماء منهم والحديثين لما يقتضيه وضع مثل هذا الكتاب من الاستشهاد بأقوالهم ومقارنتها ببعضها وبغيرها وتقدها وتوضيح ما أشكل فهمه منها على أذهان خصوصها

عن فلاسفة اليونان

- قال في كلام الفلاسفة أن العالم مؤلف من خمسة أجسام
- (١) جسم لا ثقيل ولا خفيف وهو الجسم السماوي الكروي المتحرك
 - (٢) » ثقيل بالاطلاق وهو الأرض
 - (٣) » خفيف بالاطلاق وهي النار
 - (٤) » ثقيل بالاضافة إلى الأرض وهو الماء
 - (٥) » خفيف بالاضافة إلى النار وهو الهواء

ثم قال للقارىء « لا تطمع هنا في تبين هذا ببرهان وإن كنت من أهل البرهان فانظره في مواضعه » وتكلم عن حركة الأكر السماوية وقال أنها تتحرك من جهات محدودة

أما ما يرى ارسطو أن للسماء يميناً وشمالاً وأماماً وخلفاً وفوقاً وأسفل فاختلاف الأجرام السماوية في جهات الحركات هي لاختلافها في النوع وهو شيء يخصها أعني أنها تختلف أنواعها باختلاف جهات حركاتها وكون الجرم السماوي الأول حيواناً واحداً بعينه اقتضى له طبعه ، أما من جهة الضرورة أو من جهة الأفضل ، أن يتحرك بجميع أجزائه حركة واحدة من المشرق إلى المغرب وسائر الأفلاك اقتضت لها طبيعتها أن تتحرك بخلاف هذه الحركة وأن الجهة التي اقتضتها طبيعة جرم الكل حينئذ أفضل الجهات لكون هذا الجرم هو أفضل والأفضل ، في المتحركات واجب أن يكون له الجهة الأفضل

مسألة علم الله بالموجودات

وهي من جزئيات الثلاثة عشرة من مسائل الغزالي

قال ابن رشد : ان العلم يتكثر بتكثر المفعولات للعالم لأنه إنما يعقلها على النحو الذي هي عليه موجودة وهي علة علمه وليس يمكن أن تكون المعلولات الكثيرة تعلم بعلم واحد ولا يكون العالم الواحد علة لصدور معلولات كثيرة عنه في الشاهد مثال ذلك أن علم الصانع الصادر عنه مثلاً « الخزانة » غير العلم الصادر عنه « الكرسي » لكن العلم القديم مخالف في هذا العلم المحدث والفاعل القديم للفاعل المحدث فأن قيل فما تقول أنت في هذه المسألة وقد أبطلت مذهب ابن سينا في علة الكثرة فما تقول أنت في ذلك .

فأنه قد قيل أن فرق الفلاسفة كانوا يجيبون في ذلك بواحد من ثلاثة أجوبة

(١) الكثرة جاءت من قبل الهيولى

(٢) الكثرة جاءت من قبل الآلات

(٣) الكثرة جاءت من قبل الوسائط

أما فرقة ارسطو فقد صححوا الجواب الثالث . وهذا لا يمكن الجواب فيه في هذا الكتاب بجواب برهاني ولكن لا نجد لارسطو أول من اشتهر من قدماء المشائين هذا

القول الذى نسب اليهم إلا (لفرفور يوس الصورى) صاحب مدخل علم المنطق .
والرجل لم يكن من حذاقهم والذى يجرى عندى على أصولهم أن سبب الكثرة هي
مجموع الثلاثة الأسباب أعنى المتوسطات والاستعدادات والآلات .

وقال عند الكلام على تعجيز أبى حامد الفلاسفة عن اثبات الصانع : أن
وجود المتقدمات عند الفلاسفة ليس شرطاً في وجود المتأخرات بل ربما كان الشرط
فساد بعضها وأمثال هذه العلل (وجود المطر عن الغيم والغيم عن البخار) هي عندهم
مرتقية لعلة أولى أزلية تنتهى الحركة اليها في علة من هذه العلل في وقت حدوث المعلول
الأخير مثال ذلك أن سقراط إذا ولد افلاطون فأن المحرك الأقصى لتحريك عندهم
في حين توليده اياه هو الفلك أو النفس أو العقل أو جميعها أو البارى ولذلك يقول ارسطو
أن الانسان يولده انسان وكذا الأفلاك بعضها عن بعض إلى أن ترتقى إلى محركها
ومحركها إلى المبدأ الأول فأذن ليس الانسان الماضى شرطاً في وجود الانسان الآتى

في علم البارى بالجزئيات

وكذلك الأمر في الكلّيات والجزئيات يصدق عليه سبحانه أن يعلمها ولا يعلمها ، هذا
هو الذى يقتضيه أصول الفلاسفة القدماء منهم ، وأما من فصلّ فقال أنه يعلم الكلّيات
ولا يعلم الجزئيات فغير محيط بمذهبهم ولا لازم لأصولهم فأن العلوم الانسانية كلها
انفعالات وتأثيرات عن الموجودات والموجودات هي المؤثرة فيه وعلم البارى سبحانه
هو المؤثر في الموجودات والموجودات هي المنفعلة عنه وإذا تقرر هذا فقد وقعت الراحة
من جميع المشاجرة بين أبى حامد وبين الفلاسفة في هذا الباب وغيره .

نقد الفلاسفة

قلنا أن ابن رشد لم يتحيز لفريق دون آخر بل كان في كتابه حكماً بين الجميع
قال في مسألة القول بأن الله ليس هو فاعلاً وإنما هو سبب من الأسباب التى لا يتم
الشيء إلا به وقدم العالم وحدوثه « هذا القول هو من جواب ابن سينا في هذه المسألة

عن الفلاسفة وهو قول سفسطائي . والحال في وجود الحركة أنها دائماً تحتاج إلى المحرك والمحققون من الفلاسفة يعتقدون أن هذه هي حال العالم الأعلى مع الباري فضلاً عما دون العالم العلوي وبهذا تفارق المخلوقات المصنوعات فأن المصنوعات إذا وجدت يمترن بها عدم ، يحتاج من أجله إلى فاعل به يستمر وجوده

لما أراد ارسطو أن يبين كون الأرض مستديرة بطبائعها أنزلها محدثة ليتصعد العقل منها العلة ثم ينقلها إلى الأزلية وذلك في مقاله الثانية من السماء والعالم ، وذلك لأن الفلاسفة تقول أن من قال أن كل جسم محدث وفهم من الحدوث الاختراع من لا موجود أى من عدم فقد وضع معنى من الحدوث لم يشاهده قط ، وجملة الأمر أن الجسم عندهم سواء كان محدثاً أو قديماً ليس مستقلاً في الوجود بنفسه وهي عندهم في الجسم القديم واجبة على نحو ما هي عليه في الجسم المحدث ، إلا أن الخيال لا يساعد كيفية وجودها في القديم كما يساعد في الجسم المحدث

وأما الدهرية فالحس هو الذي اعتمدت عليه وذلك أنه لما انقطعت الحركات عندها بالجرم السماوى وانقطع به التسلسل ظنت أنه قد انقطع بالعقول وانقطع بالحس . وأما الفلاسفة فأنهم اعتبروا الأسباب حتى انتهت إلى الجرم السماوى ثم اعتدوا الأسباب المعقولة فأفضى بهم الأمر إلى موجود ليس بمحسوس ، هو علة ومبدأ للموجود المحسوس .

وأما الأشعرية (وهم أهل السنة الذين تلقى ابن رشد أصول الفقه في صباه على طريقته كما تقدم في ترجمته) فأنهم جحدوا الأسباب المحسوسة أى لم يقولوا بكون بعضها أسباباً لبعض وجعلوا علة الموجود المحسوس موجوداً غير محسوس بنوع من الكون غير مشاهد ولا محسوس وأنكروا الأسباب والمسببات وهو نظر خارج عن الانسان بما هو انسان .

مسألة كون الجسم ليس واجب الوجود بذاته ، اذا وضع واجب الوجود موجوداً مركباً من أجزاء قديمة من شأنها أن يتصل بعضها ببعض كالحال في العالم وأجزائه صدق على العالم وأجزائه أنه واجب الوجود ، هذا كله اذا سلمنا أن ههنا موجوداً

هو واجب الوجود و يظهر ضعف هذه الطريقة عند من يفرض جسماً بسيطاً غير مركب من مادة وصورة وهو مذهب المشائين .

ولذلك يقول الاسكندر أنه لا بد أن يكون هننا قوة روحانية سارية في أجزاء العالم كما يوجد في أجزاء الحيوان الواحد قوة تربط أجزاء بعضها ببعض ، والفرق هننا أن الرابط الذى فى العالم قديم ، من قبل أن الرابط قديم ، فتدرك الخالق هذا النقص الذى لحقه بهذا النوع من التمام الذى لا يمكن فيه غيره كما يقوله أرسطو فى كتاب الحيوان وقد رأينا فى هذا الوقت كثيراً من أصحاب ابن سينا لموضع هذا الشك قد تأولوا على ابن سينا هذا رأى وإنما سمي فلسفته المشرقية لأنها مذهب أهل المشرق فانهم يرون أن الالهة عندهم هى الأجرام السماوية على ما كان يذهب اليه وهم مع هذا يضعفون طريق أرسطو فى اثبات المبدأ الأول من طريق الحركة .

الكلام عن واجب الوجود

مذهب ابن رشد فى الذات والصفات أن الصفات لاصقة بالذات وقائمة بها ومتحدة معها وليست زائدة عنها . وأن الجسم السماوى عند الفلاسفة ليس مركباً من مادة وصورة وإنما هو عندهم بسيط وقد يظن أنه يصدق عليه أنه واجب الوجود بمجوهه

مذهب النصارى فى الأقايم الثلاث

أنهم ليس يرون أنها صفات زائدة على الذات وإنما هى عندهم متكثرة بالحد وهى كثيرة بالقوة لا بالفعل ولذلك يقولون ثلاثة لا واحد أى واحد بالفعل ثلاثة بالقوة الفلاسفة تقول أن البارى تعالى واحد مع وصفه بأوصاف كثيرة ان تسمية البارى عقلاً هو الاسم الأخص بذاته عند الفلاسفة المشائين بخلاف ما يراه أفلاطون من أن العقل غير المبدأ الأول وانه لا يوصف بأنه عقل .

للموجود وجودان، وجود أشرف ووجود أخس والوجود الأشرف هو علة الأخس وهذا هو معنى قول القدماء أن العلوى تعالى هو الموجودات كلها وهو المنعم بها والمفاعل لها

ولذلك قال رؤساء الصوفية « لا هو إلا هو » ولكن هذا كله هو من علم الراسخين في العلم ولا يجب أن يكتب هذا ولا أن يكلف الناس اعتقاد هذا ولذلك ليس هو من التعليم الشرعى ومن أثبتته في غير موضعه فقد ظلم كما أن من كتمه عن أهله فقد ظلم

نظام الكون في نظر ابن رشد والفلاسفة

مذهب القوم القديم (يقصد قدماء الفلاسفة وهو يتبعهم) هو أن ههنا مبادئ للأجرام السماوية والأجرام السماوية تتحرك اليها على جهة الطاعة لها والمحبة فيها والامتثال لأمرها إياها بالحركة والفهم عنها وان الاجرام إنما خلقت من أجل الحركة وهي حية ناطقة تعقل ذواتها وتعقل مبادئها المحركة لها وهذه المبادئ ليست مادة فوجب أن يكون جوهرها علماً أو عقلاً أو كيف شئت أن تسميها .

وهذه المبادئ المفارقة وجودها (يقصد بذلك مفارقة للمواد أى مختلفة عنها) مرتبطة بمبدأ أول فيها ولولا ذلك لم يكن ههنا نظام موجود . وقد صح عند الفلاسفة أن الأمر بهذه الحركة هو المبدأ الأول وهو أن سبحانه وتعالى قد أمر سائر المبادئ أن تأمر سائر الأفلاك بسائر الحركات وان بهذا الأمر قامت السموات والأرض كما أن بأمر الملك في المدينة قامت جميع الأوامر الصادرة ممن جعل له الملك ، ولاية أمر من أمور المدينة الى جميع من فيها من صنوف الناس وهذا التكليف والطاعة اللذين وجبا على الانسان ، لكونه حيواناً ناطقاً .

انطباع غريزة القدماء من حكماء اليونان في ابن رشد

في كثير من مواضع هذا الكتاب يظهر ابن رشد اشمئزازه من البحث في المسائل الالهية والفلسفية التي يعدها أمهات المسائل ويستغفر لنفسه من الخوض فيها وما ذلك إلا تقليداً للقدماء كما ورد على لسانه في صفحة ١٢١ من تهافت التهافت قال في موضع : « فالله يأخذ الحق ممن تكلم في هذه الأشياء الكلام العام ويجادل في الله بغير علم »

وقال في آخر الكتاب :

« وقد رأيت أن أقطع ههنا القول في هذه الأشياء والاستغفار من التكلم فيها ولولا ضرورة طلب الحق مع أهله ما تكلمت في » ذلك علم الله بحرف . »

اتساع علمه في الفلسفة

الكلام على طبيعة الوجود بالفعل وهي التي يسمونها بالهيولى

فقد نسب أبو حامد فيها الى الفلاسفة قولاً لم يقله واحد لا سيما فيما يتعلق بحدوث النفس فأجابه ابن رشد قال :

لا أعلم أحداً من الحكماء قال إن النفس حادثة حدوثاً حقيقياً ثم قال أنها باقية إلا ما حكاه عن ابن سينا وإنما الجميع على أن حدوثها هو إضافي وهو إتصالها بالامكانات الجسمية القابلة لذلك الاتصال ، كالامكانات التي في المرايا لاتصال شعاع الشمس بها وهذا الامكان عندهم ليس هو من طبيعة امكان الصور الحادثة الفاسدة بل هو امكان على نحو ما يزعمون أن البرهان أدى اليه وان الحامل لهذا الامكان طبيعة غير طبيعة الهيولى . ولا يقف على مذاهبهم في هذه الأشياء إلا من نظر في كتبهم على الشروط التي وضعوها مع فطرة فائقة ، ومعلم .

مسئلة الزمان

وهي من أهم المسائل عند الفلاسفة القدماء والمحدثين وقد تكلم فيها ابن رشد توضيحاً ونقداً لما كتبه الغزالي فتناول أزلية العالم وحدوثه وأدلة الفلاسفة وأهل الشرع في الأمرين فان الفلاسفة يقولون بالأزلية والشرعيون يقولون بالحدوث ، فمثلاً أبو الهذيل العلاف موافق للفلاسفة في أن كل محدث فاسد وأشد التزاماً لأصل القول بالحدوث . ومخالف لهم في كون العالم أزلياً من الطرفين وابن رشد يرد عليه بقوله أنه اذا سلم أن العالم لم يزل امكانه وان امكانه يلحقه حالة ممتدة معه يقدر بها ذلك الامكان كما يباحق الموجود

الممكن اذا خرج الى الفعل على تلك الحال وكان يظهر من هذا الامتداد أنه ليس له أول صح لهم ان الزمان ليس له أول إذ ليس هذا الامتداد شيئاً إلا الزمان وتسمية من سماه دهرًا لا معنى لها .

واذا كان الزمان مفارقاً للامكان والامكان مفارقاً للوجود المتحرك فالوجود المتحرك لا أول له لأن الفلاسفة لا يضعون للحركة الدورية ابتداءً فليس يلزمهم أن يكون لها انقضاء لأنهم لا يضعون وجودها في الماضي وجود الكائن الفاسد وان ما دخل في الماضي بالحقيقة فقد دخل في الزمان وما دخل في الزمان فالزمان يفضل عليه بطرفيه وله كل وهو متناه ضرورة وكل مبدأ حادث هو حاضر وكل حاضر قبله ماض وما يوجد مساوقاً للزمان والزمان مساوق له فقد يلزم أن يكون غير متناه .

وقد تخلص ابن رشد من هذا البحث النظري الجليل الى الكلام على أزلية العالم فقال أن أهل الشرع جعلوا امتناع الفعل أزلياً ووجوده أزلياً وذلك غاية الخطأ لكن اطلاق اسم الحدوث على العالم كما أطلقه الشرع أخص به من اطلاق الاشعرية لأن الفعل بما هو فعل فهو محدث وإنما يتصور القدم فيه لأن هذا الاحداث والفعل المحدث ليس له أول ولا آخر ولذلك عسر على أهل الاسلام أن يسمى العالم قديماً والله قديم وهم لا يفهمون من القديم إلا ما لا علة له .

ولا يخفى أن مسألة قدم العالم هي أول مسألة تناولها البحث بين الغزالي وابن رشد وهي أولى المسائل التي يكفرون بها الفلاسفة

دفاع ابن رشد عن الفلسفة

قال ابن رشد ، وهذا يعد من أبلغ وأجمل ما كتبه فيلسوف عربي ، في شرح مذاهب الفلاسفة ، بعد أن زد على بعض مسائل الغزالي ، وقصده أن يكون قوله مما يحرك من أحب الوقوف على الحق ، ويحرضه على النظر في علوم الفريقين ، أهل الشرع وأهل الحكمة ، ويعمل في هذا كله على ما وقفه الله اليه وقيمة هذا القول تاريخية ولا تفيد عقلاً حالاً .

« أما الفلاسفة فقد طلبوا معرفة الموجودات بعقولهم لاستنذين الى قول من يدعوه الى قبول قوله من غير برهان بل ربما خالف الأمور المحسوسة ، وقد أثبتوا أسباباً أربعة هي الصورة والمادة والفاعل والغاية .

« أما السبب الفاعل وهو الذى يسميه جالينوس القوة المصورة أو الخالق وشك هل هي الاله أو غيره لأن السبب الفاعل هو معطى النفس ومعطى الصورة والحركة . وخصوا أيضاً عن السموات بعد ما اتفقوا أنها مبادئ الأجرام المحسوسة واعتقدوا أن الأجرام السماوية عاقلة وأنها ذوات نفوس ورأوا أنها أشرف من العقل الانسانى ولما نظروا إلى الجرم السماوى رأوا فى الحقيقة جسماً واحداً شبيهاً بالحيوان الواحد له حركة واحدة كلية وهي الحركة اليومية واعتقدوا أن ارتباط هذه الأجسام الكروية بعضها ببعض ورجوعها إلى جسم واحد وتعاونها على فعل واحد وهو العالم بأسره أنها ترجع لمبدأ واحد وأن هذا النظام والترتيب هو السبب فى سائر النظمات والترتيبات وأن العقول تنفاضل فى ذلك بحسب حالها منه فى القرب والبعد .

« والاول عندهم لا يعقل إلا ذاته وهو يتعقل ذاته بعقل جميع الموجودات فعلى هذا ينبغى أن يفهم مذهب الفلاسفة فى هذه الأشياء والأشياء التى حركتهم إلى مثل هذا الاعتقاد فى العالم فإذا تؤملت فليست بأقل اقناعاً من الأشياء التى حركت المتكلمين من أهل الملة أعنى المعتزلة أولاً والأشعرية ثانياً إلى أن اعتقدوا فى المبدأ الأول ما اعتقدوا أعنى أنهم اعتقدوا أنه ههنا ذات غير جسمانية ولا فى جسم ، حية عالمة فريدة قادرة متكلمة سمعية بصيرة .

« وقد قام عندهم البرهان على أن فى الحيوان قوة واحدة بها صار واحداً وبها صارت جميع القوى التى فيه تؤم فعلاً واحداً وهو سلامة الحيوان وهذه القوى مرتبطة بالقوة الفائضة عن المبدأ الأول ولولا ذلك لافترقت أجزاءه ولم تبقى طرفه عين .

« والعالم أشبه شئ عندهم بالمدينة الواحدة وذلك أنه كما أن المدينة تقوم برئيس واحد ورياسات كثيرة تحت الرئيس الأول كذلك الأمر عندهم فى العالم وذلك أنه كما

أن سائر الرياضات التي في المدينة إنما ارتبطت بالرئيس الأول من جهة أن الرئيس الأول هو الموقف لواحدة واحدة من تلك الرياضات على الغايات التي من أجلها كانت تلك الرياضات وعلى ترتيب الأفعال الموجبة لتلك الغايات كذلك الأمر في الرئاسة الأولى التي في العالم مع سائر الرياضات وتبين لهم أن المبدأ الأول هو مبدأ جميع المبادئ فأنه فاعل وصورة وغاية وصارت جميع الموجودات تطلب غايتها بالحركة نحو المبدأ الأول وتطلب بها غاياتها التي من أجلها خلقت وجميع الموجودات فتطلبها بالطبع (غريزة) وأما الانسان فبالارادة »

الكلام على حشر الأجساد

أخذ الغزالي يزعم أن الفلاسفة ينكرون حشر الأجساد وهذا شيء ما وجد لواحد ممن تقدم فيه قول والقول بحشر الأجساد أقل ما له منتشراً في الشرائع الف سنة والذين تأدت اليها عنهم الفلسفة دون هذا العدد من السنين وذلك أن أول من قال بحشر الأجساد هم أنبياء بنى اسرائيل الذين أتوا بعد موسى وذلك بين من الزبور ومن كثير من الصحف المنسوبة لهم . وثبت أيضاً ذلك في الانجيل وتواتر القول به عن عيسى وهو قول الصابئة وقد قال عنها ابو محمد بن حزم أنها أقدم الشرائع والحكماء بأجمعهم يرون في الشرائع أن يتقلدوا من الأنبياء والواضعين مبادئ العمل والسنن المشروعة في ملة ملة

والممدوح عندهم من هذه المبادئ الضرورية هو ما كان منها أبحث للجهمور على الأعمال الفاضلة حتى يكون الناشئون عليها أتم فضيلة من الناشئين على غيرها . فما قيل في الميعاد في الشريعة الاسلامية هو أبحث على الأعمال الفاضلة مما قيل في غيرها ولذلك كان تمثيل الميعاد لهم بالأموال الجسمانية أفضل من تمثيله بالأموال الروحانية

ابن رشد وحرية الفكر

كتب الأستاذ لويجي رينالدى فى بحث « المدنية العربية فى الغرب » قال :

« ومن فضل العرب علينا أنهم هم الذين عرفونا بكثير من فلاسفة اليونان وكانت لهم الأيدى البيضاء على النهضة الفلسفية عند المسيحيين . وكان الفيلسوف ابن رشد أكبر مترجم وشارح لنظريات ارسطاطاليس ولذلك كان له مقام جليل عند المسلمين والمسيحيين على السواء وقد قرأ الفيلسوف النصرانى توماس نظريات ارسطاطاليس شرح العلامة ابن رشد . ولا ننس أن ابن رشد هذا هو مبتدع مذهب « الفكر الحر » وهو الذى كان يتعشق الفلسفة ويهيم بالعلم ويدين بهما وكان يعلمهما لتلاميذه بشغف وولع شديدين وهو الذى قال عند موته كلمته المأثورة « تموت روحى بموت الفلسفة » وكتب قبله المفكر الانجائزى جون روبرتسون فى « تاريخ وجيز للفكر الحر » (ج ١ ص ٢٧٧) قال ما نصه :

« أن ابن رشد أشهر مفكر مسلم لأنه كان أعظم المفكرين المسلمين أثراً وأبعدهم نفوذاً فى الفكر الأوروبى فكانت طريقته فى شرح ارسطو هى المثلى ، فى القرون الوسطى وقد ظهر فضله بشرح مذهب السيانتزم (الوهية العالم) الذى يؤيد أزلية الكون المادى ويقول بأن النفس المفارقة تخلق من النفس العامة وتعود اليها فتلاشى فيها فجعل شرح هذا المذهب لابن رشد شأنًا كبيراً فى عالمي الفكر المسيحى والاسلامى .

وقد انشق على مذهب الزهد والتصوف الذى نشره ابن باجه وابن طفيل وحارب الغزالى فى آرائه الدينية المخالفة للعقل وأفرد لذلك كتاب « تهافت التهافت » ردّاً على « تهافت الفلاسفة » أشهر كتب الغزالى وأظهرها غرضاً . فأثبت ابن رشد بكتبه أنه أقل فلاسفة الإسلام تصوفاً وأكثرهم تأييداً للعقل وهو يعارض وجهة النظر الدينية فى كل رأى جوهرى فأنكر بعث الأجساد وعد القول ببعث الجسد خرافة وشأنه فى ذلك شأن من سبقه من المعطلين وبحث مسألة « الخيار » بحثاً يكاد يكون علمياً وعارض فى ذلك مذهب المتكلمين المتلف للأخلاق لأنهم قالوا بأن إرادة الله هى

مقياس الحق ولا مقياس سواها وكانوا جبرية وكذلك عارض ابن رشد مذهب القدرية « وقد أدرك ابن رشد ما بين مذهبه وبين العقائد الشائعة من العداء وفتن إلى الأفكار التي تهدده إذا لم يصانع في بعض الأمور فحاول استرضاء أهل الشريعة ببعض كتب ألفها وجعل نفسه أوسع صدرًا من ابن طفيل فقال بأن الاسلام أكمل نظام قومي ، وأصلح ملة للشعوب ، وهو واضع مذهب الحقيقة المزدوجة أى حقيقة العلم أو الفلسفة وحقيقة الدين . وكان لهذا المذهب شأن يذكر في مباحث النصرانية عدة قرون .

« وقد تكلم في كتابيه « فصل المقال » و « مناهج الأدلة » بلهجة الرجل المحافظ على العقائد وحامى دمار الظاهر من أمور الشرع وقال أن العاقل لا ينطق بكلمة ضد العقيدة السائدة . وأن الملحد الذى يطعن فى الدين يستحق الموت لأنه يهدم كيان الفضيلة القومية . وقال أن مذهب خلق العالم مخالف للعقل ولكن الفضل فى بقائه للعادة . وأن المتدين لا يكفيه الإيمان لأن المؤمن بغير علم ينقلب زنديقًا إذا بحث واستقصى . « ولكن ابن رشد كان يعيش فى عهد انحطاط المعرفة وانتعاش التعصب فلم ينفعه ظهوره بالتقوى ولم يحفظه من الاضطهاد فنكل به الخليفة الذى كان يبجله وجريمته فى نظره نشر آراء القدماء وبها ضرر الاسلام وقد حرّم النظر فى كتب اليونان وفلسفتهم واتلفت جميع الكتب التى كانت تبحث فيها ومات ابن رشد فى مراكش سنة ١١٩٨ ولم يطل عهد العرب فى الأندلس بعده فلما أفل نجم سعدهم كان الدين قد حل محل الفلسفة وبذا « دالت دولة الأندلس فى جو من التقوى » !!... !!

هذه هى الصورة التى رسمها قلم چون روبرتسون وهو من مشاهير أحرار الفكر وبعد زعيمهم فى جزر برطانيا بعد عيدهم برادلو الشهير وهى صورة فيها شئ كثير من المبالغة على أن رينان الذى تفرغ لدرس ابن رشد وزمنه قال أن عداء الشعب الأندلسى للفلاسفة كان قويا جداً ولكن اللوم فيه راجع الى عنصر المسيحيين المغلوبين وهم أهل البلاد أصلاً وكانوا من قديم الزمن متشددى فى الدين وكانوا معرضين عن العلوم

الصحيحة مثل الفلك والطبيعات (صفحات ٣١ - ٣٦)

ونحن نرى رأى رينان ونزيد عليه أن ما أصاب ابن رشد وأصحابه كان مظهرًا من مظاهر أخلاق أهل اسبانيا لأن أمثاله في الشرق لم ينلهم أقل أذى ولو كان الاضطهاد من لوازم الاسلام ما نجا منه أمثال الكندى والفارابى وابن سينا

اليهود وابن رشد

كان الفضل في نشر فضل العرب وعلومهم في أوروبا لليهود . فان الذين اضطهدوا منهم وطردهوا من اسبانيا وطنهم لجأوا الى جنوب فرنسا وأقاموا بمقاطعة برونصة وأسسوا المكاتب والمدارس في نار بون وبزييرس ونيم وكاراسكون ومونيليه ، وكانت كلية مونيليه تعلم الطب والنبات والرياضة على طريقة العرب . وكانت الفلسفة والعلوم العربية تعلم في تلك الأرجاء كما لو كانت ولاية اسلامية ، وفي مدارسها درست فلسفة ابن رشد وحكمته وحفظت شروحه وقد عاشت في كنف فلسفته فلسفة أخرى هي فلسفة ابن ميمون الحكيم الاسرائيلي .

يمتاز مذهب أرسطو برأى جعل فلسفته من دعائم العقل الانساني هذا الرأى هو أزلية المادة ، وقد انتحلها ابن رشد وسائر المعتزلة قبله وبعده . وقد قلنا أن فلسفة ابن ميمون عاشت في كنف ابن رشد لأن ابن ميمون وغيره من حكماء ملته ما عدا ليثى بن جرشوم جحدوا أزلية المادة وفندوها لا حبًا بالحقيقة أو تبعًا لمبادئ الفكر ولكن حبًا بالتوراة .

ولكن الفضل في نقل فلسفة ابن رشد الى العبرانية فاللاتينية يرجع إلى ابن ميمون وأصدقائه وتلاميذهم وقد حاولوا تحويرها وتحريفها لتنطبق على مبادئهم ولتحل في معابدهم المحل الأول بعد كتبهم المقدسة ولكن هذه المحاولة فشلت لأن البون شاسع بين سفر التكوين وفلسفة ابن رشد !

ثمار الفلسفة الرشدية في أوروبا

في أواخر القرن الثاني عشر ظهر في مقاطعة بريتانيا بفرنسا مفكر مصلح اسمه امورى البناوى وصاحبه داود الدينانتي فخالفوا تعاليم الكنيسة واستجلبا نسخها فحوم أتباعهما وعوقبوا بالاحراق أحياء أما المصلحان فقد فرا طلباً للنجاة ولكن يد الكنيسة في القرون الوسطى كانت طويلة ، وكان صبرها أطول ، فانها ترقبت موتهما ونبشت قبرهما وأحرقت رفاتهما ليكونا عبرة للمؤمنين .

وقد ظهر للكنيسة أن سبب هذا البلاء فلسفة أرسطو كما شرحها ابن رشد فاجتمع في باريس مجمع دينى علمى (سنة ١٢٠٩) وحظر درس الفلسفة الأرسطية والشروح الرشدية فحرمت أولاً الطبيعيات ثم كتب ما بعد الطبيعة وقد استمر هذا المنع ثلاثين عاماً وفى سنة ١٢٦٩ حل اسقف باريس حملة كبرى على الفلسفة فى شخص ابن رشد وخص باللعن والتكفير المبادئ الآتية :

(١) أزلية العالم (٢) إنكار آدم (٣) وحدة العقل الانسانى (٤) القول بأن العقل ، وهو شكل الانسان ومهى ذاته ، يهلك مع البدن (٥) فى أن أفعال البشر خارجة عن حكم العناية (٦) أن العناية عاجزة عن تخليد ما مآله للفناء وصيانة ما مآله للفساد .

ولما كانت كتب ابن رشد الطبية انتشرت من جنوب فرنسا الى شمال ايطاليا وذاعت فى مدارس بدوا فقد ذاعت أيضاً فيها تعاليمه الفلسفية ومال الأطباء الذين تعلموا عليها الى حرية الفكر وأخذوا بفلسفته وأشهر من نذكر من علماء هذا البلد جاتباد السيناوى الذى بدأ بدرس الشرح الكبير سنة ١٤٣٦ وأوعز بطبعه فلم يدركه ولكنه طبع سنة ١٤٧٦ وقد خلفه فى منصب تدريس الفلسفة سينكوفرناس ولم يبال هذان الحكيمان بالاعتراض بل نشرّا مذهب «روح العالم» على ما فيه من مخالفة الدين المسيحى فى عقيدة الخلود وقد ازداد النقد واتقلب سخطاً إذ نشر تلميذهما نينو كتابه فى العقل .

ولابن رشد فضل لا ينكر على روجير بيكون الفيلسوف الشهير فقد استفاد من كتبه وحيًا واستنزل من حكمته إلهامًا وذكره في كتابه اللاتيني « اپوس ماجوس » وأثنى عليه وعلى مواهبه وسعة علمه وقال « أنه فيلسوف متين متعمق صحيح كثيرًا من أغلاط الفكر الانساني وأضاف الى ثمرات العقول ثروة لا يستغنى عنها بسواها وأدرك كثيرًا مما لم يكن قبله معلومًا لأحد وأزال الغموض من كثير من الكتب التي تناولها يبحثه »

أما توماس اكويناس الشهير (١٢٢٥ - ١٢٧٤) الذي صار قديسًا لأنه كان أعظم لاهوتي في كنائس الغرب واكبر فلاسفة القرون الوسطى ، فقد علا نجمه بكتابته اجمال اللاهوت « سوماتيولوجيا » وقد وصف الله فيه بالطبيعة الفعالة .

ذكر القديس توماس أسباب اتصاله بالأفكار الدنيوية ودل على أن الفضل في وضع كتابه شكلاً ومادة يرجع الى طريقة ابن رشد وفلسفته وهو في الظاهر ينفذها وينفذها ولكنه كلما حاول الوصول بالفكر إلى إحدى نتائج الحكمة قرر مبدأ التعدد الذي أساسه أزلية المادة مستمدًا ذلك من ابن رشد وارسطو .

ولم ينبج ابن رشد من السنة رجال الكنيسة فقد ذموه بكل شفة ولسان وطعنوا عليه أقبح طعن قال بترارك عنه « أنه ذلك الكلب الكلب الذي هاجه غيظ ممقوت فأخذ ينبج على سيده ومولاه المسيح والديانة الكاثوليكية » أما دانتي فقد جعله في وقار وهدوء يتبوا مجلسه في الجحيم جزاء كفره واعتزاله .

ومن تعذب في سبيل ابن رشد هرمان فان ريزويك الكاهن الهولندي الذي أحرق بتهمة الهرطقة في لاهاي في سنة ١٥١٢ ومن عجائب القدر أن هذا الحكيم الفاضل كان قبل هدايته بالحكمة قاضيًا في محكمة التفتيش ولم يدافع أحد عن الدين المسيحي مثل دفاعه بلاغة واخلصًا واعتقادًا . ولكنه بعد ذلك غير فكره فقال « باسانه وهو حائر سائر صفاته الشرعية ومتمتع بجميع قواه العقلية » أمام مجلس التفتيش الذي عقد في سنة ١٥٠٢ لمحاكمته « أن العالم أزل ولم يخلق كما ادعى ذلك المجنون (!) موسى وانه

لا يوجد جسيم ولا حياة مستقبلية وان السيد المسيح لم يكن ابن الله ، لقد ولدت مسيحياً ولكننى لست الآن منكم لانكم مجانين » فحكم عليه المجلس بالسجن المؤبد

ثم تقدم للمحاكمة ثانية بعد عشرة أعوام وقد حسبوه قد تحول او أن السجن الآن من صلابته وأضعف من شكيمته ، أو لطف من مغالاته ، أو قال من تحامله فوجدوه أصاب وأقوى واعند مما كان ، فحكموا باحراقه وأحرق فعلاً في ١٤ ديسمبر سنة ١٥١٢ وقد قال في ذلك اليوم جملة هي سبب هذا الاستشهاد الطويل وهي « أن أعلم العلماء ارسطو وشارحه ابن رشد وهما أقرب الى الحقيقة ، بهما اهتديت وبفضلهما رأيت النور الذى كنت عنه عمياً »

فأثبت بذلك أنه كان رشدى المبدأ والنزعة وانه لولا اعتقاده ومجاهرته ما تعذب فى سبيل فكره .



٨ — ابنه خلدون

ولد ابن خلدون أعظم فلاسفة التاريخ في الشرق والغرب في تونس سنة ٧٣٢ هـ وتوفي في مصر في سنة ٨٠٨ هـ ، فهو من عظماء القرن الثامن الهجري ، واسمه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون ولي الدين التونسي الحضرمي الأشبيلي المالكي . وأصله من أسرة أندلسية توطنت في أشبيلية ، ثم نزح أجداده من أشبيلية إلى تونس في أواسط القرن السابع للهجرة ، ويعود أجداد ابن خلدون بنسبهم إلى بني وائل من قبائل اليمين ويردون هجرة جددهم الأعلى من اليمين إلى الأندلس ، إلى القرن الثالث الهجري نشأ ابن خلدون في تونس وتلقى العلوم المعروفة في عصره ثم ترك تونس فراراً من الوباء وسافر إلى هواره حيث نزل على صاحبها ابن عبدون فأكرم وفادته وأعاناه على السفر إلى بلاد المغرب وتنقل في بلاد كثيرة وهو لا يزال في مقتبل العمر ، مثل ابن بطوطة ، ثم استقدمه السلطان أبو عنان المريني صاحب تلمسان إلى فاس سنة ٧٥٥ هـ وهو في مستهل العقد الثالث من عمره وقر به واستكتبه ورقاه وقد كان في تربيته وترقيته ما يدعو إلى حسده فحسده أقرانه الذين لم يبلغوا شأوه وسعوا فيه وأتهموه بالنأمر على السلطان لاغتياله فاعتقله وما زال معتقلاً على طريقة الحلفاء في مستعمراتهم ، حتى مات السلطان أبو عنان المريني صاحب تلمسان سنة ٧٥٩ هـ فأفرج عنه الوزير ابن عمر وخلع عليه وعوضه خيراً واحتفظ به .

واتفق أن السلطان أبا سالم المريني قدم من الأندلس يريد السفر إلى مكة ، فاستعان بابن خلدون ، لما بين ابن خلدون وبين شيوخ بني مرين من الاخلاص والمحبة ففاز ودخل فاس وابن خلدون في ركابه سنة ٧٦٠ هـ فعينه كاتب السر ، فأجاد ابن خلدون وبرع في اداء تلك الوظيفة التي اسندت اليه

ولكن الخطيب ابن مرزوق تغلب بمكره ودسه على هوى السلطان ، وسعى في ابن خلدون ، فانقبض ابن خلدون وغيره من رجال الدولة وحنقوا وتغيروا على السلطان واثقوا عليه فمات ، وعاد النفوذ إلى ابن خلدون بفضل الوزير عمر بن عبد الله ، ثم أراد ابن خلدون السفر إلى الأندلس فمنعه الوزير ابن عمر فوسط له من قبل الرجاء فأذن له فسافر إلى الأندلس سنة ٧٦٤ هـ وقصد « غرناطة » وسلطانها إذ ذاك أبو عبد الله من بني الأحمر فاهتز السلطان لمقدمه وبالغ في اكرام وفادته وأعد له داراً في أعلا قصوره .

وفي سنة ٧٦٥ هـ رحل إلى « كاستيل » (قشتالة) وتقدم إلى حاكمها وتوسط في عقد الصلح بينه وبين ملوك « العدو » بهدية فاخرة ، فطلب منه صاحب « قشتالة » أن يقيم عنده فاعتذر فأركبه بغلة فرهة بالجام من ذهب ، فلما عاد ابن خلدون إلى « غرناطة » أهدى البغلة ولجامها إلى السلطان أبي عبد الله فأنزله على الرحب والسعة وأقطعه بلداً وصيره بذلك من الأمراء الملتزمين ، ولكن الأقطاع والترحيب لم يقعدا بهمة ابن خلدون عن الارتحال فاشتاق إلى أهله وأصابه داء الحزن إلى الوطن (نوستالجيا) وهو خلة كل أديب وشاعر وليب ، فرحل إلى (بجاية) ففقيه سلطانها أبو عبد الله مرحباً وتهافت عليه أهل البلد يقبلون يديه فقلده السلطان أعمال دولته وأسند اليه رئاسة حكومته ، فخدمه بعلمه ونفوذه وقلمه مخلصاً في ذلك الاخلاص كله ، دأبه في سائر الأعمال التي أسندت اليه

ولكن أبا العباس أمير (قسنطينة) شهر الحرب على أبي عبد الله صاحب (بجاية) وملك بلده ، واستبقى ابن خلدون وأكرمه ، ثم كثرت السعايات والوشايات في حقه لدى أبي العباس فاستأذنه في الانصراف واستقال من منصبه ، فأذن له وذهب ابن خلدون إلى قبائل العرب

ثم كتب إليه أبو حمو صاحب (تلمسان) يستقدمه ليتولى الحجابة والعلامة (منصب كبير الأمناء) فاعتذر اليه بأنه رغب في العلم عن السياسة ، وأراد الخروج إلى الأندلس فاستأذن أبا حمو في ذلك فأذن له وحمّله رسالة إلى ابن الأحمر ، ولكنه عجز عن ركوب

البحر ، وعلم السلطان عبد العزيز المريني صاحب المغرب الأقصى خبره ، وأن معه وديعة إلى سلطان الأندلس ، فاستقدمه وسأله ولم يجد الخبر صحيحاً فأكرمه واستبقاه عنده واستعانته على (بجاية)

ثم استقرت بابن خلدون النوى في (تلمسان) فأقام بها مع أهله وولده ونزل بهم في قلعة بنى سلامة من بلاد « بنى توجين » فأقام بها أربع سنين وفي أثناء تلك المدة شرع في تأليف تاريخه فأكمل المقدمة ، ودون بعض فصول من التاريخ ، وكان ذلك في أواخر العقد الثامن من القرن الثامن للهجرة ، وقبل وفاته بثلاثين عاماً تقريباً ، وقد شارف على الخمسين من عمره

ثم حن إلى تونس مسقط رأسه فاستأذن ، فأذن له فبلغها سنة ٧٨٠ هـ فأكرمه سلطانها واختصه بأسراره وأخذ بناصره واستحثه على اتمام تأليفه ، فاطمان وواصل العمل في التاريخ حتى أحس بالسعايات والوشايات ، فصحت عزيمته على النزوح إلى مصر ، فاستأذن في السفر إلى الاسكندرية فبلغها سنة ٧٨٤ هـ وانتقل منها إلى القاهرة وجلس للتدريس في الأزهر ، فقرأ الفقه على مذهب مالك ، واتصل خبره بسلطان مصر إذ ذاك وهو برقوق العظيم فقر به وأكرمه وولاه قضاء المالكية سنة ٧٨٦ هـ فقام بعمل القضاء خير قيام ، واشتهر أمره عالمياً ، وقاضياً ، ومدرساً ، ومؤرخاً ، وأديباً ، وكثير المعجبون به وكثير أيضاً عدد حساده فوشوا به وأشاعوا عنه الأراجيف

وكان ابن خلدون قد بعث يستقدم أهله وولده من تونس ليقبوا معه في القاهرة فغرقوا جميعاً في أثناء الطريق ، فعظم الأمر على هذا الفيلسوف وأصابه حزن شديد فاستقال من منصب القضاء ، وانقطع للتدريس والتأليف وأقام على تلك الحال ثلاث سنين ، فلما كانت سنة ٧٨٩ هـ خرج من القاهرة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وعاد في السنة التالية إلى مصر وأكب على العمل في كتابه حتى أتمه سنة ٧٩٧ هـ وهو في الخامسة والستين من عمره ، وقد قضى في تأليفه نحو خمسة عشر عاماً

وما زال ابن خلدون مقبياً بمصر وهي ملجأ أهل العلم والأدب من قديم الزمان حتى توفي بها سنة ٨٠٨ هـ ودفن باحدى مقابرها في قبر غير معلوم لابناء هذا الزمان

مؤلفات ابن خلدون

١ - تاريخ ابن خلدون

اشتهر ابن خلدون بين العلماء والمفكرين بكتاب واحد ، بل بجزء واحد من ذلك الكتاب ، الا وهو (مقدمة ابن خلدون) أما التاريخ فاسمه (العبر ، وديوان المبتدا والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاشرهم من ذوى السلطان الأكبر) وهذا الكتاب مقسم الى ثلاثة كتب فى سبعة مجلدات

الكتاب الأول : فى العمران ، وما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش ، والصناعات والعلوم ، وما لذلك من العلل والأسباب ، وهذا الكتاب الأول هو المقدمة المشهورة ، وتقع فى نحو أربع مائة صفحة وبها وحدها نال ابن خلدون القدر المعلى ، لأنه أتى فيها بمباحث مستحدثة مما أطلق عليه أهل هذا الزمان اسم العلوم الاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصاد السياسى ، والاقتصاد الاجتماعى ، وفلسفة التاريخ ، والقانون العام ، ولا شك عندنا فى أن « هيجل » الألمانى و « مكياڤلى » الايطالى و « جيبون » الانجائزى هم من تلاميذ ابن خلدون .

فان هذا الفيلسوف الاسلامى الذى عاش فى القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر المسيحى) قد تصدى لتلك المباحث وأجاد فيها حينما كان أهل أوربا فى غفاتهم ولم يكتب أحد من العرب غيره فى هذه المباحث سوى تنف متفرقة لا قيمة لها ، فتوسع ابن خلدون فى ذلك بما استنبطه من الأسباب والنتائج بمعارضة الحوادث ودرسها ، والبحث فى عللها ، مما وقف عليه بالمطالعة والدرس أو كابد به باختباره الشخصى .

ولا ريب فى أن اغترابه وتنقله من مملكة الى مملكة ، وارتحاله فى طلب المثل الأعلى من دولة الى سلطنة ، ومن امارة الى بلاط ، واحتكاكه بالأمم المختلفة ، وممارسته بعض شئون تلك الدول ، أعانه ذلك كله على استيفاء بحثه ، ولا ريب أيضاً فى أن الفكرة كانت كامنة فى رأسه فأنضجها الاختبار والتنقل فاختمت وظهرت فى خيزر الوجود .

١ - الكلام على مقدمة ابن خلدون

الفصل الأول في قسط العمران من الأرض وما فيها من الأقاليم وتأثير الهواء في ألوان البشر وأخلاقهم ، واختلاف أحوال العمران من الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم .

وهذا المبحث كثير الشبه بما أنى به علماء أوربا في نظرية النشوء والارتقاء بعد ابن خلدون بخمسة قرون .

الفصل الثانى في العمران البدوى والأمم الوحشية والقبائل ، وما يعرض في ذلك من المباحث في طبيعة البداوة والحضارة ، والفرق بينهما من حيث الانساب والعصبية والرياسة والحسب والملك والسياسة وغير ذلك .

وهذا المبحث من قبيل القواعد العامة لنظام الاجتماع الذى ظهر في أوربا في القرن التاسع عشر وأطلق عليه المعاصرون اسم (سوسيولوجيا)

والفصل الثالث في الدول العامة ، والملك والخلافة والمراتب السلطانية ، علل فيه أسباب السيادة وتشديد الدول ، وكيف تحفظ الامارة وشروط السلطة والخلافة وطبائع الملك ومعنى البيعة وولاية العهد ومراتب السلطان ودواوين الدولة وجندها وأساطيلها وشاراتها وقواعد الجند والحرب وأسباب ثبوت الدولة وسقوطها .

وهذا المبحث من نوع السياسة علمًا وعملاً ، وقد كتب « جيبون » المؤرخ الانجائزى كتاباً عن أسباب انحلال الدولة الرومانية وسقوطها سالكا الخطة التى رسمها ابن خلدون في مقدمته .

والفصل الرابع في البلدان والأمصار وسائر العمران ، والمدن والهياكل ونسبتها الى الدول ، وما تجب مراعاته في وضعها من حيث البر والبحر وفي بناء المساجد والبيوت ونسبتها الى الدولة الاسلامية وهذا المبحث من قبيل الهندسة الحربية .

والفصل الخامس في المعاش ووجوهه من الكسب والصناعات وفيه مسائل في الرزق والكسب وانه قيمة الأعمال البشرية ، وفي المعاش وأصنافه ومذاهبه ونسبة ذلك الى

طبيعة العمران ، وفيه مباحث مسهبة في أبواب الرزق من التجارة والصناعة على اختلاف ضروبها وأنواعها ، ووصف أمهات الصناعات في أيامه ، كالزراعة ، والعمارة ، والنسيج (الحياكة والخياطة) والتوليد والطب ، والوراقة ، والفناء وغيره وهذا المبحث من قبيل ما يسميه أهل هذا الزمان الاقتصاد السياسي ، والاقتصاد الاجتماعي ، وكثير من مبادئ هذا الفصل صارت بذوراً لما دوتة « كارل ماركس » الاسرائيلي الألماني في كتاب (رأس المال) (Das Kapital)

والفصل السادس في العلوم واصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه ، وفيه مباحث في التعليم ونسبته الى الحضارة ، والكلام في كل علم على حدة وتاريخه وشروطه من علوم القرآن والحديث والفقه ، فالعلوم اللسانية والطبيعية والرياضية والطبية ، فالأدب فالشعر ، والتاريخ ، والالهيات وعلم النفس ، وعلم النجوم ، والعلوم السحرية . وهذا المبحث من قبيل علم (البيداجوجيا) التربية ، ومن فطاحله في أمريكا « وليم جيمس » وفي أوربا « سبنسر » و « فروبيل » وغيرهم .

وسياتى الكلام على أسلوب ابن خلدون في موضعه من هذه الترجمة . أما هذه المقدمة فقد كان لها أثر عظيم جداً عند المفكرين من الافرنج ، فنقلها العلامة « كاترمير » الى اللغة الفرنسية عن نسخة في المكتبة الوطنية بباريس وطبعت تلك الترجمة الفرنسية في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر وتقلت منها فصول الى الانجليزية والألمانية والايطالية والتركية ، وفي جميع دور الكتب الأوربية نسخ منها خطية ومطبوعة

ب — الكلام على تاريخ ابن خلدون

أما التاريخ نفسه فانه منظوم في الكتابين الثاني والثالث ، في ستة أجلاد ويشتمل الكتاب الثاني على أخبار العرب وأجياهم ودولهم منذ الخليفة الى القرن الثامن للهجرة ، وهو الزمن الذي عاش فيه المؤرخ ، مع الاماع الى من عاصروهم من الأمم والدول ، كالفرس والهند والنبط والحباشان والسريريان واليونان والرومان والمصريين وغيرهم .

والكتاب الثالث يشتمل على أخبار البربر، والأمة الثانية من أهل المغرب وذكر أوليتهم وأخبارهم وما كان لهم بديار المغرب من الدول ويمتاز تاريخ ابن خلدون عما تقدمه من كتب التاريخ بما تضمنه من المقدمات الفلسفية في صدور أكثر الفصول عند الانتقال من دولة الى دولة فإنه يصدر ذلك غالباً بالاسباب والعلل، وهو أوسع تاريخ للعرب الجاهلية وللبربر ودولهم وقد أخطأ كثيرون من النقاد في الشرق في الخط من قدر هذا الكتاب ونسبوا الى ابن خلدون في تأليفه التعقيد والغموض والحقيقة ان علماء المشرقيات في أوروبا جعلوا له شأنه الذي يستحقه واهتموا به كما اهتموا بتقدمته ونقلوا الى لغاتهم منه ما ينفعهم وينفع مملكتهم وسياستهم، فأشغل « دى سالان » بنشر القسم الخاص ببلاد المغرب والبربر وطبعه في الجزائر قبل ظهور الترجمة الفرنسية للمقدمة باحد عشر عاماً في مجلدين كبيرين يبلغ عدد صفحاتهما نحو الف صفحة وسماه (كتاب الدول الاسلامية في المغرب) ثم قضى خمس سنين في نقل هذا القسم الى اللغة الفرنسية ونشره في الجزائر سنة ١٨٥٢م واقتطف المستشرقون من التاريخ أيضاً الجزء الخاص بأخبار بنى الأغلب في أفريقية وصقلية الى حين استيلاء الافرنج عليها، وطبع هذا الجزء في باريس مع ترجمة فرنسية بقلم الاستاذ « دفرجييه » سنة ١٨٤١م ونقلت الى الفرنسية قطعة خاصة بتاريخ بنى الأحمر

(٢) مذكرات شخصية لابن خلدون

وقد انفرد ابن خلدون بين مؤلفي العرب باتخاذ (يوميات) ومذكرات شخصية يدونها يوماً فيوماً (اچنده) وأطلق عليها اسم (التعريف بابن خلدون) وفيها ترجمته ونسبه وتاريخ أسلافه على نسق اوروبي، وشرح في خلالها ما عاناه في حياته ويتخلل ذلك مراسلات وقصائد نظمها في بعض الأحوال وكثير مما أصابه من دهره، وتنتهي حوادث هذه المذكرات سنة ٨٠٧ هـ . أى قبل وفاته بعام واحد وفي دار الكتب المصرية نسخة خطية من هذه المذكرات في مائة وخمسين صفحة بخط جميل مذهب، ومنها ملخص في ذيل بعض النسخ من تاريخه المطول .

فلسفة ابن خلدون الاجتماعية

سبق ابن خلدون كل كتاب اوروبا الى وضع قواعد علم الاجتماع الذى لم يطرق بابه قبله إلا فلاسفة اليونان وقد صدق من قال أن التاريخ لم يكن شيئاً مذكوراً في جانب المقدمة فإن مقدمة ابن خلدون كتاب لفت نظر أوروبا أكثر مما لفت أنظار أهل الشرق لأنه كتاب بالمعنى الصحيح قلباً وقالباً فهو منظم ومنسق شكلاً وجليل الفائدة جديد المباحث موضوعاً وقد أجمع العلماء على أن هذا الحكيم العربى المغربى الأفريقى هو من واضع أساس علم الاجتماع الحديث

وقد قسم ابن خلدون ظواهر المدنية الى ظواهر خارجة عن الاجتماع ، ويقصد بالظواهر الخارجة عن الاجتماع الظواهر الطبيعية مثل العقائد الدينية والطقس والبيئة والى الظواهر الداخلة فى الاجتماع وهى التى تنشأ فى حضن الجماعة وتؤثر فيها بقوتها .

وبنى ابن خلدون نظريته على كون الانسان ميالاً للاجتماع بفطرته وهذه هى نظرية حكما، الأغريق والعرب التى عاجلها بعد ذلك أوجست كومت نفسه فى الجزء الرابع من فلسفته الوضعية . ويتفق ابن خلدون مع أرسطو حكيم اليونان فى أن الجماعة ليست إلا وسيلة لسعادة الفرد وهذا هو رأى الذى نشره وقواه هربرت سبنسر فى مذهبه الفلسفى . وقد أصاب ابن خلدون كبداية الحقيقة فى نقط لم يسبقه اليها فلاسفة اليونان فقد ميز بين الجماعة الانسانية والجماعات الحيوانية فقال ان اجتماع الحيوان يكون عادة مدفوعاً اليه بالفطرة أما اجتماع الانسان فالدافع اليه الفطرة والعقل والتفكير معاً .

لقد شبه ماكياڤلى بابن خلدون ويمكننا تشبيهه بمونتسكيو فان كلا منهما حاول استنباط قوانين الاجتماع من حوادث التاريخ ووقائعه وقد رأى ابن خلدون حوله أمماً كثيرة تعيش بغير دين منزل وان لها ملكاً واسعاً وسلطاناً قاهراً وأنظمة مرعية وقوانين مطاعة وجيوشاً فاتحة ومدناً عامرة آهلة . ورأى أن الأمم التى انتشرت فيها الأديان المنزلة تعد أقلية بجانب الأمم الأخرى فاستنبط من ذلك رأى القائل بعدم ضرورة النبوة لتأسيس الممالك والدول .

وقد خالف ابن خلدون بهذا الرأي معظم الفلاسفة والمؤرخين في الاسلام . ولكنه عاد فقال أن النبوة وإن لم تكن ضرورية لتأسيس الممالك العادية إلا أنها ضرورية لتأسيس الممالك الراقية القريبة جداً من الكمال لأن المملكة التي تشاد على أساس النبوة تجمع بين منافع الدنيا ومنافع الدين

يعتبر ابن خلدون الطقس أول العوامل الخارجة عن الاجتماع وقد تكلم عن الأقاليم فقسم الأرض الى سبعة أقاليم يختلف الطقس فيها من البرودة الشديدة الى الحرارة القصوى وما بينهما من درجات الاعتدال المثالية وقال بما قال به بعده «بوكل» الانكليزي من أن للبرد والحر تأثيراً في جسم الانسان وخلقه وبعبارة أخرى في الأمم والممالك من حيث المدنية والحضارة .

وقال أن قاطنى الأقاليم المتطرفة لا نصيب لهم في المدنية وان الأقاليم الرابع وهو أشد الأقاليم اعتدالاً في البرد والحر هو أوفق الأقاليم للعمران والمدنية ونمو العلوم وظهور الأديان وانتظام الأحكام والقوانين وقد عين ابن خلدون لهذا الإقليم بلاد سوريا وبلاد العراق واثبت أنهما مظهر للحضارة والأديان من قديم الزمن .

وقد اتفق ابن خلدون ومونتسكيو في هذه النظرية اتفاقاً كاملاً ، والثابت أن ابن خلدون ومونتسكيو مسبقان الى اكتشاف هذه النظرية بقراط وأرسطو الحكمين الاغريقيين وجان بودان الحكيم الفرنساوى

ثم انتقل الحكيم العربى الى العنصر الثانى من العناصر الخارجة عن الاجتماع وهو الوسط الجغرافى أو البيئة وبحث فى تأثير البيئة فى الفرد فقال ان البيئة الخصبة تعنى الفرد عن السعى فى سبيل العيش وتغريه بالفراغ واتباع الأهواء وتميت فى نفسه صفات الشجاعة والمحاربة . وان هى جذبت استعثته الفقر على الجد والاجتهاد والمثابرة وولد فيه روح الكفاح والتنازع والمقاومة فى سبيل الحياة .

ولكن يظهر ان ابن خلدون لم يعلق على البيئة من الشأن ما علق على الطقس لأنه لم يسبق الى هذا البحث ولأن مجال الكلام فيه ضيق بطبيعته بالنسبة للكلام فى مجال الطقس .

أما العنصر الثالث وهو الدين فقد قال عنه ابن خلدون أنه ضرورى لكل جماعة انسانية وأفاض فى المقال بما لديه من الآراء الفلسفية والدينية التى تشعب بها من مؤلفات حكيم الأندلس ابن رشد .

ويظهر ان ابن خلدون كان يرمى الى التوفيق بين الحكمة والدين كما كانت غاية حكيم الأندلس وهذا الذى يقلل من قدر فلسفة ابن خلدون فى نظرنا لأن استاذة وقدوته ابن رشد لم يكن فى الحقيقة فيلسوفاً وإنما كان مترجماً وناقلاً نقل فلسفة أرسطو الى اللغة العربية واعتبرها خاتمة الحكمة ورأى أنه من المحتم عليه وهو حكيم اسلامى أن يوفق بين هذه الآراء اليونانية وبين الشريعة الاسلامية ولذلك لم يرض أحداً من الفريقيين لم يرض الفلاسفة لأنه أحل الدين محلاً لا يقبله الفلاسفة ولم يرض الدين لأنه فسره وأوله بما لا ينطبق على منطقته وان هذا الفشل لا يقلل من قدر ابن رشد لأنه كان حسن النية وكان يريد ديناً مبنياً على العقل وفلسفة لا تؤدى الى الالحاد والكفر ولأن كثيرين من المفكرين بعده حتى فى عصرنا هذا حاولوا ما حاوله شيخ قرطبه فكان نصيبهم من الخذلان كنصيبه ما عدا التنكيل بهم لأن زمن التنكيل بالناس لأجل أفكارهم ومعتقداتهم قد مضى واتقضى .

لا يمكننا أن نعد ابن رشد فيلسوفاً ولكنه كان مصلحاً فثله كمثل مارتين لوثير وقد قضى حياته معذباً لأنه كان يرنو بعين الى الدين وبأخرى الى الحكمة مجبهما ويحاول التوفيق بينهما ولا يستطيع . فلا غرابة اذا جاء بمبحث ابن خلدون فى المسألة الدينية مشوهاً مضطرباً لأن فضل ابن رشد راجع لأنه حكيم بذاته ومباشرة ولكن ابن خلدون كان فيلسوفاً بالواسطة .

وقد انتج حب ابن خلدون الاستطراء أنه أخذ يبحث فى الروح والتصوف والرؤى الصادقة والوحى الالهى وكل هذه مواد خارجة بطبيعتها عن موضوع بحثه . ويظهر لنا ان ابن خلدون كان يحاول ان يبحث فى تأثير الأديان فى الأمم ليظهر الفرق بين الأمم المدنية والأمم الوثنية وتأثير العقائد فى المدنية والعمران وارتباط أنواع الدول بالتدين

وضده ثم يبحث في ماضى الانسانية وحاضرها ومستقبلها من هذه الوجهة مستشهداً بمحادثات التاريخ ومسنداً الوقائع ومقارناً بين اليونان القديمة وهى أمة وثنية لم يبحث اليها نبى ولم يظهر فيها سوى حكماء أمثال هيراقليط وبقرات وسقراط وافلاطون وأرسطو وبين أية أمة أخرى بحث اليها الانبياء ولم يظهر فيها حكماء دنويون أمثال من ذكرنا ويقارن بين تاريخ الأمتين وما كان من أمرها ومن تأثيرهما فى الأمم المعاصرة .

أما عن حاضر الانسانية فى عصر ابن خلدون فلم يكن لديه شئ أسهل من النظر فى حال الأمم لعده وتأثير الدين وضده فى كل منها وان مواد مبحث كهذا لم تكن تنقصه لأنه نشأ فى بلاد متدنية وساح فى اسبانيا وهى تدين بغير دينه وتنقل بين أفريقيا وأسيا وأوروبا وكان يعلم حتماً بوجود أمم وقبائل متوحشة لا دين لها فى قلب القارة التى نشأ فيها ولم باطراف من أخبارها فى تاريخه ثم كان يحسن به أن يعم النظر فى الماضى والحاضر ليحاول الاهتداء الى ما يمكنه المستقبل للأمم المتدنية وسواها .

وان بحثاً كهذا يكون أعظم نفعاً وأجل ثمرة للانسانية والعلم من البحث فى التصوف والاستخارة والرؤى الصادقة والتجرد وما شابهها مما شغل به هذا الحكيم عقله ووقته على غير جدوى

الى هنا انتهى ابن خلدون من شرح العوامل الخارجة عن الاجتماع ثم انتقل الى البحث فى العوامل الاجتماعية التى تنشأ فى حضن المجتمع . فقرر أن كل جماعة انسانية تمر بثلاثة أطوار الطور الأول البدوى والثانى الغزوى والثالث الحضرى . أن كل أمة تنشأ قبيلة تعيش فى الصحراء أو فى الوادى ثم تنهض فتغزو أمماً أضعف منها متحضرة متمدينة وهذا هو الطور الثانى ثم تتحضر هى أيضاً فتمدن المدن وتمصر الأمصار وتدون الدواوين وتقن القوانين وتضع العلوم وتنشئ الفنون الجميلة وتميل الى الملاذ والمسرات وتنسى الحرب والكفاح فتضعف شيئاً فشيئاً الى أن تغلب عليها قبيلة غازية فتقهرها وتسود عليها .

وهكذا تستمر الحركة الانسانية تقوم أمم وتسقط ، دولة تنهض ودولة تنحط فتغلب

وأخرى تقوى فتنتصر وتسود . هذه سنة الطبيعة فى الأمم وقد اكتشفها ابن خلدون بمحض فكره وعلمه بتاريخ أمم العرب والبربر ولم يسبقه إليها أحد لأن من سبقه من العلماء لم يشهدوا تاريخ تلك الأمم ولأن أممهم لم نصب بما أصيبت به أمم العرب والبربر السالفة الذكر فى الشرق والغرب .

يقول ابن خلدون أن الحياة البدوية هى الطور الأول لكل جماعة أو قبيلة وأنها لا تنافى الطبيعة الانسانية ويمتاز البدو بالحركة الدائمة والتنقل وهم يعيشون من القطعان التى يرعونها فان كانت إبلا عاشوا فى الصحراء للملائمة جوها وأحوالها الظاهرة للابل وإن كانت غنما وأبقاراً عاشوا فى الوديان لكونها أشد ملائمة لهذا النوع من الحيوان من سواها وان عيشة البدو واضطرارهم للقناعة بالقوت والثياب وحاجتهم إلى الشجاعة والقوة للدفاع عن أنفسهم وأموالهم تفضلهم على المتحضرين

يقول ابن خلدون أن العصبية هى التى تدفع بالقبيلة إلى الألفة والمحبة وتدفعها أيضاً إلى الاتحاد والوثام والدفاع عن المصالح المشتركة وأن شيئين يقويان العصبية وهما احترام العرف والمادة ، والحاجة الدائمة للهجوم والدفاع . ثم تكلم عن الأسرة وتكوينها فقال أن كل أسرة تفقد صفاتها النبيلة فى آخر الجيل الرابع وأن القبائل تبقى قوية ما دامت محافظة على قوتها وعصبيتها : وقال أن صفاء الدم وتقاوة الجنس شرطان أساسيان لا يمكن لقبيلة أن تنال القوة أو تستبقى العصبية بدونهما وخلاصة القول على القبيلة ان العصبية هى قوامها وقوتها ، وأنها بدونها لا تستطيع الحياة أو المقاومة وأن القبائل ذات العصبية هى وحدها دون سواها القادرة على الفتح والامتلاك .

وقد انتقل ابن خلدون لتحول القبيلة إلى طور الغزو وتأسيس الدولة ولا شك عندنا فى أن سوسيولوجيته هذه مبنية على تاريخ العرب والبربر بصفتها قبائل وعلى تاريخ الاسلام بصفته دولة . انتقل ابن خلدون إلى الكلام على حياة الحضرة ، وأن لهذا الحكيم الفضل الأول فى التفريق بين السياسة والأخلاق وبينها وبين العقائد والشرائع وقد كانت السياسة قبل زمنه ممتزجة بها جميعاً ، فهو يعد بحق أول مؤلف سياسى فى الشرق ومن الأوائل فى الغرب .

يقول ابن خلدون أن العصبية والفضيلة تحفظان قوة القبائل ولكن لا بد لها من عامل ثالث وهو إما السياسة وإما الدين وهذا العامل الثالث هو الذى يوجه قوة القبيلة نحو منفعتها الحقيقية ويعين مورد القوة التى تكتسبها القبيلة بالفتح ، وبعبارة أخرى يريد ابن خلدون أن يقول أنه مهما كانت القبيلة قوية فانها فى حاجة إلى « مثل أعلى » تقصد اليه وتعمله كحبة آملها وقد ضرب مثلاً بقبائل العرب قبل الاسلام ثم انتقل إلى الأمم التى دالت دولتها وغزتها القبيلة القوية المستجدة وأسهب فى شروط الفتح وظروفه وفى الصعوبات التى يلقاها الفاتح وقرر أن أثر الفاتح فى المغلوب يزول بمجرد الفتح ويبدأ الغالب يتأثر بأحوال المغلوب .

وذكر ثلاثة أسباب لسقوط الأمم القوية هى ضعف الأشراف وتشدد الجنود المرتزقة ثم الترف وقال أن الدولة لا يطول أجلها أكثر من ثلاثة أجيال وان لها كالفرد طفولة وشباباً وشيخوخة ولكن هذا لا يمنع الدولة من السقوط فى أول أدوار حياتها . تقول أن هذه النظرية وان صدقت على الدول الاسلامية فلا تصدق على غيرها . وأن كثيراً من آراء ابن خلدون فى السيادة والتغلب والفتح يذكروا بكتساب الأمير تأليف ما كيا فىلى الذى نقلناه إلى العربية عام ١٩١٢ ولا ريب فى أن الفضل فى هذه الآراء لابن خلدون لأنه أسبق من حكيم فلورنسا ووزيرها .

وليس هذا المجال مجال نقد فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ولكننا أردنا تلخيص مبادئه يرى القارىء أن أهم ما حاوله ابن خلدون فى مقدمته الخالدة هو اكتشاف القانون الذى بمقتضاه تكونت المدنية العربية فى الغرب . وحاول ابن خلدون باكتشاف هذا القانون أن يضع أساس فلسفة الاجتماع معتقداً كما اعتقد بعده بستة قرون أوجست كومت أن حوادث التاريخ هى مصدر الاستنباط والاستنتاج الذى يعتمد عليه العالم الاجتماعى (راجع تاريخ فلسفة العرب تأليف بوير)

أن حياة ابن خلدون وأخلاقه تجمل الشبه بينه وبين ما كيا فىلى مؤلف كتاب الأمير شديداً جداً ولا فرق بينهما فى تاريخ مولدهما إلا قرن واحد وظروف كل منهما

في عصره وفي المناصب التي تقلب فيها والأشخاص الذين احتك بهم تكاد تكون واحدة . وقد استفاد كل منهما خبرة وعلمًا واسعًا بأخلاق الناس وقوانين الأمم وأحوالها كان ابن خلدون في عصره فذًا وأمثاله في كل عصر نادرون لقد تشبع بفلسفة ابن رشد واستطاع أن يتملص من كثير من معتقدات أهل عصره واستطاع أيضًا أن يسبق أوجست كومت في شيئين :

الأول القول بأن الفلسفة هي علم الموجودات وهذا الرأي لم يقل به ارسطو المسمى بالأستاذ الأول والمعلم الأول ولكن قل به أوجست كومت بعد ابن خلدون بستة قرون فابن خلدون في هذه النقطة أعلى ادراكًا من ارسطو وأسبق إلى اكتشاف تلك الحقيقة الكبرى من فلاسفة أوروبا إلى أواسط القرن التاسع عشر .

والثاني القول بأن الاجتماع الانساني خاضع لقوانين وقواعد تدخله في حيز العلوم المنتظمة وسبق أوجست كومت أيضًا في طريقته فانه بنى علم الحكيم الاجتماعي بالعالم على شيئين : الأول مشاهدة الأمم واختبارها ، والثاني تصور القوانين السائدة على الاجتماع واكتشافها بفضل التجارب العقلية والاستنتاج الفكري ولم يقل أوجست كومت بأكثر من هذا عند ما شرح طريقتي « الستاتيك والديناميك » فان الخبرة والعلم يكشفان لنا عن الحقائق ، والعقل يكشف لنا عن الأسباب والعلل

وكذلك كان ابن خلدون أول من اكتشف معنى كون التاريخ علمًا ما دامت غايته جمع الحقائق وتنظيمها وتنسيقها لا اكتشاف أسبابها ونتائجها . وبهذا الاختبار يمكن الوصول الى القول بأن كل حادثة معينة لدى حدوثها تقضي فرض وجود شروط أو ظروف معينة وبعبارة أخرى انه كلما اجتمعت طائفة من ظروف معينة في مدينة من المدن حدثت حوادث معينة ، وأي شيء أكثر من هذا قاله مونتسكيو أو أوجست كومت أو من جاء بعدهما من علماء الاجتماع ؟ وقد وصل ابن خلدون من هذا الى القول بأن الحاضر دليل على الماضي ، والمستقبل شبيه بالحاضر . ثم أن ابن خلدون قال بأن غاية التاريخ درس العمران أو الحياة الاجتماعية

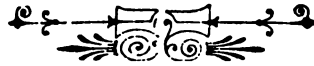
ذكرنا أن للحياة الاجتماعية ثلاثة أشكال متتالية هي حالة البداوة وحالة الحرب أو الفتح ثم حالة الحضارة (الفصل الثاني وما بعده ص ٧٣ من طبع ١٣١١ بالمطبعة الأزهرية بمصر) . وقد تعقب ابن خلدون حياة الجماعة منذ البداوة الى الحضارة التي تنشأ في حضنها وبطبيعتها أسباب الفساد والفناء ، وقد رد هذه الأسباب الى عدم المساواة من حيث الغنى والفقر وذهاب فضيلة الشجاعة من قلوب البدو اذا تحضروا ثم الى انغماس تلك القبائل الحديثة العهد بالمدينة في أنواع الملاذ وصنوف الترف

وأن من يقرأ مقدمته الجليلة لا يرتاب لحظة عين في أنه تعقب سير المدينة العربية في غرب أفريقيا وجنوب أوروبا منذ البداية الى النهاية ولا يوجد أدل على ذلك من كلامه في العصبية (ص ٧٩ من الطبعة المذكورة) وبجته في أن نهاية الحسب والمجد والعظمة الانسانية في العقب الواحد أربعة آباد ، أى ان الجيل الرابع هو نهاية المجد واعتبار الأربعة في رأيه : بان ، وهو الجيل الأول ومباشر وهو الجيل الثاني ومقلد وهو الجيل الثالث وهادم وهو الجيل الرابع (ص ٨٢)

ولا ننسى أن ابن خلدون سبق كل علماء الاجتماع في أوروبا في القرون الوسطى والحديثة يبحث في أثر الهواء في أخلاق البشر واختلاف أحوالهم في الخصب والجوع (ص ٥٢ وما بعدها) وهو كذلك أول من بحث في قسط العمران من الأرض وتكلم على أثر الأقاليم في الأخلاق والتدين وهذه مسائل قد حام حولها بعض فلاسفة اليونان ولكن ابن خلدون أول من وفاها حقها من البحث والامتصاص على قدر ما وصل اليه علمه الجغرافى في ذلك الزمان وأهمية هذه الأبحاث غنية عن البيان لأنها تدلنا على رغبة هذا الحكيم العربى في رد ظواهر الحياة الاجتماعية الى العوامل الطبيعية المعلومة لنا والواقعة بالفعل تحت مشاهدتنا .

وما أشد ألمنا عند قول ابن خلدون انه لم يف كل بحث حقه ولم يستوعب كلما ينبغى استيعابه وتدوينه انما ألم بأطراف المسائل وأحاط ببعضها عجزاً منه عن الاحاطة بأكملها وانه يترك ما بقى لمن يحىء بعده من العلماء الأعلام ! يشتد ألمنا لأن هذا النداء لم يجبه

أحد في العالم العربي ولا في العالم الاسلامي منذ وفاة ابن خلدون في أواسط القرن الخامس عشر للآن ، ولكن يسرنا أن أجابه الكثيرون من علماء أوربا ويسرنا أن كثيرين منهم لم ينسوا فضل هذا الحكيم العربي الشرقي ونحن لا نرتاب في أن أوجست كومت وقف على مؤلف هذا الحكيم وان كان لم يذكره بكلمة واحدة في كتابه واكتفى بذكر كوندورسيه ومونتسكيو ولا يمكن أن يجهل أوجست كومت فضل ابن خلدون وقد كتب عنه شولز مقالة في المجلة الآسيوية في عام ١٨٢٥ أى قبل ظهور فلسفة أوجست كومت بسبع سنين وكان كومت اذ ذاك في السابعة والعشرين من عمره . والمجلة المذكورة تنشر في باريس وطنه .



معارضة (مقارنة)

بين ابن خلدون وتلميذه نيقولا مكيافيلي

نقولا مكيافيلي فيلسوف اجتماعي سياسي من أهل فلورنسا ولد سنة ١٤٦٩ م وتوفي سنة ١٥٢٧ م . تقلب في عدة مناصب سياسية في جمهورية فلورنسا في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر . فتولى سكرتيرية ديوان القضاة العشرة فيها أربعة عشر عاماً وبعض العام قام في أثنائها بثلاث وعشرين مهمة سياسية في الأقطار الخارجية ، وإيطاليا يومئذ في أخرج المواقف تتنازع السيادة عليها ألمانيا وفرنسا والبابا . يعتريكون في مدينتها وأماراتها ، ويتخطفونها تخطف اللصوص بالدهاء أو السيف . غير ما انتشب من الخصام بين حكومة البابا والناهضين للإصلاح ومقاومة تعاليم الكنيسة وكانت أسرة مدينتي تحارب حزب الشعب تحت طي الخفاء .

عاصر مكيافيلي هذه الحوادث فاكنتسب الحنكة . واعتبر بما رآه وعلمه بالاختبار فوضع علماً أو فلسفة في السياسة العملية عرفت باسمه ، وألف في التاريخ والسياسة والتمثيل والأدب ونظم الشعر وكتب في فنون الحرب ، وأشهر مؤلفاته كتاب (الأمير) ألفه للأمير « لورنزودي مدينتي » الكبير

واختلف العلماء في قيمة ما حواه كتاب الأمير من الحقائق العمرانية والسياسية وهم بين قائل بأن قواعده السياسية ضارة لأنها مبنية على الاستبداد والغدر والخيانة وغيرها من الوسائل الدنيئة ، وبين من يزعم أنها قواعد صحيحة لا بد منها لقيام الدولة . والكتاب مؤلف من ٢٦ فصلاً أوضح فيها أنواع السلطة وطرق الحصول عليها والفرق بين الامارات الموروثة والمختلطة وضروب الحكومات وأنواع الامارات المدنية والدينية وأنواع المحاربين وما ينبغي على الأمير اتباعه من الأساليب حتى يستتب له الأمر وتثبت قدمه في السيادة . وفصول في واجبات الأمير نحو الجند وما تمدح به الرجال أو تذم من الكرم أو البخل أو القسوة أو اللين . وقارن بين محبة الناس للأمير

وخوفهم منه وكيف يكون وفاء الأمراء وكيف يشتهر الأمير وكثير من الابحاث السياسية والعمرانية ، ويتخلل ذلك تاريخ الامارات الغربية في القرون الوسطى فعمله هذا يشبه ما فعله ابن خلدون قبله بقرنين . ولذلك رأينا أن نقارن بينهما وبين آرائهما في السياسة والعمران ، فان لفيلسوفنا الاجتماعي آراء خاصة في طبائع العمران والسلطة يصح أن تسمى « الفلسفة الخلدونية » (Khaldounisme) كما سميت آراء مكيا فيلي « الفلسفة المكيا فيلية » (Machiavellisme)

كتاب الأمير ومقدمة ابن خلدون

أثبت ابن خلدون آراءه في فلسفة العمران بمقدمته المشهورة كما دون مكيا فيلي فلسفته في كتاب (الأمير) فيحسن بنا المقابلة بين الكتابين على الاجمال . فكتاب (الأمير) يشتمل على القواعد السياسية والأخلاقية اللازمة لتأييد سلطة الأمراء في فصول تقدم بيانها ولا يزيد حجمه على ١٥٠ صفحة ، أما مقدمة ابن خلدون فقد أسهبنا في وصفها وتلخيصها في ما سبق من هذه الترجمة (ص ٢٢٩) وفيها مباحث لم يتعرض لها مكيا فيلي ومباحث أخرى تصدى لها عرضاً

أوجه المشابهة بينهما

يتفق مكيا فيلي وابن خلدون في ما بعثهما على الكتابة في هذا الموضوع وفي الطريق الذي سلكاه . فان مكيا فيلي انما بعثه على تدوين تلك القواعد السياسية ما شاهده من اختلال الأحوال في أوروبا وما قاساه بنفسه من المشقة والعذاب في تدبير الدولة وملافاة الأخطار المحدقة بها . وهو كاتب سر الدولة يطلع على دخالها ويرى ما يحقد بذلك من الأخطار والمفاسد والدسائس . فدرس ذلك كله وبنى عليه آراءه في كيف يستطيع الأمير تثبيت سيادته . وضرب الأمثلة على ذلك مما شاهده من أحوال معاصريه أو قرأه من تاريخ الدول الماضية ، لكنه في كل حال لم يتعد تاريخ أوروبا القديم والحديث ولم يذكر من الشرقيين غير الأنراك .

أما ابن خلدون فعاش في بلاد المغرب وعانى مناصبها السياسية والقلمية وعاصر كثيراً من حوادثها وتقلباتها في مراکش وتونس والأندلس ومصر. ودخل في كثير منها بنفسه واطلع على دخالها وأسرارها وتولى كتابة السرى في بعضها . ونال مقاماً رفيعاً ونفوذاً عظيماً وتقلبت عليه أحوال شتى ونكب بموت أهله فزادته المصائب عبءة وصقلت قريحته الفلسفية . وكان واسع الاطلاع في التاريخ الاسلامى وما يتعاق به فعنى بوضع تاريخه المشهور . وخطرت له خواطر فلسفية في أحوال العمران دونها في مقدمة ذلك التاريخ قد تقدم ذكرها . فيشبه مكيا فيلى في أنه بعث على هذه الفلسفة من مؤثرات الوسط الذى نشأ فيه والأحوال التى عاصرتة . ولكنه أيد آراءه في سياسة الدولة بما عرفه من تاريخ الاسلام وسائر الشرق ولم يتعرض لتاريخ اليونان والرومان إلاّ عرضاً في بعض الأماكن .

وقد تشابه الفيلسوفان في كثير من آرائهما في الوزارة وأحوال الموالى والمصطنعين وتجنب المتعلقين . وفي تعليل أسباب سقوط الدولة ونهوضها ووجوب الاعتماد على الجند وغير ذلك مما لا حاجة بنا الى تفصيله هنا . وانما نكتفى بذكر أهم ما اختلفا فيه من القواعد السياسية في تأييد السلطة .

أوجه الاختلاف بينهما

أساس بحث مكيا فيلى في السلطة انه قسمها الى جمهورية ومملكة كما كانت تقسم بأوروبا في عهده ونسبة ذلك الى الكنيسة والأسر المطالبة بالسيادة في عصره . وأما ابن خلدون فلا تجد للجمهورية ذكراً في كتابه ولكنه يقسم ضروب السلطة الى الخلافة والملك والسلطنة والامارة مما كان شائعاً في الدولة الاسلامية وعلاقة ذلك بالدين والعصبية من أحوال العرب والمسلمين

يرى ابن خلدون أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق . وأن هذه الدعوة الدينية لا تقوم إلاّ بالعصبية بين أهل الأنساب (البدو) غير أهل الأمصار (الحضرة) لأن هؤلاء عدوان بعضهم على بعض لا تجتمع

كلّهم . وأما البدو فيدافع بعضهم عن بعض بالعصبية وتدافع عنهم مشايخهم وكبرائهم بما قام في نفوس الكافة لهم من الوقار . ولا يصدق دفاعهم الا اذا كانوا عصبية وأهل نسب . وأتى بالأدلة على تأييد قوله من تاريخ الاسلام وهي كثيرة لأن الدولة الاسلامية قامت بالدين والعصبية .

وأما ميكائيلي فقد عقد فصلاً في الامارات الدينية (صفحة ١٢٠) بين فيه أن السيادة الدينية تبقى بفضل العادات والرسوم القديمة وهي التي تسهل لأمرائها البقاء في السلطة . ولم يبحث في نسبة الدين الى تأسيس الدول لأن النصرانية لم تنشئ دولة من نفسها . لكنه بحث في كيف وصلت الكنيسة الى تلك القوة الدنيوية في أيامه حتى أرهبت ملك فرنسا وطردته من ايطاليا وقضت على أهل البندقية . وأسند ذلك الى حاجة الأمراء اليها في التنازع بينهم وعندها البأس والقوة . وهو يعتقد أن قيام الدولة وثباتها انما يكون بالجند وعقد فصلاً خاصاً في واجبات الأمير نحو الجند المحارب فقال :

« لا ينبغي للأمير أن يكون له مقصد وفكر ويعنى بدرس أمر سوى الحرب ونظامها وترتيبها لأنها الصنعة الوحيدة الضرورية للذي يأمر وينهى . وفائدتها في انها تحفظ ملك من يولد أميراً وترفع الى مرتبة الأمراء بعض الناس من الطبقات الأخرى وقد رأينا أن الأمراء الذين يفكرون في الرفاهية أكثر من التفكير في الحرب يفقدون امارتهم والسبب الذي يفقد الأمراء ممالكهم هو احتقارهم الحرب ، ووسيلة الحصول عليها هي التبحر في علوم الحرب » .

وقد تجرد في آراء ابن خلدون ما يرمى الى مثل هذا الغرض . وانما يختلف الرجلان في كيف تحفظ سيادة الأمراء على رعاياهم . فيرى ميكائيلي ان الوسيلة الفضلى ايقاع الهيبة والرعب في قلوب الرعية وقد جعل ذلك في طريق البحث فقال :

« ومن هذا ينشأ سؤال مهم وهو أيهما أنفع للأمير أن يُحِب أكثر مما يُخشَى أم يُهاب أكثر مما يُحِب ؟ فالجواب أنه ينبغي له أن يكون محبوباً مهيباً وحيث يصعب الجمع بين الحالتين فاذا احتاج الأمير لأحدهما فالأفضل أن يهاب اذ يحق القول عن

الناس عامة أنهم ينكرون الجليل سريعو التحول مختلفو الطبائع والغرائز مبالغون لاتقاء الأخطار ومحبون للكسب »

ويرى أن الأمير يجب أن يقود جيشه وان يعرف بالقسوة لأنه بدونها لا يستطيع أن يحافظ على اتحاد جيشه وطاعته (ص ١٤٩) واستشهد على ذلك بهنريال وغيره وعقد مكيا فيلي فصولاً في كيف ينبغي أن يتصرف الأمير لحفظ سيادته فقال (ص ١٤٠) « اذن فينبغي للأمير الذي يريد أن يحفظ عرشه أن يتعلم كيف يقلل من طبيته وكيف يستعمل الخير أو ضده في الأوقات والأحوال المناسبة »

وقال (ص ١٤٢) « ويجب عليه أن لا يخشى عار المعاييب التي يصعب عليه بدونها الاحتفاظ بالملك لأن الانسان اذا أمعن النظر رأى أن كثيراً من الأمور التي تظهر له انها فضائل قد تؤدي به الى الخراب اذا اتبعها . وكثيراً مما يبدو كأنه من الرذائل قد يؤدي الى الخير والسلامة »

وبحث في الكرم والبخل بالنظر الى الأمراء فكان حكمه « لا ينبغي للملك أن يهتم باتهامه بالبخل اذا كان يريد أن لا يسرق شعبه ويدافع عن نفسه وقت الشدة وأن لا يصير فقيراً محتقراً وأن لا يصاب بالجشع . فان رذيلة البخل من الرذائل التي تسهل له الاحتفاظ بالسلطة »

وأطلق لقلمه العنان في فصل « كيف يكون وفاء الأمراء » يعنى اذا عاهد الأمير أحداً على أمر هل يجب عليه الوفاء به ؟ فقال « لا ينبغي على أحد ما يالحق بالأمراء من الثناء اذا اشتهروا بحفظ الوعود ومراعاة العهود ولكن تجارب زماننا هذا دلت على أن الأمراء الذين لم يراعوا العهود قاموا بأعمال كبيرة وتمكنوا من تحيير أو همام الناس بمكرهم وتغلبوا في نهاية الأمر على الأمراء الذين اتخذوا الأمانة عادة والوفاء أساساً لحياتهم »

ثم فصل الكلام في ذلك وقال ان الأمير ينبغي له أن تكون فيه طبيعتا الأسد والثعلب فيفتك كالأسد ويحتال كالثعلب الى أن قال « لذا ينبغي للأمير أن يكون ثعلباً ليتقى الحفائر والحبائل وأسداً ليرهب الذئاب . أما من يريد أن يكون أسداً فقط فلا أمل له في النجاة . لأجل هذا لا ينبغي للأمير الحذر أن يحفظ العهود اذا كانت ضد مصلحته

أو ما دامت الأسباب التي دعت للوعد قد انقضت عهداً . إذا كان الناس كلهم اختياراً فان القاعدة التي ذكرتها تكون لا شك سيئة ولكنهم أشرار ولن يحفظوا لك عهداً فلست مضطراً لحفظ عهودهم .

« ثم ان الأمير لا يفقد حيلة شرعية يركن إليها اذا لم يف بوعده . وأن الأمثال في هذا الباب كثيرة تثبت أن السلم قد تزعزع مراراً وأن الوعود قد نسيت تكراراً عند أمراء لا وفاء لهم . وأن الأمراء الذين استطاعوا تقليد الثعلب قد فازوا وانتصروا ولكن من الضروري أن يخفى الرجل هذه الخليقة وأن يكون ماهراً في فن التظاهر بغير شعوره . ثم ان الناس من البساطة بمكان وهم أصحاب حاجات وصاحبها أرعن مطيع فلا يعدم الخادع فرسته »

واستشهد على ذلك باسكندر السادس لأنه لم يفعل في حياته سوى خداع الرجال قال مكيا فيلي « فلم يكن مثله رجلاً قادراً على تأكيد الأقوال وثبيتها والوعد بالانجاز ولم يكن كذلك أحد مثله أقل وفاء بما وعد به . ومع ذلك فانه فاز على الدوام في خداعه لأنه عرف طبيعة البشر . فليس من الضروري للأمير أن يتصف حقيقة بكل الفضائل التي سبق الكلام عليها . ولكن من الضروري أن يذاع عنه الاتصاف بها . وانني أجسر فأقول أن الاتصاف بكل تلك الفضائل خطر ولكن الظهور بالتحلي بها نافع . من الخير لك أن تظهر بالتقوى والأمانة وحب الإنسانية والدين والاخلاص وأن تكون في الواقع كذلك ، ولكن ينبغي أن تكون متنبهاً بحيث اذا اضطررت للتحول إلى الصفات الأخرى كان ذلك بدون مشقة »

هذا أهم ما يراه مكيا فيلي وسيلة لتأييد سلطة الأمراء . أما ابن خلدون فيخالفه أو هو يناقضه في أكثر المواضع :

يرى ابن خلدون أن ارهاق الحد مضر بالملك مفسد له وأنه إنما يملك الأمير الرعية بالرفق واللين فأشار بحسن الملكة والابتعاد عن العنف وهذا قوله « أن حسن الملكة تقوم بالرفق فان الملك إذا كان قاهراً باطشاً بالعقوبات منقباً عن عورات الناس وتعديد ذنوبهم شملهم الخوف والذل ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة . فتخلعوا بها وفسدت

بصائرهم وأخلاقهم . وربما خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات ففسدت الحماية بفساد النيات . وربما أجمعوا على قتله لذلك ففسد الدولة ويخرب السياج . وإن دام أمره عليهم وقهره فسدت العصبية لما قلناه أولاً وفسد السياج من أصله بالعجز عن الحماية . وإذا كان رفيقاً بهم متجاوزاً عن سيئاتهم استناموا إليه ولاذوا به وأشربوا محبته واستماتوا دونه في محاربة أعدائه فاستقام الأمر من كل جانب . وأما توابع حسن الملكة فهي النعمة عليهم والمدافعة عنهم فالمدافعة بها تتم حقيقة الملك . وأما النعمة عليهم والاحسان لهم فمن جملة الرفق بهم والنظر لهم في معاشهم وهي أصل كبير في التحجب إلى الرعية » ويرى ابن خلدون أن من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة قال « إن خلال الخير هي التي تناسب السياسة والملك لأن المجد له أصل ينبني عليه وتحقق به حقيقته وهو العصبية والعشير . وفرع يتم وجوده ويكمله وهو الخلال ، وإذا كان الملك غاية للعصبية فهو غاية لفروعها وتمامها وهي الخلال . لأن وجوده دون متمماته كوجود شخص مقطوع الأعضاء أو ظهوره عرياناً بين الناس . وإذا كان وجود العصبية فقط من غير انتحال الخلال الحميدة نقصاً في أهل البيوت والاحساب فما ظنك بأهل الملك الذي هو غاية لكل مجد ونهاية لكل حسب ؟ وأيضاً فالسياسة والملك هي كفالة للخلق وخلافة لله في العباد لتنفيذ أحكامه فيهم . وأحكام الله في خلقه وعباده إنما هي بالخير ومراعاة المصالح »

ولولا ضيق المقام لأتينا بأمثلة أخرى . على أن في كتاب الأمير كثيراً من القواعد الاجتماعية الصحيحة مثل بحثه في الامارات المختلطة وكيف ينبغي للأمير أن يفعل لتسكين سلطته فيها . فانه قرر قواعد يحكم العقل بصحتها حالاً ويرى أمثلة منها تحدث كل يوم . وأحكامه في الولايات التي امتلكت بقوة الجيش وآرائه في الامارة المدنية فان فيها فوائد هامة وغير ذلك .

ونعترف له بعض سقطاته متى علمنا الوسط الذي كتب فيه كتابه و إنما أردنا المقابلة بين الرجلين لتشابههما في ما كتبا

ايضاح ابن خلدون

بنبذ من أسلوبه

رأيه في الفلسفة

لم ندخل ابن خلدون في زمرة فلاسفة الاسلام بوصف كونه فيلسوفا عقلياً ، فانه لم يكن كذلك ولكننا حدونا حذو مؤرخي الأفرنج الذين اعتبروه من أهل العبقريّة في علوم الاجتماع والاقتصاد وفلسفة التاريخ ولأنه يكمل سلسلة الفلاسفة الذين بدأوا بالكندی وانتهوا بابن رشد

على أن ابن خلدون لم يكن بعيدا عن الفلسفة بل أنه ضرب فيها بسهم وأدرك أوائلها ثم أعرض عنها بسبب مزاجه واتجاه عقله الى المباحث الاجتماعية العملية ، فنظر في العالم نظر الفيلسوف في النظريات وطبق على العمران والمدنية قواعد البحث العقلي ، ولما أطلق وصف المقدمة على الكتاب الاول من تاريخه النفيس كان في ذلك متواضعا والا فانه يستحق أن يوصف بحق يفلسفة التاريخ

واليك نبذة تعرض فيها ابن خلدون للفلسفة ووصفها بانها فصل « في إبطال الفلسفة وفساد منتحلها » وفيها دلالة على أسلوبه وطريقة تفكيره قال :

« ان هذه العلوم عارضة في العمران كثيرة في المدن وضررها في الدين كثير فوجب أن يصدع بشأنها ، ويكشف عن المعتقد الحق فيها وذلك أن قوما من عقلاء النوع الانساني زعموا أن الوجود كله الحسى منه وما وراء الحسى تدرك ذواته وأحواله بأسبابها وعللها بالانظار الفكرية والاقيسة العقلية وأن تصحيح العقائد الايمانية من قبل النظر لا من جهة السمع فانها بعض من مدارك العقل ، وهؤلاء يسمون فلاسفة جمع فيلسوف وهو باللسان اليوناني محب الحكمة فبحثوا عن ذلك وشروا له ، وحووموا على اصابة الغرض منه ووضعوا قانوناً يهتدى به العقل في نظره الى التمييز بين الحق والباطل وسموه بالمنطق

« ثم يزعمون أن السعادة في ادراك الموجودات كلها ما في الحس وما وراء الحس بهذا النظر وتلك البراهين وحاصل مداركهم في الوجود على الجملة وما آت اليه ، وهو الذي فرعوا عليه قضايا انظارهم ، أنهم عثروا أولا على الجسم السفلى بحكم الشهود والحس ثم ترقى ادراكهم قليلا فشعروا بوجود النفس من قبل الحركة والحس في الحيوانات ، ثم أحسوا

من قوى النفس بسلطان العقل ووقف ادراكهم فقضوا على الجسم العالى السهاوى بنحو من القضاء على أمر الذات الانسانية ووجب عندهم أن يكون للفلك نفس وعقل كما للانسان ، ثم أنهموا ذلك نهاية عدد الآحاد وهى العشر ، تسع مفصلة ذواتها جمل وواحد أول مفرد وهو العاشر ويزعمون أن السعادة فى ادراك الوجود على هذا النحو من القضاء مع تهذيب النفس وتخلتها بالفضائل ، وأن ذلك ممكن للانسان ولو لم يرد شرع لتمييزه بين الفضيلة والرذيلة من الافعال بمقتضى عقله ونظره وميله الى المحمود منها واجتنابه للمذموم بفطرته وأن ذلك اذا حصل للنفس حصلت لها البهجة واللذة وأن الجهل بذلك هو الشقاء السرمدى وهذا عندهم هو معنى النعيم والعذاب فى الآخرة الى خبط لهم فى تفاصيل ذلك معروف من كلماتهم

« وإمام هذه المذاهب الذى حصل مسائلها ودون عامها وسطر حجاجها فيما بلغنا فى هذه الاحقاب هو أرسطو المقدونى من أهل مقدونيا من بلاد الروم من تلاميذ أفلاطون ويسمونه المعلم الاول على الاطلاق ، يعنون معلم صناعة المنطق وهو أول من رتب قانونها واستوفى مسائلها وأحسن بسطها ولقد أحسن فى ذلك القانون ما شاء لو تكفل له بقصدهم فى الالهيات

« ثم كان من بعده فى الاسلام من أخذ بتلك المذاهب واتبع فيها رأيه حذو النعل بالنعل الا فى القليل وذلك أن كتب أولئك المتقدمين لما ترجمها الخلفاء من بنى العباس من اللسان اليونانى إلى اللسان العربى تصفحها كثير من أهل الملة وأخذ من مذاهبهم من أضله الله من متحلى العلوم وجادلوا عنها واختلفوا فى مسائل من تفاريعها وكان من أشهرهم أبو نصر الفارابى فى المائة الرابعة لعهد سيف الدولة وأبو على بن سينا فى المائة الخامسة لعهد نظام الملك من بنى بويه باصهان وغيرها

« واعلم أن هذا الرأى الذى ذهبوا اليه باطل بجميع وجوهه ، فالما أسنادهم الموجودات كلها الى العقل الاول واكتفائهم به فى الترقى الى الواجب فهو قصور عما وراء ذلك من رتب خلق الله ، فالوجود أوسع نطاقاً من ذلك « ويخلق ما لا تعلمون » وكانهم فى اقتصارهم على اثبات العقل فقط والغفلة عما وراءه بمثابة الطبيعيين المقتصرين على اثبات الاجسام خاصة الممرضين عن النقل والعقل المعتقدين أنه ليس وراء الجسم فى حكمة الله شئ ، وأما البراهين التى يزعمونها على مدعياتهم فى الموجودات ويمرضونها على معيار المنطق وقانونه فهى قاصرة وغير وافية بالفرض .

« أما ما كان منها في الموجودات الجسمانية ويسمونه العلم الطبيعي فوجه قصوره أن المطابقة بين تلك النتائج الذهنية التي تستخرج بالحدود والأقيسة كما في زعمهم وبينما في الخارج غير يقيني لان تلك أحكام ذهنية كلية عامة والموجودات الخارجية متشخصة بموادها ولعل في المواد ما يمنع من مطابقة الذهني الكلي للخارجي الشخصي اللهم الا ما يشهد له الحس من ذلك فدليله شهوده لا تلك البراهين ، فأين اليقين الذي يحدونه فيها ؟ وربما يكون تصرف الذهن أيضاً في المعقولات الاول المطابقة للشخصيات بالصور الخيالية لا في المعقولات الثواني التي تجريدها في الرتبة الثانية فيكون الحكم حينئذ يقينياً بمثابة المحسوسات اذ المعقولات الاول أقرب الى مطابقة الخارج لكمال الانطباق فيها فنسلم لهم حينئذ دعاوهم في ذلك الا أنه ينبغي لنا الاعراض عن النظر فيها اذ هو من ترك المسلم لما لا يعنيه فان مسائل الطبيعيات لا تهمننا في ديننا ولا معاشنا (!) فوجب علينا تركها

« وأما ما كان منها في الموجودات التي وراء الحس ، وهي الروحانيات ويسمونه العلم الالهي وعلم ما بعد الطبيعة فان ذواتها مجهولة رأساً ولا يمكن التوصل اليها ولا البرهان عليها ، لأن تجريد المعقولات من الموجودات الخارجية الشخصية انما هو ممكن فيما هو مدرك لنا ونحن لا ندرك الذوات الروحانية حتى نجرد منها ماهيات أخرى بحجاب الحس بيننا وبينها فلا يتأتى لنا برهان عليها ولا مدرك لنا في اثبات وجودها على الجملة الا ما نجده بين جنبينا من أمر النفس الانسانية وأحوال مداركها وخصوصاً في الرؤيا التي هي وجدانية لكل أحد وما وراء ذلك من حقيقتها وصفاتها فأمر غامض لا سبيل إلى الوقوف عليه

« وقد صرح بذلك محققوم حيث ذهبوا الى أن مالا مادة له لا يمكن البرهان عليه لان مقدمات البرهان من شرطها أن تكون ذاتية وقال كبيرم أفلاطون « ان الالهيات لا يوصل فيها إلى يقين وانما يقال فيها بالاحق والاولى » يعني الظن ، واذا كنا انما نحصل بعد التعب والنصب على الظن فقط فيكفيها الظن الذي كان أولاً فأى فائدة لهذه العلوم والاشتغال بها ونحن انما عنايتنا بتحصيل اليقين فيما وراء الحس من الموجودات وهذه هي غاية الافكار الانسانية عندم .

« وأما قولهم ان السعادة في ادراك الموجودات على ما هي عليه بتلك البراهين فقول مزيف مردود وتفسيره ان الانسان مركب من جزئين أحدهما جسماني والآخر روحاني ممتزج به ولكل واحد من الجزئين مدارك مختصة به والمدرك فيهما واحد وهو الجزء الروحاني يدرك تارة مدارك روحانية وتارة مدارك جسمانية إلا أن المدارك الروحانية

يدركها بذاته بغير واسطة والمدارك الجسمية بواسطة آلات الجسم من الدماغ والحواس وكل مدرك ذله ابتهاج بما يدركه واعتبره بحال الصبي في أول مداركه الجسمية التي هي بواسطة ، كيف يبتهج بما يبصره من الضوء وبما يسمعه من الاصوات ، فلا شك ان الابتهاج بالادراك الذي للنفس من ذاتها بغير واسطة يكون أشد وألذ ، فالنفس الروحانية اذا شعرت بادراكها الذي لها من ذاتها بغير واسطة حصل لها ابتهاج ولذة لا يعبر عنها وهذا الادراك لا يحصل بنظر ولا علم وانما يحصل بكشف حجاب الحس ونسيان المدارك الجسمية بالجملة والمتصوفة كثيرأ ما يعنون بحصول هذا الادراك للنفس بحصول هذه البهجة فيحاولون بالرياضة اماتة القوى الجسمية ومداركها حتى الفكر من الدماغ ليحصل للنفس ادراكها الذي لها من ذاتها عند زوال الشواغب والموانع الجسمية فيحل لهم بهجة ولذة لا يعبر عنها وهذا الذي زعموه بتقدير صحته مسلم لهم وهو مع ذلك غير واف بمقصودهم

« فاما قولهم أن البراهين والادلة العقلية محصلة لهذا النوع من الادراك والابتهاج عنه فباطل كما رأيته ، اذ البراهين والادلة من جملة المدارك الجسمية لانها بالقوى الدماغية من الخيال والفكر والذكر ، ونحن أول شيء نعنى به في تحصيل هذا الادراك إماتة هذه القوى الدماغية كلها لانها منازعة له قاذحة فيه

« وتجد الماهر منهم عاكفاً على كتاب « الشفاء والاشارات والنجاء » وتلاخيص ابن رشد للفص من تأليف أرسطو وغيره يبعثر أوراقها ويتوثق من براهينها ويلتمس هذا القسط من السعادة فيها ولا يعلم أنه يستكثر بذلك من الموانع عنها ، ومستندهم في ذلك ما ينقلونه عن ارسطو والفارابي وابن سينا « ان من حصل له ادراك العقل الفعال واتصل به في حياته فقد حصل حظه من هذه السعادة » والعقل الفعال عندهم عبارة عن أول رتبة ينكشف عنها الحس من رتب الروحانيات ويحملون الاتصال بالعقل الفعال على الادراك العلمى ، وقد رأيت فساد (؟ !)

« وانما يعنى ارسطو وأصحابه بذلك الاتصال والادراك ، ادراك النفس الذي لها من ذاتها وبغير واسطة وهو لا يحصل الا بكشف حجاب الحس ، وأما قولهم أن البهجة الناشئة عن هذا الادراك هي عين السعادة الموعود بها فباطل أيضاً ، لأننا انما تبين لنا بما قررناه أن وراء الحس مدركا آخر للنفس من غير واسطة وانها تبتهج بادراكها ذلك ابتهاجا شديداً ، وذلك لا يعين لنا أنه عين السعادة الاخرية ولا بد ، بل هي من جملة الملاذ التي لتلك السعادة

« وأما قولهم أن الانسان يحد السعادة في ادراك هذه الموجودات على ما هي عليه فقول باطل مبنى على ما كنا قدمناه في أصل التوحيد من الاوهام والاغلاط

« وأما قولهم أن الانسان مستقل بهذيب نفسه واصلاحها بملازمة المحمود من الخلق ومجانبة المذموم فامر مبنى على أن ابتهاج النفس بادراكها الذى لها من ذاتها هو عين السعادة الموعود بها ، وقد بينا أن أثر السعادة والشقاوة من وراء الادراكات الجسمانية والروحانية فهذا التهذيب الذى توصلوا الى معرفته انما نفعه في البهجة الناشئة عن الادراك الروحاني فقط ، وأما ما وراء ذلك من السعادة التي وعدنا بها فامر لا يحيط به مدارك المدركين ، وقد تنبه لذلك ابن سينا فقال في كتاب (المبدأ والمعاد) « ان المعاد الروحاني وأحواله هو مما يتوصل اليه بالبراهين العقلية والمقاييس لأنه على نسبة طبيعية محفوظة ووتيرة واحدة فلنا في البراهين عليه سعة ، وأما المعاد الجسماني وأحواله فلا يمكن ادراكه بالبرهان لأنه ليس على نسبة واحدة وقد بسطته لنا الشريعة الحقة المحمدية فلينظر فيها ولنرجع في أحواله اليها » اه كلام ابن سينا

« فهذا العلم كما رأيته غير واف بمقاصدم التي حوموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع الا أنه وان كان غير واف بمقصودم فان قوانينه أصح ما علمناه من قوانين الانظار . هذه هي ثمرة هذه الصناعة مع الاطلاع على مذاهب أهل العلم وأرائهم ومضارها ما علمت فليكن الناظر فيها متحرزاً جهده من معاطبها » اه .



٩ — اخوان الصفا

كان للفلسفة في العصر العباسي شأن عظيم ، فاشتغل بها أكثر الذين عنوا بعلوم القدماء ، لا سيما الأطباء منهم وكان الفلاسفة في هذا العصر متهمين بالالحاد والتعطيل وكان الانتساب إلى الفلسفة مرادفاً للانتساب إلى الكفر ، وشاعت النقرة على الخليفة المأمون ، لأنه كان السبب في نقل الفلسفة إلى اللغة العربية حتى قال فيه ابن تيمية « ما أظن الله يغفل عن المأمون ، ولا بد أن يعاقبه على ما أدخله على هذه الأمة ! »

أشهر أفراد جمعية اخوان الصفا

فاضطر أصحاب الفلسفة إلى التستر فألفوا الجمعيات السرية لهذا الغرض وأشهرها جمعية اخوان الصفا ، تأسست في بغداد في أواسط القرن الرابع للهجرة ، وقد ذكروا من أعضائها خمسة هم :

(١) أبوسليمان محمد بن معشر البستي ، ويعرف « بالمقدسي »

(٢) أبوالحسن علي بن هارون الزنجاني

(٣) أبواحمد المهرجاني

(٤) العوفي

(٥) زيد بن رفاعه

وكانوا يجتمعون سرّاً ويتباحثون في الفلسفة على أنواعها حتى صار لهم فيها مذهب خاص هو خلاصة أبحاث فلاسفة الاسلام ، بعد اطلاعهم على آراء اليونان والفرس والهند ، وتعديلها على ما يقتضيه الاسلام

وأساس مذهبهم «أن الشريعة الإسلامية تدرست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية ، وانه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة المحمدية فقد حصل الكمال»

رسائلهم الفلسفية

وقد دونوا فلسفتهم هذه في اثنتين وخمسين رسالة ، سموها رسائل « اخوان الصفا » وكتبوها أسماءهم ، وهي تمثل الفلسفة الاسلامية على ما كانت عليه في ابان نضجها ، وتشمل النظر في مبادئ الموجودات وأصول الكائنات إلى نضد العالم فالهيولى والصورة وماهية الطبيعة والأرض والسماء ووجه الأرض وتغيراته والكون والفساد والآثار العلوية والسماء والعالم وعلم النجوم وتكوين المعادن وعلم النبات وأوصاف الحيوان ومسقط النطفة وكيفية رباط الناس بها وتركيب الجسد والحاس والمحسوس والعقل والمعقول والصناعات العلمية والعملية والعدد وخواصه والهندسة والموسيقى والمنطق وفروعه واختلاف الأخلاق وطبيعة العدد وأن العالم انسان كبير والانسان عالم صغير (وهذه هى نظرية « هربرت سبنسر » فى علم الاجتماع) والاكوار والأدوار وماهية العشق والبعث والنشور وأجناس الحركات والعلل والمعلولات والحدود والرسوم وبالجملة فقد ضمنوها كل علم طبيعى أو رياضى أو فلسفى أو الهى أو عقلى

ويظهر من امعان النظر فى تلك الرسائل ، أن أصحابها دونوها بعد البحث الدقيق والنظر الطويل وفى جملة ذلك ، آراء لم يصل أهل هذا الزمان إلى أحسن منها ، وفيها بحث مستفيض من قبيل نظرية النشوء والارتقاء

وكان المعتزلة ومن جرى مجراهم يتناقلون هذه الرسائل ويتدارسونها ويحملونها معهم سرّاً إلى بلاد الاسلام ولم تمض مائة سنة على كتابتها حتى دخلت بلاد الأندلس على يد أبى الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرماني القرطبي

وأبو الحكم هذا عالم من أهل قرطبة رحل إلى المشرق للتبحر فى العلم ، على جارى عادة الأندلسيين ، فلما عاد إلى بلاده حمل معه الرسائل المذكورة وهو أول من أدخلها إلى الأندلس فما لبثت أن انتشرت هناك حتى تناولها أصحاب العقول البحاثة وأخذوا فى درسها وتدبرها

وطبعت فى (ليزج) سنة ١٨٨٣ م وفى (بومباى) سنة ١٨٨٦ م وفى مصر سنة

١٨٨٩ م ونقلت إلى الهندستانية وطبعت فى لندن سنة ١٨٦١ م

تتلخص فلسفة اخوان الصفا في اثنتين وخمسين رسالة مقسومة على أربعة أقسام :

- القسم الأول — أربعة عشرة رسالة رياضية تعليمية
- القسم الثاني — سبعة عشرة رسالة جسمانية طبيعية
- القسم الثالث — عشر رسائل نفسانية عقلية
- القسم الرابع — احدى عشرة رسالة ناموسية آلهية

القسم الأول في الرسائل الرياضية التعليمية

- الرسالة الأولى في العدد
- » الثانية في الهندسة
- » الثالثة في النجوم
- » الرابعة في الموسيقى
- » الخامسة في الجغرافيا
- » السادسة في النسب
- » السابعة في الصناعات العلمية
- » الثامنة في العملية
- » التاسعة في بيان اختلاف الأخلاق
- » العاشرة في ايساغوجي
- » الحادية عشرة في قاطيغورياس
- » الثانية عشرة في بارمينياس
- » الثالثة عشرة في انولوطيقا الأولى
- » الرابعة عشرة في انولوطيقا الثانية

القسم الثاني

- الرسالة الأولى في الهيولى والصورة
- » الثانية في السماء والعالم

الرسالة الثالثة في الكون والفساد

- » الرابعة في الآثار العلوية
- » الخامسة في كيفية تكوين المعادن
- » السادسة في ماهية الطبيعة
- » السابعة في أجناس النبات
- » الثامنة في أصناف الحيوان
- » التاسعة في تركيب الجسد
- » العاشرة في الحاس والمحسوس
- » الحادية عشرة في مسقط النطفة
- » الثانية عشرة في معنى قول الحكماء « ان الانسان عالم صغير » وهو « معنى العالم الكبير »
- » الثالثة عشرة في كيفية نشر الأنفس الجزئية
- » الرابعة عشرة في بيان طاقة الانسان
- » الخامسة عشرة في ماهية الموت والحياة
- » السادسة عشرة في ماهية اللذات والآلام الجسمية والروحانية
- » السابعة عشرة في علل اختلاف اللغات

القسم الثالث

الرسالة الأولى في المبادئ العقلية على رأى الفيثاغوريين

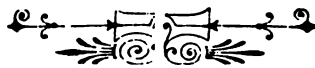
- » الثانية في المبادئ العقلية على رأى اخوان الصفا
- » الثالثة في معنى قول الحكماء « ان العالم انسان كبير »
- » الرابعة في العقل والمعقول
- » الخامسة في الأكوار والادوار واختلاف القرون والأعصار
- » السادسة في ماهية العشق
- » السابعة في ماهية البعث
- » الثامنة في كمية أجناس الحركات
- » التاسعة في العلل والمعلولات
- » العاشرة في الحدود والرسوم

القسم الرابع

الرسالة الأولى في الآراء والمذاهب في الديانات الشرعية الناموسية والفلسفية

- » الثانية في ماهية الطريق الى الله عز وجل
- » الثالثة في بيان اعتقاد اخوان الصفاء وخلان الوفاء
- » الرابعة في كيفية عشرة اخوان الصفاء وخلان الوفاء
- » الخامسة في ماهية الايمان
- » السادسة في ماهية الناموس الالهى
- » السابعة في كيفية الدعوة الى الله عز وجل
- » الثامنة في كيفية أفعال الروحانيين
- » التاسعة في كمية أنواع السياسات وكيفيةها
- » العاشرة في كيفية نضد العالم بأسره
- » الحادية عشرة في ماهية السحر والعزائم

وخلاصة فلسفتهم في رسالة جامعة لما في الرسائل الاثنتين والخمسين



في كيفية عشرة اخوان الصفا وتعاون بعضهم بعضاً

سبق ان قلنا أن اخوان الصفا كانوا يجتمعون سرّاً، ويتباحثون في الفلسفة على أنواعها حتى صار لهم فيها مذهب خاص ولما كان لهذه الجماعة دستور اتبعوه في حياتهم وأرادوا تعميمه بين من كان على شاكلتهم في سائر الأقطار فقد أردنا أن نلخص هذا القانون لما فيه من الحكمة التاريخية

فقد فرضوا على من كان مثلهم من الجماعات أن يكون لهم مجلس خاص يجتمعون فيه في أوقات معلومة لا يداخلهم فيه غيرهم، يتذاكرون فيه علومهم ويتحاورون فيه أسرارهم وينبغي أن تكون مذاكرتهم أكثرها في علم النفس والحس والمحسوس والعقل والمعقول والنظر والبحث عن أسرار الكتب الالهية والتنزيلات النبوية ومعاني ما يتضمنها موضوعات الشريعة، وينبغي أيضاً أن يتذاكروا العلوم الرياضية الأربعة وهي العدد والهندسة والتنجيم والتأليف

وأما أكثر عنايتهم وقصدهم فينبغي أن يكون البحث عن العلوم الالهية التي هي الغرض الأقصى، وبالجملة ينبغي لهم أن لا يعادوا علماً من العلوم أو يهجروا كتاباً من الكتب ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب، لأن رأى اخوان الصفا ومذهبهم يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم جميعها وذلك أنه هو النظر في جميع الموجودات بأسرها الحسية والعقلية من أولها الى آخرها ظاهرها وباطنها وجليها وخفيها بعين الحقيقة من حيث هي كلها من مبدأ واحد وعلة واحدة وعالم واحد ونفس واحدة محيطة جواهرها المختلفة وأجناسها المتباينة

مصادر علوم اخوان الصفا

وقد ذكر اخوان الصفا في رسالتهم الثانية أن علومهم مأخوذة من أربعة كتب أحدها الكتب المصنفة على السنة الحكماء والفلاسفة من الرياضيات والطبيعات الثاني الكتب المنزلة التي جاءت بها الأنبياء مثل التوراة والانجيل والفرقان وغيرها

من صحف الأنبياء المأخوذة معانيها بالوحي من الملائكة وما فيها من الأسرار الخفية
والثالث الكتب الطبيعية وهي صور أشكال الموجودات بما هي عليه الآن من تركيب
الأفلاك وأقسام البروج وحركات الكواكب ومقادير أفعالها وتصارييف الزمان واستحالة
الأركان وفنون الكائنات من المعادن والحيوان والنبات وأصناف المصنوعات على أيدي
البشر ، كل هذه صور وكنائيات وآلات على معاني لطيفة وأسرار دقيقة يرى الناس
ظواهرها ولا يعرفون معاني بواطنها من لطيف صفة البارئ جل ثناؤه

والرابع الكتب الالهية التي لا يمسه إلا المطهرون الملائكة التي هي بأيدي سفرة
كرام بررة وهي جواهر النفوس وأجناسها وأنواعها وجزئياتها وتصارييفها للأجسام
وتحريكها لها وتدبيرها إياها وتحكمها عليها وإظهار أفعالها بها ومنها ، حالاً بعد حال في ممر
الزمان وأوقات القرائات والأدوار وانحطاط بعضها تارة الى قعر الأجسام وارتفاع بعضها
تارة من ظلمات الجحيم وانبعاثها من نوم الغفلة والنسيان وحشرها الى الحساب والميزان
وجوازها على الصراط ووصولها الى الجنات أو حبسها في دركات الهوانة والنيران
أو مكثها في البرزخ أو وقوفها على الاعراف

آراؤهم في الصداقة

وينبئ اخوان الصفا اذا أراد أحدهم أن يتخذ صديقاً أن يعتبر أحواله ويتعرف
أخباره ويجرب أخلاقه ويسأله عن مذهبه واعتقاده ليعلم هل يصلح للصداقة وصفاء
المودة وحقيقة الأخوة أم لا

واعلم بأن شر الطوائف كلها من لا يؤمن بيوم الحساب وشر الأخلاق كبر ابليس
وحرص آدم وحسد قابيل وهي أمهات المعاصي واعلم بأن الناس مطبوعون على أخلاقهم
بحسب اختلاف تركيب أجسادهم

واعلم بأن من الناس من هو مطبوع على خلق واحد أو عدة من أخلاق محمودة
ومذمومة .

فينبغى لك اذا أردت أن تتخذ صديقاً أو أخاً أن تنقده كما تنقد الدراهم والدنانير والأرضين الطيبة التربة للزرع والفرس وكما ينقد أبناء الدنيا أمر التزويج وشراء الممالك والأمتعة التي يشترونها

وأعلم بأن من الناس من يتشكل بشكل الصديق ويتدلس عليك بشبه الموافق ويظهر لك المحبة ، وخلافها في صدره وضميره

واعلم بأن الانسان كثير اللون قليل الثبات على حال واحد وذلك أنه قل من الناس من تحدث له حال من أحوال الدنيا أو أمر من أمورها إلا ويحدث له خلق جديد وسجية أخرى ويتغير خلقه مع اخوانه ويتلون مع أصدقائه إلا اخوان الصفا الذين ليست صداقتهم خارجة من ذاتهم إنما هي قرابة رحم ، ورحمهم ما من يعيش بعضهم ببعض ويرث بعضهم بعضاً وذلك أنهم يرون ويعتقدون أنهم نفس واحدة في أجساد متفرقة فكيفما تغيرت حال الأجساد بحقيقتها فالنفس لا تتغير ولا تتبدل

وخصلة أخرى أن أحدهم اذا أحسن الى أخيه إحساناً فلا يمين عليه به لأنه يرى ويعتقد بأن احسانه الى نفسه كان ، وان أساء اليه أخوه لم يستوحش منه لأنه يرى بأن ذلك كان منه اليه فمن اعتقد في أخيه مثل هذا واعتقد أخوه فيه مثل ذلك فقد أمن كل واحد من أخيه غائلته أن يتغير عليه في يوم من الأيام بسبب من الأسباب أو بوجه من الوجوه

وأعلم أن في الناموس أقواماً يتشبهون بأهل العلم ويدلسون بأهل الدين : لا الفلسفة يعرفونها ، ولا الشريعة يحققونها ويدعون مع هذا معرفة حقائق الأشياء ويتعاطون النظر في خفيات الأمور الغامضة البعيدة وهم لا يعرفون أنفسهم التي هي أقرب الأشياء اليهم ولا يميزون الأمور الجلية ولا يتفكرون في الموجودات الظاهرة المدركة بالحواس المشهورة في العقول ، ثم ينظرون في الظفرة والقلقة والجزء الذي لا يتجزأ ، فأحذرهم يا أخى فانهم الدجالون .

فاذا كان الأمر كما وصفت فينبغى لك أيها الأخ أن لا تشغل باصلاح المشايخ

الهرمة الذين اعتقدوا من الصبي آراء فاسدة وعادات ردية واخلاقاً وحشية فانهم يتعبونك ثم لا ينصلحون ، ولكن عليك بالشباب السالمى الصدور ، وأعلم بأن الله ما بعث نبياً إلا وهو شاب ولا أعطى لعبد حكمة إلا وهو شاب ، كما ذكرهم ومدحهم فقل (أنهم فنية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) وكما قال (انا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم) وقال أيضاً (وقال موسى لفتهاه) واعلم بأن كل نبى بعثه الله فأول من كذبه مشايخ قومه

مراتب اخوان الصفا النفسية

وأعلم أن قوة نفوس اخوان الصفا على أربعة مراتب

الأولى — صفاء جوهر نفوسهم وجودة القبول وسرعة التصور وهى مرتبة أرباب ذوى الصناعات فى مدينتها التى ذكرت فى الرسالة الثانية وهى القوة العاقلة المميزة لمعانى المحسوسات الواردة على القوة الناطقة بعد خمسة عشر سنة من مولد الجسد

الثانية — هى مرتبة الرؤساء ذوى السياسات وهى مراعاة الاخوان وسخاء النفس وإعطاء الفيض والشفقة والرحمة وهى القوة الحكيمة الواردة على القوة العاقلة بعد ثلاثين سنة من مولد الجسد وهم الذين نسميهم الأخيار والفضلاء

الثالثة — فوق هذه وهى مرتبة الملوك ذوى السلطان والأمر والنهى والنصر والقيام بدفع العناد والخلاف عند ظهور المعاند المخالف لهذا الأمر بالرفق والالطف والمداواة فى اصلاحه وهى القوة الناموسية الواردة بعد مولد الجسد بأربعين سنة وهم الذين نسميهم اخواننا الفضلاء الكرام

الرابعة — فوق هذه وهى التى ندعو اخواننا كلهم فى أى مرتبة كانت وهى التسليم وقبول التأيد ومشاهدة الحق عياناً وهى قوة الملكية الواردة بعد خمسين سنة من مولد الجسد وهى الممهدة للمعاد والمفارقة للهوى وعليها تنزل قوة المعراج وبها تصعد الى ملكوت السماء فتشاهد أحوال القيامة من البعث والنشر والحشر والحساب والميزان والجواز على الصراط والنجاة من النيران ومجاورة الرحمن واليها أشار فيثاغورس فى

الرسالة الذهبية في آخرها «أنك اذا فعلت ما أوصيك ، عند مفارقة الجسد تبقى في الهواء غير عائد الى الانسية ولا قابل للموت »

وأعلم بأن المطلوب من المدعوين الى هذا الأمر أربعة أحوال :
أولها — الاقرار بحقيقة هذا الأمر

ثانيها — التصور لهذا الأمر بضروب الأمثال بالوضوح والبيان
ثالثها — التصديق له بالضمير والاعتقاد

رابعها — التحقيق له بالاجتهاد في الأعمال المشاكلة لهذا الأمر



✽ إيضاح لفلسفة اخوان الصفا ✽

الفلسفة الأخلاقية في نظر اخوان الصفا

وقد اعتمدنا في تلخيصها على الرسالتين الرابعة والتاسعة من الجزء الاول والثانية من الجزء الثاني والسادسة من الجزء الثالث

تكلم اخوان الصفا في الرسالة الرابعة من الرياضيات في علم الموسيقى وأثره في تهذيب النفس واصلاح الاخلاق ، وقد صرحوا بان ليس غرضهم في هذه الرسالة تعليم الغناء وصنعة الملاهي بل غرضهم معرفة النسب وكيفية التأليف اللذين بهما وبمعرفتهما يكون الحذق في الصنائع كلها ، وان من الاصوات والالخان والنغمات ما له في النفوس تأثيرات كتأثيرات صناعات الصناعات في الهيوليات الموضوعات في صناعاتهم ، فمن تلك النغمات والاصوات ما يحرك النفوس نحو الاعمال الشاقة وينشطها ويقوى عزيماتها وهي الالخان المشجعة التي تستعمل في الحروب ولا سيما اذا غنى معها بأبيات موزونة ، ومن الايات الموزونة أيضا ما يثير الاحقاد الكامنة ويحرك النفوس الساكنة فمن اجل هذا كانت الالخان والموسيقى تستعمل عند كل الامم في الحزن والسرور وتارة في بيوت العبادة والاسواق وعند الراحة والتعب ، ويستعملها الرجال والنساء والعلماء ، ويستعملها الجمالون للهداء في الاسفار ، والصيد عند صيد الدراج والقطا

وان الاصوات نوعان : حيوانية ، وغير حيوانية . كصوت الحجر والحديد والرعد والطلل والمزامير ، والاصوات الحادة والغليظة متضادة ولكن اذا كانت على نسبة تأليفية أثلتفت وامتزجت وصارت لحناً موزوناً واستلذتها المسامع ، وان الحكماء قد صنعوا آلات وأدوات كثيرة لنغمات الموسيقى ، واعلم بأنه ان لم يكن لحركات أشخاص الافلاك أصوات ولا نغمات لم يكن لأهلها فائدة في القوة السامعة ، ويوجد في طباع الصبيان اشتياق الى أحوال الاباء والامهات ، وفي طباع التلامذة والمتعلمين اشتياق الى أحوال الاساتذة والمعلمين ، وفي طباع العامة اشتياق الى أحوال البلوغ ، وفي طباع العقلاء اشتياق الى أحوال الملائكة وتشبه بهم كما ذكر في حد الفلسفة انها التشبه بالاله بحسب طاقة الانسانية ، ويقال ان فيثاغورس الحكيم سمع بصفاء جوهر نفسه وذكاء قلبه نغمات حركات الافلاك والكواكب فاستخرج بجودة فكره أصول الموسيقى ونغمات الالخان

ثم اعلم ان غرض الانبياء في وضعهم الشرائع هو صلاح الدين والدنيا وغرضهم الاقصى نجاة النفوس من محن الدنيا وشقاوة أهلها

واعلم بأن تأثيرات نفحات الموسيقى قار في نفوس المستمعين مختلفة الانواع ولذة النفوس منها وسرورها بها تكون بحسب مراتبها في المعارف وبحسب معشوقاتها المألوفة من المحاسن

واعلم ان أخلاق الناس وطبائعهم تختلف من أربع جهات

الاولى : من جهة اخلاط أجسادهم ومزاج اخلاطها

الثانية : من جهة ترب بلدانهم واختلاف أهويتها

الثالثة : من جهة نشوئهم على ديانات آبائهم ومعلميهم وأساتذتهم ومن يربهم ويؤدبهم

الرابعة : من جهة موجبات أحكام النجوم في أصول مواليدهم ومساقط نطفهم

واعلم ان مراتب النفوس ثلاثة أنواع : فمنها مرتبة الانفس الانسانية ، ومنها ما هي

فوقها ، ومنها ما هي دونها

فالتى هي دونها سبع مراتب ، والتى فوقها سبع أيضاً وجمعتها خمس عشرة مرتبة ، والمعلوم

من هذه المراتب خمس منها اثنتان فوق رتبة الانسانية وهي رتبة الملكية والقدسية ،

ورتبة الملكية هي رتبة الحكمة ، ورتبة القدسية هي رتبة النبوة الناموسية ، واثنتان

دونها وهي مرتبة النفس النباتية والحيوانية

وان من الاخلاق والقوى ما هو منسوب الى النفس النباتية الشهوانية ، وما هو منسوب

الى النفس الحيوانية الغضبية ، ومنها ما هو منسوب الى النفس الانسانية الناطقية ، ومنها ما

هو منسوب الى النفس العاقلة الحكمة ، ومنها ما هو منسوب الى النفس الناموسية الملكية.

ثم تدرج اخوان الصفاء من هذه الفصول الى نظرية كون العالم انسان كبير ، وكون

الانسان عالم صغير ، وهي النظرية التى قال بها بعض فلاسفة اليونان وأشار اليها ابن سينا

في قوله ان الانسان انطوى فيه العالم الاكبر واتخذها « سبنسر » أساساً لبحثه في علم

الاجتماع ، فتمالوا في بيان معرفة قول الحكماء ، ان العالم انسان كبير ، انهم يعنون بالعالم

السموات والارضين وما بينهما من الخلائق أجمعين وانهم يرونه جسماً واحداً بجميع

أفلاكه واطباق سمواته وأركان أمهاته ومولداتها ، ويرون أيضاً ان له نفساً واحدة سارية

قواها في جميع أجزاء جسمها كسريان نفس الانسان الواحد في جميع أجزاء جسده

وقد حاول اخوان الصفاء في الرسالة الثانية من الجزء الثانى الموسومة « بالسماء والعالم

في تهذيب النفس واصلاح الاخلاق » أن يذكروا صورة العالم ويصفوا كيفية تركيب جسمه

كما وصف في كتاب التشریح ترتيب جسد الانسان ، ثم وصفوا في رسالة أخرى ماهية

نفس العالم وكيفية سريان قواها في الاجسام التى في العالم من أعلا الفلك المحيط الى

منتهى مركز الارض، ثم بينوا فنون حركاتها واطهار أفعالها في أجسام العالم بعضها في بعض وقد أتوا في ذلك بتمثيل بين حركات الافلاك حول الارض كاختلاف دور الطائفين حول البيت الحرام (ص ٢٦ جزء ٢ من رسائل اخوان الصفا)

وشرحوا معنى القيامة بأنه اذا فارقت النفس الجسد قامت قيامتها ، قال محمد (ص) « من مات فقد قامت قيامته » انما أراد قيام النفس لا الجسد ، لان الجسد لا يقوم عند الموت بل يقع وقوعاً لا يقوم بعده

وقالوا ان النفس اذا فارقت هذا الهيكل فليس يبق معها ولا يصحبها من آثار هذا الجسد الا ما استفادت من المعارف الربانية والاخلاق الجميلة ، فاذا رأت تلك الصورة فرحت بها وذلك ثوابها ونعيمها

وجعلوا الرسالة السادسة من الجزء الثالث مقصورة على البحث في ماهية العشق ومحبة النفوس والمرض الالهى ، وكثير من الحكماء وصفوا أعراض هذا المرض مما يعرض للعشاق من سهر الليل ونحول الجسم وغور العيون وتواتر النبض والانفاس الصعداء ، وقالوا انه جنون الهى ، والاطباء يسمونه (مالىخوليا) وقال بعضهم « العشق هو شدة الشوق الى الاتحاد » ولهذا أى حال يكون عليها العاشق يتمنى حالاً أخرى أقرب منها ولهذا قال الشاعر :

أعانقها والنفس بعد مشوقة اليها وهل بعد العناق تدانى
وألثم فاهها كي تزول صبا بى فيزداد ما ألقى من الهيان
كأن فؤادى ليس يشفى غليله سوى أن ترى الزوجين يمتزجان

ان كثيراً من الناس يظنون ان العشق لا يكون الا للاشياء الحسنة حسب ، وليس الامر كما ظنوا فقد قيل « يارب مستحسن ما ليس بالحسن » ولكن العلة في ذلك هى الاتفاقات التى بين العاشق والمعشوق وهى كثيرة ، منها المناسبات بين كل حاسة ومحسوساتها ثم اعلم انه من ابتلى بعشق شخص من الاشخاص ومرت به تلك المحن والاهوال وعرضت له تلك الاحوال ، ثم لم تنتبه نفسه من نوم غفلتها فيتسلى ويفيق أو نسى وابتلى من بعد بعشق ثان لشخص آخر فإن نفسه نفس غريقة فى عمائها سكرى فى جهالتها

والفرق بين الخاصة والعامة ، ان العامة اذا رأت مصنوعاً حسناً أو شخصاً مزيّناً
تشوقت نفوسهم الى النظر اليه والقرب منه والتأمل فيه ، وأما الخواص فتتشوق نفوسهم
الى الصانع الحكيم والمبدع العليم والمصور الرحيم «
الى هنا انتهينا مما أردنا تلخيصه من الاخلاق في فلسفة اخوان الصفاء ، وهى كما يرى
القارىء مزيّج من الحكمة والتصوف ، والفلك والرياضة
ولما كانت فلسفة اخوان الصفاء تمثل فترة من تاريخ الفلسفة الاسلامية وكانت مؤلفاتهم
كاملة الشكل لا ينقصها الا الضبط والتعليق وبعض التفسير فيا حبذا لو أعيد طبعها فى
مصر طبعاً جيداً لتكون حلقة جميلة فى سلسلة آثار فلاسفة الاسلام .



١٠ - ابن الهيثم

أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم أصله من البصرة ، وانتقل منها الى الديار المصرية وأقام بها الى آخر عمره كما فعل ابن خلدون

وكان من نوابغ أهل عصره في العلوم الرياضية ، واشتغل بالفلسفة فلخص كثيراً من كتب ارسطو وشرحها

وكان كذلك طبيباً ولخص بعض كتب جالينوس ، وكان خبيراً بصناعة الطب علماً ولكنه لم يباشرها عملاً ولم يتدرب على فنون المداواة والجراحة

وروى علم الدين قيصر بن أبي القاسم بن عبد الغنى بن مسافر الحنفى المهندس ان ابن الهيثم كان موظفاً بالبصرة وكانت وظيفته تعوقه عن النظر فى الحكمة والاشتغال بالفلسفة ، فأراد أن يتجرد عن الشواغل التى تمنعه من النظر فى الفلسفة فنظاها بالجنون واستمر على ذلك مدة فصرفته الحكومة من المنصب الذى كان فى يده

وكان ابن الهيثم من مواليد نصف المائة الرابعة فانه ولد فى سنة ٣٥٤ هـ وتوفى فى

سنة ٤٣٠ هـ

وبعد أن خرج من منصبه فى البصرة سافر الى مصر ، وهى ما زالت ملجأ كل عالم وأديب من قديم الزمان الى وقتنا هذا ، فأقام بالقاهرة فى الجامع الأزهر ، وكان يعيش من نسخ « اقليدس » و « المجسطى » ويبيعهما وبقى كذلك الى آخر عمره

ولما كان فى مصر بلغ الحاكم بأمر الله وهو سلطانها اذ ذاك خبر ابن الهيثم ، وكان الحاكم بأمر الله الفاطمى العلوى الذى وصفه بعض المؤرخين بالجنون وكفره البعض الآخر وحرار الجميع فى كيفية اختفائه قبل موته ، يميل الى الحكمة ، فلما سمع بابن الهيثم وما هو عليه من الخدق والبراعة والاتقان فى الفلسفة والرياضة والهندسة تأقت نفسه الى رؤيته

ومما زاد شوق الحاكم الى ابن الهيثم انه سمع نقلاً عن ذلك المهندس البصرى انه قال قبل أن يقدم الى الديار المصرية « لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فقد بلغنى انه ينحدر من موضع عال هو في طرف الاقليم المصرى »

وهنا يعمل جمال الدين أبو الحسن بن القفطى في كتابه (تراجم الحكماء) ويؤيده ابن أبى أصيبعة سبب تظاهر ابن الهيثم بالجنون في البصرة وسعيه في التخلي عن وظيفته في وطنه ، وان ذلك لم يكن لأجل الانقطاع للفلسفة حسب ، لأن الحاكم بأمر الله لما نقلت اليه عبارة الهيثم الخاصة بمشروع هندسة الرى في الأراضى المصرية ، ازداد شوقاً الى رؤية « ويلكوكس » ذاك الزمان وسير اليه سرّاً جملة من المال قبل أن تخلق المصارف ، ورغبة في الحضور

فسار ابن الهيثم الى مصر بعد أن مهد لرحلته السبيل بادعاء الجنون ، فلما بلغ مصر خرج الحاكم بأمر الله للقائه والتقياً بقرية على باب القاهرة اسمها الخندق وموضعها الآن الضاحية المعروفة باسم (كوبرى القبة) وأمر الحاكم بانزاله واکرامه واحترامه فأقام ابن الهيثم في تلك الضيافة الملكية ريثما استراح من وعناء السفر ثم طالبه الحاكم بانجاز ما وعد به من أمر النيل

ولم يكن ابن الهيثم يقصد سوى صنع خزان في موضع (خزان اسوان) قبل أن يفكر فيه المهندسون المصريون والغربيون لاسيما الانجليز منهم عشرة قرون . فسافر ابن الهيثم ومعه جماعة من أهل فن العمارة ليستعين بهم على هندسته التى خطرت له ولما سار الى الاقليم بطوله ورأى آثار من تقدم من ساكنيه من الأمم الخالية وهى على غاية من احكام الصنعة وجودة الهندسة وما اشتملت عليه من أشكال سماوية ومثل هندسية وتصوير معجز تحقق أن الذى كان يقصده ليس بممكن فان من تقدمه في العصور الخالية لم يعزب عن عقولهم علم ما علمه ولو أمكن لفعلاه فانكسرت همته ووقف خاطره ووصل الى الموضع المعروف بالجنادل قبلى مدينة (اسوان) وهو موضع

مرتفع ينحدر منه ماء النيل فعائنه وباشره واختبره من جانبيه فوجد أمره لا يسير على موافقة مراده وتحقق الخطأ والغلبة عما وعد به وعاد خجلاً ومنخدلاً ، واعتذر للحاكم بأمر الله فقبل الحاكم عذره وولاه ديواناً فتولاه رهبة لا رغبة

وعندنا أن ابن الهيثم لم يشعر بالحيرة بسبب ما رآه من آثار المصريين القدماء ، فإن جمال تلك الآثار وجلالها واتقان صنعتها لا دخل له في مشروع هندسى ولا نظن ان خبر تلك الآثار ووصفها كان يخفى على ابن الهيثم في وطنه ، ولكن السبب الحقيقي الذى قعد بهمة ابن الهيثم عن الشروع فى هذا العمل الجليل هو ما عاينه بنفسه من صعوبة مباشرته وكثرة نفقاته. وعدد ما ينبغى له من الأيدى العاملة والآلات المعدنية الضرورية للحفر والبناء فى مجرى النهر وما يقتضيه ذلك من تحطيم الصخر فى الموضع المعروف بالجنادل

ولا بد ان ابن الهيثم قدّر بالمعاينة ما يحتاجه هذا العمل فأججم عنه لما ظنه يحتاج إليه من النفقات الباهظة وأهل الفنون الماهرين ، وكانت مصر فى ذلك العهد فقيرة فى المال والرجال فسلك ابن الهيثم مسلك الرجل الحكيم وامتنع عن العمل فى أوله وهذا أفضل مما لو أنه شرع فيه ثم توقف فى وسطه ، فكان يجلب على البلاد غرمًا وهى تنتظر منه غنمًا فلما عاد وتولى الديوان المصرى تحقق له الغلط فى تلك الولاية لأن الحاكم كان كثير الاستحالة مريبًا للدماء بغير سبب أو بأضعف سبب من خيال يتخيله ، فأجال ابن الهيثم فكره فى أمر يتخلص به فلم يجد طريقًا إلى ذلك إلا الذى لجأ اليه وهو فى البصرة عند ما أراد النزوح إلى مصر ، فنظاير بالجنون وشاع خبره فعين له الحاكم قياً وحجز على أمواله لمصلحته وجعل برسمه من يخدمه وقيدوه وتركوه فى موضع من منزله

وما زال ابن الهيثم على ذلك إلى أن تحقق وفاة الحاكم فأظهر العقل وعاد إلى ما كان عليه وخرج من داره واستوطن قبة على باب الأزهر وأعيد اليه ماله واشتغل بالتأليف والنسخ . وكان يبيع فى كل سنة ثلاثة كتب من نسخته وهى « اقليدس »

و « المتوسطات » و « المجسطى » بمائة وخمسين ديناراً مصرية . وكان ثمن تلك الكتب محددًا لا يقبل فيه مواكسة ولا معاودة قول ، فيجعلها مؤونة حياته طول سنته وكان ابن الهيثم من أرباب المذكرات الشخصية يدون فيها أخباره بقلمه سنة فسنة وشهرًا فشهرًا ، قال في مذكراته المدونة في آخر سنة ٤١٧ هـ وهو في الثالثة والستين من عمره :

« اننى لم أزل منذ عهد الصبي مرويًا في اعتقادات هذا الناس المختلفة ، وتمسك كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأى فكنت متشككًا في جميعه موقفًا بأن الحق واحد وان الاختلاف فيه انما هو من جهة السلوك اليه ، فلما كملت لإدراك الأمور العقلية انقطعتم الى طلب معدن الحق ووجهت رغبتى وحرصى الى ادراك ما به تنكشف تمويهاات الظنون وتنقسم غيايات المتشكك المفتون وبعثت عزيمتى الى تحصيل الرأى المقرب الى الله جل ثناؤه المؤدى الى رضا الهادى لطاعته وتقواه ، فكنت كما قال « جالينوس » فى السابعة من كتابه « فى حيلة البرء » يخاطب تلميذه « لست أعلم كيف تمهيا لى منذ صباى إن شئت قلت باتفاق عجيب ، وان شئت قلت بالهام من الله ، وان شئت قلت من جنون أو كيف شئت أن تنسب ذلك ، انى ازدريت العوام واستخففت بهم ولم ألفت اليهم واشتهيت ايثار الحق وطلب العلم واستقر عندى أنه ليس ينال الناس من الدنيا شيئًا أجود ولا أشد قربة الى الله من هذين الأمرين » اهـ كلام جالينوس

قال ابن الهيثم « فخصت لذلك فى ضروب الآراء والاعتقادات وأنواع علوم الديانات فلم أحظ من شىء منها بظائل ولا عرفت منه للحق منهجًا ولا الى الرأى اليقينى مسلکًا جديدًا ، فرأيت اننى لا أصل الى الحق الا من آراء يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية فلم أجد ذلك الا فيما قرره ارسطاطاليس من علوم المنطق والطبيعيات والالهيات التى هى ذات الفلسفة وطبيعتها حين بدأ بتقرير الأمور الكلية والجزئية والعامة والخاصة ، ثم تلاد بتقرير الألفاظ المنطقية وتقسيمها الى

أجناسها الأوائل ثم اتبعه بذكر المعاني التي تتركب مع الألفاظ فيكون منها الكلام المفهوم المعلوم .

« ثم أفرد من ذلك الأخبار التي هي عنصر القياس ومادته فقسمها الى أقسامها وذكر فصولها وخواصها التي تميزها بعضها من بعض ويلزم منه صدقها وكذبها ويعرض معه اتفاقها واختلافها وتضادها وتناقضها ، ثم ذكر بعد ذلك القياس ومقدماته وأشكاله وأنواعه ، ثم ذكر النتائج التي هي الواجب والممكن والمتنع ، ثم ذكر طبيعة البرهان والصناعات الأربع الجدلية والمرائية والخطابية والشعرية ، ثم أخذ بعد ذلك في شرح الأمور الطبيعية في كتابه « السماع الطبيعي » ثم كتاب « الكون والفساد » ثم كتاب « الآثار العلوية » ثم كتاب « النبات والحيوان » ثم كتاب « السماء والعالم » ثم كتاب « النفس »

« فلما تبينت ذلك أفرغت وسعى في طلب علوم الفلاسفة . وهي ثلاثة علوم : رياضية ، وطبيعية ، والهيية ، فتعلقت من هذه الأمور الثلاثة بالأصول والمبادئ التي ملكت بها فروعها ، ثم انى لما رأيت طبيعة الانسان قابلة للفساد ، متهيأة الى الفناء والنفاد ، فشرحت ولخصت واختصرت من هذه الأصول الثلاثة ما أحاط فكري بتصوره ووقف تمييزي على تدبره وصنفت من فروعها ما جرى مجرى الايضاح والافصاح عن غوامض هذه الأمور الثلاثة إلى وقت قولي هذا وهو ذوالحجة سنة ٤١٧ هـ »

بيان مؤلفات ابن الهيثم

- (١) شرح أصول اقليدس
- (٢) الأصول الهندسية والعديدية
- (٣) شرح المجسطى وتلخيصه
- (٤) الكتاب الجامع في أصول الحساب
- (٥) علم المناظر
- (٦) تحليل المسائل الهندسية
- (٧) تحليل المسائل العدديّة بجبهة الجبر والمقابلة مبرهنا
- (٨) تحليل المسائل الهندسية والعديدية
- (٩) كتاب في المساحة
- (١٠) حساب المعاملات
- (١١) اجارات الحفور والابنية بجميع الاشكال الهندسية
- (١٢) قطوع المخروطات
- (١٣) الحساب الهندى
- (١٤) استخراج سمت القبلة في جميع المسكونة ، بمجداول
- (١٥) مقدمة الامور الهندسية
- (١٦) كتاب في آلة الظل
- (١٧) رسالة في برهان الشكل الذى قدمه « ارخميدس » في قسمة الزاوية ثلاثة أقسام ولم يبرهن عليه
- (١٨) تلخيص مقدمة « فورفوريوس » وكتب ارسطوطاليس الاربعة المنطقية
- (١٩) مختصر للكتاب السابق
- (٢٠) رسالة في صناعة الشعر ممتزجة من اليونانى والعربى
- (٢١) تلخيص كتاب النفس لارسطوطاليس
- (٢٢) مقالة في مشاكلة العالم الجزئى وهو الانسان بالعالم الكلى (راجع ما كتبناه في هذا الموضوع عن اخوان الصفاء)

- (٢٣) مقالة في العالم من جهة مبدأه وطبيعته وكأله
- (٢٤) كتاب في الرد على يحيى النحوى ما نقضه على ارسطوطاليس وغيره من أقوالهم في السماء والعالم
- (٢٥) رسالة في بطلان ما يراه المتكلمون من الله لم يزل غير فاعل ثم فعل
- (٢٦) مقالة في طبيعى الألم واللذة (فلسفة ابيقور)
- (٢٧) رسالة في طبيعة العقل
- (٢٨) مقالة في أن فاعل هذا العالم انما يعلم ذاته من جهة فعله

وهذا آخر ما وجد مكتوباً بخط هذا الفيلسوف :

« ليس خطابى في هذا الكتاب لجميع الناس ، بل خطابى لرجل منهم يوازى ألوف رجال ، بل عشرات ألوف رجال ، إذ كان الحق ليس هو بأن يدركه الكثير من الناس لكن هو بأن يدركه الفهم الفاضل منهم ليعرفوا رتبتي في هذه العلوم ويتحققوا منزلتي من ايثار الحق ، ويعلموا تحققى بفعل ما فرضته هذه العلوم على من ملابسة الأمور الدنياوية وكلية الخير ومجانبة الشر فيها فان ثمره هذه العلوم هو علم الحق والعمل بالعدل في جميع الأمور الدنياوية ، والعدل هو محض الخير الذى يفعله يفوز »

وكان آخر ما كتبه ابن الهيثم سنة ٤٢٩ هـ أى قبل وفاته بعام واحد .



إيضاح عن ابن الهيثم

يعتبر مؤرخو الفلسفة من الأفرنج ابن الهيثم الذي عاش في أوائل القرن الحادى عشر للمسيح من أعظم علماء الرياضيات والطبيعات في القرون الوسطى . ويدكرون أن آثاره مباحثه ودرسه ظاهرة وباقية في النظريات الرياضية وفي تطبيقها العملى .

ولم يشتغل ابن الهيثم بالفلسفة كما ورد في اعترافه البليغ الذى نقلناه الا للبحث عن الحقيقة التى كان ينشدها منذ نعومة أظفاره لأنه اقتنع بأن الفلسفة أساس العلوم وأن مؤلفات ارسطو هي خير مرشد في تلك السبيل . ويحاول محمد بن الحسن أن يقنعنا أنه لم يسلك تلك الطريق « الخدمة الانسانية وتنزيهاً لنفسه عن التشبه بالعوام الاغبياء » (ص ٩٧ ج ٢ عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة) وهو في وقف حياته على المباحث الفلسفية لخير الانسانية يشبه اثنين من أمجاد أسلافه ابن رشد فى الاندلس وأوجست كومت فى فرنسا الحديثة (راجع كتاب بوير فى تاريخ الفلسفة العربية)

ومما يؤسف له أنه لم يبق لنا شيء من كتبه ورسائله التى أحصينا بعضها ولكنه وفق ببحثه فى علم المراثيات ، الرياضى الاوربى فيتلو الذى عاش فى القرن الثالث عشر أى بعد ابن الهيثم بقرنين وقد كانت طريقة تفكير ابن الهيثم رياضية مثل ديكارت وسبينوزا .

ومما ظهر فيه نبوغه نظرياته فى علم النفس وفى ادراك الحس عامة ، والابصار خاصة . وتبحر فى درس الاحساس والمقابلة بين الاحساسات المختلفة وطرق التعرف على الاحساس وتمييز بعضه عن بعض . على أن ابن الهيثم الذى قضى حياته أشبه شىء بدرويش متصوف يطرق باب الحكمة وينتظر أن يرذن له فيدخل حظايرتها ويتعرف حقيقتها ، لم يكن من شأنه أن ينجح فى حياته المادية ولم يوفق للوصول الى غايته فى وطنه (البصرة) بعد أن أوجد ببحثه ودرسه مدرسة ذات مبادئ خاصة فى الرياضة والفلك .

على أن فلسفته الارسطوطاليسية لم تلق ما كان خليقاً بها من النجاح ولا يحفظ التاريخ لنا سوى اسم تلميذ واحد لابن الهيثم هو الامير أبو الوفا مباشر فاتك القائد المصرى فقد ألف فى أواسط القرن الحادى عشر كتاباً فى الحكمة والتاريخ الفلسفى والأدب . وكله مجموع من آثار غيره وليس فيه أثر للابتكار .

وقد وجد ابن الهيثم من قال بكفره بعد موته فاحرقوا بعض كتبه فى بغداد فى أوائل القرن الثالث عشر .

١١ — محي الدين بن العربي

كلمة عامة في التصوف

نشأ علم التصوف ونضج في العصر العباسي الثالث وهو من العلوم الشرعية الحادثة وأصله العكوف على العبادة والانتقطاع الى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيها من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة واختلف علماء الاسلام في أصل كلمة التصوف أو الصوفية فقال جماعة باشتقاقها من الصفاء أو الصفة وقال آخرون غير ذلك ويرى ابن خلدون أن اشتقاقها من الصوف أقرب الى الصواب لاختصاص أصحابه بلبس الصوف ونحن نخطئه في هذا التعليل ونعتقد أنها مشتقة من كلمة ثيوصوفيا اليونانية ومعناها الحكمة الالهية والصوفي هو الحكيم الذي يطلب الحكمة الالهية ويسعى لها والوصول الى الحقيقة الالهية هو غاية الصوفي أو المتصوف . وذلك لأن الصوفية كانوا يبحثون في ما يقولونه أو يكتبونه بحثاً فلسفياً في سبيل الحقيقة العليا . ومما يؤيد هذا الرأي أن الصوفية لم يظهروا بعلمهم هذا ولا عرفوا بهذه الصفة إلا بعد ترجمة كتب اليونان الى العربية ودخول لفظ الفلسفة فيها .

الطريقة الصوفية ومراتبها ودرجاتها

ومدار الطريقة الصوفية أو خطتهم العملية في السعي وراء الحقيقة للوصول اليها محاسبة النفس على الأفعال والتروك وآداب خاصة بهم واصطلاحات في الفاظ تدور بينهم يدلون بها على ما يريدونه من أساليب المجاهدة ومحاسبة النفس عليها والكلام في الأذواق والمواجد العارضة في طريقها وكيفية الترقى من ذوق الى ذوق وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم .

وللمتصوفين اصطلاحات خاصة بمراتبهم بعضها معلوم وذائع على الألسنة وفي مجالسهم وبعضها يعد من الأسرار المكتومة وقد أفاض كثيرون من المؤلفين في ذكر تلك المراتب بحيث يحسب القارئ أن للقوم نظاماً باطنياً خفياً في الظاهر، قوى الأثر في الحقيقة فمنهم الأوتاد، والابدال، والأقطاب، وأعظمهم القطب الغوث وهذه المراتب يتولاها البعض طول حياته والبعض مدداً محدودة وقد يترك صاحب إحدى تلك المراتب ميراثه لواحد أو أكثر من مريديه أو غيرهم ولذلك أخبار مشهورة عند القوم،

وفي كل زمان ينفرد القطب الغوث بهذا المنصب ولذا يسمى أيضاً صاحب الوقت ومن هؤلاء الأقطاب الغوثية كثيرون من الأولياء ذوى المقامات والأضرحة المشهورة، ويقال في أعمال هؤلاء الصالحين أنهم أرباب وظائف أهمها الإشراف على النظم الكونية، والاشتراك في تدبير الأمور العامة والخاصة بطرق معلومة للقوم ولا يعرفها إلا ذووها

وقد صرح كثيرون من المؤلفين بهذه الأمور، وأشار البعض إليها تلميحاً، فكلم السهروردي في أنواع الصوفية وفي ذكر (الملامتى) وشرح حاله وهو الذى يكون في ظاهر حياته ما يدعو الى الملامة، وتكلم في رتبة المشيخة وانها أعلا الرتب في طريق الصوفية بل هي نيابة النبوة في الدعاء الى الله، والسرفى وصول السالك الى رتبة المشيخة أنه مأمور بسياسة النفس كما يشاء الشيخ وهذا السر هو فى الآية الشريفة « لو انفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم »

ويكون فى الشيخ حينئذ معنى التخلق باخلاق الله تعالى ، ويصير المرید جزءاً من الشيخ ، كما أن الولد جزء من الوالد ، بولادة معنوية والى هذا المعنى الدقيق العجيب أشار سيدنا يسوع المسيح بقوله « لا يدخل ملكوت السماء من لم يولد مرتين » ولهذا يقولون كان الشيخ محي الدين بن العربى على قدم السيد المسيح ، كما كان غيره على قدم سيدنا موسى (ص) وبمثل هذه الولادة يستحق السالك ميراث الأنبياء ، وهذا تفسير قولهم « أن العلماء ورثة الأنبياء » .

أما السالكون فينقسمون الى أربعة أقسام وهم :

- ١ - السالك المجرد
- ٢ - المجذوب المجرد
- ٣ - السالك المتدارك بالجذبة
- ٤ - المجذوب المتدارك بالسلوك

أما الأول فلا يؤهل للمشيخة ولا يبلغها ، والثاني لا يؤهل للمشيخة ، وأما الثالث فيؤهل للمشيخة ، ويكون له اتباع تذقل منه اليهم علوم ، والرابع هو صاحب المقام الأكمل في المشيخة

تعريف الصوفية وأصل تسميتها

التصوف اسم لثلاث معان :

- ١ - الذى لا يطفىء نور معرفته نور ورعه
- ٢ - ولا يتكلم بباطن فى علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة
- ٣ - ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله

قال الجنيد « ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات » ويقصد بذلك المجاهدة والمكافحة اللتين يعقبهما الوصول الى الذوق

قلنا أن العلماء اختلفوا فى أصل التصوف ومعناه ، وذكر الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد عبدالله السهروردي فى كتاب « عوارف المعارف » فى نسخة كانت ملكا للمرحوم الشيخ محمد محمود الشنقيطى بن التلاميذ التركى ، وهى مما وقفه سنة ١٢٩٤ هـ وفقاً مؤبداً على عصبه بعده بخطه ، ووصلت الينا استعارة ، فى ذكر منشأ علوم الصوفية :

« أن رسول الله (ص) قال « إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به ، كمثل رجل أتى قومًا فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعينى وإني أنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ! فأطاعه طائفة من قومه فادخلوا فأنطلقوا على مهالهم فنجوا ، وكذبت طائفة منهم

فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى فاتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذَّب بما جئت به من الحق »

ويريد هؤلاء العلماء من هذه الفرقة أن الذين أطاعوا الرسول (ص) صفت قلوبهم فصاروا « صوفية » (من الصفاء) وانهم بالتقوى زكت نفوسهم ، وبالزهد صفت قلوبهم ويقول الامام السهروردي أن الصوفى هو المقرَّب ، وإن لم يرد فى القرآن ، وإن هذا الاسم يطلق على أهل القرب الذين يتزبون بزى الصوفية ، ومشايخ الصوفية كلهم كانوا فى طريق المقرَّبين ، وعلومهم علوم أحوال المقرَّبين ، ومن تطلع الى مقام المقرَّبين من جملة الابرار فهو متصوف ما لم يتحقق بحالم ، فاذا تحقَّق بحالم صار صوفياً ، ومن عداها (المتصوف والصوفى) ممن تميز بزى ونسب اليهم ، فهو متشبه بهم

أما الشيخ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري وهو من أئمة هذه الطائفة ومن خير من كتبوا فى علومها وآدابها فقد قال فى باب التصوف فى صفحة ١٦٤ من كتابه الشهير باسم « الرسالة القشيرية » « فقد رُدَّ منشأ الصوفية الى حديث عن أبى حنيفة أنه قال « خرج علينا رسول الله (ص) متغير اللون فقال « ذهب صفو الدنيا وبقي الكدر ، فالموت اليوم تحفة لكل مسلم » ويقول الأستاذ القشيري هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة ، وليس يشهد لهذا الاسم قياس ولا اشتقاق

ونفى نسبة هذا الاسم الى لبس الصوف ، لأن القوم لم يختصوا بلبسه ، ونفى نسبتهم الى صُفَّة مسجد رسول الله (ص) بالمدينة ، ونفى نسبتهم أيضاً الى الصفاء لأن اشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد ، وكذلك نفى نسبتهم الى الصف الأول ، ولم يهتد الشيخ القشيري الى صحة النسبة ، وعندنا ولو كره المكابرون ، أنها من كلمة « ثيوصوفيا » اليونانية كما تقدم ، ومعناها الحكمة الربانية ، فالصوفى هو الحكيم فى سبيل الله

أما تعريف التصوف ومعناه ، فقد عبر كل منهم بما وقع له فى أثناء سلوكه وقال رُوِّينم

ابن احمد البغدادى أن التصوف مبنى على ثلاث خصال

(١) التمسك بالفقر والافتقار (٢) التحقق بالبذل والايثار (٣) ترك التعرض والاختيار

وقد أجمع العلماء الصوفية فى تعريف الصوفى على « أنه رجل أحب الله فأثره وكره

الدنيا فزهد فيها »

بعض اصطلاحات الصوفية المنفق عليها

ان للصوفية الفاظاً يستعملونها، انفردوا بها عن سواهم ، وتواطؤا عليها لأغراض لهم وهذا من قبيل اللغات الرمزية الشائعة بين الطوائف في الشرق والغرب ، وألف فيها علماء أوروبا كتباً ومعاجم باسم روح « الارجو » أو الملاحن وأهمها كتاب العالم الايطالى (نيتشوفورو) ومن هذه الألفاظ :

(الوقت) ومعناه وقتك الذى أنت فيه كوقت الدنيا ، ووقت السرور ، ومن أقوالهم « الاشتغال بفوات وقت ماضٍ تضييع وقت ثان » وقولهم أيضاً « صاحب الوقت » يقصدون « القطب الغوث » ومن ذلك :

(المقام) وهو موضع الإقامة بضرب تطلب ، ومقاساة تكلف

(الحال) معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب

(القبض والبسط) وهما حالتان بعد ترقى العبد عن حالتي الخوف والرجاء

(الهية والأنس) وهما فوق القبض والبسط ، كما أن القبض والبسط فوق

الخوف والرجاء

(التواجد والوجد والوجود) ومعناها فى حكاية معروفة بين أبى محمد الجريرى

والجنيد

(الجمع والفرق) قال فيهما أبو على الدقاق « الفرق ما نسب اليك والجمع

ما سلب عنك »

(جمع الجمع) هو الاستهلاك بالكلية وفناء الاحساس وفوقها درجة :

(الفرق الثانى) وهو أن يُرد صاحب هذه المرتبة الى الصحو عند أوقات

اداء الفرائض

(الفناء والبقاء) أولهما سقوط الأوصاف المذمومة، وثانيهما قيام الأوصاف الحمودة،

ولهما معان أخرى ليس هذا مقام شرحها

(الغيبة والحضور) تكون الغيبة للقلب عن علم ما يجرى من أحوال الخلق لاشتغال الحس بما ورد عليه ، والحضور معناه أن يكون السالك حاضراً بالحق لأنه اذا غاب عن الخلق حضر بالحق

(الصحو والسكر) الصحو رجوع الى الاحساس بعد الغيبة والسكر غيبة بـوارد قوى (الذوق والشرب) وهو ما يجده المتصوف من ثمرات التجلى ونتائج الكشوفات وبواده الواردات ، وأعلى منهما درجة :

(الرى) فيقولون صاحب الذوق متساكر ، وصاحب الشرب سكران ، وصاحب الرى صاحـر ، ومن قوى حبه ، تسرمد شربه

(المحق والاثبات) المحق رفع أوصاف العادة ، والاثبات إقامة أحكام العبادة

(الستر والتجلى) ويقصد بهما أن العوام فى غطاء الستر ، والخواص فى دوام التجلى

(المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة) وهى ثلاث درجات

(اللوائح والطوابع واللوامع) وهى من صفات أصحاب البدايات الصاعدين فى

الترقى بالقلب ، أضعفها الأولى وأقواها الأخيرة

(البواده والهجوم) البواده ما يفجأ قلب السالك من الغيب على سبيل الوهلة ،

والهجوم ما يرد على القلب بقوة (الوقت) من غير تصنع

(القرب والبعد) أول رتبة فى القرب الانصاف بالعبادة ، والبعد التدنس بالمخالفة

والتجافى عن الطاعة

(الشريعة والحقيقة) الشريعة أمر بالتزام العبودية والحقيقة مشاهدة الربوبية ،

وكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبولة ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محسولة

(النفس) صاحب الانفاس أرقى وأصفى من صاحب الأحوال

فيقال عند القوم ، صاحب (الوقت) مبتدى ، وصاحب (الأحوال) فى وسط

(الطريق) وصاحب (الانفاس) منتهى

(الخواطر) خطاب يرد على الضمائر وقد يكون من المالك فهو الهام ، وقد يكون من النفس فهو هاجس ، ويكون من الشيطان فهو وسواس ، ويكون من الله سبحانه وتعالى فيكون خاطر حق

وهذا ما أردنا إيرادَه من تلك المصطلحات بإيجاز ليم بها القارىء ويقف منها على تلك المعاني

ولهم بعد ذلك آداب ، وطرق في الحياة هي أشبه الأشياء بدستور التصوف ، استنبطه العلماء من أخلاق المشايخ والواصلين ، وآدابهم الكاملة ومن تلك الآداب والقواعد ، التوبة والمجاهدة والخلوة والتقوى والورع والصمت ، والخوف والرجاء ، والحزن والجوع وترك الشهوة والخشوع والتواضع ، وترك الحسد والغيبة ، والقناعة والتحلى بالقناعة والشكر ، والصبر والرضا ، والاستقامة والعبودية ، والصدق والحياء ، والبقاء بباب المراقبة ، والاستسلام للإرادة ولهم آداب في العشرة ، وأحكام في السفر والصحبة

ذكر أشهر مشايخ الطريقة الصوفية الأقدمين

(١) أبو اسحق إبراهيم بن آدم بن المنصور من كورة بلخ تعلم اسم الله الأعظم من رجل بالبادية ودخل مكة وكان يعيش من عمل يده بعد أن كان أميراً من أبناء الملوك وتوفي في عام ١٦١ هـ

(٢) ثوبان بن إبراهيم أبو الفيض ذو النون المصري توفي سنة ٢٤٥ هـ وهو مولد كان أبوه نوبياً ، وسبب توبته أنه رأى تيسير الرزق لقبرة عمياء في الصحراء فتاب ولزم الباب

(٣) أبو علي الفضيل بن عياض من ناحية مرو بخراسان توفي سنة ١٨٧ هـ وكان أصله من قطاع الطريق وأحب جارية فارتقى الجدران إليها فسمع تالياً يتلو « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ؟ » فتاب عن جرائمه وتعلق بعشق أعظم من عشق الجارية

- (٤) أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي توفي سنة ٢٠٠ هـ ولد على غير دين الاسلام ثم أسلم وكان مبدؤه العمل وهو في عرفه طاعة الله وخدمة المسلمين والنصيحة لهم
- (٥) أبو الحسن سري بن المفلس السقطي كان تلميذ الكرخي واخل الجنيذ وأستاذه توفي سنة ٢٥٣ هـ ، وكان يقول بنظرية استاذة في « الطمأنينة »
- (٦) أبو نصر بشر بن الحرث الحافي أصله من مرو توفي سنة ٢٢٧ هـ قيل انه بلغ منازل الابرار باتباعه السنة وخدمة الصالحين ونصيحته لآخوانه ومحبة لأصحابه واهل بيته
- (٧) أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي توفي سنة ٢٦١ هـ وكان جده مجوسياً ، وهو من أئمة الصوفية وأعلامهم وله مؤلفات جليلة وأتباع كثيرون .
- (٨) أبو القاسم الجنيذ سيد هذه الطائفة وأمامهم أصله من نهاوند ومنشؤه ومولده بالعراق — قال « ان علمنا هذا (التصوف) مقيد بالكتاب والسنة »
- وله كلام صريح بأنه تلقى علمه من الله مباشرة فقد قيل له من أين استفدته فقال : « من جلوسى بين يدي الله ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة » وأوماً الى درجة في داره .
- (٩) أبو عثمان الحيرى توفي سنة ٢٩٨ هـ كان من الرى وأقام بنيسابور
- (١٠) أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء ، وهبه أبواه لله عز وجل وكان من اكابر المشايخ وعاقبه الله بنسيان القرآن لأنه رأى انساناً جميلاً فسأل أستاذه ان كان الله يعذبه فقال له أستاذه : أو نظرت ؟ سترى غيبه ! أى نتيجة النظرة والاعتراض ، فكان ما كان .
- (١١) أبو سعيد حسن بن أبي حسن يسار الميساني البصري يرجعون مولده بالمدينة عام ٢١ هـ . وكان أبوه مقتوق زيد بن ثابت وأمه خيرته خادمة أم سلامة نشأ بالبصرة وعاش بالمدينة وجاهد وعلم وتولى القضاء بالبصرة وتوفي سنة ١١٠ هـ في التسعين من عمره .
- (١٢) أبو عبد الله الحسين بن منصور الحلاج المكنى بابي المغيث ولد بالطور بالبيضاء سنة ٢٤٤ هـ ونشأ وتربى بواسط ورحل الى مكة والهند وتركستان وحوكم مرتين وحكم عليه بالسجن ثم بالصلب فاستشهد في ذى القعدة سنة ٣٠٩ هـ .

بعض فطاحل المتصوفين الذين ألفوا كتباً

١ - تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري الشاذلي توفى سنة ٧٠٩ هـ وقبره بالقاهرة بسفح جبل المقطم .

مؤلفاته

- (١) الحكم العطائية طبع بمصر مع شروح سنة ١٢٨٤ و سنة ١٣٠٦ هـ
- (٢) تاج العروس وقع النفوس في الوسايا طبع مراراً
- (٣) لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسى وشيخه أبي الحسن الشاذلي . في ٦٠٨ صفحات مطبوع في مصر

٢ - جمال الدين عبد الرزاق الكلشاني توفى سنة ٧٣٠ هـ

مؤلفاته

- (١) اصطلاحات الصوفية طبع كلكتا سنة ١٨٤٥ م
- (٢) رسالة في القضاء والقدر طبع سنة ١٨٧٥ م
- وقد ترجمت اصطلاحاته الى اللغات الاوروبية وطبعت بها ، وله بالقاهرة ضريح مشهور بشارع « تحت الربع »

٣ - عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي توفى سنة ٧٦٨ هـ

مؤلفاته

- (١) روض الرياحين ، طبع في مصر سنة ١٣٠١ هـ
- (٢) أسنى المفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر (خطية في برلين)
- (٣) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان وتقلب أحوال الانسان (خطي في مكاتب أوروبا)

٤ - قطب الدين عبد الكريم بن ابراهيم بن سبط عبد القادر الجيلي ، توفى

سنة ٨٢٦ هـ

مؤلفاته

- (١) الناموس الاعظم والناموس الاقدم في أربعين مجلداً (خطي في أوروبا ومصر)
- (٢) الانسان الكامل في معرفة الاوائل والأواخر (طبع مصر)

٥ - عبد الرحمن البسطامي الحنفي الحروفي توفي سنة ٨٥٨ هـ في (بروسه)

مؤلفاته

- (١) الفوائج المسكية في الفوائج المكية
- (٢) الدرر في الحوادث والسير
- (٣) تراجم العلماء
- (٤) مناهج التوسل في مباحج الترسل

٦ - ابن أبي بكر الجزولي السملالي ، توفي في أواخر القرن التاسع

مؤلفاته

- (١) دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على المختار وهو كتاب مشهور يستعمله كثيرون من المسلمين للتعبد بالصلاة على النبي (ص) ويستظهره بعضهم

٧ - محمد بن سليمان الكفهجي ، توفي سنة ٨٧٩ هـ ، وولد ببلاد الروم ، وتعلم في تبريز والقاهرة

مؤلفاته

- (١) التيسير في علم التفسير
- (٢) تفسير آيات متشابهات

٨ - أبو عبد الله محمد بن يوسف الحسني السنوسي الصوفي ، توفي سنة ٨٩٢ هـ

مؤلفاته

- (١) كتاب عقيدة أهل التوحيد، المخرجة من ظلمات الجهل ، وربة التقليد
- (٢) عقيدة أهل التوحيد الصغرى وتسمى « أم البراهين » وقد ترجمت الى الالمانية والفرنسية وطبعت في (ليزج) سنة ١٨٤٨ م وفي الجزائر سنة ١٨٩٦ م

٩ - شهاب الدين احمد بن زروق البرنوسي البرلسي الفاسي ، توفي سنة ٨٩٨ هـ
له كتب عديدة في التصوف

منشأ التصوف وتطوره

أما منشأ التصوف الاسلامي ففي قراءة القرآن واستمرار تلاوته بصفة عامة، في مجالس معينة غير مجالس « الذكر برفع الصوت » وقد تحولت مجالس الذكر الى « السماع » وذكر أوائل المتصوفين أمثال ذى النون المصرى والجنيد والحلاج ، ان « السماع » يحدث « الوجد »

ولكن فرقة « الملامية » ، وهم من الصوفية الذين لهم حال خاصة بها ، أفاض في وصفها السهر وردى في الجزء الثانى من كتاب « عوارف المعارف » انتقدوا « السماع » وعدوه من الشهوات الروحانية ، وانتقده الحلاج ، وشبه الذكر بمجوهره ثمينة تحجب المعبود عن العابد ، ورد أصحاب « السماع » من صوفية بغداد على منتقديهم من « الملامية » وغيرهم بأن السماع لا يقصد لذاته انما يقصد لاحداث « الوجد » و« فقد الاحساس » وقد كانت هذه هى الحالة فى القرن الرابع الهجرى

وفى القرن السابع الهجرى نزل بالعراق والشرق العربى متصوفون من الهند أقرب الى المشعوذين من الحكماء الالهيين ، فانهم أدخلوا على حلقات الصوفية صنوفاً من الخدشات الصناعية نضرب عن ذكرها صفحاً وأطلقوا عليها اسم « بنج اسرار »

ثم دخلت على الذكر طرائق غريبة عنه مثل الرقص ، الذى علله منتحلوه وبرروه بتمثيل دورة الافلاك ، وهو لا يزال شائعاً الى يومنا هذا فى تكايا الدراويش « المولوية »

ثم أدخلوا عادة « التمزيق » والمقصود بها تمزيق الثياب أثناء الذكر وهذه العادة أقرب الى تقليد الامراء الذين كانوا يسمعون الغناء من القيان فيطربون فيمزقون ملابسهم ثم انحدر الذكر الى أعمال تقرب من الشعوذة مثلما يحدث من بعض الفرق من الطرق الصوفية ، كالرفاعية بالبصرة ، والبيومية بالقاهرة ، والعيسوية بمكناس بالمغرب الأقصى ، ومن ذلك اكل الحيات والافاعي وشظايا الزجاج واللهب ، ووخز البدن بأبر من الحديد المحمى

وقد استنبط الصوفيون من القرآن جميع الرموز والاشارات التي استعملوها في طرقهم كالضوء والنور والنار والشجرة والشراب والكأس والسلام ودخول المقرين والهلل والطريق في جبل غريب والسفر والاسراء وحديث الغبطة ويوم المزيدي الذي وصفه بالاسهاب الشيخ المحاسبي في كتاب « التوهم » والدير والشراب من يد الساق في ضوء الشمع وتلوه عبادة الشمس

ثم أن المسائل التي في الشرح الظاهر هي عين مسائل الصوفية كالعدل والرضا والتوكل والتفويض والتفصيل وقدم المحدثات وتقدم الشواهد والتخلق بأخلاق الله عز وجل والانتقال من التجريد الى التوحيد

ثم اتبه أهل السنة الى بعض ما ينقد من أحوال الصوفية كقولهم « ان الخلّة تمنع الرخص والاباحة بعد موت الشهوات ، وتفضيل الغنى على الفقر ، ثم الملامسة فالحلول » فلما ظهر ذو النون المصري وابن أبي الحواري ببادتهما مثل « المتعة » و « تقديس عين الجمع » و « سبحاني .. » لم يتردد أهل السنة في اضطهاد المتصوفين ، فحكم على البسطامي والخراز والتستري بالنفي

أما الحلاج وابن عطاء فقد صلبا ومثلهما

وفيما يتعلق بالامام الحلاج فنحيل القارىء المحب للاستيفاء الى الكتاب العجيب الممتع الذي ألفه باللغة الفرنسية العلامة « لويز ماسنهون » في جزئين كبيرين باسم « تعذيب الحسين بن منصور الحلاج الشهيد الصوفي » ١٩٢٢ م الذي نفذ فيه القصاص في بغداد في ٢٦ مارس ١٩٢٢ م « طبع باريس سنة ١٩٢٢ م أى بعد استشهاد ذلك الامام بألف سنة

فلما حصل التنبيه الأول بتوقيع العقوبات من أهل السنة على بعض أهل التصوف جاء السراج في كتاب « الملع » ونبه المرید والسالك الى ما لا يجوز أن يصرح به كالنفاء عن العبودية والبشرية والحلول بالأنوار والشواهد والمستحسنات ، وأيده الشلمى في كتاب « الغلطات » والغزالي في « الاحياء »

ولا شك في أن أهل السنة ذعروا من انتحال الصوفية بعض الأقوال التي يشكل فهمها على غير خواص القوم كقول ابن طاهر المقدسى بأن الخدمة أفضل من العبادة، فإن هذا كله أدى الى نظرية (الشاذ) وفيها كلام يقوله الصوفيون ويكاد يكون غير مفهوم لسواهم مثل أقوال الشبلى والحلاج، أما شاذيات الكيلاني والرفاعي وابن العربي فلا يدرك القارىء من معناها شيئاً ما لم يكن أحد رجلين : الأول المفتوح عليه من الله والثاني المتغلغل في أسرار القوم، وقد وصف بعضها العلامة محمد بن شاكر بن احمد الكتبى بقوله « الذى نفهمه من كلامه (يعنى كلام الشيخ محيى الدين بن العربي) حسن، والمشكل علينا نكل أمره الى الله تعالى، وما كلفنا اتباعه ولا العمل بما قاله »

ونحن نقسم المبهم من كلامهم الى قسمين :

القسم الأول عبارة عما أطلقوه من الأسماء للأحوال والمقامات، واستعملوا للدلالة عليه الفاظاً لها عند غيرهم معان عادية مثل « الفقه » و « النية » و « النفاق » و « الرضا » و « الفتوة » واتخذوها للدلالة على درجات في طريق الوصول وشرعها الهراوى بما فيه الكفاية فى كتابه « منازل السائرين »

القسم الثانى ويدخل فيه نظرية « الشاذ » المذكورة آنفاً، وهى ظاهرة نفسانية تجلت بكلام مبهم ينتقده أهل السنة وغير الراسخين كقول بعضهم « قدمى على رقاب الأولياء »

(الأحاديث القدسية)

ولما كان المتصوفون يذكرون أقوالاً شتى ذات معان مختلفة يطلعون عليها فى حالاتهم بالالهام أو الوحي أو التجلى أو الفتوح الربانى فقد ظهرت نظرية « الأحاديث المرسله » و « الأحاديث القدسية » وضرب الصوفيون صفحاً عن الاصطلاحات المعتبرة والمتفق عليها فى علوم رواية الحديث واسناده

ومن اشتهروا براوية بعض الأحاديث القدسية السادة :

ابوذر الغفارى وله حديث « من تقرب الى شبراً . . »

وكعب وله حديث « يد الله مع الجماعة »
 وابن مسعود وله حديث « طوبى لمن لم يشغل قلبه بما ترى عيناه »
 وحسن البصرى وله حديث « من عشقنى عشقته »
 ويزيد الرقاشى وله حديث « غبطة المتحابين »
 وابن أدهم وله حديث « كنت سمعته وبصره . . الخ »
 ويحيى بن معاذ الرازى وله حديث « من عرف نفسه فقد عرف ربه »
 وقد اختلف هؤلاء المشايخ إقداماً وتردداً فى نسبة هذه الأحاديث الى مصدرها
 الأصلى فنسبها بعضهم إلى أنبياء سابقين كما فعل ابن أدهم بنسبته الحديث الى سيدنا
 يحيى بن زكريا وبعضهم مثل الحلاج قال أنها ثمرة الفكر والالهام ولم يخف من أمرها شيئاً
 وفى كتاب الأحياء أحاديث كثيرة بغير اسناد ولا اعتراض لنا على الغزالي فى ذلك
 لأن كتابه كتاب أخلاق وآداب دينية وليس متناً من متون الحديث

سلسلة الطريق

منذ القرن الخامس الهجرى بدأ أرباب الطرق الصوفية يبحثون عن أسانيد سلسلتهم
 فى أخذ الطريق فردهم العلماء الى التابعين فالصحابة فالرسول (ص) وكانوا قبل ذلك
 بمائتى عام يكتبون بالخرقة أو « بالشهرة بلباس »
 وفى القرن الرابع روى جعفر الخلدى أول اسناد لسلسلة الطريق فوضعها مبتدئاً
 باستاذة وشيخه :

- (٦) الجنيد المتوفى عام ٢٩٨ هـ أخذ الطريق عن :
 (٥) سرى » » ٢٥٣ هـ وقد » » :
 (٤) معروف » » ٢٠٠ هـ » » :
 (٣) فرقد سنجى » » ١٣١ هـ » » :
 (٢) حسن البصرى » » ١١٠ هـ » » :
 (١) انس بن مالك » » ٩١ هـ

وفد تعدلت هذه السلسلة ولم تثبت على حال فأضيف اليها رجال أمثال الامام على وداود الطائي وغيرهما

والعلم الصحيح لا يجعل لهذه السلسلة شأنًا عظيمًا من حيث الشكل لأن الصوفية إنما اضطروا لذكرها اضطراباً بحجارة لعلماء الحديث ، أما التلقى فغير مشكوك فيه وقد يلجأ الصوفيون في اسناد أخذ الطريق الى الخضر عليه السلام الذي هو وليُّ خالد يحدد شبابه كل عشرين ومائة عام مرة ويجوب أقطار الأرض باستمرار ويذهب حيث يأمره الله بحسب حاجة خلقه اليه وذكر السمناني اسمه كاملاً وهو ابو العباس بليان بن قليان بن فالج الخضر ، ويعتقد الصوفية أن في الأرض ابدالاً هم دعائهم الباطنيون أو الروحانيون ولولاهم لمادت الأرض وخربت ، وعددهم أربعون بدلاً ومعهم ثلثمائة قيب وسبعون نجيباً وسبعة أمناء منهم الأبرار والأوتاد والأخيار وأربعة أعمدة ومنهم الأثافي وفوق الجميع قطب الغوث وعن يمينه وشماله الامامان .

وروى المغربي أن الرئيس يعرف رؤوسه والعكس ممنوع .

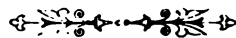
ومما تجب ملاحظته أن التصوف الاسلامي لم يكن نظاماً أجنبياً عن الاسلام ولا دخيلاً من النصرانية أو البوذية ، وان أصول التصوف موجودة في القرآن وفي الحديث وفي العقيدة الاسلامية وشعائر الدين نفسه . وهذا لا يمنع من الاعتراف بأن أنظمة كالتصوف أساسها الزهد والتقشف كانت موجودة في الأديان الأخرى ولكن التصوف الاسلامي كان نظاماً اسلامياً محضاً كما بينا وان حديث « لا رهبانية في الاسلام » ليس حديثاً صحيحاً ولم يجزم أحد من علماء الحديث بصدق اسناده .

كذلك لم تكن حياة النبي (ص) والصحابة قبل المبعث وبعده حياة نعومة ولين وطراوة بل كانت على العكس من ذلك حياة خشونة وتقشف وتحمل . وهذه هي الحقيقة على الرغم مما جاء في طبقات ابن سعد صاحب الواقدي مما يخالف ذلك فان الواقدي وابن سعد وأشباههما من علماء آخريات القرن الثاني للهجرة كانوا يلتمسون في الأحاديث الضعيفة والريكة ما يبرر حياة الخنوثة والنعومة التي كان يعيشها ملوك ذاك الزمان وامراءه

ولما كان التصوف أساسه الزهد والخشونة فقد بالغ بعض المتصوفين في ذلك من حيث التعفف عن سائر الشهوات فلا يبعد والحال هذه أن تكون جذور التصوف في حياة النبي وأصحابه

ومما تحسن الإشارة إليه أن كلمة الصوفي - نسبة إلى الصوف - وهي النظرية التي قال بها ابن خلدون كان لها نصيب من الصحة فقد تعود بعض المتصوفين لبس الصوف، وقد جاء حين من الدهر عليهم اتخذوا فيه الصوف علامة مميزة لهم حتى كان «الثوري» أحد أئمتهم يلبس الصوف فوق الحرير وقد انتقدوا عليه ذلك ، وكان الصوف الأبيض هو المقصود ثم عدل الصوفيون عن هذه الثياب خشية القول فيهم بتقليد السيد المسيح أو حواريه أو رهبان النصارى

وقد أجمع العلماء على أن أكابر الأولياء من الصوفيين غير من ذكرناهم: مالك بن دينار، البوناني، السخيتاني، وهيب بن الورد بن اسباط، مسلم الخواص، البسطامي، التستري.



ترجمة الحكيم الالهى محي الدين بن العربي

ولد محمد بن على بن محمد بن احمد بن عبد الله الشيخ محي الدين ابو بكر الطائى الحاتى الأندلسى المعروف بابن عربى فى شهر رمضان سنة ستين وخمسمائة هجرية بمرسية بالأندلس ، ولا نعرف عن طفولته شيئاً غير أنه لما نما وترعرع طلب العلم فى وطنه فتلقى مبادئه على ابن بشكوال ، ثم سافر الى مصر ودمشق ومكة وبغداد وأقام فى بلاد الروم فى طلب العلم والرجال والسياحة .

ولما كان فى بلاد الروم سمع حاكماً بصيته فانتقل اليه فلما وقع بصر الحاكم على محي الدين قال لمن معه « هذا رجل تدعروا لرويته الأسود ! »

فسئل محي الدين فى معنى قول الحاكم عنه فقال « أنه لما كان بمكة خدم شيخاً صالحاً باخلاص فدعا له بقوله « الله يذل لك أعز خلقه » فكان من آثار هذه الدعوى ما شاهده ملك الروم

ولما وقعت محبته فى قلب الملك المذكور أمر له بدار تساوى قيمتها مائة ألف درهم ، ويروى أن سائلاً لقيه يوماً فطلب منه احساناً فقال له محي الدين « ما لى غير هذه الدار فخذها لك ! » وخرج عنها

قال ابن مسدى فى ترجمته « أن محي الدين كان ظاهرياً المذهب فى العبادات باطنياً النظر فى الاعتقادات وأنه حج ولم يرجع إلى بلده ، وأنه تلقى العلم على ابن بشكوال وعن علماء عديدين فى العواصم التى زارها فى رحلته ، ومن بينهم السلفى الذى أجازة فروى محي الدين عنه »

ولا ريب فى أنه برع فى علم التصوف والدليل على ذلك شهرته العظيمة فى العالم ، وكثرة مصنفاته ، وكان ينتقل من مكان إلى مكان للقاء علماء الحقيقة والمتعبدين

روى الشيخ شمس الدين فى وصف مؤلفات محي الدين « أنه كان ذا توسيع فى الكلام وذكاء وقوة خاطر وحافظة وتدقيق فى التصوف وتأليف جملة فى العرفان قال شمس الدين

« ولولا شطحه في الكلام لم يكن به بأس ولعل ذلك الشطح وقع منه حال سكره وغيبته »
 وقال الشيخ قطب الدين اليونيني في تعقيبه على (المرأة) « وكان محيي الدين يقول
 أنا أعرف اسم الله الأعظم ، وأعرف الكيمياء »

قال العلامة محمد بن شاكر بن احمد الكتبي عن محيي الدين « الذي نفهمه من كلامه
 حسن ، والمشكل علينا نكل أمره إلى الله تعالى ، وما كلفنا اتباعه ولا العمل بما قاله »
 وتوفي محيي الدين في الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وستمائة
 أي في الثامنة بعد السبعين من عمره

وكانت وفاته في دار القاضي محيي الدين بن الزكي ، وقام بغسله الجلال بن عبدالحق
 والقاضي الذي حصلت في بيته الوفاة وكان عماد الدين بن النحاس يصب عليه الماء
 ثم حملوه إلى (قاسيون) حيث دفن بمدفن بنى الزكي

وقبره الآن بالشام بالصالحية في مسجد يعرف باسمه وبجواره قبر الأمير عبد القادر
 الجزائري .

وقال الشيخ جمال الدين بن الزمكاني « الشيخ محيي الدين بن العربي البحر الزاخر
 في المعارف الالهية » وتقل بعض كلامه في فصل عقده في بعض مؤلفاته على فضل مقام
 الصديقية وقال « إنما نقلت كلامه — يعني محيي الدين — وكلام من يجري مجراه من
 أهل الطريق ، لأنهم أعرف بمقائق هذه المقامات وأبصر بها لدخولهم فيها وتحقيقهم بها
 ذوقاً ، والمخبر عن الشيء ذوقاً مخبر عن اليقين فاسأل به خبيراً »

ومن شعره الذي يستدل به على أسلوبه في النظم الصوفي قوله :

نفسى الفداء لبيض خرد عرب	لعين بي عند لثم الركن والحجر
ما أستدل إذا ما تهت خلفهم	إلا بريحهم من طيب الأثر
غازلت من غزلى فيهن واحدة	حسناء ليس لها أخت من البشر
ان أسفرت عن محياها ارتك سنى	مثل الغزالة إشراقاً بلا غير
لشمس غرتها ، ليل طرتها	شمس وليل معاً من أحسن الصور

وفي شهر ربيع الأول سنة ٦٠٠ هـ لما كان الامام أبو عبد الله محمد بن العربي في تمام الأربعين من عمره يؤدي فريضة الحج ، كتب إلى صديقه وأخيه محمد بن عبد العزيز أبي بكر القرشي المهدوي نزيل تونس في تلك السنة رسالة أرسل فيها إليه تحية رفيقه عبد الله بدر الحبشي الذي كان معه في الحج كما أرسل سلامه إلى أبي عبد الله ابن المرباط وأبي عتيق والحاج معافى وأبي محمد الحافظ وعبد الجبار وعبد العزيز البابلي وعبد الله القطان ، ونعى إليهم محمد التائب الذي توفي بين مكة والمدينة على مرحلة من الأولى بين مرو وعسفان ، وقال الشيخ أنه بعد أن كتب تلك الرسالة طاف بها أسبوعاً وأمسها الحجر الأسود والملتزم والمستجار وأدخلها البيت العتيق والمواضع الفاضلة تيمناً وتبركا ولم تكن تلك الرسالة قاصرة على تبليغ الأشواق ونعى صديق الجماعة ، بل كانت تنطوي أيضاً على مسألتين من أهم المسائل التي تلقى نوراً جديداً على حياة هذا العالم الصوفي ، وقد أطلق عليها اسم « رسالة الروح القدس » وهي تنقسم إلى قسمين : القسم الأول مناجاة بين محيي الدين ونفسه وهي شبه اعتراف ، وتعنيف وتهذيب ، والقسم الثاني يشتمل على أسماء معظم الرجال والمشايخ الذين لقيهم وتلقى عنهم وصحبهم في حياته قال « ولقد لقينا من المشايخ والاكوان والنساء ما لو دونت أحوالهم وسطرت كما سطرت أحوال من تقدم لرأيت الحال الحال والعين العين في الأعمال والجد والاشارات وصحة القصد ، فياويل تعال نقيم مأتما للفراق ، ونندب اخواننا الظاعنين ! »

مشايخ محي الدين في الطريق

وأولهم أبو جعفر العربي ، وصل إلى أشبيلية في أول دخول محيي الدين إلى الطريق والثاني أبو يعقوب يوسف بن يخاف الكومي العبسي وهو من أصحاب أبي مدين ، وكان يقول « إذا شاء الشيخ أخذ بيد المريد من أسفل سافلين والقاه في عليين في لحظة واحدة » ، والثالث صالح العدوي ، والرابع أبو عبد الله محمد السرقى ، والخامس أبو محيي الصنهاجي

السادس : أبو الحجاج يوسف السبريلي (نسبة الى قرية بالشرق على فرسخين من أشبيلية) ويروى لنا محيي الدين أن الشيخ يوسف هذا كان يمارس الطب الروحاني

فقد رأى محيي الدين عنده رجلاً في عينيه وجع شديد يصبح منه مثل المرأة النفساء (كذا) فاصفر وجه الشيخ وقلع يده المباركة ووضعها على عينيه فسكن الوجع من جبينه واضطجع الشخص كأنه الميت ثم قام وخرج مع الجماعة وما به من بأس . وروى الشيخ ابن العربي رواية من قبيل القصص العجيبة وهي أنه كانت لشيخه يوسف السبريلي هرة سوداء شديدة النفور من عامة الناس ولكنها تأنس للأولياء وتميزهم السابع : أبو عبد الله محمد بن قسوم وكان يعيش من صناعة القلنسوات ويرزقه الله حيناً من غير تعب ولا سعى

الثامن : أبو عمران موسى بن عمران المارتنلي حبس نفسه في بيته ستين عاماً ، وكان على طريق المحاسبي ، لا يقبل من أحد شيئاً ولا يطلب حاجة لنفسه ، ولا لغيره التاسع والعاشر : الشقيقان أبو عبد الله محمد الخياط وأبو العباس أحمد الاشيليني ، وكان الأول شديد البر بوالدته حتى ماتت وكان الثاني يُنادى من وراء حجاب الحادي عشر : أبو عبد الله محمد بن جمهور كان يكره الشعر ولم ينشده في حياته وإذا سمع دفناً وضع أصابعه في أذنيه

الثاني عشر : أبو علي الشكاز وكانت صناعته نوعاً من الدباغة

الثالث عشر : أبو محمد عبد الله بن محمد بن العربي الطائي عم محيي الدين نفسه الرابع عشر : أبو محمد بن عبد الله بن الأستاذ المروزي وكان من خدام أبي مدين الخامس عشر : أبو محمد عبد الله القطان ، كان لا تأخذه في الله لومة لائم عرض بنفسه للقتل مراراً من كثرة سبِّه لأفعال السلاطين وما هم عليه من مخالفة الشريعة ، عرض عليه السلطان أن يجلس مجلسه فقال « لا ، فان مجلسك مغصوب ، ودارك التي تسكنها أخذتموها بغير حق ، ولولا أني مجبور ما دخلت هنا حال الله بيني وبينك ! » وبالجملة كان هذا الشيخ على نوع من المبالغة في قول الحق بغير مبالاة

السادس عشر : أبو عبد الله محمد بن أشرف الرندي وهو من « الابدال » لم يأو الى معمر قريباً من ثلاثين سنة

السابع عشر : موسى أبو عمران السيد راني ، كان من « الابدال » وكانت له عجائب وغرائب

أشهر مؤلفاته

- بلغت مؤلفاته ٢٠٠ كتاب ذكر منها بركلن الألمانى فى فهرست الكتب العربية ١٥٦ كتاباً وذكر أما كن وجودها واكثرها فى التصوف ، وبعضها فى الجفر وأسرار الحروف :
- (١) الفتوحات المكية ، فى معرفة الأسرار الملكية
 - (٢) التديرات الألهية
 - (٣) التنزلات الموصلية
 - (٤) فصوص الحكم فى خصوص الكلم ، وله شرح بقلم ابن سويديكين سماه « نقش الفصوص »
 - (٥) الأسرا الى المقام الأسرى — نثراً وشعراً
 - (٦) شرح خلع النعلين
 - (٧) الأجوبة المسكتة ، عن سؤالات الحكيم الترمذى
 - (٨) تاج الرسائل ومنهاج الوسائل ، وهو غير تاج التراجم
 - (٩) كتاب العظمة
 - (١٠) كتاب السبعة ، وهو كتاب البيان ، والحروف الثلاثة ، التى انعطفت وأخرها على أوائلها
 - (١١) التجليات
 - (١٢) مفاتيح الغيب
 - (١٣) كتاب الحق
 - (١٤) مراتب علوم الوهب
 - (١٥) الاعلام ، بإشارات أهل الالهام
 - (١٦) العبادة والخلوة
 - (١٧) المدخل الى معرفة الأسماء ، وكنه ما لا بد منه ، والنقباء
 - (١٨) حلية الأبدال
 - (١٩) الشروط ، فى ما يلزم أهل طريق الله تعالى من الشروط
 - (٢٠) المقنع فى ايضاح السهل الممتنع
 - (٢١) عنقاء مغرب ، وختم الأولياء ، وشمس المغرب
 - (٢٢) مشكاة الأنوار فيما روى عن الله عز وجل من الأخبار
 - (٢٣) شرح الألفاظ التى اصطلحت عليها الصوفية
 - (٢٤) محاضرات الأبرار ومسامرات الأخيار — فى خمسة مجلدات
 - (٢٥) ديوان محي الدين ، وهو مجموع القصائد التى قلها ، غير الشعر الذى حلى به كتبه

ملخص كتاب الفتوحات المكية في معرفة الأسرار الملكية

كتاب « الفتوحات المكية التي فتح الله بها على الشيخ الامام العامل الراسخ الكامل خاتم الأولياء الوارثين برزخ البرازخ محيي الحق والدين » مؤلف من أربعة أجزاء كبار تقع في أكثر من ثلاثة آلاف صفحة ، ويندر من يمكنه أن يلم بهذا الكتاب في فصل أو في جملة فصول ، لأنه والحق يقال كالبحر الزاخر في علوم الحقائق والتصوف وأحكام الشريعة ممتزج بعضها ببعض ، ولا ريب في أن هذا الكتاب قد ألف بالهام ولا يمكننا أن نتعرض لتفسير بعض ما جاء فيه من الآراء نثراً وشعراً مما انقسم جمهور المسلمين بسببه فرقا ، فمن قائل أن المؤلف له شطحات ، ومن قائل أنه كتب ما أراد برموز والغاز ، يدركها أربابها للوهلة الأولى .

ومن قوله شعراً في مفتتح الكتاب البيتان المشهوران اللذان يحتاج بهما قوم من الفريق الاول وهو قوله :

الرب حق ، والعبد حق ياليت شعري من المكلف ؟
إن قلت عبد ، فذاك ميت أو قلت رب أتى يكلف !

ومن الفصول المهمة في هذا الكتاب الفصل « في علم الحق وعلم الأحوال وعلم الأسرار » وفصل في « اعتقاد أهل الاختصاص » وفصل في « معرفة الروح » ويقرر محيي الدين في فاتحة كتابه أنه قبل بدايته في تأليف هذا الكتاب قد كُلف بوضعه من ذي مقام عظيم ، ثم قال « ثم أظهرت اسراراً وقصصت أخباراً لا يسع الوقت إيرادها ، ولا يعرف أكثر الخلق إيجادها فتركها موقوفة على رأس منبعها ، خوفاً من وضع الحكمة في غير موضعها »

ولم نجد لصوفي نفساً طويلاً في الشعر والنثر كنفس هذا الامام ونضرب لذلك مثلاً قصيدته الهمزية التي مطلعها :

لما انتهى للكعبة الحسناء جسمي وحصل رتبة الأمناء

وختامها

فاشكرمعي «عبد العزيز» الهنا ولتشكرن أيضاً أبا العذراء
شرعاً فان الله قال اشكر لنا ولوالديك وانت عين قضاء

وبجانب الفصول التي ضمنها الأسرار والرموز ، فصول جليلة ظاهرة في أحكام الشرع
مثل : فصل الوضوء وأحكامه ، وأسرار الطهارة ، وأفعال الصلاة ، بتوسع واسهاب
لا مثيل لهما في أى كتاب آخر من كتب هذا العلم
وتكلم في الجزء الثاني في منازل الأولياء ، ومقام أهل المجالس وحديثهم ونجواهم ،
وفي حظ الرسل من ربهم ومقامهم من مقام الأنبياء ، ومقام الأنبياء من الأولياء ، وفي
هذا الفصل تفصيل بين نبوة الشرائع والنبوة المطلقة ، فهم من الأولياء اذا كانوا أنبياء
شريعة من الدرجة الثالثة ، وان كانوا في النبوة اللغوية فهم في الدرجة الثانية ، وان
الأولياء هم الذين تولاهم الله بنصرته في مقام مجاهدتهم الأعداء الأربعة ، الهوى ، والنفس ،
والدنيا ، والشيطان ، والمعرفة بهؤلاء أركان المعرفة عند المحاسبي

ومن الرسل من لهم خصائص على أمتهم ، ومنهم من لا يختصهم الله بشىء دون
أمته ، وكذلك الأولياء فيهم أنبياء أى خصوا بعلم لا يحصل إلا لنبي من العلم الالهى
ويكون حكمهم من الله فيما أخبرهم به حكم الملائكة ولهذا قال في نبي الشرائع « ما لم تحط
به خبراً » أى ما هو ذوقك يا موسى مع كونه كليم الله ، فخرق السفينة وقتل الغلام حكماً ،
وأقام الجدار مكارم خلق عن حكم أمر إلهي ، كحسف البلاد على يدى جبريل ومن كان
من الملائكة ، ولهذا كان الأفراد من البشر بمنزلة المهيمنين من الملائكة ، وأنبياءهم منهم
بمنزلة الرسل من الأنبياء

وبعد أن أفاض المؤلف في تفصيل النبوة وأسرارها وأحكامها ، تكلم في الحب
والسكر ، والتوبة ، والمجاهدة ، والخلو ، والتقوى ، ومقامى الخوف والرجاء ، والفرق بين
الشهوة والإرادة ، وشهوة الدنيا وشهوة الجنة ، والفرق بين اللذة والشهوة ، ومقام
الخشوع ، والقناعة ، والتوكل واليقين ، ومقام الذكر وأسراره ، والفكر وأسراره

ثم تكلم في أسماء الله الباطن منها والظاهر ، وفي الأسماء على العموم ، وانتقل إلى الكلام في حضور القلب بتواتر البرهان ومنزل الحوض وأسراره من المقام المحمدي ، ومنزل تزاور الموتى وأسراره من الحضرة الموسوية

وفي الجزء الثالث من الكتاب أفاض المؤلف في الكلام على الحضرة الموسوية والحضرة المحمدية ، وتكلم على منزل الامام الذي على يسار القطب وهو منزل أبي مدين أحد أئمة الصوفية ببنيچانة بالأندلس وهو ممن لم يلقيهم محيي الدين .

كلام محيي الدين في المهدي المنتظر

ثم تكلم على المهدي المنتظر وفي معرفة نزول وزرائه فقال في ج ٣ ص ٣٦٤ : « اعلم أن لله خليفة يخرج وقد امتلأت الأرض جوراً وظلماً ، فيملؤها قسطاً وعدلاً لو لم يبق من الدنيا يوم واحد ، طوّل الله ذلك اليوم حتى يلى هذا الخليفة من عترة الرسول يواطئ اسمه اسم رسول الله ، يبايع الناس بين الركن والمقام ، وهو أجلى الجبهة أقرنى الأنف ، أسعد الناس به أهل الكوفة يقسم المال بالسوية ، ويعدل في الرعية ، ويفصل في القضية ، يمسى جاهلاً بخيلاً جباناً ، فيصبح أعلم الناس وأكرمهم وأشجعهم يمشى النصر بين يديه ، يعيش خمسا أو سبعا أو تسعا ، يصلحه الله في ليلة بفتح المدينة الرومية بالتكبير في سبعين الفاً من ولد اسحاق ، يشهد الملحمة العظمى ، مأدبة الله بمرج عكا ، يبيد الظلم وأهله ، يرفع المذاهب من الأرض ، يفرح به العامة أكثر من الخاصة ، ويبايعه العارفون بالله من أهل الحقائق عن شهود وكشف ، له رجال إلهيون يقيمون دعوته وينصرونه هم الوزراء ، ينزل عليه عيسى بن مريم بالمنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين ، متكئاً على ملكين ، يقطر رأسه ماء مثل الجمان ، يتحدث كأنما خرج من دماس ويقبض الله المهدي إليه طاهراً مطهراً ، وفي زمانه يقتل «السُفياني» عند شجرة بغوطة دمشق ويخسف بجيشه في البداء بين المدينة ومكة »

ثم تكلم المؤلف في العرش والهواء والفلك والبرزخ ، وفي معرفة الأمة البهيمية

أما الجزء الرابع والأخير من هذا الكتاب النفيس ، فبدأه بمعرفة منازل الميت ، والحي ليس له الى رؤيته سبيل ، ومعظم هذا الجزء في تفاسير أحاديث قدسية أو الهامية منسوبة الى الله عز وجل مثل :

- (١) « من دعانى فقد أدى حق عبوديته ، ومن أنصف نفسه فقد أنصفنى »
- (٢) « من سألنى فما خرج من قضائى ، ومن لم يسألنى فما خرج من قضائى »
- (٣) « أسمائى حجاب عليك فان رفعتها وصلت الى »
- (٤) « أحبك للبقاء معى ، وتحب الرجوع الى أهلك »

ولولى الله السيد محمد عبد السلام رضى الله عنه الذى انتقل الى البرزخ فى هذا الوقت تفسير بليغ عجيب لهذا الحديث .

وهذا الجزء الرابع كالأجزاء الثلاثة السابقة بحر زاخر فى الحكمة الالهية والفلسفة الشرعية وذكر الأسباب والنتائج والأسرار الباطنية والألغاز العليا فى الكون والخلقة والشرعية والوحى والالهام والولاية والقطبانية ولا يليق بعالم أو متصوف أو أديب أن يبقى بدون المام بهذا الكتاب الذى يعد فريداً فى بابه فى سائر اللغات

أما قبر الشيخ العظيم فقد اكتشفه فى الشام السلطان سليم الأول العثمانى ويذكرون ان الشيخ كان ذكر عبارة رمزية للدلالة على قبره وتاريخ اكتشافه ونصها « عند ما يدخل السين فى الشين يكشف عن قبر محي الدين » والمقصود بذلك عند دخول السلطان سليم بلاد الشام يكشف قبر هذا الحكيم .



اعتراف محي الدين ومناجاته بينه وبين نفسه

قال محي الدين « رأيت في منامي كأني أدخلت الجنة ولم اكن رأيت ناراً ولا حشراً ولا حساباً ولا شيئاً من أهوال القيامة ، ووجدت في نفسي راحة عظيمة ، فلما استيقظت علمت أن في حالي بعض اختلال ، وأن نفسي ادعت فوق حالها من جهة ما أعطائها الله من العلم ، ولو كانت متحققة بالحق تحقّقاً عقلياً مقدساً الهياً يغنيها عنها لم تلتذ بدخول الجنة ، فأرادت أن تقيم على الحجة القاطعة من جهة تقسيم الحقائق الانسانية ومراتبها ، فلم أسمع لها ، ودارت بيني وبينها المحاسبة الآتية :

ابن العربي - يانفس لا أتركك على دعواك حتى أعرض أحوالك على كتاب الله وسنة رسوله (ص) فإن وافقت ذلك سامت لك ، وإن وجدتك دون ذلك فانا ألطف بك وأرحمك بأن أمشي بك على أحوال أهل الصفة وعلى أحوال الصحابة والتابعين وتابعي التابعين فان قصرت عن شأوم فالنار أولى بك

نفسه - أما النبي (ص) فلا أعرض حالي مع حاله أدباً معه ، وكذلك القرآن فانه البحر الأعظم ، ولكن حسبك من دون القرآن والنبوة غنذ معي في مراتب الولاية وأنا المنقادة السميعة السهلة المطيعة

ابن العربي - أخرجني اسنى ما تدعين وأعلاما تحفظين ، وأنا أعرض أولاً حال أهل الصفة
نفسه - قل !

ابن العربي - كان سبعون من أهل الصفة يصلون في ثوب ، فمنهم من يبلغ ركبتيه ومنهم اسفل من ذلك ، والله ما أجمع لهم ثوبان ، ولأحضر لهم من الأطعمة لوان ، ناشدتك الله يانفس ، فهل أنت أفقر منهم ؟

نفسه - لا

ابن العربي - فلست أذن منهم ، أستحي من الله وأرجى على عقبك ولا تطاولي لقوم لست منهم في شيء !

نفسه - على بغيرم فليس لي هنا قدم

ابن العربي — قال عمار بن ياسر وهو يسير على شط الفرات « اللهم لو أعلم أن أرضي لك عني أن أتردى فاسقط فعلت ، ولو علمت أن أرضي لك عني أن ألقى في هذا فاعرق فيه فعلت » ناشدتك الله يانفس ، هل خطر لك هذا قط في رضى الله لا تبغين به بدلا ؟

نفسه — لا والله فانتقل بي عن هذا !

ابن العربي — هذا عمر بن الخطاب لما أسلم قال له النبي (ص) « يا عمر استره » قال رضى الله عنه « والذي بعثك بالحق لأعلنه كما أعلنت الشرك ! » ناشدتك الله يانفس هل قتلت لى قط في دين الله تعالى حامية عنه في موطن دونه النفوس الحداد ، وعدم الناصر يغلب فيه على ظنك أنك تقتلين فيه ؟

نفسه — لا والله ، وإنما قاربت هذا المقام ، ولكن بسياسة وطنت بها نفوس الأعداء بحيث أن غلب على ظنى الامن والعافية في دمي

ابن العربي — فارجمي !

نفسه — نعم ، هات غيره

ابن العربي — كان عثمان بن عفان يطعم الناس طعام الأمانة ، ويدخل بيته فيأكل الخبز والزيت ، هل فعلت هذا مع أعصابك قط ؟ آثرتهم باللطيف وقنعت بالخشن

نفسه — لا والله ، بل كنت على أحد وجهين معهم ، ان لم يكن عندي طعام غير ما جعلت بين أيديهم شاركتهم فيه ، وان كان عندي أرق منه أكلت وحدي ذلك ، مثل الحلو أو الخوشكنان ، وأقول هذا غذاء لين والبس على نفسى بهذه الترهات حتى لا أتفص به عند أكله ، وأقول هؤلاء الاخوان في مقام الترية فينبغي أن لا أزرع حب الشهوات في قلوبهم بطعامهم مثل هذا ، ومقامى لا يؤثر فيه هذا الطعام ، فلا بأس بتناولى اياه فأكله على هذه الحال وقد عميت عن مطالبة الحق ، في موازنة المعاشرة وأدناها أن أشاركهم في خشوتهم لما أعرفه من تأثير الحقائق ، ولا شك أن عثمان ما فعل هذا في بدايته وإنما فعله بعد التمليك

ابن العربي — بارك الله فيك يانفس اذ أنصفتنى

نفسه — الحق أحق أن يتبع هات غيره

ابن العربي — هذا الامام على كان اذا أرخى الليل سدوله وغارت نجومه يتمثل في محرابه قابضاً على لحيته ويبكي بكاء الحزين وهو يتضرع بقوله « يا ربنا ! » ثم يخاطب الدنيا بقوله « غرى غرى ، واخذعى سوى ، فقد تبت عنك ثلاثاً ، فعمرك قصير ، ومجلسك حقير ، وخطرك كثير ، أواه ! من قلة الزاد وبعد السفر ، ووحشة الطريق » فهل صاحبت هذه الحال استصحاب هذا الامام ؟

نفسه — لا والله ، انما هي بوارق تلمع ، وأهلة تطلع ، في أوقات دون أوقات ، والغالب الشتات ، لولا انى أزيد أن أقف منك على أحوال هذه السادة لطويت معك بساط المناظرة وعدلنا عن هذه المحاضرة .

ابن العربي — هذا الذى بشرت غير ما مرة أنك في مقامه : أبو بكر الصديق (رض) (وهذه إشارة الى أن محي الدين بن العربي كان في مقام الصديقية) خرج حين توفى رسول الله (ص) وعمر يكلم الناس ثم قال بعد أن تشهد « أما بعد فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله عز وجل فإن الله حي لا يموت ! » ثم تلا قوله تعالى « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ » الآية ، فسكن جأشهم بالقرآن وهو لم يزل ساكن القلب مع الرحمن ، ناشدتك الله يانفس هل حصلت بالسر الذى تدعيه أنه قد حصل لك من الحق حالا ومقاما من تعظيم الله ما علمت به تعظيم من عظمه الله من جهة تعظيم الله اياه ؟

نفسه — لا والله ياولى ، انما أنا بين فناء وبقاء ، وتلاش وانتعاش ، واقبال وادبار ووصول ورجوع ، وما كنت فهمت هذا من هذا الكلام الذى خرج من فم الصديق حتى نهتني عليه ، فانتقل بى عن هذا المقام فقد قصم ظهري

ابن العربي — ان النبي (ص) عاش في البؤس وضنك العيش حتى رق له عمر لما أثر شريط السرير في جنبه فقال عمر « تذكرت كسرى وقيصر » فقال النبي (ص) « اما ترى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ » أين أنت يانفس من قول سلمان الفارسي حيث ذكر ما فتح الله على المسلمين من كنوز

كسرى فقال « ان الذى أعطاكموه وفتح عليكم وخولكم لممسك خزائنه ومحمد (ص) حى ، ولقد كان يصبح وما عنده دينار ولا مد من الطعام ، بم ذاك يا أخا بنى عبس ؟ » فانظروا يا نفس كلام هذا الصاحب وشرحه لحالة النبي (ص) وتعريفه وتقريعه بقوله « بم ذاك ؟ » ثم أنه لو كانت الدنيا تنال على حسب المراتب عند الله من الرفعة لكانت كلها لرسول الله (ص) وهذه حالته فى دنياه ولم يرض لقرة عينه بنته فاطمة أن تنال فيها راحة ولا توسعاً ، هذا وقد رأى أثر حبل القربة فى عنقها من حمل الماء وأثر الرحي من الطحين فى يديها ، وجاءه السبى فلم ير أن يعطيها خادماً يحول بينها وبين ذاك الشقاء الذى نزل بها ، وأعطائها بدل ذلك تسبيحاً وتحميداً وتكبيراً وقال هو خير لكم ، فأين أنت يا نفس وهذا العارف فلا الحق رضا لنبيه ولا النبي (ص) رضا لابنته ووصيه فهل قنعت يا نفس بعد أن لم تجدى لك قدماً مع أحد من الصالحين ؟ فمن أتبت ؟ وبمن تأسيت ؟

نفسه — أتبت هواى ، فتأسيت بشيطان مدع فى المعرفة ، مكب على الدنيا مثلى ، فأثمرلى الدعوى ، وعرائى من ملابس التقوى ، وأنا أتوب الى الله وأتضرع اليه فى الوفاء والعدل والميزان !

[وبعد أن أسترسل محي الدين فى ذكر أخبار قويس القرنى وعبادته وزهده ومقابلته لهزم بن حيان ختم مناجاته بقوله لنفسه]

ابن العربي — فهذا يا نفس من بعض أخبار قويس الذى أحببته لله وفى الله ، ولولا خشية التطويل لأشبعناك من أخباره وأخبار أمثاله من سادات التابعين ، ولكنك قنعت بهذا القدر ، فالتزمى طاعة الله وطاعة رسوله (ص)

قال محي الدين بن العربي « فأسلمت اسلاماً جديداً — يقصد نفسه — الله يثبتها عليه ، وأخذت منها العهود التى أخذ النبي (ص) على نساء المؤمنات ، فالتزمت ذلك كله عارفة قدر ذلك ومالها فى الوفاء به ، وما عليها من الرجوع عنه »

« هذا ياولى — مخاطباً صديقه عبد العزيز المهدوى — أبقاك الله ما اتفق بينى وبين نفسى فى مكة المشرفة »

١٢ - ابن مسكويه

أبو علي الخازن أحمد بن محمد بن يعقوب الملقب مسكويه توفي في ٩ صفر سنة ٤٢١ هـ وكان مجوسياً وأسلم ، وهذا دليل على أنه من أبناء الفرس الناشئين بين أحياء العرب الذين كانوا يتولون الوظائف والمناصب في صدر الاسلام ، ومنهم أبو محمد عبد الله ابن المقفع الذي قتل سنة ١٤٢ هـ . وكان هؤلاء القوم نادرة في الذكاء وغاية في جمع علوم اللغة والحكمة والتاريخ

كذلك كان مسكويه من نوابغ المفكرين العاملين الذين يندر ظهورهم في الأمم ، وكانت له معرفة تامة بعلوم الأقدمين والفرس فيها كتباً عدة

وصحب ابن العميد وكان يخدمه في مكتبته لكنه مع ذكائه ونبوغه واشتغاله بالفلسفة والمنطق والفقه والأدب والتاريخ فتنه الكيمياء ، بالمعنى الذي يعرفه بعض علماء العرب وهو السعى في الحصول على الذهب بالصناعة ، فأففق ماله في هذا السبيل وهذا نوع من الجنون ، فلما ذهب ماله في طلب المال ، ندم على ذلك وتنقلت به الحال الى خدمة بني بويه فابتسم له الزمان وعظم شأنه حتى ترفع عن خدمة صاحب بن عباد ولم ير نفسه دونه

وكان مسكويه شاعراً مدح ابن العميد وعميد الملك وله رسائل أنيقة على أسلوب ذلك العصر

قال أبو حيان في كتاب « الامتاع » عند ذكر طائفة من متكلمي زمانه « وأما ابن مسكويه ففقير بين أغنياء ، وغني بين أنبياء ، لأنه شاذ وانما أعطيته في هذه الأيام « صفو الشرح » لايساغوجي و « قاطيغورياس » من تصنيف صديقنا بالري . قال الوزير ومن هو ؟ قلت أبو القاسم الكاتب غلام أبي الحسن العامري ، وصحبه معي وهو الآن لائد بابن الحمار وربما شاهد أبا سليمان المنطقي وليس له فراغ ولكنه مجد في

هذا الوقت للحسرة التي لحقته مما فاتته من قبل . فقال : يا عجباً لرجل صحب ابن العميد وأبا الفضل ورأى ما عنده وهذا حظه ، قلت : قد كان هذا ولكنه كان مشغولاً بطلب الكيمياء مع أبي الطيب الكيمائي الرازي ، مملوك الهمة في طلبه ، والحرص على أصابته مفتوناً بكتب أبي زكريا وجابر بن حيان ومع هذا كان اليه خدمة صاحبه في خزانة كتبه ، هذا مع تقطيع الوقت في الحاجات الضرورية ، والشهوية ، والعمر قصير ، والساعات طائفة ، والحركات دائمة ، والفرص بروق تأتلق ، والأوطار في عرضها تجتمع وتفترق ، والنفوس عن قرابتها تذوب وتحترق . ولقد قطن العامري الرى خمس سنين ، ودرس وأملى وصنف وروى فما أخذ عنه ابن مسكويه كلمة واحدة ولا وعى مسألة حتى كأنه كان بينه وبينه سد . ولقد تجرع على هذا التواني الصاب والعلم ومضغ حنظل الندامة في نفسه ، وسمع بأذنه قوارع اللوم من أصدقائه حين ما ينفع ذلك كله ، وبعد هذا فهو ذكي حسن ، نقي اللفظ ، وان بقى عساه أن يتوسط هذا الحديث ، وما أرى ذلك مع كلفه بالكيمياء وانفاق زمانه وكد بدنه وقلبه في خدمة السلطان ، واحتراقه في البخل بالدانق والقيراط ، والكسرة والخرقه ، نعوذ بالله من مدح الجود باللسان وإيثار الشح بالفعل ، ومحمد الكرم بالقول ومفارقته بالعمل »

قال أبو منصور الثعالبي « كان في الذروة العليا من الفضل والأدب والبلاغة والشعر وكان في ريعان شبابه متصلاً بابن العميد مختصاً به ثم تنقلت به أحوال جلية في خدمة بني بويه والاختصاص بهاء الدولة وعظم شأنه وارتفع مقداره فترفع عن خدمة الصاحب ولم ير نفسه دونه ولم يخل من نوائب الدهر »

وله قصيدة في عميد الملك تفنن فيها وهنأه باتفاق الأضي والمهرجان في يوم ، وشكا سوء أثر الهرم وبلوغه الى أرذل العمر

وصية أبي علي بن مسكويه

« بسم الله الرحمن الرحيم ! هذا ما عاهد عليه احمد بن محمد وهو يومئذ آمن في سر به معافى في جسمه ، عنده قوت يومه ، لا تدعوه الى هذه المعاهدة ضرورة نفس ولا بدن ، ولا يريد بها مراآة مخلوق ، ولا استجلاب منفعة ولا دفع مضرة منهم ، عاهده على أن يجاهد نفسه ويتفقد أمره ، فيعف ويشجع ويحكم ، وعلامة عفته أن يقتصد في مآرب بدنه حتى لا يحمله الشره على ما يضر جسمه أو يهتك مروءته ، وعلامة شجاعته أن يحارب دواعي نفسه الذميمة حتى لا تقهره شهوة قبيحة ولا غضب في غير موضعه ، وعلامة حكمته أن يستبصر في اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شئ من العلوم والمعارف الصالحة ، ليصلح أولاً نفسه ويهذبها ويحصل له من هذه المجاهدة ثمرتها التي هي العدالة ، وعلى أن يتمسك بهذه التذكرة ويجتهد في القيام بها والعمل بموجبها ، وهي خمسة عشر باباً ، ايثار الحق على الباطل في الاعتقادات ، والصدق على الكذب في الأقوال ، والخير على الشر في الأفعال ، وكثرة الجهاد الدائم لأجل الحرب الدائمة بين المرء وبين نفسه ، والتمسك بالشريعة ولزوم وظائفها ، وحفظ المواعيد حتى ينجزها ، وأول ذلك ما بيني وبين الله جلّ وعزّ : وقلة الثقة بالناس بترك الاسترسال ومحبة الجليل لأنه جميل لا لغير ذلك ، والصمت في أوقات حركات النفس للكلام حتى يستشار فيه العقل ، وحفظ الحال التي تحصل في شئ شئ حتى يصير ملكة ولا يفسد بالاسترسال ، والاقدام على كل ما كان صواباً ، والاشفاق على الزمان الذي هو العمر ليستعمل في المهم دون غيره . وترك الخوف من الموت والفقر لعمل ما ينبغي وترك التواني ، وترك الاكتراث لأقوال أهل الشر والحسد لئلاّ يشغل بمقابلتهم وترك الانفعال لهم ، وحسن احتمال الغنى والفقر والكرامة والهوان بجملة وجهة ، وذكر المرض وقت الصحة ، والهلم وقت السرور ، والرضى عند الغضب ليقبل الطغى والبغى ، وقوة الأمل ، وحسن الرجاء والثقة بالله عزّ وجل ، وصرف جميع البال إليه . »

مؤلفاته

- (١) كتاب الفوز الأكبر
- (٢) كتاب الفوز الأصغر
- (٣) كتاب تجارب الأمم في التاريخ ابتداءه من بعد الطوفان وانتهاءه الى سنة ٣٦٩
- (٤) كتاب أنس الفريد وهو مجموع يتضمن أخباراً وأشعاراً وحكماً وأمثالاً
- (٥) كتاب ترتيب السعادات
- (٦) كتاب المستوفى (وهو) أشعار مختارة
- (٧) كتاب الجامع
- (٨) كتاب جاوزان خرد
- (٩) كتاب « السير » أجاده وذكر فيه ما يسير به الرجل نفسه من أمور دنياه
ومزجه بالأثر والآية والحكمة والشعر
- (١٠) كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق

ملخص كتاب ترتيب السعادات

كل واحد نصب لنفسه غاية يقصدها بسعيه ويسمى سعادة له كما يسعى للمزّة والثروة،
أو للصحة أو للغلبة أو للعلم ، وإنما أوتوا في هذا الاختلاف من قبل أنهم لم يلحظوا الكمال
البعيد أعنى السعادة القصوى ولو عرفوها ونصبوها غرضاً لسعوا بالباقيات نحوها كما يفعل
الصانع ، فانه اذا عرف كمال المطرقة الاقصى ، أعنى صناعة التاج والخاتم أو السوار قصد
بالطرق وبسط الجسم الصلب نحو ذلك

ان ما كان عامّاً للانسان والبهائم فليس سعادة لنا ، لأنها ليست غايتنا وكما لنا من
حيث نحن ناس ، وأما ما كان منها خاصّاً بالانسان من حيث هو انسان فيجوز أن يسمى
سعادة الا أن هذا المعنى هو عام لجميع الناس ، ومن هذه السعادات الخاصة بالانسان
ما هو عام للناس كما قلنا فهم يشتركون فيه ومنها ما هو خاص بانسان انسان ، ومنها

ما هو خاص الخاص وهو الذى اليه ترتقى السعادات وعنده تقف جميعها فانها وجدت السعادات كلها من أجلها وبسببها وهى الغرض الأخير والكمال الأقصى أما الأمر العام لجميع الناس ولجميع الحيوان فهو المأكل والمشرب وضروب الراحة وهذا ليس بسعادة ولا هو كمال الانسان وغايته الذى خلق له ومن أجله

وأما السعادة العامة للناس من حيث هم ناس فهى ما ذكرناه من قبيل صدور الأفعال عنه بحسب الروية والتميز وعلى ما يقسطه العقل ، وهذا المعنى سعادة موجودة لكل انسان ويمكن كل احد ان ينال منها ويحظى بها بقدر رتبته من الانسانية ، وهذا المعنى موهوب للناس عامة بالفطرة والجلبة الأولى ويتفاضلون بحسب استعمالهم اياها

وأما السعادة الخاصة بحسب انسان انسان ، فهى التى يختص بها صاحب علم أو صناعة فاضلة ، يتفاوتون فيها على قدر مراتبهم فى العلوم والصناعات وبحسب الأحوال التى يصدرون فيها أفعالهم على ما يوجب الرأى والتميز

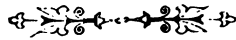
وأما أصناف الشقاء المقابلة لهذه السعادات فقد تركنا ذكرها لأنها تعرف من مقابلاتها كما تبين فى المنطق أن المتقابلات علمها معاً فى حال واحدة ، فينبغى أن يساق كل انسان بحسب طبقته ومرتبته الى سعاداته التى تخصه على أنم ما يكون وأفضل ما يمكن ويبلغه الوسع

ولولا أن السعادات كثيرة وعلى ضروب ، لكان السعيد فى الحقيقة واحداً من الناس وهو من يحصل جميع أجزاء الفلسفة وفهم جميع الصناعات وتوفر حظه من الحكمة كلها ، ولو كان ذلك كذلك ، لكان وجود سائر الناس عبثاً لا غاية لهم ولا كمال

ان الحكماء لما رأوا اختلاف الناس فى غاياتهم فبعضهم يرى أن غايته اللذة فيسمى نحوها بجميع أفعاله ، فاذا شبع من لذته ثم كلف بعد ذلك الازدياد مما زعمه سعادة صار ذلك شقاء عظيماً ووبالاً كثيراً عليه ، وسى السعادة شقاء

وأيضاً فان صاحب الثروة اذا مرض رأى أن السعادة هى الصحة وصاحب الصحة اذا أصابه ذل رأى أن السعادة هى الكرامة ، ومعلوم أن السعادة هى شىء ثابت لا تصير شقاء ولا ينتقل صاحبها فيكون شقيماً بالذى صار به سعيداً

وقد رتب أرسطوطاليس أجناس السعادات فسعادة في النفس ، وسعادة في البدن
وسعادة من خارج البدن وفيما يطيف بالبدن
السعادة التي في النفس : بالعلوم والمعارف والحكمة
» » في البدن : مثل الجمال وصحة المزاج
» » من خارج البدن : مثل الأولاد النجباء والاصدقاء واليسار وشرف النسب
أما السعادة القصوى فليس يناها كل واحد ولا يظفر بها كل من طلبها ، ومن علامة
من وصل الى السعادة القصوى أن يوجد أبداً نشيطاً ، فسيح الأمل ، قوى الرجاء ،
ساكن الجأش ، غير مضطرب ولا مكترث بامور الدنيا الا بمقدار يسير جداً ، وهو
يناسب الناس ويقاربهم في الظاهر ، فأما باطنه فمباين لهم ثم هو جذل مسرور بنفسه
لا بغيرها ، وهذه الحال لازمة له لا تتغير



فلسفة ابن مسكويه

في النفس والأخلاق

لقد بينا في تلخيص كتاب السعادة لمسكويه أولابن مسكويه ، أن مذهبه الفلسفي ارسطى محض وأنه كأسلافه ومعاصريه ومن جاء بعدهم من فلاسفة الاسلام يجدون الفلاسفة اليونانية ويرفعون من شأن المعلم الأول حتى درجة العبادة . وأن معظم كتاب السعادة لابن مسكويه يدور على مؤلفات ارسطو وترتيبها وتبويبها وحكمة وضعها وتصنيفها على النمط الذي أتبعه ابن الهيثم في اعترافه . فكان ارسطو هو المثل الأعلى لهؤلاء الفلاسفة الاسلاميين كما كان العدو للدود لائمة المتصوفين أمثال الغزالي وأصحاب الفلسفة العملية أمثال ابن خلدون .

وظاهر لكل متأمل في مؤلفات ابن مسكويه التي تستفاد منها فلسفته أنه تأثر جد التأثير بالجانب الخلقى من مؤلفات ارسطو بعد أن وقف على النظام الفلسفي بصفة عامة وكان اهتمامه بعلم النفس اكبر من اهتمامه بسواه وكانت الغاية التي يرمى اليها تهذيب النفس عن طريق درس أحوالها وتقلبها . وقد بلغ أثر هذا الميل في تعاليم ابن مسكويه إلى درجة أنه أراد أن يعكس طرق التعليم الفلسفي فبدلاً من أن يبدأ السالك في طريق الفلسفة بدرس المنطق والبرهان والأقيسة التي هي وسائل الفهم وأدوات الادراك يرى ابن مسكويه عكس ذلك فيقول في ص ٢٦ من كتاب السعادة :

« وقد رأى بعض أصحاب ارسطوطاليس من مدرسى كتبه أن يبتدىء المتعلم لها بكتب الأخلاق لتَهْذِبَ نفسه وتصفو من كدر الشهوات ويخفف عنها أثقال عوارضها فيتمكن من قبول الحكمة ويعترف بعض الاعتراف بترك الانهماك في الشهوات وهجران الملاذ الجسمية ، ويعلم أن أكثرها خسাসات ورذائل فيتنزه عنها ، ثم ينظر في شئ من التعاليم ليعرف طريق البرهان ويتدرب بها ويأنس بطرقها ويترك الايغال فيها إلى وقت آخر » .

المثل الأعلى عند مسكويه

ثم أن ابن مسكويه جعل للانسان مثلاً أعلى هو أشبه الأشياء بما كان يرمى إليه ابن باجة في رسالة «تدبير المتوحد» وابن طفيل في «حي بن يقظان». ولكن ابن مسكويه مرَّ بمثله الأعلى مرور الطيف فوصفه بأنه هو الحاصل على السعادة القصوى وأن هذا السعيد السعادة القصوى «مغتبط بذاته لأنه يشاهد أموراً لا تتغير ولا تستحيل أبداً ولا يجوز عليها أن تتغير أو تستحيل وأنه يرى جميع ما يراه بعين لا تغايط ولا تخطف» ولا تدبر ولا تقبل الفساد ويتعين أنه صائر من أحد وجوديه (الحياة الدنيوية ؟) إلى الوجود الآخر (الموت ؟) الاكل فهو كمن سلك طريقاً إلى وطن يعرفه وثيق بأهله وروحه وطيبه »

ثم يتوغل ابن مسكويه في الوصف فيلمس أدق عقائد الصوفية في السلوك والوصول حيث يقول « وكما قطع إليه منزلاً أو حل دونه في درجة تقرب منه ازداد نشاطاً وطمانينة وجذلاً . وهذه الحال من الثقة واليقين لا تحصل بالخبر دون المعاينة ولا تتم بالحكاية دون المشاهدة ولا تسكن النفس إليها إلا بعد الظفر على الحقيقة ، والواصلون إليها على طبقات ومثال ذلك الناظر بعين الرأس فان هذه العين يتفاوت الناس في النظر بها فمنهم من يرى الأشياء البعيدة رؤية بينة ومنهم من لا يراها من القرب أيضاً إلا كمن يرى الشيء من وراء ستر إلا أن الفرق بين تلك الحال وهذه الحال أن العين الحسية كلما أمعنت في النظر وأدامت التحقيق إلى محسوساتها كلت وضعفت وتلك العين الأخرى هي بالضد لأنها تقوى بالامعان في النظر وتزداد بالادمان جلاء وسرعة ادراك ولا تزال تزداد بصيرة ونفاذاً حتى تدرك ما كانت تظنه غير مدرك ولا معقول » .

الفرق بين الحكمة والفلسفة

يميز ابن مسكويه بين الحكمة والفلسفة ، فهو يرى أن الحكمة هي فضيلة النفس الناطقة المميزة ، وهي : أن تعلم الموجودات كلها من حيث هي موجودة وان شئت فقل أن تعلم الأمور الالهية والأمور الانسانية وثمر علمها بذلك أن تعرف المعقولات أيها يجب أن يفعل وأيها يجب أن يغفل

أما الفلسفة فلم يضع لها ابن مسكويه تعريفاً ولكنه قسمها الى قسمين :

(١) الجزء النظرى و (٢) الجزء العملى .

فاذا كل الانسان بالجزئين فقد سعد السعادة التامة

والجزء النظرى ينطوى على كمال الانسان الأول بالقوة العاملة فيصير فى العلم بحيث يصدق نظره ، فلا يغلط فى اعتقاد ولا يشك فى حقيقة ، وينتهى فى العلم الى العلم الالهى ويشق به ويسكن اليه .

والكمال الثانى للانسان ، يكون بالقوة العاملة وهو الكمال الخلقى ومبدؤه من ترتيب قواه وأفعاله الخاصة بها حتى تصدر تلك الأفعال كلها بحسب قوته الميزة منتظمة مرتبة كما ينبغي وينتهى الى التدبير المدنى بين الناس حتى تنظم ويسعدوا سعادة مشتركة (Bonheur commun) وغاية الكمال الانسانى فى فلسفة ابن مسكويه أن يعلم الموجودات كلها بكمياتها وحدودها التى هى ذواتها لا اعراضها وخواصها التى تصيرها بلانهاية .

ويعتقد ابن مسكويه أن من ينتهى الى هذه الرتبة من العلم والعمل فقد صار عالماً وحده واستحق أن يسمى عالماً صغيراً لأن صور الموجودات كلها قد حصلت فى ذاته فصار هو ، هى ، بنحو ما ثم نظمها بأفعاله على نحو استطاعته فصار فيها خليفة لمولاه خالق الكل جلت عظمتة فلم يخطئ ولا يخرج عن نظامه الأول الحكيم فيصير حينئذ عالماً تاماً ، دائم الوجود ، سرمدى البقاء مستعداً لقبول الفيض من المولى دائماً أبداً وقد قرب منه القرب الذى لا يجوز أن يحول بينهما حجاب .

ولولا أن الشخص الواحد من أشخاص الناس يمكنه تحصيل هذه المنزلة فى ذاته لكان سبيله سبيل أشخاص الحيوانات الأخر أو كسبيل أشخاص النبات فى مصيرها الى الفناء .

ومن لا يتصور هذه الحالة ولا ينتهى الى علمها من المتوسطين فى العلم تقع له شكوك فى البعث والخلود وانتهاء حياة الانسانية بالموت ، فحينئذ يستحق اسم الالحاد ويخرج عن سمة الحكمة وسنة الشريعة

فالفلسفة في رأى ابن مسكويه هى غاية الحياة الانسانية وهى مزيج من العلم والعمل لسلوك سبيل الترقى الدائم . فهى الغرض الاسمى للوجود والوسيلة الوحيدة للاتصال العقلى والروحانى بين الخالق والمخلوق والاستعداد لقبول الفيض الربانى . وعلى ذلك تكون هذه المرتبة هى مرتبة الأنبياء والحكماء والعلماء الذين هم عوالم تامة ، وخلفاء للخالق .

الملوك فى فلسفة ابن مسكويه

يقول ابن مسكويه « لقد حكمنا ان الملوك منا هم أشد الناس فقراً لكثرة حاجتهم الى الأشياء . ثم يشير ابن مسكويه الى قول أبى بكر الصديق فى خطبته حيث قال : « أشقى الناس فى الدنيا والآخرة الملوك » واسترسل ابن مسكويه فى وصف الملوك نقلاً عن هذا المصدر فقال :

« ان الملك اذا ملك زهده الله فيما فى يده ورغبه فيما فى يد غيره وانقصه شطر أجله وأشرب قلبه الاشفاق فهو يحسد على القليل ويتسخط بالكثير ويسأم الرخاء وان انقطعت عنه اللذة لا يستعمل الغيرة ولا يسكن الى الثقة فهو كالدرهم الفس والسراب الخادع جلد الظاهر حزين الباطن فاذا وجبت نفسه ونضب عمره ومحى ظله فأشد حسابه وأقل عفوه ألا أن الملوك هم المرحومون »

قال ابن مسكويه « لقد سمعت أعظم من شاهدت من الملوك يستعيد هذا الكلام (يعنى وصف الملوك لأبى بكر الصديق) ثم يستعبر لموافقته ما فى قلبه وصدقه عن حاله وصورته ولعل من يرى ظاهر الملوك من الاسرة والفرش والزينة والأثاث ويشاهدهم فى مواكبهم محفوفين محشودين بين أيديهم الجنائب والمراكب والعبيد والخدم والحجاب والحشم يروعه ذلك فيظن أنهم مسرورون بما يراه لهم ، لا ! والذى خلقهم ! وكفانا شغلهم ! أنهم لى هذه الأحوال ذاهلون عما يراه البعيد لهم ، مشغولون بالافكار التى تعتورهم وتعتريهم فيما قلناه من ضروراتهم

الكلام على النفس

تكلم ابن مسكويه على قوى النفس الثلاث :

(١) النفس البهيمية وهي ادونها

(٢) النفس السبعية (نسبة الى السبع مفرد سبع) وهي أوسطها

(٣) النفس الناطقة وهي أشرفها

وأن هذه القوى الثلاث ، ويصفها ابن مسكويه بالأنفس الثلاث اذا اتصلت صارت شيئاً واحداً وتبقى في الوقت ذاته على تغيرها وثورتها واستجدائها كأنها لم تتصل .

ثم تكلم على سياسة النفس العاقلة وأن مثل من أهملها وترك سلطان الشهوة يستولى عليها كمن معه ياقوته حمراء شريفة فرمى بها في نار تضطرم .

ثم انتقل الى رأى أرسطو في بقاء النفس والمعاد استدلالاً من قوله في كتاب الأخلاق .
على أن الكلام الذي أورده ابن مسكويه نقلاً عن أرسطو طالس في هذا الباب لا يؤدي الى القول بالمعاد .

ثم انتقل الى دواء النفوس قال يجب أن تنفقد مبدأ الأمراض اذا كان من نفوسنا فان كان مبدؤها من ذاتها كالفكر في الأشياء الرديئة واجالة الرأى فيها كاستشعار الخوف والخوف من الأمور العارضة والمتربة والشهوات الهاثجة قصدنا علاجها بما ينقصها وان كان مبدؤها من المزاج ومن الحواس كالخور الذي مبدؤه ضعف حرارة القلب مع الكسل والرافاهية وكالعشق الذي مبدؤه النظر مع الفراغ والبطالة قصدنا أيضاً علاجه بما ينقص هذه .

وتكلم بعد ذلك على « حافظ الصحة على نفسه » و « معرفة المرء عيوب نفسه »
و « رد الصحة على النفس » .

واسهب ابن مسكويه في الكلام على العدالة والفضائل التي تحت العفة والشجاعة والسخاء والعدالة ومراتب الفضائل الانسانية

والم بموضوع السعادة في رأى أرسطوطاليس ولذة السعادة والخير والسعادة وكثير من هذه الفصول تذكرنا مطالعتها بما دونه اللورد آفبرى في كتبه التي من قبيل « مسرات الحياة » فهي مزيج من علم الأخلاق والآداب الخاصة والعامة وعلم النفس والحكمة الانسانية .

وتكلم ابن مسكويه على التعاون والاتحاد والصدقة والمحبة وأنواع المحبة وأجناسها وأسبابها والمحبة التي لا تظراً عليها الآفات

وكما تكلم على أنواع الفضائل التي تزهر بها النفس كذلك أفاض في ذكر الرذائل التي تكون بها عيوب النفس وأسباب ضعفها مثل التهور، والجبن، والعجب، والافتخار والمزاح والتهيه والاستهزاء والغدر والضيم وأسباب الغضب والجبن والخور والخوف وأسبابه وعلاجه وعلاج الخوف من الموت وعلاج الحزن

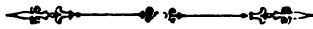
ونعتقد أن أجمل نبذة في فلسفة ابن مسكويه التي ينطوى عليها كتاب تهذيب الأخلاق هو الفصل البديع الذي دمجته يراعيته في موضوع « علاج الخوف من الموت » وهو شبيه بالفصل الذي ختم به جيو الفيلسوف الفرنسى كتابه « عقيدة المستقبل » قال ابن مسكويه :

« ان الخوف من الموت ليس يعرض الا لمن لا يدري ما الموت على الحقيقة أو لا يعلم الى أين تصير نفسه أو لأنه يظن أن بدنه اذا انحل وبطل تركيبه فقد انحلت ذاته وبطلت نفسه بطلان عدم ودثور، أو لأنه يظن أن للموت ألماً عظيماً غير ألم الأمراض التي ربما تقدمته وأدت اليه وكانت سبب حلوله أو لأنه يعتقد عقوبة تحل به بعد الموت أو لأنه متحير لا يدري على أى شئ يقدم بعد الموت أو لأنه يأسف على ما يخلفه من المال والمقتنيات - وهذه كلها ظنون باطلة لا حقيقة لها . »

ولم تحل فلسفة ابن مسكويه من جزء خاص بالشريعة وبما يجب على الانسان لحاقه وأسباب الانقطاع عن الله وأن الشريعة تأمر بالعدالة وتدعو الى الأنس والمحبة ولزوم الشريعة في المعاملات والواجب على الحاكم نحو الرعية .

وجملة القول في فلسفة ابن مسكويه الخلقية أنها مزيج متقن السبك متناسب الأجزاء من الفلسفة اليونانية حسب تعاليم ارسطو لا سيما ما كان منها خاصاً بعلم النفس والأخلاق ومن الأداب الفلسفية الاسلامية التي بها رائحة من التصوف العقلي والديني ومن حكمة الحياة والأداب العامة والخاصة

ونحن نعد ابن مسكويه فيلسوفاً قائماً بذاته لم ينسج على منوال أحد من سابقه ولم يتعرض في « تهذيب الأخلاق » للمسائل الجوهرية في الفلسفة ، وهي العقل والروح والخالق وسر الوجود الانساني وغاية الحياة العقلية والعقائد الدينية التي لها مساس بحياة الانسان من حيث الكفر والايان ، بل هو رجل حكيم ملم بفلسفة ارسطو يقدره ويمجده ويحاول كما حاول ارثور شو بنهور في كتابه *La Sagesse de la Vie* « حكمة الحياة » ان يوجد للفرد مثلاً أعلى يسمى للوصول اليه ويعمل لأجله فاذا وصل اليه بلغ النهاية القصوى من الكمال . فالفكرة الأساسية الأصيلة في فلسفة ابن مسكويه في « كتاب تهذيب الأخلاق » هي فكرة عملية محضة ذات نفع مباشر للانسان الذي يسير على خطتها الحكيمة .



فلسفة ابن مسكويه

في إثبات الصانع والنفس والنبوة

يعد هذا الجزء من فلسفة ابن مسكويه خاصاً بما وراء الطبيعة وهو مبني على أصول الفلاسفة الالهيين ، ومذهب ابن مسكويه فيه هو الانتصار للعقائد الدينية .

وقد قسم ابن مسكويه فلسفته الميتافيزيقية (ما وراء الطبيعة) الى ثلاث مسائل في ثلاثين فصلاً وكل مسألة عشرة فصول : المسألة الأولى في إثبات الصانع وهي محاولة في إقامة الدليل العقلي على وجود الله سبحانه وتعالى . وقد قدم لها الفيلسوف بمقدمة وجيزة في أن هذا الأمر سهل من وجه وصعب من وجه وأما سهولته فمن قبل الحق نفسه لأنه نير وأما صعوبته أو غوضه فلأجل ضعف عقولنا وعجزها وكلالها ولكن من التمس أمراً لا بد له من الوصول اليه صبر على الطريق وما يلحقه فيه من صعوبة ومشقة ونحن محتاجون الى أن نعظم أنفسنا عن الأوهام المأخوذة من الحواس التي تغالطنا عن المقولات الصحيحة وهو نظام عسير شديد لأنه مفارقة العادة ومباينة العامة في كثير من نظرها ، وجاءت في عرض هذا الفصل الأول من المسألة الأولى عبارة شاذة ذكرها بعض أدباء العرب وزعم أنها تدل على وقوف ابن مسكويه على نظرية النشوء والارتقاء قال :

« ان الانسان آخر الموجودات وان التركيبات تناهت اليه ووقفت عنده وتكثرت الأغشية واللبوسات الهبولانية على جوهره النير أعنى العقل ، ولما حصل الانسان آخر الموجودات صارت الأشياء التي هي في أنفسها أوائل ، آخرة عنده »

والفصل الثاني من المسألة الأولى خاص باتفاق الأوائل على إثبات الصانع جل ذكره وانه لم يمتنع أحد منهم عن ذلك ، وخلاصته أن الحكماء أمروا بالتوحيد ولزوم أحكام العدل وإقامة السياسات الالهية بالأزمنة والأحوال ثم تكلم في الاستدلال بالحركة على الصانع وأنها أظهر الأشياء وأولاها بالدلالة عليه جل وعز ويقصد بالحركة ستة أشياء : حركة الكون - الفساد - النمو - النقصان - الاستحالة - النقلة

وانتقل بعد ذلك الى الكلام على أن كل متحرك إنما يتحرك من محرك غيره وان محرك جميع الأشياء غير متحرك . ثم تدرج الى الكلام في أن الصانع واحد وانه ليس بجسم وانه تعالى أزلى وأغرب فصل في هذا الباب هو الثامن الذى به أن الصانع يعرف بطريق السلب دون الإيجاب .

وفي الفصل التاسع بيان أن وجودات الأشياء كلها إنما هى بالله عز وجل ، وقد تناول هذا الفصل القول على الجوهر والعرض ، ثم تلاه كلام في أن الله تعالى أبدع الأشياء كلها لا من شئ ، وأنها تبدل بالصورة حسب

وهذا ختام كلام ابن مسكويه فى المسألة الأولى الخاصة باثبات الصانع ثم انتقل الى الكلام فى المسألة الثانية : فى النفس وأحوالها وفى اثبات النفس وانها ليست بجسم ولا عرض ، وانها تدرك الموجودات كلها غائبها وحاضرها ومعقولها ومحسوسها وبحث فى مسألة عويصة وهى كيفية إدراك النفس للمدركات وهل ذلك منها بأجزاء كثيرة ، أم بانحاء مختلفة ، أم هناك مدركات بعدد المركبات .

وقد أخطأ فى هذا الفصل خطأ فلكياً ، فقد رأن الشمس اكبر من الأرض مائة ونيفاً وستين مرة ، مع أن المعول عليه اليوم فى علوم الجغرافيا والكوزموجرافيا والفلك أن الشمس اكبر من الأرض مليون وثلثمائة مرة

ثم تكلم على الفرق بين الجهة التى تعقل بها النفس والجهة التى تحس بها والأشياء التى تشترك فيها والأشياء التى تتباين فيها

وتناول الكلام على خلود النفس فأثبت على طريقته أن النفس جوهر حى باق لا يقبل الموت ولا الفناء ، وانها ليست الحياة بعينها بل تعطى الحياة لكل ما توحد فيه وانتقل بعد ذلك الى الكلام على حجج أفلاطون فى بقاء النفس ، وان للنفس حالاً من الكمال يسمى سعادة ، وآخر من النقصان يسمى شقاوة ، وفى حال النفس بعد مفارقتها البدن ، وما الذى يحصل لها بعد موت الانسان

وقد استطرذ فى فصل الى الكلام على تحصيل السعادة والسبيل التى تؤدى اليها وهذه

لازمة ابن مسكويه في فلسفته فأفاض فيها في كتاب تهذيب الأخلاق ، وأفرد لها كتاباً هو الذي لخصناه فيما سبق وهو « ترتيب السعادات »

ثم انتقل الى المسألة الثالثة ، وموضوعها النبوات

وتكلم في مراتب موجودات العالم واتصال بعضها من بعض وبيعض

ثم في الانسان وكونه عالماً صغيراً ، وقواه متصلة ذلك الاتصال وبحث في كيفية ارتفاع الحواس الخمس الى القوة المشتركة ومنها الى ما فوقها بمنة الله تعالى

ثم انتقل الى الكلام في الوحي وكيفيته وان العقل ملك مطاع بالطبع وفي أن المنام (الرؤيا) الصادق جزء من النبوة ، وفي الفرق بين النبوة والكهانة ، وفي النبي المرسل وغير المرسل وفي الفرق بين النبي والمنتبي

أما كتاب « الفوز الأصغر » الذي انطوى على هذه المباحث فقد دل عليه المرحوم المحقق الشيخ طاهر افندي الجزائري المتوفى بدمشق أثناء الحرب الكبرى ، وصفه في برنامج ما اطلع عليه من الكتب الغريبة قال « الفوز الأصغر ، بناه ابن مسكويه على أصول الفلاسفة الالهيين ، وانتصر فيه للدين ، فيه فصول مهمة واشارات بديعة ونسق عبارته كالذي نحاه في كتابه « تهذيب الأخلاق وتطهير الاعراق »

كتاب تجارب الأمم

أما كتاب تجارب الأمم فالذي وصل الينا منه القسم الأخير في جزئين مطبوعين بمطبعة (كامب هول) باكسفورد وبمصر في سنتي ١٩١٤ و١٩١٥ وقد اعتنى بالنسخ والتصحيح الأستاذ « آدمروز » المحامي الانجليزى والمعلم مرغليوث ، وقد علمنا أنهما تشاركا في نقل الكتاب وشرحه ونشره باللغة الانجليزية في سنة ١٩٢٠ م

والجزء الأول يحتوى على حوادث خمس وثلاثين سنة من سنة ٢٩٥هـ إلى سنة ٣٢٩هـ .

والجزء الثانى يحتوى على حوادث أربعين سنة من سنة ٣٢٩هـ إلى سنة ٣٦٩هـ .

وغنى عن البيان أنه ليس للتاريخ دخل في الفلسفة ولكن كتاب ابن مسكويه في التاريخ لايعتبر تاريخاً محضاً ، إنما هو كتاب تحرى فيه مؤلفه ذكر الحوادث بأسبابها

وتتألفها ، فيصح أن يقال أنه كتاب تاريخ مكتوب بشكل فلسفي ، ولا غرابة أن تجتمع الفلسفة إلى التاريخ والأدب في شخص واحد فقد ثبت لنا أن ابن مسكويه كان فيلسوفاً ومؤرخاً وأديباً وكان « كارليل » الانجليزى فيلسوفاً ومؤرخاً وأديباً ، وكان « جويته » فيلسوفاً وعالمًا ومؤرخاً وأديباً

وقد اتبع ابن مسكويه في تأليف هذا الكتاب ذكر الحوادث المهمة تارة ، مثل قوله « خلافة المقتدر بالله وذكر ما جرى في ذلك » وتارة بذكر السنين فيقول « ودخلت سنة سبع وتسعين ومائتين » وهكذا

وقد تحرى ابن مسكويه الدقة في نقل الأخبار ولم يتحيز لفريق دون فريق

وختم القسم الأخير من الكتاب المشار اليه بقوله في وفاة عضد الدولة انه « عرج إلى نهوند وافتتح قلعة (سرماج) واحتوى على ما فيها وملك غيرها من قلاع تلك البلاد ، والقت اليه الحصون مقاليدها ولحقته في هذه السفرة علة عاودته مراراً ، وكانت شبيهاً بالصرع وتبعه مرض في الدماغ يعرف بليترغوس (ويقصد ابن مسكويه مرض النوم الذي يطلق عليه أطباء هذا الزمان ليثرجيا) إلا أن عضد الدولة أخفى ذلك ويقال أن مبدأ ذلك المرض به كان بالموصل ، إلا انه لم يظهر أمره لأحد »

وهذا آخر ما عمله الأستاذ أبو على احمد بن محمد بن يعقوب مسكويه رضى الله عنه

أما الجزء الثالث الذى طبع في اكسفورد ومصرفه « ذيل » لكتاب « تجارب الأمم » ولا علاقة بينه وبين كتاب ابن مسكويه سوى أنه يحتوى على حوادث مكمله لما ورد في الجزئين الأول والثانى من « تجارب الأمم » فيبدأ بسنة ٣٦٩ هـ وينتهى إلى سنة ٣٨٩ هـ وهو تأليف الوزير أبى شجاع محمد بن الحسين الملقب ظهير الدين الروذراورى وتليه قطعة من تاريخ هلال الصابى الكاتب إلى سنة ٣٩٣ هـ مع نخب من تواريخ شتى تتعلق بالأمور المذكورة فيه

﴿ تمام ﴾

فهرس

كتاب « تاريخ فلاسفة الاسلام »

صفحة	المبحث	صفحة	المبحث
١	المقدمة	١٧	علوكبه في المنطق
١	١ - الكندي	١٨	كتبه الموجودة باللغة العربية
١	تاريخ حياته	١٩	ترتيب مؤلفاته بنوعها
١	العلوم واللغات التي نبغ فيها	٢٣	الدرجة القصوى في الكمال
٢	آراء خصومه فيه	٢٣	خلود النفس بالجملة أو وحدة النفوس
٣	العلوم التي ألف فيها	٢٤	رأيه في وحدة النفوس
٤	عداء أبي معشر له	٢٦	الفارابي والخلود
٥	مكيدة أبي موسى للكندي	٢٧	« والآلهيات
٦	بعض أقوال الكندي المأثورة	٢٨	تقسيم قوى النفس
	إيضاح لفلسفته	٢٩	فلسفة الفارابي الخلقية
٨	مشقة البحث في الكتب العربية القديمة	٣٠	الفارابي والموسيقى
٩	حياة الكندي العامة	٣١	أسلوبه الكتابي
١٠	مكاته بين فلاسفة الاسلام		إيضاح لفلسفة الفارابي
١١	بجمله	٣٣	حياته وأخلاقه
١٢	بيان مؤلفاته	٣٤	الكلام على منطق الفارابي
	٢ - الفارابي	٣٤	الآلهيات (ما وراء الطبيعة)
١٣	تاريخ حياته	٣٥	تقسيم قوى النفس (بسيكولوجيا)
١٣	الخبر اليقين	٣٦	رأيه في الأخلاق
١٤	أخلاقه	٣٦	سياسيات الفارابي
١٤	تعليمه	٣٦	تلاميذه
١٥	مكاته في الفلسفة	٣٧	القول في أجزاء النفس الانسانية وقواها
١٦	فضله على فلسفة ارسطو	٣٩	القول في القوة الناطقة وكيف تعقل
		٤٠	القول في الفرق بين الارادة والاختيار وفي السعادة

صفحة	المبحث	صفحة	المبحث
٤٢	القول في الوحي ورؤية الملك	٦٢	رأيه في السعادة
٤٣	القول في احتياج الانسان الى الاجتماع والتعاون	٦٢	قوله في ذوى المواهب الممتازة
٤٥	القول في العضو الرئيس	٦٣	رأيه في الوحي
٤٨	القول في كيف تصير هذه القوى والاجزاء نفساً واحدة	٦٣	مكاته في الفلسفة
			ايضاح عن فلسفته
		٦٤	غموض حياته الشخصية
		٦٤	استقلاله في الفكر
		٦٤	ميله الفطرى للفلسفة
٥٣	تاريخ حياته	٦٥	عقيدته
٥٣	معامه	٦٥	نفسيته
٥٣	اشتهاره بالطب في حداثة سنه		
٥٣	اتهامه باحراق خزانه الامير نوح		٤ — الغزالي
٥٤	هجرته من وطنه		
٥٤	توليته منصب الوزارة وانتقاله	٦٧	مولده وتربيته
٥٤	الجند عليه	٦٧	اسناد رياسة المدرسة النظامية اليه
٥٤	ميله الى الترف والمسررات	٦٧	حجه ورحلته الى الشام ومصر
٥٤	اعتقاله وفراره من السجن	٦٧	أشهر مؤلفاته
٥٥	توبته ووفاته	٦٧	وفاته
٥٥	عبقريته	٦٨	كتاب « المنقذ من الضلال »
٥٥	مؤلفاته	٦٩	» « مقاصد الفلاسفة »
٥٦	رأيه في مؤلفاته	٧٠	» « تهافت الفلاسفة »
٥٦	تقسيمه للعلوم		الخلاف بينه وبين ابن رشد
٥٧	تقسيم ارسطو للفلسفة النظرية	٧١	وابن طفيل
٥٨	معارضة ابن رشد في تقسيم ابن سينا		ايضاح عن الغزالي
٥٩	قول ابن سينا بفكرة الوحدة المطلقة	٧٣	الخلاف في لقب الغزالي
٦٠	رأيه في علم واجب الوجود	٧٣	اتصاله بال سلجوق
٦١	خروجه عن آراء ارسطو	٧٤	كتاب « المضمون به على غير اهله »
٦١	نظريته في النفس	٧٥	الغزالي والعلوم اليقينية
٦١	تقسيمه المواهب البشرية		

صفحة	المبحث	صفحة	المبحث
٧٥	الغزالي ودافيد هيوم		ايضاح لفلسفة ابن باجة
٧٥	تقسيمه للفلسفة	٩٣	تحريف اسمه واضطهاده
٧٦	تطور عقيدة الغزالي	٩٣	تلاميذه ومكان قبره
٧٦	رده على طائفة التعليمية	٩٣	وصف علمه وذكائه
٧٧	تصوف الغزالي	٩٤	العلوم التي اتقنها
٧٨	عقيدة الغزالي	٩٥	معارضة (مقارنة) بينه وبين أكابر
٧٨	رأيه في التصوف		فلاسفة الشرق
٧٨	تأثيره في الفلسفة	٩٥	بيان مؤلفاته
٥ - ابن باجة		٦ - ابن طفيل	
٧٩	تاريخ حياته	٩٧	تاريخ حياته
٨٠	رأى معاصريه فيه	٩٩	وصف الحال التي شعر بها ابن طفيل
٨١	مؤلفاته	١٠٠	فلسفة ابن باجة في رأيه
٨١	رسالة الوداع	١٠٠	الذي يعنيه بادراك « أهل النظر »
٨١	رسالة « تدبير المتوحد »		والطعن في ابن باجة
٨٢	الفصل الاول : شرح تدبير	١٠١	نقده فلسفة الفارابي وغيره
	المتوحد بين أهل المدينة	١٠٢	» » ابن سينا
٨٣	الفصل الثاني : في الكلام على	١٠٢	» » الغزالي
	اعمال الانسان	١٠٤	تمهيد لفلسفة ابن طفيل
٨٥	الفصل الثالث : في الاعراض العقلية		ايضاح عن ابن طفيل ورسالة
٨٦	الفصل الرابع : في تقسيم أعمال		حي بن يقظان
	الانسان		في كيفية علم حي بن يقظان ان كل
٨٧	الفصل الخامس : في غايات أعمال	١٠٧	حادث لا بد له من محدث
	الانسان		في نظر حي بن يقظان والشمس
٨٩	الفصل السادس : في الاعراض	١٠٨	والقمر والكواكب
	الروحانية		في ان كمال الذات ولذتها انما تكون
٩٠	الفصل السابع : في ضرورة التوحد	١٠٩	بمشاهدة واجب الوجود
٩١	الفصل الثامن : في غاية التوحد		

صفحة	المبحث	صفحة	المبحث
١٠٩	في ان الانسان نوع كسائر أنواع الحيوان وانما خلق لغاية أخرى	١٢٥	الامير يعقوب المنصور وابن رشد
١١٠	في السعادة والفوز والشقاء	١٢٦	تاريخ الامير الذي نكب ابن رشد في عهده
١١٠	في الفناء والوصول	١٢٧	نيته في غزو مصر
		١٢٧	قتل أخيه وعمه
		١٢٧	أخلاقه
١١٢	كلمة افتتاح	١٢٨	سوء شبابه
١١٤	تاريخ ابن رشد وفلسفته	١٢٨	حبه العدل بين الناس
١١٥	علاقته باليهود	١٢٨	حبه الخير
١١٦	نشأته وتربيته	١٢٩	حبه الصدقة المنظمة
١١٦	تاريخ حياته	١٢٩	عدم تصديقه الخرافات
١١٨	أساتذته	١٢٩	بغضه التمليق
١١٨	الرجال الذين تلقى عليهم والعلوم التي درسها	١٣٠	حبه العمارة
١٢٠	أصدقاؤه	١٣٠	حبه الطلبة
١٢٠	تلاميذه	١٣١	اضطهاده اليهود بعد اسلامهم
١٢٠	نسله	١٣١	ميله الى التصوف
١٢٠	المنطق والقرآن	١٣١	محاربته مذهب مالك
١٢١	سيرته في القضاء	١٣٢	مدينة قرطبة التي نشأ فيها ابن رشد
١٢٢	على الامير الذي نكب ابن رشد في عهده	١٣٥	نكبة ابن رشد
١٢٢	استقلال القضاء عن السلطة التنفيذية	١٣٦	أعداء ابن رشد
١٢٣	علاقة ابن رشد بالخليفة يوسف ابن عبد المؤمن	١٣٦	شركاء ابن رشد
١٢٣	أول مجلس بين الخليفة يوسف وابن رشد	١٣٧	أسباب النكبة
١٢٤	اقتراح الخليفة يوسف عليه ترجمة ارسطو	١٣٩	العقاب والعفو ومجلس المحاكمة
		١٣٩	مرافعة القاضي أبي عبدالله التهمة
		١٣٩	الحكم
		١٣٩	في ان ابن رشد لم يدافع عن نفسه
		١٤٠	تسخير الشعر في محاربة الفلسفة
		١٤٢	كلمة عن ابن جبير

صفحة	المبحث	صفحة	المبحث
١٤٢	أقصى ما أصاب ابن رشد في أثناء نكبته	١٧٦	الشريعة والفلسفة
١٤٣	المنشور ومنشئه بأمر الأمير	١٧٧	« فصل المقال » و « الكشف عن مناهج الأدلة »
١٤٤	نص المنشور وأرساله الى البلاد	١٩٣	تهافت الفلاسفة وتهافت التهافت
١٤٥	بعد المحاكمة	١٩٦	المسائل العشرون التي أظهر فيها الغزالي تناقض الفلاسفة
١٤٦	خلاصة عامة	٢٠٢	كلام ابن رشد على الكتاب
١٤٧	مؤلفات ابن رشد	٢٠٨	رد ابن رشد على طريقة الغزالي
١٤٧	الكتب المطبوعة بالعربية	٢١٠	علم الله بالموجودات
١٤٧	تاريخ وضع مؤلفاته بحسب عمره	٢١٨	الكلام على حشر الأجساد
١٤٩	مؤلفات فلسفية	٢١٩	ابن رشد وحرية الفكر
١٥٠	في الآلهيات	٢٢١	اليهود وابن رشد
١٥٠	كتبه في الفقه	٢٢٢	ثمار الفلسفة الرشدية في أوروبا
١٥١	تعليم ابن رشد		
١٥٢	جهله باليونانية		
١٥٣	أسلوب ابن رشد		
١٥٦	في أسباب عدم اشتهاره عند المسلمين		
١٥٧	مذهب ابن رشد		
١٦١	مذهبه في العقل	٢٢٥	تاريخ حياته
١٦٦	مذهبه في النفس	٢٢٥	هجرته من وطنه وتنقله في البلاد
١٦٧	مذهب الاتصال	٢٢٥	علاقته بالسلطان ابي عنان المربني
١٦٨	النظام الطبيعي في فلسفته	٢٢٦	سفره الى الاندلس
١٦٩	مذهبه في الاخلاق	٢٢٦	عودته الى وطنه
١٧٠	فلسفته السياسية والاجتماعية	٢٢٧	شروعه في تأليف تاريخه في تلمسان
١٧٢	واجب الوجود	٢٢٧	سفره الى مصر وتوليته قضاء المالكية
١٧٣	مبادئ ابن رشد « مستفادة من كتبه »	٢٢٧	وفاته
١٧٣	كلمة في مؤلفات الغزالي وخصها	٢٢٨	مؤلفات ابن خلدون
١٧٤	ونقدتها بقلم ابن رشد	٢٢٩	الكلام على مقدمة ابن خلدون
١٧٤	الحكم على الغزالي وتخطيئه	٢٣٠	الكلام على تاريخ ابن خلدون
١٧٤	بذور « مناهج الأدلة »	٢٣١	مذكرات شخصية لابن خلدون
		٢٣٢	فلسفة ابن خلدون الاجتماعية

٨ — ابن خلدون

صفحة	المبحث	صفحة	المبحث
٢٤١	معارضة (مقارنة) بين ابن خلدون وتلاميذه نيقولا مكيا فيلي	١٠ — ابن الهيثم	
٢٤٢	كتاب الامير ومقدمة ابن خلدون	٢٦٧	تاريخ حياته
٢٤٢	أوجه المشابهة بينهما	٢٦٧	العلوم التي نبغ فيها
٢٤٣	أوجه الاختلاف بينهما	٢٦٨	رأيه في نظام الري بمصر
	ايضاح ابن خلدون	٢٦٨	استدعاء الحاكم بأمر الله لابن الهيثم من البصرة
٢٤٨	رأيه في الفلسفة	٢٦٨	تظاهره بالجنون وحضوره الى مصر
	٩ — اخوان الصفا	٢٦٨	سفره الى اسوان لمعاينة مكان الخزان الذي كان ينوي انشاءه
٢٥٣	أشهر أفراد جمعية اخوان الصفا	٢٦٩	فشل مشروعه
٢٥٤	رسائلهم الفلسفية وما اشتملت عليه	٢٦٩	تظاهره بالجنون مرة أخرى
٢٥٤	كيفية انتشارها في بلاد الاسلام	٢٦٩	ظهوره بعد وفاة الحاكم بأمر الله
٢٥٤	نقلها الى الاندلس	٢٦٩	واشتغاله بالإناليف والنسخ
٢٥٥	القسم الأول — في الرسائل الرياضية التعاليمية	٢٧٠	مذكراته الشخصية
٢٥٥	القسم الثاني — في الرسائل الجسمانية الطبيعية	٢٧٢	بيان مؤلفات ابن الهيثم
٢٥٦	القسم الثالث — في الرسائل النفسانية العقلية	٢٧٤	ايضاح عن ابن الهيثم
٢٥٧	القسم الرابع — في الرسائل الناموسية الالهية	٢٧٥	١١ — محي الدين بن العربي
٢٥٨	في كيفية عشرة اخوان الصفا وتعاون بعضهم بعضاً	٢٧٥	كلمة عامة في التصوف
٢٥٨	مصادر علوم اخوان الصفا	٢٧٧	الطريقة الصوفية ومراتبها
٢٥٩	ارائهم في الصداقة	٢٧٩	تعريف الصوفية وأصل تسميتها
٢٦١	مراتب اخوان الصفا النفسية		بعض اصطلاحات الصوفية المتفق عليها
٢٦٣	ايضاح لفلسفة اخوان الصفا	٢٨١	ذكر أشهر مشايخ الطرق الصوفية الاقدمين
	الفلسفة الاخلاقية في نظر اخوان الصفا	٢٨٣	بعض فطاحل المتصوفين الذين ألفوا كتباً
		٢٨٥	منشأ التصوف وتطوره

صفحة	المبحث	صفحة	المبحث
٢٨٧	الاحاديث القدسية	٣٠٤	افتتانه بالكيميا (الصناعة)
٢٨٨	سلسلة الطريق	٣٠٤	رأى أبى حيان فى ابن مسكويه
٢٩١	ترجمة الحكيم الالهى محى الدين	٣٠٥	رأى أبى منصور الثعالى فيه
٢٩٣	ابن العربى	٣٠٦	وصية أبى على بن مسكويه
٢٩٥	مشايخ محى الدين فى الطريق	٣٠٧	مؤلفاته
٢٩٦	أشهر مؤلفاته	٣٠٧	ملخص كتاب ترتيب السعادات
٢٩٨	ملخص كتاب الفتوحات المكية	٣١٠	فلسفة ابن مسكويه فى النفس والاخلاق
٣٠٠	كلام محى الدين فى المهدي المنتظر	٣١١	المثل الاعلى عند مسكويه
٣٠٤	اعتراف محى الدين ومناجاة بينه وبين نفسه	٣١١	الفرق بين الحكمة والفلسفة
		٣١٣	الملوك فى فلسفة ابن مسكويه
		٣١٤	الكلام على النفس
		٣١٧	فلسفة ابن مسكويه فى اثبات الصانع والنفس والنبوة
		٣١٩	كتاب تجارب الامم
	١٢ - ابن مسكويه		
٣٠٤	تاريخ حياته		
٣٠٤	صحبه مع ابن العميد		

